

لحن
العاصي

الطبعة الأولى

1446 هـ

2025 م

اسم الكتاب: لحن العاصي

التأليف: سامية أحمد

موضوع الكتاب: رواية

عدد الصفحات: 392 صفحة

عدد الملازم: 12.5 ملزمة

مقاس الكتاب: 17*24

عدد الطباعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 2025/8693

الترقيم الدولي: 978-977-669-881



يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.



✉ hakayaproduction@gmail.com

☎ 01551751909 _ 01096476744

رواية

لحن العاصي

سامية أحمد



إهداء

«إلى هؤلاء الأبطال الذين يبذلون أرواحهم ليزرعوا الحياة تحت ركام الموت»

(I)

تطلعت إلى ساعتها لتجد أن الوقت قد تجاوز منتصف الليل، فزفرت بقلق وهي تتلفت حولها، وتهرول مسرعة إلى محطة قطار الأنفاق كي لا يفوتها موعد آخر قطار ليلي، وهي تدعو الله ألا تصطدم بأحد السكارى المتسكعين، أو تتحقق أسوأ مخاوفها ويعترض طريقها أحد المتطرفين. فكم من الاعتداءات التي حدثت من أفراد وجماعات متطرفة نشرت الرعب في المنطقة وجعلتها تتوجس خيفة، وتتوقع الشر كل ليلة وهي في طريق عودتها من عملها.

عندما هبطت بها السلام الكهربائية تحت الأرض، وجدت المحطة خالية من البشر ومرعبة كما كانت تتوقع، واضطرت للانتظار بضع دقائق أخرى حتى يصل القطار. كانت تحاول جاهدة أن تبعد عن عقلها ذلك الشعور المريع بأن هناك من يتبعها منذ أن خرجت من مقر عملها.

أخذ قلبها يدق بشكل جنوني، وأنفاسها تتلاحق، وعيناها تتفحصان المكان برعب، فلا تجد إنسياً..

لكنها مُراقبة..

بالتأكيد هو أحدهم، كانت موقنة أنهم سيصلون إليها، حتى لو هربت إلى آخر مكان في العالم، فهو لاء لا يوقفهم شيء..

قررت في لحظة يأس أن المواجهة هي الحل، ولن تكون فريسة سهلة، بل ستدافع عن حياتها مهما حدث

أزاحت حقيبتها الكبيرة عن كتفيها، وأحكمت قبضتها على حمالتها، وتأهبت لظهور مطاردها.. ماذا لو كانوا أكثر من واحد؟

سؤال ألقى الرعب في قلبها، وأصابها برجفة عنيفة..

انفضت على صوت ارتطام قوى في المكان عجزت عن تحديد مصدره، أعقبه صوت بشري يتأوه..

تراجعت ببطء وهي تتلفت برعب حولها، حتى التصقت بأحد الأعمدة، ورفعت حقيبتها لأعلى في انتظار هجوم وشيك لا تدري مصدره..

انتفضت صارخة بفزع عندما أطل عليها فجأة وجه باسم يقول: مرحباً..

كانت المفاجأة من نصيبه عندما أفزعه صراخها، فسارع قائلاً بقلق: أرجوك اهدئي، آسف، أفزعتك!

تراجعت مبتعدة وهي ترفع حقيبتها بشكل تهديدي، وصرخت بصرامة وأنفاسها السريعة تفصح خوفها: لماذا تتبعني؟!

ابتسم قائلاً: كنت سأسألك نفس السؤال!

- ماذا تعني؟

- أعني.. هل تتبعيني؟!

تبدلت تعبيرات وجهها إلى الدهشة، وهتفت باستنكار: ماذا؟!

قال ضاحكاً: لا عليك، اعتدتُ تلك المطاردات، والآن، هلا أخبرتي: هل أنتِ من الصحفيات أم من المعجبات؟

- مُعجبات؟!

- حسناً، أنتِ لست صحفية، ولا من المعجبات، ولا تتبعيني، هل يمكنك أن تهدئي الآن، فليس بشعور جيد أن أظل تحت تهديد شيء ما قد يسقط على رأسي، خاصة لو كان حقية بهذا الحجم.

انتبهت أنها ما زالت ترفع حقيبتها في وضع التهديد، فأنزلتها ببطء وترقب، وهي ترمقه بشك وقلق، فابتسم قائلاً: هذا أفضل، لقد خشيتُ أن يكون بداخلها خزانة ملابس.

لم تضحك لدعابته، بل ازداد وجهها تجهماً، فقال: أحمدُ الله أنك لم تهوري وتقذفي بها في وجهي، لا أعتقد أن تلك هي الطريقة المثلى للتعارف بين اثنين من العرب في بلد أجنبي.

هتفت بصوت خشن تملؤه الريبة: وكيف عرفت أنني عربية؟

رفع حاجبيه دهشة، وصمت مُفكراً برهة، ثم قال: خمنتُ ذلك، ربما من ملامحك الشرقية، أو هو وشاحك الذي تضعينه فوق رأسك.

لكنني بالتأكيد لم ألاحظ أبداً أنك تتحدثين باللغة العربية.
 انتبهت إلى أنها تتحدث العربية منذ أن التقتُ، فأطرقت بصمت.
 فابتسم هو بود، وقال مازحاً: حسناً، لا داعي للقلق، سأبقى الأمر قيد الکتمان، ولن أخبر
 أحداً أنك تتحدثين العربية.

لم تكن في حالة تسمح لها بالتبسم لمزاحه، فقد كانت في قمة الإرهاق والتعب والتوتر
 والقلق، فأشاحت بوجهها عنه في صمت، وأسند هو ظهره إلى الجدار، ووضع كفيه في جيبه،
 وأخذ يدندن وهو ينظر في الاتجاه الذي من المفترض أن يأتي منه القطار.

لم يتركها الارتياح لحظة تجاه هذا الشاب العربي الغريب..

أهو منهم؟ هل ينتظر اللحظة المناسبة ليهاجمها؟

انتبهت على صوته المرح: ها هو قد أتى أخيراً.

توقف القطار أمامها وفتح أبوابه، فقفز داخله، ثم قال بتعجب عندما وجدها ما زالت في
 مكانها: ألن تركبي؟! إنه الأخير!

لم ترد، فقال: لا أعتقد أن هذا هو المكان المناسب للبقاء في مثل هذه الساعة المتأخرة من
 الليل، إذ ربما كان هناك بالفعل من يتبعك.

أسرعت إلى داخل القطار قبل أن يغلق أبوابه وينطلق.

لم يكن في العربة سواهما، فجلست هي في آخر العربة، وظل هو في مكانه بجوار الباب
 يدندن نفس اللحن، وداخلها إحساس مؤقت بالهدوء، لكنها بقيت على ارتياحها وشكها فيه
 لتبقى في دائرة الحذر، ثم أخذت تتأمل ملياً..

شاب متوسط الطول، له شعر بني ناعم بمفرق جانبي، ووجه مستطيل قمحي مليح ذو
 ابتسامة هادئة بها ملمح طفولي، يضفي علي وجهه طيفاً من براءة، وأناقته تتم عن ذوق شبابي
 جِداً في اختيار الملابس.

لم يكف عن الدندنة طوال الطريق، ممّا أشعل أعصابها واستثار سخطها، حتى وصل القطار أخيراً
 إلى محطتها، فخرجت منه بخطوات أشبه بالعدو، واستقلت السلم المتحرك للخروج من المحطة،

لكنها التفتت خلفها لتجد الشاب العربي الغريب يتبعها، فقالت بخشونة: الآن أنت الذي تتبعني! قال باسمًا: هذه المرة صحيح.

عجبت من جرأته، ولاح في ملامحها الاستنكار، فقال: فكرت بأنه ليس من الشهامة أن يترك عربي فتاة عربية مثله تجوب الشوارع الخاوية وحيدة بعد منتصف الليل. اطمئني، لن أزعجك، فقط سأكون على مسافة كافية لأسمعك لو استغثت، أو ناديت بصوت مرتفع.

عقدت حاجبيها بشك، ولكنها لم تجد ما تقوله، جدّت في السير داخل الممرات، وحانت منها التفاتة خلفها، فلم تجده، انتابتها قشعريرة باردة وتسارعت خطواتها، ونظرها يتبعثر في كل مكان بشكل لا إرادي، وذهنها مشغول بذلك العربي الغريب.

أطلقت صرخة فرع مدوية عندما اصطدمت بجسد بشري ضخّم لم تتبين ملامحه من المفاجأة! وفي لحظة انشقت الأرض عن الشاب العربي لتجده أمامها مباشرة..

هتف بقلق وهو ينظر إلى الرجل الضخم الذي اصطدمت به: هل أنت بخير؟ همهم الرجل الضخم بكلمات اعتذار بالفرنسية، وحاول أن يوضح له أنها هي التي اصطدمت به وهو يسير في طريقه.

كانت لغتها الفرنسية ركيكة وأنفاسها متقطعة وهي تعتذر: عفواً، لقد.. لقد أصابتنني المفاجأة بالذعر!

أكمل الرجل الضخم طريقه، وقال لها الشاب: يمكنك أن تهدئي وتكملي طريقك باطمئنان.. ستجدينني أمامك في أية لحظة تحتاجيني فيها.

تأملته بحيرة.. لا تدري أثق به أم ترتاب فيه..

لكن في النهاية كان عليها أن تكمل طريقها، فقطعت الطريق بخطوات أشبه بالعدو، حتى وصلت أخيراً إلى مسكنها المتواضع، وتنفس الصعداء بعدما أحكمت إغلاق الباب، واتجهت إلى النافذة بسرعة لتتأكد من أنه لا يتبعها، فوجدت الشارع هادئاً وخالياً، فانهار جسدها على الفراش من الإرهاق، وأغمضت عينيها بقوة وتنفس الصعداء.

انفضت على صوت طرقات قوية على الباب.. وأخذت تحديق فيه وترتجف برعب..
كانت الطرقات تشتد وتشتد.. والباب يرتج.. ويكاد ينخلع تحت وطأتها..
شل الرعب أطرافها.. وأغرق العرق جسدها..

انخلع الباب وسقط أرضًا بصوت مُدَوٍّ.. وظهر من خلفه ثلاثة رجال انقضوا عليها..
أرادت أن تصرخ.. لكن صوتها حُجِسَ في حلقها.. وعندما حاولت الهروب جذبها أحدهم
وطرحها على الفراش.. وثبت يديها فوق رأسها فشل حركتها.. والثاني كمم فمها براحة يده
كي لا تصرخ.. وهمس في أذنها بشراسة: ما كنتِ لتبتعدي كثيرًا.. فلو ذهبتِ إلى آخر الأرض
للحقنا بك، أنتِ في قبضتنا مهما حاولتِ الهروب..

أخذت تنتفض كفرخ ذبيح عندما شرع الثالث في نزع ملابسها بعنف.. وتمنت الموت في
تلك اللحظة وهي تتخيل مصيرها المرعب..

لم يعد أنفها الصغير قادرًا على إمدادها بالهواء الكافي.. وكف الرجل الثاني تطبق عليه وعلى
فمها.. وأصبحت عاجزة عن التنفس.. وبدأ الظلام يلف عقلها..

شهقت بقوة كغريق لامس وجهه الهواء.. فتحت عينيها.. هبت جالسة.. وانسكبت دموعها
وهي تنظر برعب إلى باب الغرفة القائم في مكانه لم يبرحه.. وكل شيء مستقر في الغرفة..

لم تدرك إذا كانت ترتجف من الخوف أم من العرق الذي يبيلل جسدها وملابسها، أم من أثر
الكابوس المرعب الذي جثم على صدرها.

ألقت برأسها على الوسادة واستمرت في البكاء والنشيج، حتى استغرقت في النوم من
التعب والإعياء.

هاي! من أخذ عقلك؟

استفاقت من شرودها، ونظرت إلى صديقتها أمينة التي جلست إلى الطاولة أمامها مباشرة
في الساحة الخارجية للجامعة، وقالت بمرح: كنت أعلم أنني سأجذك هنا.

زفرت عندما وجدتها متجهمة: عزيزتي لين، أعلم أنه من الصعب عليك تقبل انتقاد البروفيسور لك، لكن الحقيقة هي أن مستواك الدراسي ينخفض.

قالت: وما الذي يمكنني فعله؟

- أنت في حالة إرهاق دائم، تحتاجين إلى قسط وافر من النوم

- حسنًا، سأحاول النوم في أثناء عملي الليلي.

- أتمنّ حين؟! عليك أن تجدي حلًا للأمر، فلا يمكنك حمل ذلك الجهد المضني.

- لا أستطيع أن أترك عملي الليلي في السوبر ماركت الكبير، لقد حصلت على تلك الوظيفة بعد عناء، ما كنت أظن أن البحث عن وظيفة هنا بهذه الصعوبة.

- أنت في باريس يا عزيزتي، الحصول على عمل هنا أشبه بالمعجزة.

- يجب أن أجد عملاً آخر براتب أعلى، وإلا فسأفقد الغرفة التي تؤويني، يبدو أن الرجل الذي استأجرت منه الغرفة وجد من يدفع له أكثر.

- السكن في هذه البلدة صار معضلة.

سمعت صوت هتافات قريبة، فالتفتت تنظر نحو بوابة الجامعة، فرأت صفًا من الشباب والفتيات يحملون صورًا كبيرة ولوحات كتب عليها حمل وعبارات بخط أحمر عريض، يتزعمهم شاب وسيم تعرفه جيدًا، فهو طالب عربي في عامه الجامعي الأخير، اشتهر في الجامعة بتنظيمه لوقفات وفعاليات التضامن مع الشعوب العربية.

عادت إلى لين لتجدها قد أشاحت بوجهها إلى الجهة الأخرى مستغرقة في أفكارها، فبادرتها قائلة: لم لا تسألين أحمد ورغد؟ ربما استطاعا مساعدتك، فهما من أبناء موطنك.

- أخبرتك من قبل أنني لا أرغب في ذلك.

- حسنًا، كما تريد، لكنني حقًا أعجز عن كبت دهشتي من تصرفاتك، فبرغم أنني تونسية وبلدي في قارة أخرى، إلا أنني أكثر قربًا إليك من أبناء بلدك.

قالت محاولة تجنب الخوض في غابة شائكة التعقيد: بالتأكيد، أنت صديقتي المقربة رغم عمر صداقتنا القصير، ولذا أريدك أن تساعدني في إيجاد سكن آخر بتكلفة أقل، أو عمل إضافي.

- يا إلهي! ستموتين من الإرهاق! أنت هنا لتكوني طبيبة محترفة لا بائعة.

- لن أكون طبيبة متخصصة إن لم أعمل أولاً كبائعة، د. جورج استطاع أن يلحقني بالجامعة بصعوبة، لقد أسدى إليّ صنيعاً لن أنساه له أبداً، وعليّ أن أحافظ على تلك المنحة التي لا تتكرر في حياة المرء مرتين.

لمعت عينا أمانة، وطرقت بإصبعيها: الإبهام والوسطى، وقالت: فكرة، لم لا تهاتفينه؟ لربما يجد لك عملاً يتناسب مع ظروفك بالجامعة، لا أعتقد أنه من الممكن أن يمانع.

«كنت أفضل مساعد لي طوال فترة تواجدي هنا، أنت موهوبة بحق، وتعلمين بسرعة».

تذكرت كلماته لها عندما كانت تجلس أمامه في المخيم: أدرك أنك قد بلغت أقصى درجات التحمل، وحياتك هنا أصبحت مستحيلة.

باحث له بياسها: وأين أذهب؟ إنه قدرتي.

قال بتعاطف: لا أستطيع أن أرى طالبة طب بمثل مهارتك تنهار وتنتهي أمامي دون أن أتدخل لفعل شيء.

- لم يعد بإمكان أي أحد في هذا العالم فعل أي شيء، لقد انتهيت ولا أمل لي سوى انتظار الموت.

- ما زال اليأس مبكراً على شابة جميلة في مثل عمرك، ينتظرها مستقبل باهر في مجال الطب، إن ما تمرين به هنا هو أمر مؤقت ويجب أن ينتهي، وسينتهي قريباً جداً..

«لدي خبر سعيد لأجلك، لقد راسلت الجامعة التي كنت أعمل بها، ووافقوا على أن تلتحقني بمساق الطب لتكملي دراستك، وهناك ستبدئين حياة جديدة، بعيداً عن كل ما مررت به هنا».

هتفت أمانة بغیظ: هل ما زلت معي؟!

استفاقت لين من ذكرياتها، وقالت: معذرة! هل قلت شيئاً؟

- أقول: عليك مهاتفة د. جورج، ربما يساعدك في إيجاد عمل مناسب لك.

- حيائي يمنعني، لست من ذوي رحمة ليتحمل مسؤوليتي ويحل مشكلاتي.

على أن أثبت لنفسي أولاً ثم أثبت له أنني جديرة بهذه المنحة، لقد منحني ثقته، ولا أريد أن أخذه.

تعجبت من صمت أمينة، كانت تنظر إلى الجهة المقابلة للطاولة التي تجلسان إليها.

قالت لين باهتمام: إلام تنظرين؟!

ردت أمينة: هذا الرجل الغريب.. لم يرفع عينيه عن طاولتنا منذ أن وقف هناك.

تأملته لين، كان يبدو في الثلاثينات، أسمر البشرة، قاسي الملامح لو كان ذا أنف كبير، يرتدي حلة غالية، لكنه يفتقر للأناقة والذوق في اختيار الألوان.

بعد دقيقة لم تجده في مكانه، وظنت لين أنه رحل عندما أدرك أنها تنظران تجاهه.

عادا إلى ماوصله حديثهما، وأخذت أمينة تقترح عليها بعض الاقتراحات لحل المشكلة، حتى أقبل عليها صالح زميلهما في الجامعة (وهو طالب مبتعث من اليمن) قائلاً: مرحباً، هل رأيتم رجلًا غريباً أسمر البشرة ذا أنف كبير يرتدي حلة رمادية؟

قالت أمينة بفضول وهي تشير نحو المكان الذي كان يقف فيه الرجل: نعم، كان يقف هناك عدة دقائق ثم رحل.. ما قصته؟

قال باهتمام: هل تحدث إليكما؟

أمينة: لا، لم يقترب منا، لماذا؟

صالح: إنه يسأل عن الطلبة السوريين في العام الأول بالجامعة.

لمعت عيناها بفضول: أهو مُتحرّج خاص؟

صالح: أو ربما محام، لا أدري، رأيته يتحدث إلى أحمد ورغد منذ قليل.

أمينة بدهشة: أحمد ورغد؟ عجباً!

صالح: سأقصي الأمر وأخبركما بما توصلت إليه.

غادرهما، فالتفتت أمينة إلى لين، فرأت لونها يتبدل، ووجهها قد غارت منه الدماء، فقالت بدهشة: ماذا دهالك؟! ماكل هذا القلق؟! إنه لا يبحث عنك بالتأكيد، فما أكثر الطلبة والطالبات السوريين هنا.

كان التوتر قد بلغ منها مبلغه، فحملت حقيبتها وهي تقول بقلق: أمينة، سامحيني، يجب أن أرحل الآن.

همت أمينة أن تقول شيئاً، لكن لين كانت قد رحلت بالفعل، ونسيت الجوال الخاص بها على الطاولة، فهتفت أمينة تناديهما: نسيت جوالك!

ولم تجد بُدّاً من أن تأخذ الجوال وتسرع كي تلحق بها.

خرجت لين من الجامعة وهي تحت الخطي وتلتفت حولها قلقاً من أن يتبعها أحد، ومرت في طريقها على تجمع الشباب والفتيات، والذي تبدل هتافهم إلى أغنيات شعبية ووطنية، وعندما التقت عيناها بعيني أحمد أشاحت بوجهها بعيداً مهرولة، تاركة في عقله علامة تعجب كبيرة من تصرفاتها.

لكن الخوف استولى عليها عندما وصلت إلى موقف السيارات، لتجد الرجل الغريب يقف بجوار إحدى السيارات، فتحولت خطواتها إلى هرولة، وهي تتبهل إلى الله ألا يكون قد لمحها وهي تعبر الطريق.

نظرت خلفها بتوتر لتأكد أن الرجل لم يتبعها، لكنها توقفت بصعوبة شديدة عندما كادت تصطدم بشخص، واستطاع هو أيضاً أن يتفادى الاصطدام بها، وهو يهتف: انتبهي! هل أدمنت السير دون النظر أمامك؟!

أصابتها الدهشة الشديدة عندما تبينت الشخص ذا اللهجة المرحّة والصوت المألوف، كانت وجهاً لوجه أمام الشاب الذي التقته سابقاً في محطة قطار الأنفاق.

قال بمرح وابتسامته تتسع: هل أنت متعجلة دائماً هكذا؟

أتوقع أنك اصطدمت بنصف سكان المدينة على الأقل، لو أنك تلتفتين حولك دائماً وأنت تسيرين في الطريق.

- أنت!

- قبل أن تظني بي السوء، عليّ أن أقول: رب صدقة خير من ألف ميعاد.

- كيف عرفت مكاني؟!

- أنت كثيرة الارتياح حقاً، إنها مجرد مصادفة، نحن نعيش في نفس المدينة.

لحقت بها أمينة وأعطتها الجوال، قائلة لها: نسيت جوالك.

التفتت إلى الشاب وأخذت تتأمل به بفضول، وسألت لين: من هذا؟ أتعرفينه؟
أجابت بسرعة: لا.

رفع الشاب حاجبيه دهشة: لا شك أنكما حديثو عهد بالمدينة.

ألم تصادفكما صورتي في أي مكان قريب من قبل؟

أخذ يقلب وجهه بطريقة استعراضية، وهما صامتان تنظران إليه بتعجب.
زفر بإحباط: لم تصادفاها، واضح.

تساءلت أمينة بفضول: هل تقوم بعمل إعلانات لمنتج ما؟ لنوع من الطعام مثلاً؟
وضع يديه في خصرته، فقالت: قد يكون نوعاً من المنظفات أو كريم حلاقة أو...

هز رأسه نائفاً بإحباط، فهتفت بتعجب: هل تعمل في السيرك؟

ضحك قائلاً: أنا أقوم بعمل حفلات غنائية في أحد المسارح الشهيرة.

أشار بيده على امتداد عرض النهر: ليس ببعيد عن هنا، فقط على الضفة الأخرى.
يسرني أن أقدم لكما دعوتين لحضور حفل لي.

قالت لين وهي ترحل: عفواً، فلا وقت لدينا.

ألقت إليه أمينة بابتسامة متحرجة، وقالت له وهي تلحق بصديقتها: معذرة!

انضمت إلى لين وتركته واقفاً في مكانه، وخيبة الأمل تحتل جزءاً كبيراً من ملامحه.

سارت أمينة بجوارها: من ذلك المهرج؟ وكيف تعرفت إليه؟

أجابت بجدية: لا أعرفه، فقط التقيته مصادفة في محطة قطار الأنفاق منذ أسبوع.

أمينة بابتسامة مأكرة: يبدو أنه يريد أن يتعرف إليك، لا أصدق أبداً أن المصادفة يمكن أن
تتكرر مرتين.

نظرت إليها لين باستنكار، ولم تتكلم.

كانت تشعر بأن حياتها في الغربة تدور في دوائر مغلقة تضيق حلقة بعد حلقة، فتورث العجز وقلة الحيلة، فبلا أسرة أو أصدقاء تتضاعف الأزمات وتشتد وطأتها، ولين لم يكن لها سوى صديقة وحيدة ارتاحت إليها من أول يوم دخلت فيه الجامعة.

أمينة.. فتاة من عائلة كريمة في تونس، لها روح مرحة وشخصية جذابة ومتفوقة في دراستها، وتحب مساعدة زملائها وزميلاتها، بعكس لين التي تتجنب الاختلاط بالجميع، ولولا شخصية أمينة الودود المحبة، وتحليها بالصبر والتعاطف، لما استطاعت اجتذاب لين وتجاوز انطوائها، مما جعل لين تقبل دعوتها على الغداء في أحد المطاعم، بعد شيء يسير من الاعتراض، وبادرتها وهي تجلس إلى طاولة أنيقة في أحد أركان المطعم: لا أفهم لمَ دعوتني على الغداء في مطعم كهذا؟! بعض الشطائر من أي محل للوجبات السريعة كانت ستفي بالغرض.

أجابتها بود: لا تقلقي يا عزيزتي، هذا المطعم دلني عليه زميلنا صالح، وهو ليس مكلفاً، ويقدم وجبات عربية رائعة، وكل زملائنا العرب يرتادونه، فهو يقدم للعرب خاصة خصومات رائعة، وأحياناً هدايا ومفاجآت.

صديقني لم يكن هذا ضرورياً.

أردت أن أسري عنك في أسوأ يوم لك.

أسندت لين رأسها المتعب إلى كفها وقالت بأسى: لا أصدق أنه فعلها! لقد طردني هكذا ببساطة، وبالتالي سأطرد قريباً من مسكني إن حل موعد الإيجار وعجزت عن الدفع.

اهدئي يا عزيزتي، سنعمل أنا والزملاء على إيجاد عمل آخر لك، وسأوصيهم بأن يكون أقل مشقة ويتناسب مع ظروف دراستك.

لا أدري ما الذي يخبئه القدر لي، يقولون إن المصائب لا تأتي فرادى.

لا تقولي هذا، تفاعلي خيراً، على كل حال ليس بالعمل المناسب لك.

انتبهت لين إلى يد النادل تمتد لها بقائمة الطعام وأمينة تهتف: أنت! هل تعمل هنا؟

رفعت عينيها إليه لتجده نفس الشخص الذي تصطدم به كل مرة، يتسم ابتسامته الكبيرة المميزة وهو يقول: نعم، أعمل هنا.

ابتسمت أمينة بفهم: عجبًا، إن الأمر منطقي للغاية، فكل من يعمل هنا عربي.

قال باسمًا: نعم، وصاحب المطعم أيضًا عربي.

همت لين أن تقول شيئًا، لكنه سبقها مازحًا: هل يحق لي أن أقول إنك تتبعيني؟

قالت باستنكار: أنا؟!!

قال باسمًا: أنا هنا في مقر عملي.

قالت أمينة بفضول: هل تعمل مغنيًا أم نادلًا في مطعم؟

أجاب: بعض من هذا وذاك. حسنًا، ماذا تطلبان؟

نظر نحو لين وقال باسمًا: إن سمحتما لي، فسأختار لكما.

سارعت لين قائلة: أعتقد أن الدجاج المشوي مع الأرز سيفي بالغرض.

صمت لحظة وظهر الإحراج في ملامحه، لكنه حافظ على ابتسامته وهو يقول: كما تأمرين.

التفت إلى أمينة: والآنسة؟

قالت بابتسامة محاولة التخفيف من أثر الموقف: فلتختر لي وجبة مميزة.

عندما رحل ليعد الطلبات قالت أمينة بغیظ: لين، ماذا دهاك؟ لقد أخرجته!

نظرت إليها بشك: حسنًا، من الذي لا يصدق في المصادفة الثانية؟

ظهر الارتباك على وجهها، فأكملت لين بعد أن وصلتها إجابة سؤال لم تسأله: أما أنا فإن

صدقت المصادفة الثانية فلن أصدق أن الثالثة مصادفة أيضًا!

قالت أمينة: لا يذهب خيالك بعيدًا، فالأمر ليس به مؤامرة أو جريمة، أخبرتك أنه مكان

شهير بين العرب، وأغلبهم يرتاده، وصالح هو من أخبرني أن الشاب يعمل هنا بعد أن رأنا

نقف معه بالقرب من الجامعة.

وما كان يجب أن تخرجيه بهذا الشكل، فهو مهذب ولم يتجاوز في الكلام، كما أنه مثل أغلبنا

يعمل ويكافح.

سخرت بمرارة: وهل تعتقدين أن شابًا غريبًا يمكن أن يمد إليّ يد المساعدة ويجد لي عملاً -دخيل الله- كما تخططين بسذاجة؟

استيقظي يا صديقتي، نحن على الأرض، فالشياطين تأتي هنا للدراسة والاعتبار.

قالت أمينة بغیظ: لا ذنب لأحد في نظرتك السوداء للاحياة وسوء ظنك بالبشر.

صمتا عندما جاء الطعام، وانشغلا به عن الكلام كي لا يدخل في جدال.

وبعد الانتهاء من الطعام، سددت أمينة الحساب، فاستوقفهما قائلاً: آنسة لين.

التفتت إليه وقالت بدهشة: كيف عرفت اسمي؟

ارتبك قليلاً ثم قال: آآ... سمعت الآنسة تناديك.

لمعت نظرة مأكرة متسلية في عيني أمينة، وظهر على وجه لين الارتياح: ماذا تريد؟

ابتلع ريقه بارتباك وبدأ وجهه يتلون بكل الألوان، وعينا أمينة الفاحصتان تتابعانه بدقة وهو يبعثر نظراته يميناً ويساراً، وبعد كثير من التردد قال: لا شيء.

نظرت أمينة بإشفاق إلى قطرات العرق التي تتفصّد من جبينه وقالت مجاملة: الطعام كان ممتازاً، سأقوم بعمل دعاية للمطعم بين صديقاتي.

قال بابتسامة مرسومة: سيكون تواجدكما هنا أنتما والأصدقاء على الرحب والسعة دائماً.

بمجرد أن غادرتا المطعم هتفت أمينة بغیظ: ستصيّبيني بالجنون! كيف يكون أسلوبك خشناً بهذه الطريقة! أخجلته.. عجباً! ظننت في لحظة ما أنه سيعرض عليك الزواج.

التفتت إليها بدهشة وقالت بحدة: ما هذا الهراء الذي تهذين به! أنا لم أره سوى مرتين فقط. - بل ثلاث.

- وهل هذا يكفي في رأيك ليعرض عليّ الزواج؟ يا خيالك الجامح!

- وما العيب في الحب من أول نظرة؟ ألم تلحظي كيف ينظر إليك؟ ألم تستشعري مدى الارتباك وخيبة الأمل التي تعلو وجهه عندما تصدينه، حتى إن الكلمات تقف في حلقه ولا يستطيع النطق بها.

- كفى كلامًا عن ذلك الشاب أرجوك، فلست خالية البال لأفكر في مثل تلك التفاهات، يكفيني ما أنا به من مشكلات

- إنه يعرف طريقك، ومما رأيته في وجهه اليوم أستطيع أن أجزم بأنك سترينه ثانية، وأقرب مما تتصورين.

أصاب أمينة في استنتاجاتها، فقد وجدته أمامها بعد يومين عندما خرجت من الجامعة، في نفس المكان الذي كادت تصطدم به فيه، وعلى وجهه ابتسامة هادئة.

تذكرت كلمات صديقتها، فقالت بضيق: أليس لديك ما يشغلك؟

تنحج بإحراج ثم قال: بلى، لدي الكثير، ولكنني أتيت اليوم خصيصًا لأحدث إليك.

تردد كثيرًا، وظهر على وجهه الارتباك من نظراتها المليئة بالارتياح، ثم استجمع شجاعته وقال: لقد أتيت اليوم لأطلب منك الزواج.

وبرغم أن صديقتها كانت الأسبق باستنتاجها ونبهتها بنيتها، لكنها غرقت في الدهشة وأخذت تتأمل به بصمت، وعجزت عن كبح جماح عقلها عن المقارنة الفجة بينه وبين ذلك الذي كانت تتجسد فيه كل معاني الرجولة، ملامحه الوسيمة، جسده الرشيق المتناسق، حضوره الطاعني، صوته القوي العميق، شموخه، جديته، رصانته.

«يزن»..

قلبهما يتحرك لمجرد تذكر اسمه.

إنه الفتى الأبرز في العائلة والحي بأكمله، ابن عمتها الذي وعت على العالم لتجده أمامها كبيرًا، قويًا، شامخًا، محط أنظار جميع الفتيات ومبلغ أحلامهن.

ذلك الفتى اليافع الذي قضت طفولتها وصباها بالقرب منه.

إن كلمة رجل لا تعني في عقلها إلا اسم يزن.

أرجو المذرة، ولكن هل سمعت ما قلت؟

تبددت ذكرياتها كضباب أبيض معلق في الهواء، وعادت تنظر إلى الشاب الذي يحدثها، وتفجر بداخلها استنكار شديد، وكان الرفض الحاسم هو قرارها، فهتفت به: اسمع أيها الشاب..

قاطعها قائلاً بلطف: ناجي، اسمي هو ناجي عمر.

أعلم أنك سترفضين، ولكن أرجوك رجاءً حاراً لا ترفضني الآن، امنحي نفسك بعض الوقت للتفكير، ربما.

هز كتفيه وكرر: ربما.

وصلت أمينة وبدأت تستوعب ما يحدث، فهتفت قبل أن تفتح صديقتها فمها: لين، آسفة، تأخرت عليك، هل أنت مستعدة للرحيل أم أنكما لم تنهيا حديثكما بعد؟

قال ناجي: لقد قلت كل ما لدي، اسمحالي.

تركهما ورحل، والتفتت إليها أمينة وقالت بحماس: تماماً كما توقعت، أليس كذلك؟ هذا المهرج يعرض عليّ الزواج.

وما المشكلة؟ أراه مناسباً لك.

مناسب! حسناً، فلتتزوجيه أنت.

ليتني، ولكنه يريدك أنت، بم أجبته؟

لم يمهلني، وحضرت أنت، ولكن جوابي هو الرفض القاطع.

وكيف ترفضينه؟ ألا تعلمين من هو؟

اسمه ناجي عمر.

نعم، وهو صاحب المطعم الذي تناولنا فيه الغداء منذ أيام.

نظرت إلى صاحبته وقالت بدهشة: صاحب المطعم؟! إذن كان يخدعنا.

قالت أمينة باستنكار: هل أنت دائماً مرتابة ومتشككة هكذا؟!

الرجل لم يقل عكس ذلك، كل العرب في الجامعة يعرفونه ويعرفون مطعمه، ويقولون إنه دائماً ما يخدمهم بنفسه، وهو تصرف معنا على هذا الأساس.

لا عجب إن كان يريد شرائي بالمال.

هل عرض عليك مالا؟!

لا، ولكن..

يا إلهي! أنت مسرفة في سوء الظن، الشاب لم نر منه ما يسوء، على العكس، كان مهذباً للغاية، كما أنه حسن السمعة كما يشاع عنه بين زملائنا العرب.

استمعي إلي، إنها فرصة عظيمة، لا أحد في مثل ظروفك يأتيه عرض كهذا ويرفضه إلا لو كان مجنوناً.

عزيزتي لين، أنا صديقتك ولا أتمنى لك إلا كل الخير.

وأستطيع أنؤكد لك أنك قد حصلت أخيراً على المفتاح السحري لكل مشكلاتك.

لقد أتيت إلى هنا لتكوني طبيبة، وحتى تصلي إلى مبتغاك عليك أن تقبلي تلك الفرصة الرائعة.

(٢)

وضعت الوسادة فوق أذنها عليها تكتم صوت صديقتها وكلماتها التي باتت تتردد في عقلها
آلاف المرات في اليوم، والأيام تهرب من بين يديها ولم تحصل بعد على وظيفة، وموعد سداد
إيجار المسكن يقترب وعندها ستضطر أن تترك مأواها إلى الشارع.

تجربة مرعبة لمن خبرها واكتوى بنارها، فلا أقسى من أن ينام المرء في العراء لا يحميه سقف،
ولا تستره جدران.

استسلمت لثقل جفניה وأغمضت عينيها، لكن ذكريات الماضي باتت جزءاً من أحلامها،
لا تنهأ معها بنوم، ولا يقر لها جفن.

كيف تفعلين هذا بطفلتك؟ إنها جريمة!

أدارت الأم وجهها بعيداً لتخفي دموعها، لكنها عجزت عن إخفاء صوتها المتهدج: لم تعد
طفلة، إنها عروس.

هتفت لين باستنكار: عروس! إنها لم تبلغ الثالثة عشرة بعد!

قالت الأم بصرامة مفتعلة وهي تبتلع دموعها: لقد بلغت، وهذا يكفي.

أأنت واعية لما تفعلينه بابتك؟! أنت تبيعينها بالمال، تمنحنيها لرجل أكبر منها بأربعة أضعاف
عمرها، تسحقين طفولتها ومستقبلها في مقابل قروش قليلة.

التفتت إليها الأم والدمع والقهر في عينيها والحسرة تقطر من حروفها: مستقبل؟! أي
مستقبل؟! هنا لا مستقبل سوى الموت. في العام الماضي اختطف الموت أختها ونجت هي
بأعجوبة، ولا أدري على من من أطفالي يأتي الدور هذا العام؟

هذا ليس عدلاً.

نحن لا نطمح في عدل، بل نبتغي حياة، فقط بعض من حياة.

ليست حياة.

فلتبقي فقط على قيد الحياة، تجد ما تأكله، تجد ما يحمي جسدها الهزيل من البرد القارس، تجد سقفاً يسترها.

انتفضت لين وتقلبت في فراشها وقد هاجتها قشعريرة باردة، وامتدت يدها بين النوم واليقظة لتسحب الغطاء على جسدها المرتجف كما لو كان محمومًا.

حاولت الخلاص من الذكرى القاسية، لكنها خضعت مضطرة لسطوة الماضي وقسوته، وصوت الأم يدوي في أذنيها، وهي عاجزة حتى عن إسكاته بالوسادة التي دفنت رأسها تحتها. وا صغيرتاه. وا حببته.

انسابت الدموع تغرق وجهها ووسادتها، وصوت الأم الثكلي يصرخ في أذنيها. في عالم لا تستره جدران، ولا يحميه سقف ولا أبواب، إن لم تكن لك عصابة تذود عنك، فقد تسمي حيًّا وتصبح قتيلاً، بسبب وبلا سبب، عالم فيه الضعفاء هم حطب لتنور الأقوياء. لم تستطع أن تنسى أبداً وجه الطفلة القتيلة، ولا أمها التي كانت تتمنى أن تبقى فقط حية. أخذ جسدها ينتفض وهي تنتحب والألم يمزق فؤادها.

أبلغته برفضك؟!

هتفت أمينة في وجهها، وهي تكاد تصاب بالجنون من أفعال صديقتها.

أجابت لين بهدوء: ذهبت إليه اليوم في المطعم وأبلغته برفض طلبه.

- ولم لم تتمهلي وتفكري قليلاً؟

- الأمر بالنسبة لي محسوم، فأنا لن أبيع نفسي أبداً.

- ومن تحدث عن بيع؟

إنه شاب فلسطيني مسلم، وكلاهما يناسب الآخر.

- أنا لا أحبه.

- وهل كل زواج يجب أن يسبقه الحب؟

- إنه بعيد تمامًا عن صورة الرجل الذي يمكن أن أتمناه زوجًا لي.
 - قد لا يكون فارس أحلامك، ولكنه بالتأكيد قادر على أن يحقق أحلامك..
 ربما يبدو ساذجًا، وقد يبدو عليه بعض الغباء..
 لكنه صاحب مطعم، ويرتاد المركز الإسلامي في صلاة الجمعة..
 لا يمكنك أن تحبي شخصًا تافهًا مثله، ولا يمكنك نسيان حبك القديم..
 لكن الإنسان لا يحيا فقط بالقلب، هناك أيضًا العقل.
 إن هدفك الوحيد الآن هو مستقبلك الدراسي، أي شيء عداه لا يهم..
 ناجي عمر هو الوحيد الذي يمكنه أن يمنحك ما تريد..
 لا تدري لم صمتت أمام كلمات صديقتها..
 هل لأنه كلام منطقي؟ أم لأنه يلمس قلقًا شديدًا بداخلها من المستقبل؟
 لكنها قالت بصوت ضعيف: أليست هذه نظرة انتهازية؟
 - بل هي نظرة واقعية، فأنت لم تسعي إليه، بل هو الذي يسعى خلفك ويتمنى أن يفوز بك..
 قبولك سيسعده، وفي نفس الوقت سيحقق أحلامك..
 أرجوك فكري ثانية، ما زال الأمر بين أيدينا، ويمكننا إصلاحه.

كف ناجي بالفعل عن ملاحقتها، ولم يعد يعترض طريقها أو يصطدم بها.
 لكن كلام صديقتها عن الفرص الضائعة وتحقيق الأحلام ارتد إلى عقلها رغبًا عنها عندما
 وصلت إلى جدار صلب لا يمكن تحطيمه أو اجتيازه، فقد فشلت في إيجاد عمل أو بديل
 للسكن..
 واليوم عليها أن تترك الغرفة التي تؤويها..

بعد ساعات ستكون مشردة في الشوارع، وأمينة الآن تحاول بجذ أن تجد لها مكانًا معها في
 السكن، ولو لبعض الوقت، لكنها تدرك جيدًا مدى صعوبة الأمر، فهي تسكن مع مجموعة من

الطالبات، وكيف لها أن تحصل على موافقتهم جميعاً على انضمام طالبة جديدة هن؟ ومع ضيق المسكن صار الأمر مستحيلاً.

انتبهت لأحمد الذي ألقى بحقيبه، وخر جالساً متربّعاً على الأرض أمامها، وتبعته رغد فجاورتها في المقعد، أخذت لين تنقل بصرها بينهما بقلق، فبادرها أحمد بلهجة متحمسة ودود، وهو يخرج من جيبه بطاقة صغيرة: وجدت عملاً يناسبك في أحد المحلات، ستعملين مراقبة في الجزء الخاص بمنطقة ألعاب الأطفال، وذلك في الفترة المسائية وأيام العطلات، أما عن السكن..

التفت إلى رغد لتكمل هي: لا تقلقي، سنجد حلاً مؤقتاً أن نشارك معاً الغرفة التي أسكنها دون معرفة المالك.

تأملتُهما بصمت، لا تدري ماذا تقول، لكن قلقاً خفيفاً أخذ يتعاظم بداخلها، تدور عيناها في المكان بحثاً عما تخشاه، وصوت شرس يتسلل إلى عقلها، يعيد إليها مشاعر الرعب التي تهاجمها من الماضي: سنجدك حتى لو ذهبت إلى آخر الأرض!

هبت قائمة وحملت أغراضها وهي تقول: شكراً لكم، سأتدبر أمور بنفسي.

تركتُهما تحت تأثير الصدمة، متعجبين من رفضها لمساعدتهما ورحيلها المفاجئ، وهي تتمنى في قرارة نفسها ألا يكون أحد قد لمحها وهي تجالسهما.

انتبهت على صوت يناديها بمجرد أن خرجت إلى الساحة التي أمام الجامعة، التفتت وجلة أن يكون أحمد قد تبعها، لكنها وجدت صالح يقترب منها ويقول: كم مرة أحتاج أن أناديك لتلتفتي؟

قالت بشروء: لم أسمعك، أهنك شيء؟

قال باسم: نعم، هناك زهرة صغيرة تبحث عنك.

ارتسم على وجهها التساؤل، فأشار إلى طفلة صغيرة تجلس على مقعد كبير في الساحة وتهز ساقيها.

قال: كانت تسأل عنك كل الطلبة العرب، وعندما سألتني لم أستطع أن أتركها وحيدة، فجلست معها قليلاً حتى رأيناك تخرجين من باب الجامعة.

قالت لين وهي تنظر نحو الطفلة بدهشة: هل تعرفني؟!

قال: يبدو ذلك.

أخذت لين تتأمل الطفلة وهي تتقدم نحو المقعد الذي تجلس عليه، وبمجرد أن رأتها الطفلة قادمة هبت قائمة وابتسامتها الجميلة تضيء وجهها كالقمر يلفه شعر أسود طويل ناعم، وعيناها السوداوان تتألقان ببريق متلهف، وبمجرد أن وصلت إليها قالت الصغيرة مباشرة: أنستي، هل أستطيع التحدث إليك؟

أدركت لين من لهجتها أنها مصرية، وقدرت عمرها بعشر سنوات تقريباً، فقالت بود عندما انشرح صدرها للطفلة الجميلة وأسلوبها المهدب الرقيق: بالتأكيد، ولكن.. هل تعرفيني؟
- نعم، حدثني عنك كثيراً، ورأيتك عندما كان يتحدث إليك في هذا المكان، وبعدها انضمت صديقتك إليكما.

بدأت لين تستوعب এমন تتحدث الطفلة وهي تستعيد في رأسها ذكرى الموقف.

- هل هو قريب لك؟

- لا، نحن نغني معاً، ونقوم بالتدريب على الحفلات في المسرح القريب.

هزت لين رأسها بفهم، ولكن شعوراً بعدم الرضا تسلل إليها عندما تخيلت أن طفلة في عمرها ترتاد المسارح الغنائية، وتسهر إلى ساعة متأخرة من الليل لتحبي حفلاً.

- بعد أن أهبنا تدريباتنا في المسرح وخرجنا معاً إلى الطريق نشترى الثلجات كما اعتدنا، رآك، فتركني وانطلق إليك مسرعاً، وكدت تصطدمين به، كان مشهداً مضحكاً للغاية.

استعاد ذهنها بسرعة تفاصيل المشهد الذي تتحدث عنه، لكنها لم تقاطع حديثها، فقد كان أسلوبها في الكلام رقيقاً بريئاً أسراً.

جلست إلى جوارها على المقعد الكبير، وأنصت لها وهي تحكي: وقفت أراقبه من بعيد وهو يتحدث إليك وإلى صديقتك، وعندما عاد إليّ كان سعيداً للغاية، وأنا كنت غاضبة للغاية، كيف يتركني كل هذا الوقت حتى ذابت الثلجات وفسدت؟ كيف سنتناولها الآن؟ ومن هذه التي يتركني ليهرع إليها هكذا؟

قال لي: سأعرفك عليها بمجرد أن تقبل طلبي بالزواج منها.
ظهرت الدهشة على وجه لين، فأكملت الصغيرة: وعندما سألته: هل عرضت عليها
الزواج؟

قال: ليس بعد، ولكن سيحدث قريباً.
شعرت لين بالتوتر، ودار في عقلها خاطر أفزعها، وهو أن ناجي يقتني أثرها بالفعل،
فسألت الصغيرة: وكيف عرف مكاني؟
قالت بثقة وكأنها تقرر واقعاً: أنت طالبة عربية ومغربة في الجامعة، وهو صاحب المطعم
الذي يرتاده كل العرب هنا.

بدا لها الأمر منطقياً، ولكنها سألتها: ولماذا يريد أن يتزوجني؟

- لأن الله أرسلك لتنقذه.

- أنقذه؟!!

- هكذا قال لي.

لقد كاد يطير فرحاً وهو يحكي لي أنك أخيراً عرفت مكان المطعم أنت وصديقتك، وأنه
وقف على خدمتكما بنفسه

- وهل كان ينتظرنا؟!!

- بالتأكيد، فمن من العرب في المدينة لا يأتي مطعم ناجي؟ إن لهم خصومات خاصة،
وأحياناً تكون الخدمة مجانية لبعض الطلبة.

هزت رأسها بفهم، وتركتها تكمل..

- لقد كان خائفاً أن ترفض طلبه، ولكنني شجعتة ودفعته لأن يذهب إليك ويطلب منك
الزواج، ولكن رفضك صدمه.

ومنذ ذلك الوقت وهو حزين للغاية..

شعرت لين بغصة مؤلمة وهي تقول: حسناً، لقد انتهى الأمر..

قالت الطفلة برجاء: لم ينتهِ بعد، أتمنى من كل قلبي أن تقبلي..
أرجوك، لا أستطيع أن أراه حزيناً، وأنت الوحيدة القادرة على أن تعيدي إليه ابتسامته..
تعجبت كثيراً من إصرار الطفلة ودأبها العظيم لتنفيذ فكرة احتلت عقلها وقلبها، ولم تكن لديها القدرة على كسر خاطرها والتسبب لها بالألم..
كانت الطفلة مسترسلة في الحديث بشكل حماسي وهي تعدد مزايا ناجي، واستشعرت لين من أسلوبها قوة الرابطة التي تربطها به..
تذكرت كلمات صديقتها أمينة: «يمكنك إسعاده وتحقيق حلمك في نفس الوقت»..
ناجي عمر هو الوحيد القادر على مساعدتك..
لم تدر كيف استطاعت الطفلة الصغيرة أن تسحبها خلفها بنعومة وتجعلها توافق على الذهاب معها إلى المطعم، وبمجرد أن دخلت من الباب، هاجمها شعور بالندم الشديد أن استسلمت لإلحاح الطفلة وتبعتها إلى هنا..
ولجت من الباب ووقفت مترددة، لكنها وجدت أمامها إحدى السيدات تريد الخروج، فابتعدت عن الباب لتفسح لها المكان، لكن السيدة وقفت تتأملها قليلاً وتقلب نظراتها بينها وبين الصغيرة التي صاحت تحييها: مرحباً جان..
فردت السيدة التحية دون أن تبعد عينيها عن لين التي تعجبت من نظراتها المتفحصة..
أخذت الطفلة تجذب لين من يدها، فتبعتها إلى داخل المطعم بعد أن غادرت المرأة..
كان المطعم خالياً من الزبائن في وقت ما بين الوجبات..
لمحته وهو يجلس وحيداً إلى طاولة تحتل آخر زاوية في المطعم بجوار النافذة الزجاجية الكبيرة، تتطلع نظراته الشاردة إلى الخارج دون أن يشعر بما حوله..
استيقظ من شروده على صوت الطفلة وهي تقول: مرحباً، سمعت أنكم هنا تكرمون زبائنكم من العرب وتقدمون لهم الطعام في كل وقت..
ظهر على وجهه أثر المفاجأة لرؤية لين التي ارتبكت بشدة واحمر وجهها..
نهض من مقعده ونظر إلى أمل وقال باسمًا: بالتأكيد..

قالت مازحة وهي تمثل دور الزبون: حسناً، سنجلس هنا أنا وصديقتي..

أفسح لهما المكان، وجلست لين والإحراج يغمرها، وجلست أمل على المقعد المقابل لها ووضعت ساقاً فوق الأخرى بدلال، ونظرت إلى ناجي قائلة بمرح: يسعدنا أن صاحب المطعم بنفسه يقوم على خدمتنا..

تجاوب ناجي بسرعة مع لعبتها المرحية، وقال بمرح من اعتاد الأمر: في خدمتك أنستي، هل لديك طلب خاص؟

قالت بدلال: أحضر لنا أفضل ما لديك..

قال باسمًا: حسناً..

ثم التفت إلى لين وقال بابتسامة دبلو ماسية يخالطها الحرج: والآنسة.. ماذا تطلب؟

قالت بارتباك: سأتناول مما ستتناول منه أمل..

اختفى إلى داخل المطبخ، وأخذت لين تفرك كفيها المبتلتين بالعرق وظنت أن ناجي سيعود سريعاً، لكن شخصاً آخر هو من قدم الطعام، وأخذت أمل تتململ وعدم الرضا يبدو عليها، بعد أن أدركت أن اختفائه سيفسد خطتها. انتهى الطعام ولم يظهر ناجي، وأخذت أمل تعبر عن قلقها بحركات عفوية، إذ يبدو أنها لا ترغب في الرحيل قبل أن تنفذ ما أتت إلى هنا لأجله.

قالت لين: هل نرحل الآن؟

هبت واقفة بقلق وهي تتلفت حولها وقالت: ليس بعد، أريد أن أهديك شيئاً..

نظرت إليها بتساؤل، وغابت الصغيرة عنها برهة، وعندما عادت قدمت إليها زهرة بيضاء جميلة، وقالت بلطف: تفضلي، إنها هديتي لك..

نظرت لين إلى الزهرة، وانتابتها قشعريرة باردة، وابتلعت ريقها لمنع دمعة ساخنة من الهروب من عينها، وعادت لها أصوات من الماضي مرعبة، صوت اهتزاز الخيام والرياح تتلاعب بها، تساقط المطر والثلوج، صراخ الأطفال ومشاجراتهم مطالبين بالطعام، هتاف الأمهات في طوابير المياه، تلك الحياة المرعبة التي خلفتها وراءها، وأقسمت ألا تعود إليها وإن كان الموت هو خيارها الوحيد.

وقتها كانت أعلى هدية.. كسرة من خبز جاف..

خذي منه أرجوك، لا تكسري خاطره، فهو يود أن يهديك أي شيء.

نظرت لين إلى يد الصغير الممدودة إليها بكسرة خبز جافة يابسة، واهتز قلبها بحنان، واحتضنت الصغير وقبلت رأسه.

قالت الأم بأنفاس متعبة: إنه يحبك.

التفتت إلى الأم النفساء الراقدة على فراش صغير في الخيمة، وبجوارها وليدها الذي لم يتجاوز عمره بضع ساعات، وتساءلت بتعجب: أنا لم أفعل شيئاً، فقط كنت أساعد الطبيب.

قالت: وكيف لا يجب الملاك الذي ساعد في إنقاذ أمه ووصول أخيه إلى الحياة بسلام؟ والآن قومين على زيارتنا ورعايتنا.

تأملت الطفل ذا السنوات الخمس بحنان، كان له شعر أصفر ناعم، وعينان بنيتان، وابتسامة رائعة.

أمسكت بيده الصغيرة التي تحمل الخبز، وقضمت منه وهي تبسم له شاكرة.

اتسعت ابتسامة الصغير واكتسى وجهه بالسعادة، فقالت الأم بشجن: يريد أن يقدم لك الشكر لكنه لا يستطيع، لقد فقد النطق على أثر القصف العنيف الذي أصاب الحي وهدم بيتنا. امتلأت عيناها بالدموع واحتضنت الصغير بحنان.

قالت أمل بتردد: ألم تعجبك؟

نظرت إليها لين ووارت ذكرياتها الحزينة خلف ابتسامة حانية: على العكس، إنها أجمل هدية حصلت عليها منذ وقت طويل.

ضمتها بقوة محاولة أن تخفي عن الصغيرة ذلك الشعور القاتل بالألم، عندما هاجمتها الذكرى الحزينة لموت إبراهيم.

لم يتحمل الصغير البرد القارس في المخيم، استيقظت أمه لتجده قد فارق الحياة، بعد أن خلع كنزته ليدثر بها أخاه الأصغر.

ابتلعت الغصة التي في حلقها، ووارت الذكرى المفعمة بالألم داخل القلب الحزين.

وكما توقعت لين، فقد ذهبت الصغيرة إلى المطبخ وعادت وهي تمسك بيد ناجي..
 الإحراج في ملاحظه كشف لها أنه استجاب مضطراً للإحراج الصغيرة..
 أجلسته أمل في مقعدها وقالت لهما: الآن حان دوري..
 سأحضر لكم أفضل مشروب في المطعم..
 شعرت لين بالحرج والارتباك عندما تركتها الصغيرة وذهبت إلى المطبخ..
 قال بهدوء: أرجو ألا تنزعجي من تصرفات أمل، هي تعتقد أن الحياة سلسلة وسهلة لتحقيق
 فيها كل ما تتمناه، وعندما تضع أمراً في رأسها وتصبر عليه، يكون من الصعب للغاية إثناها
 عنه..
 فقط أرجو ألا تسيئي الظن بي..
 اكتفى بتلك الكلمات، ثم التفت إلى النافذة ليفسح للصمت مكاناً ليكون رفيقاً لهما.
 كانت تحاول أن تستجمع شجاعته الهاربة، وتهدي من توترها، لكنها أخيراً كان عليها أن
 تبادر بالاعتذار: في المرة السابقة كنت عصبية وقاسية، فقط أردت أن أعتذر عن أسلوب الجاف.
 التفت إليها قائلاً: ليس عليك الاعتذار، لقد تفهمت الأمر جيداً.
 - أمل تحبك كثيراً وترجو لك السعادة، وهي تعتقد أنني الشخص المناسب الذي يمكن أن
 تسعد معه في حياتك
 - ليست وحدها من يعتقد ذلك.
 - الحقيقة هي أنني لم يعد لدي ما أستطيع تقديمه لأي إنسان، أو حتى تحقيق أحلام أمل.
 لمعت عيناه واكتسى وجهه بالتفاؤل وعادت إليه الابتسامة: ولكنني أعتقد عكس ذلك، لا
 يمكنني أن أرى السعادة من دونك.
 ارتبكت من وقع عبارته، واحمر وجهها خجلاً.
 تردد هو قليلاً، ثم اندفع بلا تروٍّ وكأنها يخشى أن يفقد جرأته في تلك اللحظة: من أول مرة
 رأيته فيها وأنا أشعر أنك الشخص الوحيد الذي يمكنه أن ينقذني.

نظرت إليه بدهشة، وازدادت خجلًا، لكنه استمر في حديثه: أعلم أنك لا تعرفيني جيدًا، لكنني لا أكذب، خاصة فيما يتعلق بمشاعري.

لن أجد سعادتي في أي مكان ولا مع أي إنسان سواكِ.

كان عصيًا عليها أن تصدق أن هذا قد حدث بالفعل..

فها هي ذي تقف إلى جواره في حفل الزفاف الذي أصر عليه -رغم اعتراضها- و ترتدي ثوب زفاف أبيض فاخرًا تتمناه أية فتاة، لكن قلبها المتوجس المليء بالهموم حجب عنها الشعور بالسعادة أو حتى الراحة، حتى أمل التي كانت تقفز بينهما بسعادة وتتعلق بأيديهما، لم ينجح منظرها وهي تلاعب ناجي بمرح في تبديد خوفها..

كانت تتقبل التهاني من المدعوين من زملائها وزميلاتها في الجامعة بابتسامة وجلة، وهي تحاول أن تستوعب ما يفعله لأجلها، فقد أصر أن يكون حفل الزفاف كبيرًا وفاخرًا، ودعا إليه كل معارفها ومعارفه..

لكن كل هذا البذخ لم يشفِ بداخلها ذلك الشعور المؤلم بالغربة والخواء..

أخذت تتأمل ملامحه، فيها الكثير من الوسامة، لكنها تفتقد الألفة والحميمية، وأدركت أن صراعاها مع نفسها لتقبل وضعها الجديد قد بدأ بالفعل..

تحسست بإبهامها خاتم الزواج الغالي الذي اختاره لها ناجي، وهي تحاول جاهدة أن تطرد تلك الصور المألوفة والمحبة من مخيلتها، لكن ذكرياتها الغالية أبت إلا أن تستولي على عقلها.. وتتركز في شخص واحد فقط، ابن عمته يزن..

«هل أنت معي؟»

استيقظت فجأة من ذكرياتها والتفتت إليه، كانت السعادة تتراقص في عينيه وهو يقول مازحًا: ما بك شاردة؟ أين رحل عقلك؟

لم ترد على كلماته، تأملت ملامح وجهه فازدادت بداخلها مشاعر الغربة والوحدة، فالفارق شاسع بينه وبين يزن..

أشار إلى أحد الأشخاص وهو يقول: أريد أن أقدم لك بتر ألكسندر، أفضل أصدقائي، والمحامي الذي يتولى جميع أعمالي.. ها هو..

نظرت إلى حيث يشير.. لتفاجأ بما لم تتوقعه على الإطلاق..

إنه نفس الرجل الأسمر ذي الملامح القاسية والأنف الكبير، الذي كان يراقبها في ساحة الجامعة..

اقترب منها وهنأها بكلمات رسمية استشعرت فيها الريبة والتعالي، ولكنها ظلت صامته ولم تتكلم، فقد كان ناجي سعيداً وهو يتلقى منه التهنئة ويمرح معه..

وانشغلت هي بوصول أحمد ورغد وتلقي التهاني منها، ذلك الذي لم تكن تتوقعه أبداً بعد ما حدث بينها وبينهما في آخر مرة، فقد اعتقدت أنهما سيتجنبانها، لكنها فوجئت بهما يليبان دعوة ناجي لحضور الزفاف..

وبقيت لين صامته، حتى وجدت فرصة مناسبة لتنفرد فيها بالحديث إلى ناجي، فقالت بشك: من هذا الرجل؟

قال بابتسامة ودود: أخبرتك.. إنه المحامي الخاص بي وصديقي..

قالت ببعض الحدة: لقد رأيته هناك عند الجامعة..

لم تخطئ عينها تغيراً يسيراً في تعبيرات وجهه: حقاً؟!

هل هو من أرسله خلفها إلى الجامعة؟

ظل السؤال في عقلها، وصمتت تماماً عندما اقتربت منها سيدة جميلة طويلة ذات شعر أسود قصير، ترتدي ثوباً أسود أنيقاً ضيق قصيراً..

تذكرتها لين على الفور..

كانت هي نفسها تلك السيدة التي رأتها على باب المطعم عندما كانت مع أمل، وكانت أمل تحييها باسم «جان»..

حيثها السيدة وهنأتها بالزواج.. وهي تتفحصها بنظرات ثاقبة..

وقدمها ناجي لها قائلاً: جانيت سوايز.. صحفية في جريدة العالم الجديد..

أطلقت جان زفرة: وأخيرًا تزوج ناجي عمر قبل أن يصل إلى الخامسة والثلاثين..

قال بمرح: مفاجأة، أليس كذلك؟

قالت: أرجو أن يكون الأمر يستحق..

قال بتأكيد: يستحق وأكثر..

قالت وهي ترمق لين بنظرة لم تعجبها: أتمنى ألا تندم يومًا..

عقدت لين حاجبيها وظلت على صمتها، لكن ناجي نظر إليها بعاطفة، وقال: من يطاء الجنة لا يمكن أن يندم..

والتفت إلى جان وقال: المهم هو الشخص المناسب..

تغير وجهه عندما وقعت عيناه على بعض الأشخاص يدخلون المكان، فقال بلهجة جادة: اسمحالي، بضع دقائق وأعود سريعًا..

تركها ورحل بخطوات سريعة، وتتبعته لين ببصرها، ورأت بيتر يسبقه إلى هؤلاء الأشخاص، وعندما وصل إليهم قادهم إلى باب جانبي اختفى الجميع خلفه.

انعكس قلقها على ملامح وجهها، مما جعل جان تقول: يبدو أنك قلقة من شيء ما؟

لم تعجبها لهجتها ولا نظراتها، لكن جان أكملت: من تحظّ برجل مثل ناجي لا يمكن أن تقلق أبدًا.

تعجبت من حديثها.. هل هناك شيء خاص بينها وبين ناجي؟ هل تشعر بالغيرة؟

ناجي بالفعل تتمناه الكثير من النساء..

إلا هي..

فما زالت عاجزة عن التحرر من طيف يزن الذي أحكم القيد حول قلبها..

كان من المفترض أن يساعدها جو العرس الفخم وتجمع الأصدقاء على التأقلم، أو يضيفي على قلبها بعض السعادة، لكن السعادة بالنسبة إليها -ومنذ وقت بعيد- صارت غائبًا لا يرجى رجوعه، ولم يكن قلبها فقط المفتقد للسعادة، بل ملامح وجهها أيضًا كانت تفتقر إليها.

عندما غاب عنها ناجي عادت أمينة إليها - وكأنها أحست بما تعانيه صديقتها - ومعها كل زملائها وزميلاتها من العرب والتفوا حولها، وما بين صخب ومزاح وتبادل الأحاديث المرحية والتعليقات المضحكة عادت الابتسامة تزين وجه لين، واندمجت معهم في مرحهم ومزاحهم. وتعالَت اعتراضات رغد بسبب الجو العام الأوروبي الذي طغى على عرس شامي، وشاركها أحمد الاعتراض بمرح، فالعرس هادئ بارد، لا (زغاريد) ولا (هناهين)، فتطوَعَت رغد وأخذتها الحمية والشوق لموطنها، ودعت الجميع للترديد معها وهي تلقي (زغرودة) حماسية ابتهاجًا بالعروس:

أوها العريس يا واحد..

أوها وعروسته يا اتنين..

أوها يا خرزة زرقا..

أوها ترد عنهم العين..

لي لي لي ليش..

أشعلت رغد حماس كل العرب في المكان.. فتجمعوا حولها وحول العروس..

ولین تحاول أن ترسم على ثغرها ضحكة تمسك بها الدموع التي كادت تنسكب على وجنتيها، عندما عادت بها الذكريات إلى عمتها وأمها..

و.. يزن..

منذ وفاة والدها لم ترَ إشراقة سعادة على وجه أمها، وكانت المرة الأولى التي تسمع فيها أمها تردد (هنهونة) فرح خارجة من قلبها، وذلك عندما أرسل يزن أمه تطلب خطبتها له وهو في الخليج:

أويــــــــــــــــها على ها الخــــــــــــسن سمو باسم الله..

أويــــــــــــــــها غزالتنا عيونها مكحلة من الله..

أويــــــــــــــــها الخد مرمر والتم خاتم سليمان..

أويــــــــــــــــها وعريسك لوشافك صاح دخيل الله..

وابتسمت وهي تتذكر عمتها التي هبت من مقعدها، وأخذت تباري أمها وترد عليها بهنونة:

آويها يا عروس ما بحتاج أوصيك..

آويها لا تخلي أحد بالدار يشتكيك..

آويها بيت عمك حيهم وعزهم..

آويها وعامليهم مطرح أهلك الي ربوك..

وتجمع الأهل والأحبة والأقارب، عائلة واحدة وبيت واحد، فأعمام العروس هم أحوال العريس..

وزوج عمتها «طلال».. ذلك الرجل المرح الطيب الذي دخل العائلة فصار جزءاً منها وأحبه الجميع، لطيبته وخفة ظله، وسكن قلوبهم جميعاً.

وكانت لين تحمل له في قلبها مكانة خاصة، لما تلمسه منه من اهتمام خاص بها في كل اجتماع عائلي، فقد كان يسعى دائماً لإضحاكها والتسرية عنها بكلماته المضحكة ومناغشاته الطريفة.

أخذ يسخر من زوجته وهناهيها، ثم أطلق ههنونة لم يتوقعها أحد، فجعل البيت كله يضج بالضحك:

آويها داسوا الحصر برجليهم..

آويها وتغامزوا بعينيهم..

آويها وقالوا يزن ما بيتجوز ..

آويها يزن اتجوز وقلع عينيهم ..

عادت إلى واقعها، ونظرت لين إلى أحمد وهو يناغش رغد، شيء ما فيه يذكرها بالعم طلال، ربما خفة ظله أو ذلك الاهتمام الدائم بمن حوله، أو هو التفاؤل الذي ييثره في زملائه عندما تضيق بهم الحياة..

هتفت رغد عندما رأت ناجي قادماً:

صلوا على محمد.. مكحول العين..

حيوا العريس..

صفق الجميع عندما أقبل ناجي عليهم، وداعب أحمد رغد: (شوية شوية بتسوِّي عراضة)..

ضحكت رغد، أجابته: لم نسمع لك صوتًا، ما بتكرم العروس وهي من بلدك؟

أخرجت من حقبتها دبوًّا وأعطته لأحمد وهي تغمز له بمرح، وتدفعه في كتفه ليقوم
بوخر ناجي، فهتف زاجرًا إياها بمزاح: يلعن روح الشيطان، ستسببن بطردنا من العرس،
هو لا يدري عن عاداتنا القديمة.

قال ناجي مازحًا: تظنني فرنسيًا؟ ما رأيك بعراضة شامية؟

اتسعت عينا أحمد، وقال بدهشة: هه!!

التفت ناجي إلى لين، وابتسم وهو يغمز لها ويعانق كفها بأصابعه..

واهتز قلبها بالحنين عندما سمعت أصواتًا مألوفة ومحبة إلى قلبها..

محمد زين.. ذكره زين..

محمد يا كحيل العين..

محمد خاطبه ربه..

وكانت ليلة الإثنين..

وانشق القمر نصفين..

من هيبة رسول الله.. (صلى الله عليه وسلم)

لم تصدق لين ما فعله ناجي لأجلها، كيف استطاع تدبير عراضة شامية وبالزي الشعبي
لحفل زفافها؟!!

ومن أين أتى بفرقة شعبية جلهم من الشباب يتقنون تلك الأهازيج والنقر على (الدربكة)
في قلب باريس؟!!

اصطف شباب العراضة صفيين..

وردد (قَوَّال) العرّاضة:

يا أهل العديّة... يا أهل العديّة..

يا سامعين النديّة..

فأجابه الشباب جميعاً: هيه..

فردد:

الله لا يقطع لنا ولا يقطع لكم ذرية..

بجاه النبي محمد خير البرية..

وإن كانت راية وراية عريسنا ويّض الله..

فأجابه الجميع: وجهوووووه..

ضحكت لين ضحكة كبيرة تمتزج بدموع الحنين والشوق لموطنها وأهلها، عندما التف جميع الشباب في الحفل حول ناجي وحملوه وأخذوا يقذفونه إلى أعلى ويتلقفونه مرات عديدة، وسط الصخب المرح، والكل يردد معاً:

جنة جنة جنة... والله يا وطننا..

يا وطن يا حبيب... يا أبو تراب الطيب..

حتى نارك جنة..

وتذكرت ما فعله خالد يوم خطبتها، فقد اختفى من البيت وترك الجميع يبحثون عنه، وكانت أمها غاضبة للغاية، فكيف لأخ أن يترك البيت يوم خطبة أخته؟! كان عليه أن يجل محل والده المتوفى ويحمل بعض الهم عن أمه.. ويعمل على إسعاد أخته الوحيدة..

لكن الأخ المحب عاد أخيراً ومعه فرقة عرّاضة ملأت البيت بالأهازيج.. وتجاوبت معها العائلة.. وتجمع الجيران حول البيت يشاركونهم أفراحهم.. ونجح خالد كعادته في إدخال السعادة على قلب أمه..

كان أسعد يوم في حياتها، رغم غياب يزن عن الحدث الهام لظروف سفره، إلا أن طيفه كان حاضرًا بقوة في قلبها، كسبب رئيس لكل السعادة التي فاض بها قلبها وامتلاؤها بيتها، وأشرق بها وجه أمها.

كان كل شيء في حياتها وريًا، وهي تشعر أنها قد امتلكت الدنيا، وكل أحباؤها حولها ينثرون السعادة والضحكات، ويتغنون بأغنيات الفرح والتهانئ والدعوات الطيبة للعروسين.

كان عليها أن تبعد طيف الماضي عن حياتها بأي ثمن، فقد أصبحت زوجة لرجل آخر، تحيا معه حياة أخرى تختلف تمامًا عن الماضي الذي ذهب إلى الأبد ولن يعود، وبذلت جهدًا كبيرًا لتحاول إقناع نفسها بالاستغناء عن الحب في سبيل الوصول إلى النجاح والأمان، وعدم العودة إلى الجحيم الذي كانت تعيش فيه، فأخذت تردد بينها وبين نفسها: ناجي هو زوجي..

ناجي هو من سيمنحني الأمان..

ناجي هو من سيساعدني لأكون طيبة محترفة..

لكن كل محاولاتها لم تستطع إزالة ذلك الانقباض الشديد في قلبها، وهي تخطو أولى خطواتها في بيتها الجديد.

جلست بوجل على طرف الفراش الفاخر الممتلئ بوريقات الورد الحمراء والوردية والبنفسجية، التي تعاونت معًا في رسم لوحة رومانسية بديعة من القلوب الصغيرة والكبيرة تليق بفراش عروس.

كان أثاث الغرفة فاخرًا وحديثًا، وملابس نومها الوردية فاخرة، وعلى أحدث طراز فرنسي. لكن الرهبة والخوف اللذان يملآن قلبها أفسدا عليها مشاعرها، كما أن إنفاقه بهذا البذخ الشديد ألقى في قلبها شعورًا مؤلمًا بأنها صارت قطعة أثاث أو لعبة اشتراها بماله ليتسلى بها..

لين!!

انتفضت من شرودها على صوته يهمس في أذنها:

- لين.. هلا نظرت إليّ أرجوك؟

بصعوبة التفتت إليه، كان ذهنها مشوشًا، وعقلها يسيطر عليه التوجس..

تطلعت إلى وجهه بنظرات مترددة، لتطالعها ابتسامة دافئة وصوت حانٍ: شكرا لأنك حققت لي أعلى أمنية تمنيتها في حياتي..

أعلم أنني أثقل عليك، ولكن.. أتمنى أن تحققي لي أمنية أخرى..

بدأ قلبها يرتجف وحلقها يجف، لكنه قال: أريدك أن تحدثيني عن نفسك، عن حياتك، عن أهلك، وأصدقائك..

ارتجفت شفتاها وحاولت أن تبسم لكنها لم تستطع، وظهر الحزن والألم في عينيها وهي تقول: لا شيء يستحق الذكر، لقد مات أبي وأمي، وانقطعت صلتي بعدهما بأهلي، وحصلت على منحة دراسية..

قاطعها قائلاً: لا، ليس هذا ما أريد أن أسمعه، أريدك أن تحكي لي عن طفولتك، مدرستك، أصدقائك، الأرض التي ولدت وتربيت عليها..

نظرت إليه بحيرة.. أيجبها إلى هذه الدرجة؟!!

هل وقع في غرامها بمجرد أن رآها وتحدث إليها لبضع دقائق في لقاءات متفرقة؟

استرخت أعصابها المشدودة، وابتسمت أخيراً عندما اضطلع على الفراش وأسند رأسه إلى كفه واتكأ على ذراعه، وأخذ يصغي إليها باهتمام وهي تحكي عن ذكرياتها السعيدة وطفولتها البريئة..

لم تدرك من الوقت وهي مستغرقة في الحديث الجميل الذي أضاء بداخلها شمعة من السعادة.

كانت تغالب النوم وتثاءب وهي تكمل حكاياتها، وابتسمت عندما تذكرت شهرزاد وهي تقص الحكايات ليلاً لتسلي شهریار، وبين كل جملة وأخرى تثاءب وهي تتوقع أن تسمع ديك الصباح يؤذن لقدم الفجر.

أراحت رأسها على الوسادة بعد أن غلبها النوم، وأغلقت عينيها على ابتسامة ناجي الحانية التي أشعرتها بالاطمئنان والاسترخاء، وهي تقنع عقلها أن زواجها منه ليس بشعاً ولا خيفاً.

وأن حسن المعاملة والتعود قد يعوضان قليلاً من افتقاد الحب.

وما بين النوم واليقظة استمعت إلى كلمات هامسة حانية تتسلل الى أذنيها، لم تتبين من حروفها سوى كلمة الحب.

أدركت أن ناجي يريد أن يخبرها كم يحبها، فانطفأت جذوة الخوف والقلق بداخلها، ونامت قريرة العين تأمل أن تتقبل حياتها الجديدة معه.

(٣)

(الشام بمياتها وحلب بأكلاتها وحمص ببناتها)..

أسندت ظهرها إلى الأريكة، وأخذت تحديق به لبرهة، وهو يبتسم متسللاً من تلك الدهشة التي ارتسمت في محياها، فبدد دهشتها بصوت تجلت فيه العاطفة: مقولة سمعتها من أحد الشوام يوماً في المطعم، ولم أختبر صدقها سوى الآن، محظوظ هو من يتزوج من حمصية.

لف ذراعه حول كتفها، وتخللت أصابعه شعرها الأسود الناعم، وهو يهمس في أذنها بعبارات الغزل والحب: لم أكن أعتقد أنني سأعرف يوماً طعم السعادة، كنت لي نوراً أضاء ظلام حياتي، وابتسامة بددت غيوم الحزن عن قلبي.

ضمها إلى قلبه، وهي صامته تفكر، هي تدرك مدى حبه لها، لكنه لا يدرك ذلك الصخب العارم الذي يملأ رأسها، صخب تعجز معه عن التركيز في أحاديثه لها أو كلمات الحب والغرام التي يبثها إياها.

مشدودة بقيود من حديد وسلاسل من فولاذ إلى ماضيها، وكل كلمة أو حوار أو لفظة أو حركة تصدر منه تردها بشكل ما إلى جزء من الماضي.

حتى صارت تعيش في ذكرياتها أكثر مما تعيش معه، كما لو كان الماضي هو الحقيقة الثابتة، وحياتها معه ما هي إلا أطياف تمر مروراً عابراً بخاطرهما.

كان الأمر يستنزف روحها ويقتل مستقبلاً قد يكون هو الأفضل لها.

لكنها لم تعد تملك من أمرها شيئاً أمام سطوة الماضي وأسره لروحها، كل ما تستطيعه هو ألا تبدي له ذلك العذاب المتنامي في قلبها، وقبو الشقاء الذي تحيا فيه روحها، فقد اختارت أن تمنحه قدر ما تستطيع من سعادة مزيفة، فما منحه لها ليس بالقليل.

تنحنت ثم ابتعدت عنه قليلاً: أخشى أن أفسد عليك لحظات السعادة، لكنني مضطرة إلى الذهاب غداً إلى الجامعة، فقد يؤثر الغياب على تحصيلي.

قال بابتسامة خافتة تمزج بالإحباط: أعلم، وعليّ أن أجهز ثقلاً من حديد أضعه على قلبي ليكبت ذلك الشوق العارم إليك حتى عودتك.

حاولت الابتسام قدر ما تستطيع، لكنها لم تستطع أن تجد ما تقوله، فخفضت وجهها وأخذت تعث بأظافرها، ثم قالت بعد صمت: غداً ستأتي أمانة لتصحبني إلى الجامعة، هز رأسه متفهماً وابتسم: يسعدني أن أفلكما.

وضعت لين كل همها في الدراسة، وصارت هي شغلها الشاغل، وأي شيء عداها يأتي في المقام الثاني والثالث، كانت تحمد الله أن ناجي تفهم الأمر ولم يغضب من انشغالها عنه، ولا غيابها لفترات طويلة عن البيت، وقد التحقت بصف لتعلم اللغة الفرنسية وإتقانها. وكانت تقدر له أنه لا يزعجها كثيراً بمطالبه، بل إنها أحياناً قد تنخرط في الدراسة ويأخذها الوقت لدرجة أن تنسى حتى أن تأكل.

لكن ناجي لم يكن ينسى، فيأتي ليتزعمها مما يشغلها ليطعمها بيديه. وأحياناً كان ذلك يزعجها على عكس المتوقع، وأحياناً يظهر غضبها رغماً عنها من تصرفاته، لكنها تعود فتندم وتعتذر وتتعلل بضغط الدراسة وصعوبتها، وصعوبة اكتساب اللغة التي تحتاج إلى جهد وتعاهد مستمر.

لكن الحقيقة هي أن كل تلك الحيل التي تمارسها على مشاعرها وعقلها، كانت تنكشف عندما تجربها أطياف الماضي في نهر الذكريات، فتبدأ مشاعرها في التذمر وإبداء الغضب إذا ما حاول ناجي أن يعيدها لواقعها ويردها لواجباتها.

ثم يجرفها الماضي إليه من جديد في أوقات الفراغ، والأوقات التي تكون الوحدة فيها رفيقة لها. خرجت إلى ساحة الجامعة وسارت متجهة إلى باب الخروج، لكنها تهادت في مشيتها عندما أتاها صوت صخب وضحكات الطلبة والطالبات العرب وقد تحلقوا في الساحة، ودون أن توجه بصرها إليهم عرفت فيهم أصوات أحمد ورغد وصالح، تظاهرت باللامبالاة واستمرت في طريقها، فسمعت صوت صالح يمزح أحمد: خطأ، نطقك خطأ، هي بالكسر وليست بالضم.

أحمد مازحاً: وما أدراك أنت؟ لن تستطيع أن تنطقها كما ينطقها أهلها.

صالح: افهم يا غبي، في كل المراجع القديمة هي بالكسر وليست بالضم.

أحمد: أكسر رأسك ولا أكسرها، هي بالضم يا أبله، حووومص.

شعرت بعدم الرغبة في الرحيل، رغم أن ناجي ينتظرها في المسرح ليعودا إلى البيت سوياً، فجلست على أحد المقاعد في الساحة، وأصغت السمع للتجمع القريب منها.

أحمد: الحومصاوية اخترعوا حلاوة الجبنة ولغة الواو، لن تجد بلداً اشتهر بالواو مثل حومص، إنه الحووب.

انفجر الضحك بين الجميع، ووجدت لين نفسها تبتسم ثم تضحك دون أن تلتفت، ومرة أخرى عاد إليها طيف العم طلال، فترقق دمع الحنين في عينيها وهي تسمع رغد تسأل أحمد: يقولون إن حلاوة الجبنة أصلها من حماة.

صرخ أحمد معترضاً:

بل هي حومصية، لقد كادت الحرب تقوم لأجل هذا.

في حومص ثوابت لا يمكنك مسها، حلاوة الجبن، ولغة الواو، وفريق الكرامة.

أخذ يدق الأرض بأقدامه بمرح بإيقاع منتظم: دج دج دج الكرامة.

سرحت لين مع أطياف الماضي، عندما يلتقي الفريقان في النهائي، لا ينام أهل حمص.

في الغالب يكون الفوز للأزرق، ولكن في ذلك اليوم امتلأت الشوارع بالرايات الحمراء، فأخيراً وثب الحصان الأحمر، وانتشرت كتائب التشجيع تجوب الشوارع والحارات، تهتف باسم فريقها الفائز على إيقاع (الدربةكة)، وبعد أن أنهت لين جولتها مع يزن وخالد في شارع الدبلان، أخذها يزن إلى السوق المسقوف، حيث يقع دكان الملابس الذي يمتلكه والده، لكنه لم يجد سوى أخيه يحيى في الدكان، فسأله: أين ذهب الوالد؟

وقبل أن يجيب، سمعوا أصوات شجار صاحب ليس ببعيد، فهتف خالد وهو يشير نحو الشجار: العم طلال بالتأكيد.

اتجه الثلاثة صوب الصوت حيث يزداد الزحام تدريجياً، حتى وصلوا إلى موقع الشجار، وكما تنبأ خالد، فقد وجدوا العم طلال يفصل بين فريقين من المشجعين رافعاً عصاه الأبنوس لأعلى، وصوته (يُلْعَلع) في المكان وهو ينصح الشباب بالتهذيب والأدب والروح الرياضية مع بعضهم البعض، ونبذ الشجار والتعصب.

كان العم طلال رجلاً مسموع الكلمة، له هيبة ومحبة في قلوب الجميع، ويتحلى بخفة ظل وحب للنكتة والطرفة كأغلب أهالي حمص.

واستطاع الرجل بلباقته وحزمه أن يوقف الشجار الذي نشب بين مشجعي الفريقين، وانصرف الشباب بسلام، كُلُّ إلى حاله.

هم العم طلال بالعودة إلى دكانه، وعندما أبصر لين أشرق وجهه لها بابتسامة حانية، واصطحب الثلاثة عائداً إلى الدكان، وخالد يشاكسه كعادته كلما التقيا، فخالد يشجع الكرامة والعم طلال يشجع الوثبة، ودائماً ما تثير محاوراتهما ضحك لين ويزن، وخاصة عندما تتجلى خفة ظل العم طلال ويفضح خالداً بنكاته الظريفة، فما من أحد يجالس العم طلال ولا يكف عن الضحك.

وفي دكانه لفت نظر لين وجود عصا جولف معلقة على الجدار بجوار الملابس المعروضة، فسألته عنها متعجبة، فقال ساخراً: أجهز نفسي لمشروع حلم حمص.

تساءل خالد: وما علاقة مضرب الجولف بمشروع كهذا؟

قال: ألا تدري أن الدكتور سيحول البساتين إلى ملاعب جولف؟

عليّ أن أتمرّن جيداً حتى إذا ما أخذوا أرض السوق وحولوها إلى أبراج وعمارات، والبساتين إلى منتجعات، أنكسب عيشي من الجولف

هيبه، غداً نشرب عصير كرات الجولف بدلاً من عصائر الفاكهة التي تأتينا من البساتين.

ضحك خالد: يقولون إن الجولف رياضة الملوك.

رد طلال مازحاً: وأنا لها أيها الظريف.

العم طلال لم يكن ساذجاً ولا يلقي النكتة جزافاً، بل يعنيها تماماً ويطلقها صوب مكانها الصحيح، فالنكتة لديه هي احتجاج ساخر على أوضاع خاطئة لا يرضى عنها، وفهمت لين مقصده عندما اختصها بنكتة: اثنين حمامة فاتوا على كلية الطب، واحد طلع محاسب والثاني محامي.

علت الضحكات من القلب، ولين ترفل في السعادة، وقام العم طلال بزجر يزن: وأنت؟

ماذا تفعل هنا؟

يزن: ما بك يا أبي؟ هل يسرك أن أعود إلى البيت؟
 قال طلال ساخرًا: لا تؤاخذني في هذه الكلمة، أنت عديم الذوق، هيا خذها وارجل.
 سألته وهي تدمع من كثرة الضحك: نرحل إلى أين يا عماء؟
 قال: عروس وتسأل إلى أين؟ إلى الغوطة، إلى شارع العشاق.
 (حليّ تمك بكنافة من عند المعراوي).

قام يزن وهو لا يستطيع أن يقاوم ضحكه، وأشار إلى لين كي تقوم معه، وكاد خالد يتبعهما، فأحاط طلال رقبتة بذراعه: لا، أنت ستبقى معي، سأصطحبك إلى رامي في الحمرا يخلق رأسك وينظف عقلك.

قال خالد وقد اختلطت كلماته بالضحك: ستكدرني أمي.

رد بحزم: دع أمك وشأنها، سأرسل أم يزن لتدفع لها ديتك.

رغم روحه المرحّة، لكن قلبه كان يحمل همًّا كبيرًا، فالعم طلال من أكثر الناس الذين تضرروا مما حدث في السنوات العشر الأخيرة، هو وأسرته وأولاده: يزن وياسين ويحيى وياسمين، كان يعيش في الريف ويعمل بالزراعة، لكن موجة جفاف ضربت البلاد لأكثر من ثلاث سنوات، فاضطر لترك الزراعة والهجرة إلى المدينة، وساعده والد زوجته على امتلاك محل بالسوق والاشتغال بالتجارة، حتى تخرّج يزن في الجامعة وسافر إلى الخليج.

كانت الذكريات تتلاعب بها وتأخذ عقلها حيث تريد، لكن جسدها كان يسير بآلية في الطريق.

عندما وصلت إلى المسرح جلست في مقاعد المتفرجين تنتظر ناجي حتى ينتهي من تدريباته مع أمل، لكنها انضمت إليهما عندما طلب منها العون لتقنع أمل بتناول شراب الأعشاب، واستجابت لها أمل بيسر عندما قالت لها ببساطة: إنه ليس سيئًا أبدًا.

ثم قرنت كلماتها بالفعل، وتناولت رشفة من الشراب، فتناولته أمل من يدها برضا، وناجي يراقبها بدهشة وتعجب.

وضع ناجي كفيه في خصره وقال بغیظ: رائع أن وجدت أخيرًا من يستطيع إقناعك، رغم أنك عذبتني طوال اليوم، ورفضت تناوله من يدي.

قلدت وقفته ووضعت كفيها في خصرها: لو كنت شربت منه لكنت قلدتك، أعلم أنك تكره هذا الشراب وترفض تناوله، فلمَ تريدني أن أفعل العكس؟

ابتسمت لين: كلام منطقي، كان عليك أن تجربه أولاً.

ارتسم الاشمئزاز على وجهه: أوه! لا! إنه سيء الطعم.

قاطعهم دخول أحد الأشخاص، قدمه ناجي إليها بمرح: إنه سعد، وكيل أعمالي الفنية وخرج العرض وصديق الطفولة وأيام الطيش.

حياها سعد قائلاً: مرحباً سيدتي، كم تمنيت أن أكون موجوداً في حفل زفاف ناجي، لكن مع الأسف كنت خارج البلاد في جولة مع أحد الفنانين، وناجي لم يستطع الانتظار لحين عودتي.

تقبلت لين تهنيئته بزواجها، واصطحبها ناجي ومعهما أمل إلى خارج المسرح، وقفت أمل رافضة أن تركب، حاول ناجي أن يستنطقها عما تريد، لكنها هزت رأسها بدلال الأطفال، فتبادل مع لين نظرات باسمة وهو يشير إليها حائراً أن تنصحه كيف يتصرف.

هزت كتفيها بأنها لا تدري، فسأل أمل: حسناً أيتها الأميرة الصغيرة، مُريني.

أشارت إلى محل قريب، فhez رأسه متفهماً، لكنه قال معترضاً: مثلجات؟! عزيزتي، اقرب موعد الحفل، ولست على استعداد لأن أفاجأ بإصابة حنجرتك بالبرد.

وأدركت لين مما حكته لها أمل سابقاً أن تناول الثلجات هي عاداتهما كلما غادرا المسرح، فتساءلت بدهشة: وفي الشتاء أيضاً؟!

لم يفلح في إثناء الصغيرة المدللة عن رغبتها في تناول الثلجات في الشتاء، فذهب ناجي ليشتري الثلجات.

كانت الساحة أمام المسرح تمتلئ بالحمام الذي تجمع على الأرض ليلتقط حبوباً يرميها له المارة.

وقفت لين تراقب أمل وهي تطعم الحمام، وابتسامة آمنة مطمئنة تزين ثغرها، فالحمام هو رمز للسلام، لا يتواجد إلا في المناطق الهادئة، ولا يتجمع إلا عندما يشعر بالأمان.

شردت عيناها خلف الحمام وهو يجري على الأرض.

تحب الحمام، فهو صديقها منذ طفولتها، كانت تتعلق بكف أبيها يوم الجمعة وتذهب معه إلى ساحة جامع (سيدي خالد) خصيصاً لتطعم الحمام.

ويحكي لها والدها هي وأخيها عن بطولات سيف الله المسلول الذي سكن بلديها ودفن فيها، وتسميته لخالد أخيها على اسمه بعد معارضة شديدة من أمها، فقد كانت تريد تسميته مصطفى، تيمناً بالمصطفى صلى الله عليه وسلم لكنها رضخت مضطرة بعد أن أعجب اسم خالد الجد والعائلة.

رفعت عينيها إلى أعلى لتعانق روحها شوقاً مئذنتين عاليتين تسبحان في زرقة السماء، وقبة معدنية كبيرة حولها قباب صغيرة تلمع تحت ضوء الشمس.

ارتجفت ألماً من المفاجأة، فلم تجد أمامها سوى فراغ واسع وطريق ممتد، وأدركت أنها في باريس لا حصص.

أخذت تلهث فرقا، وملاً الدمع عينيها، وحاولت جاهدة أن تتغلب على أحزانها لأجل ألا تلاحظ الصغيرة، لكن ناجي أدرك حين عودته تغير مزاجها وألم روحها البادي في دمع عينيها، فسألها باهتمام المحب: أحدث شيء؟

هزت رأسها نافية، فلم تكن بها قدرة على الكلام، وطوال الطريق إلى البيت كانت تجلس في السيارة شاردة واجمة، تستمع بلا تركيز للكلمات ناجي وأمل ومشاكساتها، وصخب الماضي يدوي في عقلها ويغطي على أي صوت آخر

ليس أمامها سوى أن تدفن همومها بالانخراط في الدراسة، وتبعد ماضيها قدر ما تستطيع عن عقلها بالانشغال في حاضرها ومستقبلها.

فلا طريق واضح أمامها سوى أن تكون طبيبة، ولا أمل لها في مستقبل لا تستطيع فيه الاعتماد على نفسها ومساعدة غيرها، فما زالت غير راضية عن الطريقة التي تزوجت بها، يراودها إحساس دائم بأنها مجرد لعبة اشتراها شاب غني ليتسلل بها.

ربما كان هذا الإحساس تحديداً هو ما يصنع ذلك الحاجز الخفي بينها وبينه، ولا يجعلها تتقبل ما يقدمه إليها بقبول حسن ورضاء نفس.

ولم تكن تدرك وهي في خضم صراعها مع نفسها لإبعاد الماضي عن حاضرها أنه قد يتجسد

أمامها يومًا في أسوأ صورة، ويبحث لها بأشد مخاوفها ليكدر عليها حاضرها.

«مرحبًا لين، صدفة عجيبة أن نلتقي هنا بعد كل تلك المدة».

انتفضت مرتعبة من ذلك الصوت الذي يذكرها بأهوال مضت وأيام نحسات، وعقلها يتردد فيه سؤال، أهو حقيقة أم ذكريات؟ هل جرفتها دوامة الماضي إلى القاع وابتلعها الماضي بداخله؟

هل جُنْتُ؟ هل تغزو الخيالات والأوهام عقلها؟

رفعت عينيها بتوجس عن الكتاب الذي كانت منهمكة في قراءته، لتطالع الوجه الكريه الذي تبدَّى لها من قعر جحيم الماضي.

تلفتت حولها لتتأكد أنها ما زالت في مكتبة الجامعة لا المخيم.

ابتسم ابتسامته اللزجة المقيتة، هو يدرك جيدًا حجم المخاوف التي يستثيرها في مشاعرها. «أين ستذهبين وعنقك مقيد بسلاسل حديدية طرفها هنا؟ وإن ذهبت إلى آخر الأرض، فلن تفلتي».

تجاهلت يده الممدودة بالسلام، وحملت أغراضها بارتباك ورحلت مسرعة وكأن شياطين الأرض تطاردها.

ولم تنتبه إلى عيني أحمد اللتين ترقبان المشهد بتربص وقلق، وتتفحصان ذلك الغريب بارتياب.

كانت عاجزة تمامًا عن السيطرة على جسدها المرتجف وقلبها المرتعب، وهي تدلف إلى البيت في وقت مبكر عن موعد عودتها، فلم تكمل يومها في الجامعة، ونسيت درس اللغة.

كل ما كان يشغلها هو الهروب واللجوء إلى مكان آمن، ولم تهتم بالسؤال عن سبب نوم زوجها حتى الظهيرة، فلا شك أنه قضى الليل في المسرح في تدريباته للاستعداد لحفلته القادمة التي لا تدري عنها شيئًا، ولا تتذكر في أي يوم ستكون.

شعرت ببرودة في أطرافها رغم جو البيت المكيف، فبدلت ملابسها واندست في الفراش الوثير بجوار ناجي، تلتمس منه الدفء والأمان.

كان يوليها ظهره ويغط في نوم عميق، لكنها أدركت أنه أحس بها عندما التف بجسده وتوجه إليها واحتواها بين ذراعيه، فاخترأت بين أحضانها، وسال دمع الأسي على حالها، فأين تذهب والماضي يسجنها بداخله؟

همس لها بصوته الدافئ فتسللت كلماته الحانية إلى أعماقها: لا تخافي، أنت آمنة، لن أسمح لمخلوق أن يقترب منك أو يزعجك، سأبذل كل جهدي لأخرج الأحزان من قلبك، وأحو الخوف الساكن في عمق عينيك.

كانت كلماته كدواء يهدئ من خوفها ويطمئن روعها ويثبها الأمن والسكينة، فكفكت دموعها واستسلمت لنوم هادئ مطمئن.

ناجي يبذل ما يستطيع ليهدئ من روعها، لكن ما حيلته أمام جبروت الخوف وقسوة الألم؟ فالخوف ميراث ثقیل تتوارثه النساء جيلاً بعد جيل، كما كانت أمها من قبل تستصرخ خالداً من شدة الخوف ألا يفعل.

أمها التي تحلت عمرها بالهدوء والرزانة والصوت المنخفض، لأول مرة تراها تصرخ في خالد وتقف في وجهه كنمرة ضارية تحمي صغارها من وحش مرعب. مما اضطر خالداً أن يستعين بالعم طلال ليتدخل لإقناعها.

لكن الأم التي كانت تكن كل الاحترام لزوج أخت زوجها الراحل وعمة أبنائها لم تستجب لكلماته، وصاحت: إن لم يكف عما يفعله ويغلق ذلك (الكمبيوتر) ويتوقف عن الحديث عما يحدث في تونس ومصر، أقسم بالله سأكسر (الكمبيوتر) على رأسه وأحبسه في غرفته، ولا خروج للجامعة ولا غيرها.

حاول العم طلال أن يتحلى بأكبر قدر من الهدوء: يا أم خالد، ولدك رجل، ولا يصح معاملته كطفل.

قالت بانفعال: فليتصرف إذن كالرجال، ولا يرشد المصائب إلى طريق بيتنا، أخبره أين نعيش، يبدو أنه لا يدرك أن هناك اثنين مخبرات بين كل ثلاثة تقابلهم.

العم طلال: يا أم خالد، الله يرضى عليك أخفضي صوتك.

قالت: حسناً، أخبره لم تريدني أن أخفض صوتي، ربما لا يفهم.

قال: هو يعرف كل شيء، فلا داعي للضغط عليه.

قالت باكية: أخبره عما فعلوه بطل الملوحي وهي كانت تجلس مثله على (الكمبيوتر)، صبية لم تتجاوز السابعة عشرة أخذوها فقط لأنها تكتب على (الكمبيوتر)، بل وشوهوا سمعتها وسمعة أهلها بهتاناً.

قال: يا أم خالد..

قاطعته: وأطفال درعا، ما فعلوا شيئاً في حياتهم سوى أنهم كتبوا على جدار المدرسة: «جاك الدور يا دكتور».

التفتت إلى خالد وقالت: تظن أن باستطاعتك -أنت أو غيرك- أن تكرر ما حدث في تونس ومصر؟ أنت لا تدري شيئاً عن نوعية الوحوش التي تسكن ديارنا من أربعين عاماً وأكثر.

أخبره يا أبا يزن، أخبره أن يتحلى بالتعقل ويتعد عن المصائب، وإلا.. سيحل عليه غضبي وأشكوه لربي.

تركتهم في الصالة ودخلت إلى غرفتها وهي تقول باكية: ذنبي وذنوب أختك سيطوق عنقك إلى يوم القيامة إن حدث لنا شيء بسببك.

أغلقت الباب بقوة، ووقف الثلاثة معاً، والصمت يحفهم بردائه الكئيب.

سألت لين: ما العمل يا عماء؟ أمني غاضبة للغاية، وأخشى أن ترتفع نسبة السكري في دمها.

خالد: كيف السبيل لإقناعها أن التغيير قادم لا محالة؟ وأن ما حدث في مصر وتونس ليس سوى شرارة قدحت ناراً مشتعلة من البداية؟ وأن بلد كسوريا بكل ما فيه من ظلمات، ما كانت لتبقى كما هي أمام كل ما يحدث في البلاد المجاورة؟

قال طلال بأسى: ما من أحد عاش في حماة يمكن أن يصدق أن هناك خلاصاً من ذلك الطاعون الذي ابتلينا به من أربعين عاماً وأكثر، خاصة والدتك.

خالد: يجب أن أذهب يا عماء، لو لم نناصر أهل درعا في انتفاضتهم فسيأتي علينا الدور، لكن وقتها لن نجد من ينتفض لأجلنا.

لا يمكن أن نقبل بذلك الذل، كيف لنا أن نرفع رأسنا بعد أن ضُربت الفتيات بنات الأكارم
أمام وزارة الداخلية؟

وكيف نضمن ألا يحدث ليحيى وياسين كما حدث لحمزة الخطيب وأطفال درعا؟
هز العم طلال رأسه بأسف: ليس لها من دون الله كاشفة.

خرجت حمص كلها تهتف في الشوارع والميادين: «بالروح.. بالدم.. نفديك يا درعا».
خمسة عشر شخصاً أغلبهم من الأطفال يتم اعتقالهم وتعذيبهم بوحشية، والتهمة: الكتابة
على الجدران!

«جاك الدور يا دكتور».

عبارة خطيرة على جدار مدرسة تستحق أن يعذب لأجلها خمسة عشر طفلاً تعذيباً وحشياً
وتقطع لحوم أجسادهم، ويهان أهاليهم الكرام ويذلوا ويطعنوا في شرفهم وعرضهم!

ضرب الفتيات واعتقلهن بسبب الكتابة على الإنترنت أو للمطالبة بالإصلاح والإفراج
عن المعتقلين، هو الطريقة الوحيدة لتعامل النظام مع البشر.

سحق أي صوت للمعارضة وسياسة تكميم الأفواه والاعتداء على الأرواح والأراضي
والممتلكات، هو أساس الحياة وطريقة التعامل مع الناس.

سدت كل السبل وانعدمت كل وسائل الإصلاح، فالحاكم لا يسمع، والحكومة لا تستجيب
لمطالب الناس المشروعة،

فكان لا بد من الثورة.

«يلعن روح الثورة، خربتم بلادنا، هدمتم ديارنا، قتلتمونا وشردتمونا، شو بدكن تعملوا
فيينا أكثر من هيك».

انتبهت لين من شرودها على ذلك الصراخ الغاضب الذي قاطع أحمد، وهو يقف في صدر
قاعة المحاضرات وقت الاستراحة يشرح للطلبة الفرنسيين والعرب قضيته، والأسباب التي
دفعتهم للثورة.

أخذت تتأمل الطالب الذي انتفض غضباً يعارض ما يقوله أحمد، واشتعل المكان بنقاش حاد وتراشق بالاتهامات

رغد: وجه كلماتك للأنظمة التي تقتل شعوبها.

الطالب: أنتم من أشعل ذلك الجنون، من دفعكم ودفع لكم لتستفزوا الوحوش من جحورها؟

قال شاب يقف بجوار رغد: لا نحتاج من يدفع لنا لنطلب حقنا في الحرية.

رغد: انظر حولك وتأمل كيف يعيش الآخرون، هل ترى حاكمًا يقتل شعبه إلا في بلادنا؟ حملت لين حقيبتها وغادرت مكانها، وفي طريقها للخروج مرت من أمام أحمد، والتقت عيناها بعينه لترى في عينيه نظرة تحمل الكثير من العزم، وهو يقول بثبات: الشعب السوري ما بينذل.

أسرعت إلى الخارج، كانت تشعر بالحاجة للسير في الهواء الطلق رغم برودة الجو، قادتها قدماها إلى نهر السين.

عجباً! منظر الماء يذكرها بالعاصي.

ذلك الجاري عبر الأزمان، المتدفق بغزارة الذكريات، النابض بالخير والحب، يسير عكس اتجاه جميع الأنهار، يجري متحدياً كل العقبات، مخالفاً كل التوقعات.

كشعب خرج في ١٨ آذار يتدفق صوب الحرية، متحدياً الرصاص، مخترقاً جسور الخوف، هادماً سدود اليأس.

«الشعب السوري ما بينذل».

كلمات العم طلال تتردد دائماً على لسان أحمد، ليبقى الماضي حياً في حاضرها لحظة بلحظة.

وقفت تنظر إلى مياه النهر وهي تهتز وتلمع بلون حبات الماس، وتكون دوائر صغيرة مع كل قطرة مطر تنزل من السماء، مدت كفيها تستقبل قطرات الخير، تبسم لقبس من السعادة أضاء شيئاً يسيراً من روحها.

تمازجت دموعها بقطرات المطر على خديها، وهي تدندن بكلمات سمعتها كثيرًا من العم
طلال:

والعالم كله منا..
وإحنا الي أكرمنا الضيف..
يقعد ويرتاح عنا..
تلج الشتاء عنا صيف..
مسا الخير.. مسا الخير..
الله يمسيكم بالخير..
والخايف يأمن عنا..
وإحنا لو جردنا السيف..
يرجع بالدم محني..
حنا عقيل.. حنا وحنا..
والخاين يرحل عنا..
حنا عقيل.. حنا وحنا..
حمصية واسأل عنا..

(٤)

يومًا ما..

كانت العودة إلى البيت تجلب الفرح والسرور..

استقبال أمها لها، مشاكسات أخيها، الطعام الشهى الساخن، اللعب مع الرفيقات
والجارات..

تلك الوجوه التي تحبها وتألّفها..

الآن..

أصبحت العودة إلى البيت شاقة على نفسها، ثقيل على روحها، تحمل لها ألف هم.
تبقى في القاعة بعد انصراف الطلبة والطالبات، متعمدة إضاعة وقت إضافي بعيداً عن البيت،
تبقى محدقة في اللا شيء، حتى لا تجد مفرّاً من الرحيل، ولا تجد مكاناً تذهب إليه سوى بيت ناجي.
إنه حسن المعاملة، يُظهر الحب والعطف في كل مناسبة وبكل وسيلة، لكنه أبداً لم يستطع
ولوج قلبها، ثمة حاجز بينها وبينه يكبر يوماً بعد يوم، تحيا معه كزوجة، وتحاول قدر ما تستطيع
أن تفي بواجباتها تجاهه..

لكن قلبها لا سلطان لها عليه، لا تستطيع أن تقوده ليقبل بحب زوج فرضته الظروف
السيئة عليها..

انزعها رنين هاتفها من استغراقها في أفكارها، لتجد اسم ناجي في صدر الشاشة..

ترددت قليلاً، ثم أجابت مكالمته.

فهمت أنه يطمئن عليها، فهي لم تأتِ إلى المسرح كما اتفقا صباحاً ليعودا سوياً إلى البيت،
فتعللت بانشغالها في البحث في المكتبة ومرور الوقت عليها دون أن تلاحظ، فلم يعلق، بل
أخبرها أنه سيمر عليها ليقبلها إلى البيت.

حملت أغراضها بضجر، وخرجت من القاعة بتمهل، وهي تشعر بالضيق من نفسها لتلك
المراوغة الصغيرة التي افتعلتها لتتأخر عليه.

وخشيت أن يفتح ذلك الباب للمزيد من المراوغات، فتزلق يومًا إلى مستنقع الكذب وتفقد احترامها لذاتها.

انفضت كمن لدغها عقرب، وتجمدت لحظات عندما وقعت عيناها عليه.

إنه ذلك البغيض وابتسامته الشامتة الكريهة، يستلذ بإثارة خوفها ويستمتع بتوترها، مجرد رؤية وجهه تعيد لها أيامًا بشعة تحتاج إلى عملية جراحية لإزالة آثارها المدمرة.

تكرهه وتكره خوفها منه، ويؤلمها إحساسها الدائم بالتهديد كلما تذكرت وجوده معها في نفس المكان، فقد عرفت أنه التحق بالدراسات العليا في الجامعة، وسيصبح من رواد المكان.

أيام نحسات وسنوات مظلمة تنتظرها باجترار الكوابيس والأحداث المفزعة، والتهديد بفضح ماضيها.

تجاوزته وأسرعت الخطا إلى الخارج كما لو كانت الذئب في أثرها، وبمجرد أن رأت سيارة ناجي حتى قفزت فيها تلوذ بها من خوفها، ومرت السيارة من أمامه وهي تتابعه ببصرها وهو يتسم ابتسامته الشامتة المقيتة.

طوال الطريق وناجي يتحدث إليها بشكل متواصل، وهي عاجزة عن التركيز في حديثه أو استيعاب ما يقول.

ما وصلها هو أنه يتحدث عن حفلته التي اقرب موعدها، ومشقة التدريبات والإرهاق اليومي في المسرح.

ليت الحياة بمثل تلك البساطة، أن ينشغل الإنسان بالتافه من الأمور، فالجدية قد تكون قاتلة أحيانًا.

ليتها تستطيع أن تبوح له بما يؤلمها، كلما حاولت تتوقف الكلمات في حلقها ولا تستطيع، هل سيقدر ما حدث لها ويتفهمه؟ لكن غيره لم يفعل، فلم تجازف بإخباره إذن؟

توقفت السيارة أمام المطعم، فقال باسمًا: اسمحي لي أن أدعوك على عشاء خاص في مكان خاص له نكهة ورائحة خاصة.

تساءلت: هنا؟ في المطعم؟

هز رأسه وامتلاً صوته بالحنين: هنا شيء ما يجمعنا.

أكمل وهو يمسك بيدها ويصطحبها متمهلاً إلى داخل المطعم: هذا المكان يحمل لي ذكريات غالية، هنا أكون على راحتِي، أستمتع بالعفوية والاسترخاء، هنا أشعر بالانتماء وأشتم رائحة الأُحبة.

عندما جلسا حول منضدته المفضلة، أدركت أنه دبر لها احتفالاً صغيراً بالاتفاق مع العاملين في المطعم، حاولت أن ترسم السعادة على ملامح وجهها، لكن شغلها سؤال: كيف عرف بتاريخ يوم مولدها؟

أدركت مدى سخافة السؤال عندما أجابها ببساطة: من عقد زواجنا.

كان الاحتفال بسيطاً وجميلاً، استشعرت فيه المحبة والإخلاص لناجي من كل العاملين في المطعم، ومدى الود والاحترام المتبادل بينهم.

وبعد أن أطفأت شمعة عمرها الخامسة والعشرين، كان هتاف الجميع بمطلب واحد، وهو أغنية من ناجي.

كان صوته شجياً يرسل موجات من السعادة والمتعة في المكان، وهو يردد أغنية ييوح لها فيها بعشقه، وعينه ترسلان رسائل الغرام يقرأها كل من حوله.

تأثرت بذلك الجو الرومانسي الحالم، وبمحاولات ناجي للتعبير عن حبه لها، لكن فجأة في منتصف الأغنية جُرَّ عقلها جَرّاً إلى الماضي، وشردت عن كل ما حولها، وكأنها سقطت في بئر عميقة.

ثم انتفضت من ذكرياتها عندما فوجئت به يجلس أمامها ويحدثها، وهي لا تتنبه لما يقول، وخيبة الأمل ترتسم على ملامحه.

أدركت أنها لم تتنبه سوى للقليل من أغنيته، وما أخرجها أكثر هو أنه أدرك ذلك.

كانت نادمة لجرح مشاعره، لكنها تعجز عن اجتياز السور الذي بين مشاعرها وبينه، فبخلاف حبها القديم الذي يطبق بقبضته على قلبها، لم تكن راضية عن ذلك الرجل الذي تزوجته، يشتعل بداخلها الغضب والنفور كلما اقترب منها، وتتحول لياليها إلى صراع دائم لمحاولة إقناع قلبها بقبوله، أو حتى السيطرة على جوارحها حتى لا تبوح بما تخفيه في قلبها.

صراع قاس تكابده وحدها، ولا تدري إلى متى تستطيع الصبر.

كانت تتأمل نظرات الحب في عينيه، وفي عقلها يجتدم سؤال مصيري:

هل يمكن أن تتقبل رجلاً يستفزها اهتزاز جسده الدائم على مشيته الإيقاعية؟ وتكره حركات يديه المتناغمة كلما تحدث أو انفعّل؟

أيمكنها أن تحترم رجلاً يصدمها بوشم بغيض على كتفه كلما خلع قميصه أو بدل ملابسه؟ إلى متى ستكتنم غيظها من أسلوب حياته الذي يقضيه ما بين دندنة مستمرة أو غناء متتابع أو صفير ملحن لا ينقطع؟

لم يخطر ببالها يوماً أنها يمكن أن تتزوج من مُغنٍّ، كانت فكرة مستحيلة تماماً، والآن هي حقيقة واقعة.

عندما غادرت أفكارها شعرت بوخز من ضميرها لتلك النظرة المحبطة التي تملأ عينيه، فما ذنبه ليتحمل صراعها المريع مع نفسها ورواسب ماضيها المؤلم؟

أمسكت بيده محاولة تقديم اعتذار مناسب، لكنها لم تستطع أن تقدم أي مبررات سوى الإرهاق من الدراسة والقلق من المستقبل، وخوفها من عدم إتقان اللغة أو الفشل في عامها الدراسي الأول.

هز رأسه متفهماً، لكنها تدرك جيداً من ملامحه أن ردها زاد الأمر سوءاً.

جافاها النوم في تلك الليلة، والدموع تترى فوق وسادتها.

كيف أمكنها أن تفسد الأمر إلى هذه الدرجة؟

في اليوم التالي أنهت ساعات الدراسة، وقبل أن تذهب إلى المسرح اشترت له هدية، وقررت أن تقدمها له اليوم.

يجلس في السيارة، كان هادئاً صامتاً على غير عادته، فطلبت منه أن تسير قليلاً على الجسر، وبرغم الإرهاق البادي على وجهه وافق على الفور.

وقفت بجواره تنظر للنهر، صمته وهدوؤه جعلها تتردد ألف مرة قبل أن تعطيه الهدية، وكلما حاولت أن تنطق تجد حاجزاً بينها وبين الكلام.

سمعت خلفها صوتاً خشناً يقول كلمات بشكل إيقاعي.

كان رجلاً أسمر طويل الشعر يسير في الشارع، ويحمل جيتاراً، ويغنى بإيقاع رتيب، وجسده يهتز على صدى الإيقاع.

توقعت أنه شحاذ يؤدي ذلك النوع من العروض في الشارع ليمنحه المارون بعض المال. عادت تلتفت إلى النهر، وواتتها بعض شجاعة عندما شعرت بناجي يسترخي ويقرع الأرض بحذائه على نغم ذلك الإيقاع، ورأسه يهتز.

قالت بصوت متردد وهي تقدم له اللعبة الصغيرة المغلفة باللون الأحمر: أود أن أهديك شيئاً، اخترتها على ذوقي.

انشرح وجهه وأشرقت ملامحه بضحكة سعادة لها ملمح طفولي، جعلها تبسم وتسترخي براحة.

قال مداعباً وهو يقلب الهدية بين يديه: أيمن أأفتحها؟ أحبها بالغلاف.

ضحكت لتعليقاته، فتهند وهو يلقي لها نظرة عشق أخرجلتها.

عندما فتح اللعبة ووضع الخاتم الفضي حول إصبعه هتف بطفولية محببة: واو! إنه رائع، يناسبني تماماً.

أحياناً يشعرها رد فعله بالمبالغة، لكنها قدرت أن مجرد هدية بسيطة منها أسعدته، وأن استشعاره الاهتمام والتقدير أهم بكثير من قيمة الهدية.

عاد صوت الشحاذ الذي يقطع الشارع ذهاباً وإياباً يعلو، لعل أحد المارة يلقي له بعض المال.

وعاد حذاء ناجي يقرع الأرض بنفس الإيقاع وبحماس أعلى، ورأسه يهتز بسعادة ظاهرة.

التفت نحو الشارع، ونظر إلى الشحاذ وهو يقترب، وعلا صوت ناجي وهو يردد نفس الكلمات التي يغنيها الشحاذ، وأدركت لين أنها ربما تكون أغنية فرنسية شهيرة.

بدا لها الأمر سخيًّا، وعلى ناجي أن يتوقف، لكن الشحاذ وقف أمامهما، وكأنه سعد أخيرًا بتجاوب أحد ما مع أغنيته.

لكن ما صدمها هو ما حدث بعد ذلك، فقد انضم ناجي إلى الرجل وبدأ يغني معه، وتعالَت أصواتهما، فتراجعت لين وانكمشت مصدومة وهي ترى بعض المارة قد وقفوا يشاهدون ما يحدث.

لكن ما أشعل الغضب داخلها عندما بدأ ناجي والشحاذ يرقصان بحركات إيقاعية متناغمة وهما يتشاركان الغناء.

وعندما امتلأ المكان بالناس وتوقف المارة في الشارع في دائرة كبيرة حولهما، توترت لين وسيطر عليها الغضب، فانسحبت من المكان إلى السيارة.

وعندما أنهى ناجي الأغنية ولم يجدها لحق بها إلى السيارة، فانفجر في وجهه بركان الغضب واللوم والتقريع.

لم يتكلم، لكنه غادر السيارة غاضبًا، ووقف على سور النهر لمدة ليست بالقليلة، وعندما عاد كان صامتًا هادئًا بوجه خالٍ من المشاعر.

عادا إلى البيت وكل منهما يتجنب الاحتكاك بالآخر، وقضت هي أغلب الوقت في الغرفة التي تدرس وتستذكر فيها، وبقي هو في غرفة النوم لا يخرج منها، حتى طلع النهار، وأدركت أنها غفت في مكانها دون أن تشعر.

عندما عادت إلى غرفة النوم لم يكن موجودًا، فزفرت متفكرة، لم تكن تدري ما إذا كانت مرتاحة لأنه تجنب تكرار الاصطدام بها، أم منزوعة من تجاهله ومغادرته البيت في غير مواعده المعتاد.

هل قست عليه؟ أم أن الموقف كان محرِّجًا لدرجة لا تحتمل؟

تذكرت فرحته بهديتها، وبعدها غضبه من ردة فعلها وتقريعه على ما فعله، فاستاءت كثيرًا من نفسها.

هل أخطأت باستسلامها للغضب؟ هل كان عليها تنبيهه لانزعاجها مما فعله بطريقة أقل حدة؟

تعجبت من نفسها، لقد أخذ ناجي من عقلها وتفكيرها مساحة أكبر بكثير مما كانت تتوقع، ولأول مرة تجد شيئاً يشغل عقلها سوى ذكرياتها وماضيها، وأدركت أن عليها أن تعمل على إصلاح الأمر بينها وبينه، وفي آخر اليوم بدا لها أن الأمر ما كان يستحق كل هذا الغضب، فناجي يتصرف أغلب الأحيان بتلقائية وعفوية، ولا شك أن حبه للغناء أكسبه بالعادة استجابة وردود أفعال معينة تجاه أي لحن أو إيقاع يمر على أُذنه.

عندما غادرت الجامعة لم تنتبه لتلك السيارة الحمراء التي كانت تتبعها، كانت شاردة في أفكارها، ولم تلتفت إلا بعد أن سمعت بوق السيارة عدة مرات، وعندما توقفت السيارة أمامها انتابها الخوف، وأخذت تنظر إلى زجاج النافذة القاتم بقلق.

ابتسمت عندما انفتح زجاج السيارة لتجد خلفه ناجي في مقعد القيادة، يغطي عينيه بنظارة سوداء أنيقة وابتسم ابتسامة باشة.

قفز من السيارة أمامها وخلع نظارته، وقال ضاحكاً: كيف لشاب مثلي أن يلفت انتباه فتاة جميلة مثلك؟ كيف يمكنني أن استميل قلبك وأنت مستغرقة في أفكارك؟

ضحكت من طريقة حديثه وتجاوبت مع مزاحه: تعتقد أنني يمكن أن ألتفت إلى سيارة دون أن أعرف من بداخلها؟

انحنى مازحاً وقال بدعابة: سائقك الخاص سيدي الجميلة.

أثار مزاحه ضحكها، ثم انتبهت إلى السيارة الجديدة الفاخرة، وتساءلت بدهشة: هل بدلت سيارتك؟

قال بجدية: إنها سيارتك أنت.

اختلفت ابتسامتها لتحل محلها الدهشة.

كانت تحاول جاهدة السيطرة على أعصابها بعد أن أشعلت فتيلها مفاجأة ناجي، فشيء ما في أعماقها يشعر بالإهانة والإذلال.

أمس تصرخ بوجهه وينفجر غضبها عليه وتفارقه إلى غرفة أخرى، والآن يهديها سيارة غالية هي الأحدث في السوق.

هل يستجدي حبها بالمال؟

كانت الفكرة مهينة له ولها.

هو لا يجد بأسًا في شراء الحب، وهي صارت سلعة في ميزان يثمن حبها بالمال والهدايا الثمينة.

احتاجت مجهودًا جبارًا لتسيطر على غضبها، وهي تقول بصوت ضائع: إنها سيارتك، بهالك أنت.

اختفت ابتسامته تمامًا، وقال بجدية: كل شيء أملكه هو بالضرورة ملكك.

الأمور تتوتر بينهما بسرعة، وهو يحاول الإصلاح كيفما يهديه عقله، أو ربما كما أنبأته علاقاته النسائية السابقة عما يرضي النساء ويسعدهن.

أفزعها ذلك الخاطر، وأثار اشمئزازها أن يساوي بينها وبين أخريات عرفهن معرفة عابرة. قال برجاء خافت: ألن تقتربي منها؟ اطمئني، فهي لا تعص.

لم تبتسم لدعابته، لكنها أثرت السلامة وكتمان غضبها حتى لا يتفجر الوضع بينهما من جديد. وضعت يدها على السيارة، وبدأت تتلمسها بوجل وتفتح أبوابها بلا حماس، فقط لإرضائه، فسألها متعجبًا: ألم تلحظي شيئًا؟

نظرت إليه نظرة خاوية ولم تُجِب، هز رأسه محاولًا حثها على البحث عن شيء مختلف، فدارت حول السيارة وتفحصتها، وفتحت أبوابها ثانية، وقالت بضجر: لا شيء.

زفر بإحباط، ومد يده إلى مساحات المطر في السيارة، فانتبهت لأول مرة إلى ظرف وردي صغير معلق بالمساحة، انتزعه ناجي ومدّه إليها، فتناولته وفضّته لتقرأ كلمات ناجي الرقيقة يعبر فيها عن مشاعره، ويدعوها لقبول هديته.

لفهما صمت طال وهي تحاول أن تفهمه وتفهم تصرفاته، وهو يترقب ردة فعلها، وكلاهما يخشى أن يتكلم فيغضب الآخر.

حسمت أمرها، وقررت أن تمرر الأمر دون مجابهة، فركبت السيارة في المقعد المجاور للسائق، فتساءل: ألن تقودها؟

قالت باقتضاب: لا أعرف القيادة.

التف حول السيارة وجلس في مقعد القيادة، وقال: لا بأس، سأوفر لك سائقًا إلى أن تتعلمي.

نظرت إليه متعجبة، هل مل من اصطحابها ذهابًا وإيابًا إلى الجامعة؟ هل صارت عبئًا عليه رغم قلة خروجها؟ هل أصبحت الأوقات التي تقضيها معه في السيارة تثير ضيقه؟ أسئلة تعرف جيدًا أنها لن تستطيع أن تبوح له بها، فهديته فائقة الغلو أضافت حاجرًا جديدًا بينها وبينه.

استفاقت على توقف السيارة بشكل مفاجئ، فالتفتت إليه، لتجد الضيق مرتسمًا على ملامحه. قال: أتحدث إليك منذ انطلاقنا، وأناديك ولا تجيبين.

ابتلعت غصة في حلقها وقالت معذرة: عفوًا، كنت شاردة ولم أنتبه. زفر بضيق وعاد ينطلق بالسيارة، ثم قال بعد قليل: لين، أسمعيني. أجابت بهدوء: نعم.

عادت الابتسامة ببطء إلى وجهه: أود أن أطلب منك طلبًا. همهمت بالإيجاب، فأكمل: حفلي القادم يمثل أهمية كبيرة لي، أعلم أنك لا تحبين الغناء ولا ارتياد المسرح، لكن حضورك يعني لي الكثير. وأردف برجاء: أتعديني أن تكوني موجودة في الحفل؟ قالت باقتضاب: أعدك.

اكتفى بكلمة منها وعاد بها إلى البيت، لتعيش قصة معاناة أخرى وصراع مع نفسها وقلبها، لتقبل حقيقة أن الرجل الذي اشتراها بماله هو زوجها. وكلما حاصرها الضيق يلح عليها ذلك الوجه المألوف الطيب البشوش ذو السن الذهبي في أحلامها.

«الدنيا بالضيق بتورجيك مين بيعيك ومين يشتريك».

كم تمنى أن تسمع صوت جدتها وهي تلقي على أحفادها بنهفات وأمثلتها الشهيرة!
 كم تشاق إليها وتتمنى أن تدفن رأسها بين أحضانها! كانت تتقلب في فراشها الوثير،
 تسترجع أحلامها التي تدور حول جدتها، وقد هجرها النوم.

وجهها البشوش الذي لوحته الشمس، أسنانها البيضاء التي تحتضن بينها سنًا ذهبيًا ميرًا له
 بريق جذاب، صوتها الحاني المحب وهي تقول أمثالها ونهفات: «يلي بيشمت ويعاير، ما يعرف
 شو في وراه داير».

التفتت إلى ناجي المستغرق في النوم بجوارها، وانسلت من الفراش بهدوء حريصة على ألا
 توقظه.

انطلقت إلى الغرفة التي تستذكر فيها، لم تدرك ما إذا كانت تهرب من ذكرياتها أم تهرب إليها.
 في أنفها رائحة اليالنجي والكبة الكدابة، هي أعلى لديها من أشهر العطور الفرنسية، فهي
 تذكرها بكفي جدتها الشقراوين الممتلئتين وهي تطعمها أشهى الأطعمة بيديها، وتفعل ما
 بوسعها لتسعد أحفادها.

في بعض الأحيان تستشعر كفي جدتها وهي تتحسس شعرها وتضفره، وأحيانًا وهي ترقبها
 بآيات من القرآن، أو تحكي لها قصة الذئب والغنمات الثلاث.
 «خبزي دره وخبزه دره ع شوها الأنبرة».

ضحكت عندما تذكرت كلمات جدتها لإحدى جاراتها التي عادت للتو من المدينة،
 وغازتها بأسلوبها المتعالي.

أطلقت زفرات الشوق والحنين من عمق قلبها لأيام ولت، وفتحت (الكمبيوتر) المحمول
 محاولة التركيز في دراستها، لكن أحداث الأيام السابقة وأفعال ناجي المزعجة كانت هي
 المسيطرة على عقلها، ساءها كثيرًا نظرتة إليها كامرأة يسترضيها بالمال، وتلك الصورة المخزية
 التي تكونت في رأسها عنه، كشاب غني مدلل ترمي النساء تحت أقدامه وتلهث خلف عطايه
 وهداياه الثمينة، ذلك الإحساس البغيض بالمهانة قتل بداخلها كل أمل في أنها من الممكن أن
 تفتح قلبها يومًا لرجل يشتري الحب بالمال.

ترددت كثيرًا، وارتجفت أطرافها، لم يكن بالأمر الهين لتفعله، هي تدرك أنه خطأ فادح، لكن حاجتها لرؤية شخص تألفه، شخص يحيا في ركن خفي من قلبها، أكبر بكثير من أية مقاومة بداخلها أو رفض.

فتحت صفحته على الفيسبوك، وأخذت تقلب في ألبومات صورهِ، مطمئنة إلى أن أمرها لن ينكشف، حتى هو لن يعلم بولوجها صفحته.

بدأت تتخفف من عبء الذنب، ولم تجد بأسًا فيما تفعله، فهو لن يضر أحدًا.

توقفت عند صورة شخصية له تظهر وجهه مقرَّبًا، تلك الوسامة والرجولة التي تنضح من عينيه ونظراته القوية الصارمة تحرك قلبها.

هو الأكثر شبهاً من بين جميع الأحفاد بجَدته.

وجهه البضاوي الأشقر ولحيته القصيرة السوداء، شاربه الخفيف المذهب بعناية.

تجمدت في مكانها عندما شعرت بوجود شخص معها في الغرفة، رفعت عينها عن شاشة (الكمبيوتر)، وتبينت هيئة ناجي يجلس على الكرسي أمامها في الظلام، ظلت تحملق فيه، وقد هربت الدماء من عروقها واشتدت ضربات قلبها، أرادت الهروب من أمامه لكن قدميها عجزتا عن حملها.

وعندما تحرك واقترب منها كادت تسقط مغشيًا عليها، لكنه مد يده وتناول كفها، وطبع قبلة رقيقة على أناملها. اقتراب وجهه من خلف شاشة (الكمبيوتر) جعلها ترتجف رعبًا من أن يرى الصورة المرتسمة على الشاشة.

التف حول مكتبها وهو يجذب يدها إليه، حتى أوقفها أمامه، وصار قاب قوسين أو أدنى منها، اتسعت ابتسامته وهو يتأمل ملامح وجهها وشعرها الناعم المنسدل على كتفيها، وهمس يفيض حُبًا: ما أوسع الغابة.. وسع الغابة قلبي.. يا مصورع بالي ومصور بقلبي..

تمنيت لو أغنيها لك، لكن أخشى ألا يعجبك صوتي.

ارتجف قلبها كورقة شجر في مهب الريح، وجف حلقها عاجزًا عن قول كلمة، كانت تنظر إلى وجهه، وعقلها في شاشة (الكمبيوتر) المفتوحة على صورة يزن.

وعندما ضمها ناجي في عناق طويل مطلقاً العنان لفيض مشاعره تعبر عما في قلبه، لم تسترخ وتهدأ بين ذراعيه إلا عندما مدت يدها وطوت شاشة (الكمبيوتر) المحمول مغلقة إياه، مطمئنة إلى أن ناجي لم ير الصورة.

تبعته بعد قليل إلى غرفة النوم مستسلمة، عندما طلب منها أن يحدثها في أمر هام. بدا القلق جلياً على ملامحه وفي نبرة صوته، وهو يحتضن كفيها بتوتر، وابتلع ريقه محاولاً السيطرة على انفعاله.

ورغماً عنها عادت تلك المقارنة الفجة بينه وبين يزن تهاجم أفكارها. حاولت أن تستوعب ما يحاول قوله، لكنها في لحظة ما عجزت عن التحمل، فقاطعت كلماته التي لم تع منها شيئاً، وهمست برجاء: أريد أن أذهب إلى الحمام. صمت برهة، وعادت خيبة الأمل ترسم على ملامحه، ثم هز رأسه ببطء، وهو يهمس: سأنتظرك.

أغلقت باب الحمام خلفها بإحكام، واحتمت بالوحدة والباب المغلق دونه، لتفرج عن مشاعرها السجينة وتسكب دموعها الحبيسة، عليها تتخفف من بعض ذلك الألم الذي أطبق على روحها.

كانت تكتُم شهقاتها وأنيبها ونشيجها كي لا تفضحها الجدران وترسل صوتها إليه، ولم تهتم لطول الوقت قدر اهتمامها أن تمحو آثار البكاء عن وجهها وملامحها.

وعندما عادت إلى الغرفة وجدته قد التحف بغطائه وأدار وجهه إلى طرف الفراش، وقد جنبها صراعاً مؤلماً بين قلبها وواجبها وهي في تلك الحالة النفسية المزرية، ما بين إحساسها بالذنب وعدم إحساسها بالحب، في ليلة حافلة بالحزن والاشتياق إلى الماضي، والقلق والتوتر والرعب.

(٥)

قضت ليالي مؤرقة الفكر، تتقلب على فراش من الشوك، يؤلمها الشعور بالذنب لما اقترفته في لحظة ضعف.

فمهما فعل ناجي، ومهما كان شعورها نحوه، فليس من حقها التفكير في أي رجل آخر مهما كان.

الصراع بداخلها يشتد، وليس من السهولة بمكان اقتلاع ذلك الساكن في عمق فؤادها من سنوات طوال، كانت العائلة تتجمعان فيها في المناسبات المختلفة.

وقت أن بدأت تترك الطفولة وتشب نحو المراهقة، كانت ترى يزن كثيرًا، فيتحرك قلبها لذلك الشاب القريب العزيز، وتهمس بأمنياتها لنفسها أن يكون لها وتكون له.

حلم صغير لا يعلم عنه أحد، ظل يكبر مع أيام عمرها.

لم يكن يزن يجب صحبة رفقاء عمره، بل كان يجب مجالسة الكبار.

وفي بيت الجد، كانت لين تساعد جدتها، وتحمل الطعام من المطبخ إلى زوج عمته طلال الذي عاد لتوه من المدينة يحمل الهم والتعب والإرهاق فوق كاهليه، وزوجته تجلس بجواره تواسيه وتضع له أقدامه في طبق كبير به ماء وملح، عله يهدئ من ألم قدميه المرهقتين من طول الوقوف في الطابور.

لا تنسى ابتسامته الباشة الحانية التي يستقبلها بها رغم إرهاقه، وهي تضع الطعام أمامه.

وعندما اكتمل تقديم الطعام دعاها كي تجلس إلى جواره، فجلست بفرحة طفلة تستشعر الاهتمام، وبأنها حازت شرف الانضمام لجلسة هامة لكبار العائلة.

وكان يزن يجلس بجوار جده، يستمع إلى حكايات اليوم الذي قضاه أبوه في المدينة في مركز توزيع قسائم المازوت المدعوم: آه.. أقف على قدمي في طابور طويل من الصباح حتى المساء، في انتظار توزيع دفتر المازوت!

لن تستطيع أن تتخيل كيف وصل الحال بالناس من المارة والغيط واليأس.

أحد الرجال هناك يعرف ابن عمي، انتحى بي جانباً، وأسر إليّ أن أدفع مبلغاً من المال للموظف لأحصل على دفتر القسائم الخاص بي وبأم خالد.

صار فرضاً علينا دفع رشوة لنحصل على حقوقنا!

يدعون أن المازوت مدعوم، ويحصلون مبالغ طائلة من تحت المنضدة بالرشوة.

الجد: يتفنون في جعل الحياة أكثر صعوبة على البشر، ويقتلون بداخلهم الكرامة.

الحاكم الذي يستذل شعبه، لن يتورع يوماً عن قتله.

طلال: صرنا شحاذين، نتسوّ المازوت من الحكومة!

لم ترَ الطواير أمام المكتب، الناس يقفون بالساعات يمضغون الغيظ، ثم يأتي شاب أزعر يتجاوزهم ويذهب إلى الموظف مباشرة، فقط لأنه قريب لفلان أو حسيب لعلان.

الجد: لن يطول الأمر، فلن يستطيع الناس كظم غيظهم كثيراً.

طلال: لا شيء بيدهم يفعلونه، والحكومة لم تكتفِ بما يعاينه الفلاحون بسبب الجفاف، ليفاجؤوهم برفع سعر المازوت ثلاثة أضعاف، وهم يدركون تماماً أن ماكينات رفع الماء لا تعمل إلا بالمازوت.

الجد: لا يغرنك ما تراه من صبر الجمال، قليل العقل من لا يحترس لغضبته.

طلال: أعتقد أن بهم قوة ليقفوا أمام الظلم والفساد؟

الجد: لا أتوقع شيئاً، لكن ما تراه الآن قد يتحول إلى نار موقدة إن صادف عود ثقاب، في لحظة لا يعلمها إلا الله.

نظر له نظرة يائسة وقال بسخرية مريرة: عمي، أظن أن هؤلاء الذين صارت الطواير جزءاً من حياتهم، والشحاذة من الحكومة مقررًا يومياً لهم، سيثورون يوماً على الفساد ويغضبون لأحوالهم السيئة؟!

هؤلاء إذا خرج (سيدي خالد) من قبره فسيقتلونه.

العم طلال بلغ به الغضب مبلغه، وهو يراقب أرضه تحف وتبور بسبب الصقيع والجفاف، وغلاء المازوت الذي يشغل ماكينات رفع الماء، وهو عاجز عن فعل شيء.

أحوال الفلاحين من سيء إلى أسوأ، وكثير منهم يهجر أرضه ويهاجر إلى المدينة، وها قد أتى الدور عليه، فأخذ زوجته وأولاده وذهب كي يعيش في المدينة، كما سبقه من قبل أخو زوجته الراحل، وما شجعه على ذلك هو أن ولده الأكبر يدرس في الجامعة.

انتبهت من شرودها على صوت قطرات المطر على زجاج نافذة سيارتها الحمراء، فابتسمت عندما مر بخاطرها وجه ناجي الباسم عندما يتبلل تحت المطر.

شيء ما تغير فيه لا تعرف ما هو، لكن الصمت أصبح هو الغالب عليه، والشرود صار ديدنه، فكرت أن تتصالح مع نفسها وتتقبل عيشها، وتبذل جهداً لتتقرب إليه وتفهم شخصيته وتستكشف مواطن الخير فيه.

وصلت السيارة إلى حيث تنتظرها أمينة، فضحكت من منظرها وهي تقفز بسرعة لتصل إلى السيارة وقد اشتد المطر، فتفتحت لها الباب وأدخلتها، وسلمت عليها بحرارة وشوق.

لولا أمينة لكانت حياة لين أشد صعوبة وتعقيداً.

ربما عليها أن ترضى بالمتاح، وتتقبل حياتها كما هي، ويكفي أن زوجها لا يعاقر الخمر ولا يقترف الزنا.

فكما تقول أمينة: حياتها ليست أسوأ من كثرات غيرها يتمنين لو كُنَّ مكانها.

ارتد إليها الشعور بالوحدة في طريق العودة، فأمينة وعدت رفيقاتها بالذهاب معهن إلى السوق، والآن تعترف بافتقادها لوجود ناجي، فحتى عند صمته أو انقطاع الحديث بينهما، كانت دندنته الخافتة تؤنسها، وتشعرها بأنها ليست وحيدة.

ترددت لحظات في تنفيذ الفكرة التي طرأت على عقلها، لكنها حزمت أمرها سريعاً، وطلبت من السائق أن يبدل طريقه ويعود إلى المسرح.

وعندما وصلت إلى هناك، لم تجده وحيداً! كان مسترخياً على كرسي في صدر المسرح، يمد ساقيه على كرسي أمامه، وعلى الكرسي المجاور له تلك المرأة التي قدمها إليها في حفل زواجهما، وأخبرها بأنها تعمل صحفية.

حاولت أن تتذكر اسمها فلم تستطع.

تفحصتها جيداً وهي تتقدم من بين مقاعد المتفرجين دون أن ينتبها لقدمها، هي امرأة تحمل كل مقومات الجمال والجاذبية، ملامح فرنسية فاتنة، وجسد رشيق يمتلئ بالأنوثة، وثوب أنيق يكشف عن ساقها.

كانت تتحدث إليه باهتمام، بصوت لم يصل إليها، حتى أطلقت ضحكة ساحرة قدحت شعلة حارقة من النار بداخلها، أخذت تكبر بسرعة وتكوي بحرارتها أعصابها الملتهبة. لا يمكن أن تكون الغيرة قد استولت على قلبها، لكن ما يفعله ناجي هو إهانة لمقامها كزوجة.

طوال طريق العودة وهي تجلس إلى جواره في سيارته، تطبق فمها بإحكام، مخافة أن ينطلق لسانها بهدير لا يتوقف، تكثفي بتحمل دندنته المستفزة التي علت اليوم على غير عادته في الأيام الأخيرة التي شابهها التوتر والمشاجرات.

كان يبدو مسروراً بما حدث في المسرح، عندما تجاهلت -متعمدة- مصافحة جانيت، التي ردت إليها الإهانة بأن اقتربت من ناجي، الذي أصابته قلة الحيلة بالارتباك، وهمست في أذنه بشيء لم تسمعه لين، وهي ترمقها بنظرات مأكرة كلما تذكرتها لين اشتعلت النيران في جوفها.

هتفت بغیظ: هلا أوقفت ذلك الصوت المثير للأعصاب؟

قال بتخابث: أتقصدين الدندنة؟ حسناً، أمرك مدام.

أغاظتها كلمة مدام، فالتفت نحوه بحدة، وكادت تنفجر بوجهه عندما لاحظت محاولاته لإخفاء ابتسامته تغالبه.

وما إن وصلا إلى البيت حتى استوقفته قائلة بتحفز: هلا أخبرني بما كانت تهمس لك تلك المرأة في المسرح؟

كلما حاول التظاهر بالمكر، كانت ابتسامته تفضحه: أية امرأة؟

أها، تقصدين جانيت، لا أستطيع أن أخبرك، أخشى أن تغضبي.

سيطرت على أعصابها الملتهبة: حسناً، لن أغضب.

تنحني وهو يكتم ابتسامته تجاهد كي تظهر على وجهه: كانت تهمس لي بأنك تغارين.

فاجأه رد فعلها الحاد، وكلماتها الغاضبة: ماذا؟! عن أي غيرة تتحدث تلك البلهاء؟! ومَن أغار؟! من تلك التي...

أحقاً تغارين؟

كانت علامات الفرح تبرز بالدهشة على وجهه، وهو يكرر سؤاله دون الاكتراث لغضبها. جرفت مشاعره الجياشة المتأججة، وذاب غيظها من حرارة كلماته: أي امرأة في العالم لا تستطيع أن تصل إلى قلبي وأنت تمتلكين كل ذرة فيه.

حارت في أمره، وشغلها التفكير في تصرفاته، أحياناً يبدو لها كطفل بحاجة إلى أم، يفقد العاطفة ويتشوق إلى الحنان، ينثر مشاعره بسخاء تحت قدميها، ويطيح فرحاً بأي لفظة أو همسة أو حتى غيرة تجود بها عليه مهما كانت قليلة.

ملأت عينيها من جمال البساط الأخضر الزاهي الممتد على مرمى البصر، تلك السكينة التي أشرقت في قلبها منحتها طمأنينة افتقدتها وقتاً طويلاً، وأشعرتها بالامتنان لدعوة ناجي لاصطحابها إلى الريف الفرنسي في عطلة نهاية الأسبوع.

رائحة الزرع الذي يحتضن الندى بين أوراقه والأرض المبللة بالماء تردها إلى تلك الأيام الغالية، حيث كانت تذهب لزيارة بيت جدها في العطلات والمناسبات السعيدة، وهناك تجتمع العائلة الكبيرة وتستشعر الأُنس والفرح بين الأهل، وتزول وحشتها لفراق أبيها، وتنسى يتمها، وتأوي إلى كنف جدها وأعمامها، فبيت الجد على تواضعه يحمل قيمة كبيرة لها ولأبناء أعمامها وعماتها الذين كانوا يتجمعون كرفاق متقاربين في العمر، تربطهم العائلة واحترام الجد وحب الجدة.

جدتها تحمل لها منزلة خاصة، فهي ابنة العزيز الغالي الذي رحل مبكراً وترك جرحاً عميقاً الألم في قلب أمه.

استنشقت هواء الصباح بنهم، وعبأت رثيها برائحة الأرض: رائحة الخير والخضرة والزرع. حب ورثته عن جدها، ذلك الرجل العظيم، الذي رفض أن يترك أرضه حتى في أحلك الظروف.

الجفاف.. الصقيع.. الاضطهاد..

كل الأهوال التي مرت به عجزت عن خلخلة الجبل الشامخ من أرضه، وشاركته زوجته حبه للأرض، فصارت الصاحب والسند والسكينة، ليس فقط لزوجها، بل لكل العائلة. شعرت بذراعيه تطوقانها من الخلف، وهو يضم ظهرها لصدره ويلصق خده إلى خدها، ليتبخر حلمها ويعود عقلها إلى الواقع.

هل أعجبك المكان؟

تنهدت، وحاولت الانسلال من بين ذراعيه: ناجي، سيرانا أحدهم! تلفت حوله متعجباً: من سوانا هنا؟! ما زال الوقت مبكراً على قدوم العاملين في الأرض. قالت معاتبة وهي تبتعد قليلاً: لا تتصرف كالأطفال.

اكتفى باحتضان كفها، وسار إلى جوارها.

ابتسمت: كيف عرفت أنني أحب الريف والحقول؟

قال ضاحكاً: أعلم عنك أكثر مما تعلمينه عن نفسك.

قالت بابتسامة كسول: إذن دعني أعرف أكثر عن نفسي.

- أعلم جيداً احتياجك لتلك العطلة، بعد أسبوع حافل بالضغط العصبي.

استنشقت العبير الأخضر، لا أحد يستطيع أن يقاوم ذلك الجمال الخلاب، رائحة الأرض أجمل من كل عطور العالم

قطع سيرها، وأمسك بذراعيها، واقترب منها قائلاً بعاطفة جياشة: أبي أيضاً كان يحب الأرض كثيراً، روحك تشبه روحه.

تعجبت من تسارع أنفاسه وذلك الانفعال المتدفق بالعاطفة الذي ملأ ملامح وجهه، حتى ترقرق الدمع في عينيه، وهم بأن يقول شيئاً.

داهمها فجأة شعور مبهم بالخوف لا تدري له سبباً، وأرادت الهروب من الموقف، فقالت بابتسامة مفتعلة: أنا جائعة، فلنعد إلى البيت ونناول إفطاراً دسماً.

انطفأ ذلك الوهج المتدفق بالعاطفة في وجهه، وجف الدمع المتفرق في عينيه، فترك ذراعيها وسيطر على مشاعره، وقال بصوت خاٍ: كما تريدن.

صمته وشروده طوال فترة الإفطار أشعرها بالذنب، تشعر بأن لديه ما يريد البوح به، لكنه متردد، فكرت أن تخرجه من صمته بحديث يشجعه على البوح، لكنها أعرضت عن الفكرة، وانشغلت بذلك الصخب الذي يملأ عقلها، ووجوه الأحبة والأقربين، وشوق لا ينقطع لأيام ولت ولن تعود.

وبعد الإفطار انتحى كل منهما بعالمه وأفكاره الخاصة، فوقفت تنظف المطبخ وتغسل أوعية الإفطار، وبقي هو في الشرفة الخارجية هادئاً شاردًا.

صرخت صرخة فزع مدوية ترددت في أركان البيت، عندما وجدت أمامها شخصاً غريباً يدخل إلى المطبخ!

وفي لحظة كان ناجي معها يطمئنهما بوجوده وكلماته. تأملت الرجل الغريب الذي دخل عليها المطبخ، وتجمد هو في مكانه مرتعباً من صرختها المدوية. كان أعور له وجه به جروح قطعية قديمة، وعندما تحرك نحو باب المطبخ الخارجي ليغادر، ظهر بوضوح عرج خفيف في مشيته.

وقر في قلبها أنه أحد رجال العصابات، أو هو لص محترف شجار الشوارع. تركه ناجي يغادر، فالتفت إليه وقالت بحدة: من هذا؟! وكيف يقتحم البيت هكذا دون أن تفعل شيئاً؟!

قال مطمئناً: إنه حارس البيت، ويعمل أحياناً في الحقول. ساحيني، نسيت أن أخبرك أنه اعتاد الرحيل من باب المطبخ. تأمل ما تفعله في المطبخ، ثم قال: لا داعي لاستنزاف جهدك في التنظيف، المرأة المسؤولة عن ذلك على وشك الوصول.

زفرت بضيق وهي تحاول أن تسيطر على انزعاجها وضيقها من الموقف السخيف: أحب مباشرة أعمال البيت.

قال معاتبًا: وأنا أحب وجودك بقربي حتى وإن لم تتكلمي، وأنا معك تزول الوحشة عن قلبي.

أراح رأسه على كتفها وأغمض عينيه، وكأنها يلوذ بها من وحشته، فأخذت تمسح على ظهره كطفل يسكن إليها ينشد الأمان، وهي تفكر بالطريقة المثلى للتعامل معه، وما يؤرق روحه ولا يبوح به.

كادت تتكلم لولا أن قاطعتها طرقات على باب المطبخ، فاعتدل قائلاً: الحاجة سعاد. فتح الباب ورحب بها بود، ثم رحب بها لين ببشاشة، وتقبلت تهنئتها بالزواج، دون أن تتبرم من تفحص المرأة الدقيق لملاحمها وتفاصيل جسدها. امرأة عربية في الخمسين، سألها ناجي مداعبًا: ها، هل أحسنت الاختيار؟ صمتت قليلًا، ورمت لين بنظرة خاصة، قائلة: سنرى.. المهم أنها عربية. التفت إلى لين واحتضن كفها باسمًا، وقال بلهجة عاطفية: وحمصية أيضًا، يجري العاصي في دمائها.

قالت ضاحكة: دخلت القفص بقدميك. أشارت لهما إلى خارج المطبخ بمنديل في يدها، وقالت بحزم: هيا اذهبا، استمتعا بوقتكما، فالיום الذي يذهب لا يعود.

ضحكت لين متقبلة مزاحها، ورافقت ناجي إلى الشرفة الخارجية، كان اليوم غائمًا، لكنه دافئ، سألتها عن الحاجة سعاد، فقال: منذ زمن طويل تعمل مع أبي، وعندما كبرت سنها ألحقها أبي بالعمل هنا، فلم تعد لديها القدرة الصحية على مشقة العمل في المطعم. ستأكلين من يديها أشهى الأطعمة العربية.

دخلت عليهما الحاجة سعاد بصينية بها كوبان من العصير الطازج، فقالت لين تُسَوِّعُها: سنرى.. المهم أن يكون به كبة.

رفعت الحاجة سعاد حاجبها الأيمن، فقالت لين: كما تقول جدتي عليها رحمة الله: «الأكل بلا كبة مثل الجامع بلا قبة».

قالت الحاجة سعاد متحدية: سترين كيف تكون الكبة من يدي الحاجة سعاد.

ضحك ناجي بمرح وعادت الإشراقة إلى وجهه، وهو يراقب تباسط لين وانشراحها، وعندما انصرفت الحاجة سعاد قال: ذلك التقبل والانسجام بينكما يطمئن قلبي، فالحاجة سعاد لا تتقبل من لا تعرفهم بسهولة.

قالت ببساطة: تذكرني بنساء بلدتنا، نفس الروح والمشاعر، وتحمل لك في قلبها مودة كبيرة، أرى هذا بوضوح.

قال ضاحكاً: أمر طبيعي، فقد شاركت في رعايتي منذ صغري.

تردد قليلاً، وارتسم القلق على ملامحه، وقال: أنا سعيد لأنك أحببت المكان هنا، وارتحتِ إلى الحاجة سعاد، ومطمئن لأنك ستبقين عليها..

هنا.. في بيتك..

قال الجملة الأخيرة بتأكيد مبالغ فيه، مما دفعها لتلتفت إليه وتحاول اختراق الحجب في عينيه لتصل إلى ما يفكر فيه، ثم قالت بترقب: أمر طبيعي، فهذا بيتك.

سحب نفساً طويلاً، وقال ببطء: بل هو بيتك أنت.

قالت بحدة وتحفز: ماذا تعني؟

قال بقلق: أعني أن هذا البيت أصبح ملكاً لك.

هزت رأسها محاولة استيعاب ما يقول، ثم سألته بغضب يتصاعد: هل منحني هذا البيت؟ توتره وارتبأكه وتردده في الإجابة جعل شياطين الغضب تنطلق من مكنمها، لتدفع الموقف إلى شفا البركان.

صاحت في وجهه: ما تفعله لا يفعله أحد عاقل ولا حتى مجنون، لأجل أي شيء تمنحني بيتاً كهذا؟ وما هدفك من إذلالِي بهذه الطريقة؟ أظن أني من النساء اللاتي يُشترى جبهن بالمال؟ صدمه صراخها في وجهه وأربكه غضبها، فصاح مدافعاً: لا، لقد فهمت الأمر بصورة خاطئة تماماً، اهدئي فقط واستمعي إليّ، سأشرح لك.

علا صراخها وتفجرت دموعها: كيف تتصرف بتلك الطريقة المذلة؟

كيف تهين نفسك إلى هذه الدرجة؟ هل صارت الرغبة في امتلاكها هي محور حياتك؟
أتصنع لي قفصاً من الذهب والماس حتى لا أفلت من يديك؟ النساء بالنسبة لك دُمى في مزاد؟
كل واحدة تقف على كفة ميزان وكلما تمنعت استزدتها؟

لم تسمعه، بل تركته باكية واتجهت إلى غرفتها، وهو يناديها مهرولاً في أثرها، حتى حال بينهما
باب الغرفة التي أحكمت إغلاقها من الداخل بالملزاج، وانهارت في بكاء شديد، ونحيب مؤلم.
سمعت صوت طرقات كفه المستمرة على الباب، فغطت أذنيها بالسادة، حتى لا تسمعه
وهو يصرخ باسمها من خلف الباب يرجوها أن تسمعه وتمنحه الفرصة ليصحح لها ما فهمته
خطأً.

تحول بكاءها إلى صراخ وعويل، وتمنت لو تخرج من عالمه الغريب المذل المفروض عليها،
وتعود إلى عالمها العزيز المألوف الذي ذهب بلا عودة، حتى غلبها النوم، أو هربت إليه.
أو إلى عالمها الذي لا تستطيع أن تتحصل عليه في قيود الواقع، فتهرب إليه عن طريق
الأحلام.

عادت طفلة بجديلة سوداء تقفز على ظهرها، وهي تعدو بين بيوت القرية وتختبئ من
رفاقها، وتلعب مع أقرانها بتنف الثلج، وتتورد وجنتها بلون الزهور عند قدوم الربيع.
تذكرت بريق سن جدتها الذهبي وهي تضحك ضحكتها المشرقة، وتحمل بين يديها حفيدها
ياسين.

ياسين..

ذلك العفريت الذي يصغرها بخمس سنوات، لكنه يملأ الدنيا صخباً ومرحاً.

إن تواجد بمكان لا يكف الناس عن الصراخ باسمه.

كلما جمعتهم جدتهم لتحكي لهم قصة (الذئب والغنات) لا يكف عن إثارة الشغب، والقفز
فوق أبناء أخواله وهو يصرخ: «أنا الذئب».

لا يكف عن مشاكسة لين بشد جديلتها السوداء، فتجري خلفه لكنها تعجز عن ملاحقته.

لا أحد من الأحفاد يتردد اسمه كما يتردد اسم ياسين، هو مصنع متنقل للكوارث، ومخترع ماهر للمتاعب، ولا يكتفي بذلك، بل يوقع يحيى في المتاعب، فيستغل طبيته وهدوءه ليصنع منه جسراً للنجاة من العقاب، أو على الأقل لمقاسمته إياه.

كلما اجتمع الأحفاد للعب الحجرات السبع، وبمجرد أن تصطدم الكرة بالحجرات، يقفز هو قبل أي أحد ويسرق بعضاً من الحجرات، ويختفي قبل أن يمسك به أحد.

أفعاله لا تثير الغضب بقدر ما تثير الضحك، لا يستطيع أحد أن يكرهه، فمن ذا الذي يكره قلباً مشرقاً كقلب ياسين؟ وروحاً فتيه جُمُوح كروحه؟

ما زالت تتذكر قامته القصيرة، وعينه الماكرتين، وضحكته الماتعة، وهو يمسك بالمطرقه ويضرب بها ضربات متتالية على طاولة جدته يكاد يكسرها، حتى أيقظ البيت كله، وأتت جدته تجري لتتخذ الطاولة من الكسر تحت ضربات مطرقة العفريت الصغير.

لا يقدر على إيقافه أحد إلا يزن، كان ياسين يهابه حتى أكثر من والده، ودائماً ما ينجح يزن في وضع حد لمشاكساته عندما يتواجد معه في مكان واحد.

ورغم أن ياسين هو أكثر الأحفاد مشاكسة على الإطلاق، لكنه قرّة عين جدته، ومحط أنظار العائلة، ربما لكثرة الحوادث التي يتعرض لها، والتي قد تصل إلى درجة مفزعة من الخطورة.

لا تنسى اليوم الذي أنقذوه فيه من البيارة بمعجزة.

وذلك اليوم الذي كسر فيه عصا جده، وهرب خوفاً من العقاب، وخرج الأهل والأقارب والجيران كلهم للبحث عنه ذات نهار، ولم يجذوه، وعندما حل الليل اكتشفت جدته أنه يغط في نوم عميق تحت سريرها.

لا تدري لم تحلم بياسين على وجه التحديد! ربما لأنه أكثر طفل محبوب في العائلة لخفة ظله ومشاكساته ومرحه وحيويته..

أو ربما لأن الأحداث المرتبطة بوجوده لا تُنسى..

ملاً صوته أذنيها وهو يهتف: «سلمية.. سلمية.. نحنا بدنا حرية».

«الشعب يريد إسقاط الطواري».

لا يكاد ياسين يبدأ هتافاً حتى يسري في الألوف كموجة ثائرة، ويصبح صوتاً واحداً قوياً يبلغ الآفاق، وهم يسرون من مسجد النور بالخالدية ويتوجهون إلى ميدان الساعة، وهناك تكتسي الأرض بالبشر، وتسمع صوت عبد الباسط الساروت يغني في الحشود بحماس وحب. فبعد ما حدث يوم الجمعة السابقة عند مسجد خالد بن الوليد، فاجأت قوات الأمن الناس واستبقتهم إلى حصار المسجد قبل صلاة الجمعة، حتى لا يتجمعوا حوله بعد الصلاة.

فاضطر خالد وأولاد العم طلال لتغيير خططهم، والصلاة في مسجد النور بالخالدية.

وعندما عرض عليها خالد أن ترافقه في جمعة العزّة، وافقت بحماس كبير، وشجعها على ذلك أن أمها ذهبت إلى بيت الجد تزور جدتها المريضة، فصار الانضمام للجموع في الشوارع أمراً يسيراً بلا عقبات، آمناً من غضبة أمهما، واتفقا مع أولاد العم طلال ألا يخبروا أحداً من العائلة.

كان الهدير يملأ الشوارع، وتعجبت لين من تلك الحشود الهائلة التي خرجت زرافات من المساجد بعد صلاة الجمعة يسعون للحرية، ويهتفون بإسقاط المحافظ وإسقاط الطوارئ، كان ياسين كشعلة أوقدت فتوهجت، يحملونه على الأعناق لخفة جسده ونشاطه وحاسته في الهتاف. لم يكن أحد يصدق أنهم سيسمحون للناس بالمرور والوصول إلى ميدان الساعة، وهم يهتفون: «بالروح.. بالدم.. نفديك يا درعا».

فأنتى لمن سجن وعذب أطفال درعا أن يسمح بهتاف بدنا حرية؟

وعند نادي الضباط القريب من ميدان الساعة تجمع الكثير من الشباب، يلقون الأحجار على البوابات وفي المدخل، وتسلق بعضهم البوابة، وانقضوا على صورة كبيرة للحاكم وسلفه معلقة على البوابة، يمزقونها، والباقيون يهتفون بفرح في مهرجان احتفالي ذكرها بمشهد مشابه في الثورة المصرية، رآته يوماً على شاشة القنوات الإخبارية.

لم يتدخل الأمن على غير المتوقع، والحشود كانت تتوافد من كل الأحياء في جماعات كبيرة.. وفي ميدان الساعة، بسطت الأرض لهم كفيها، واحتضنت ثورتهم..

حتى توافدت على المكان مسيرة مؤيدة للحاكم، انطلقت من أحياء عكرمة والزهرة والنزهة، تحت حماية فرع الأمن السياسي...

وبمجرد أن رأهم ياسين حتى صرخ بغیظ: الدكتاتور يريد أن يحولها إلى طائفية..
ثم توافدت عدد من سيارات بيجو (٥٠٤) وسيارات الشبيحة يحملون العصي، وهاجموا
الشباب المتجمعين في الساحة، وأطلقت قوات الأمن عبوات الغاز المسيل للدموع..
وساد الهرج والفوضى، والشباب يهربون من الغاز الخانق، واشتبك بعضهم مع الشبيحة،
ومنهم ياسين الذي أخذته الحمية وفورة الشباب للتعبير عن غضبه، وحاول خالد حمايته فانجر
إلى الاشتباكات..

وكانت فرصة سانحة لتدخل قوات الأمن، لتعتقل المئات من المتظاهرين في الساحة..
وفرض على لين مواجهة لم تكن في الحسبان، أصعب مواجهة يمكن أن تتخيلها، إذ كيف لها
أن تخبر أمها بأن خالدًا اعتُقل؟!
وكان حقًا عليها أن تقلق، فقد ثارت ثائرة أمها بمجرد أن عرفت، وانهار جسدها بعد نوبة
ارتفاع نسبة السكري في الدم..

وكان عليها الاستنجاد بالعم طلال، الذي لم يدخر جهدًا ولا مالًا في بذل المحاولات
لإخراج خالد من سجن القبو، ونجح في ذلك، وعاد خالد إلى البيت بعد أيام..
عاد بوجه آخر غير الوجه الذي كان..
اشتد صوت طرقات المطرقة في رأسها..
«ياسين.. كُفَّ عن الطرق.. رأسي يؤلمني»..

أخذت تتقلب في فراشها، والصداع يكاد يفتك برأسها، وهي لا تدري إن كان الطرق
في الحلم أم في الحقيقة، وعندما استيقظت أخرجت رأسها من تحت الوسادة، وهي تساءل
بلا وعي عَمَّن يطرق الباب بهذه الطريقة، حتى انتبهت أخيرًا، وتذكرت ما فعله ناجي قبل
استغراقها في النوم، فنهضت من فراشها تترنح وهي تهتف بنصف وعي: حسناً، أنا قادمة..

هدأ الطرق على الباب، وعندما فتحت وجدت أمامها ناجي بمظهره الذي تركته عليه،
يستند بكفيه إلى مصراعي الباب بوجه ضائق حزين.
تأملها برهة بصمت، ثم قال: كدت أكسر الباب.

همهمت بكلمات غير مفهومة وهي تحاول أن تتخلص من النعاس والصداع، فقال: مهما بلغ بك الغضب، لا تفزعيني إلى هذه الدرجة.

طوال طريق العودة والصمت يلفها بضباب حزين..

لا تستطيع أن تتقبل حياتها معه على هذا النحو، كلاهما له عالم مختلف تمامًا عن الآخر، هو عالمه المال والشهرة والمتع والرغبات، وهي عالمها أساسه البساطة والمحبة والمشاعر الصادقة.

كيف يجتمعان؟!

صار الخلاص من عالمه أمنية تسعى إليها اليوم أو غدًا.. أو حتى بعد سنوات.

وحتى تحين اللحظة سيبقى كلاهما في عالمه البعيد عن الآخر، يجمعهما الواجب وتفرقهما المشاعر.

عندما عادت إلى الجامعة، وقف أحمد أمامها في الاستراحة يستأذن للحديث إليها في موضوع هام، لم ترفض هذه المرة، وعندما جلس أمامها هبت إليها رياح الماضي..

كان يتحدث بتلقائية وحماس، ويحرك يديه وكتفيه بطريقة تألفها جيدًا: سيدة لين، من دواعي سروري أن تكوني حمصية.

تذكرت ياسين، وأدركت أن أحمد لا يشبه العم طلال أكثر مما يشبه ياسين.

أحمد يحمل نفس حماسة ياسين وحميته، تنتفض غضبته نصره لما يراه حقًا.

ياسين هو أكثر من تأثر بها لحق بخالد.

فقد بقي خالد في البيت فترة يعاني آثار ما ناله من تعذيب جسدي ومعنوي في المعتقل، لم ترَ يومًا أخاها على هذه الصورة المؤلمة من الصمت الحزين، فخلف الأبواب الحديدية يتم كسر الرجال.

ومن وقتها لم يكف ياسين منذ يوم جمعة العزّة عن الخروج في التظاهرات اليومية، التي اشتعلت في غالبية أحياء المدينة.

أما خالد فيحرص على إرضاء أمه، حتى لا يتسبب الغضب في ارتفاع السكري في دمها. لكنه لم يستطع البقاء في البيت عندما بلغه أن قوات الأمن تستخدم الرصاص الحي ضد التظاهرات السلمية، ويتساقط الشهداء يوميًا، وعندما يخرج الناس لتشيع الشهداء يطلقون عليهم الرصاص مجددًا، فيتساقط شهداء جدد.

وكان خبر استشهاد تهاني الخالدي -التي حاولت تصوير التظاهرة التي خرجت من مسجد خالد بن الوليد- برصاص الأمن حادثًا جليلاً هز مشاعر الناس، فأصر خالد على الخروج في جمعة الشهداء مهما كان الثمن.

لكن أمها أغلقت باب البيت، ووقفت بوجهه وأقسمت عليه ألا يخرج. لم ترَ يوماً أخاها غاضباً إلى هذا الحد، فقد اشتعلت عيناه بالإصرار، وقال بحزم: سأخرج يا أمي، ولن أكف عن الخروج كل يوم وكل ليلة حتى يرحل، لا حل إلا أن يرحل. لن أكف عن الخروج حتى لا تضطر أية فتاة إلى الزحف يوماً حافية القدمين من حماة إلى حمص فراراً من الموت.

طعنتها كلماته في الصميم، فانعقد لسانها وجفت دموعها، وتنحت عن الباب تاركة له المفتاح.

ومن يومها لم تحاول ولو مجرد محاولة منعه. بل إن لين حتى لم تجد معارضة منها عندما تجرأت بعد ذلك وطلبت منها الخروج في المظاهرات.

أدركت أنها لم تكن تستمع إلى أحمد، ولا تعي ما يقول، عندما سأها: عفواً سيدتي، هل سمعتِ ما قلتُ؟!

تنحنحت بإحراج: أرجو المعذرة، هلا أعدت ما قلته من فضلك. هز رأسه وقال: أنا ورغد وباقي الزملاء العرب نرجو منك أن تتحدثي إلى زوجك ليدعنا في نشر قضيتنا.

تصاعدت الدماء إلى رأسها، وقالت بسخرية لاذعة: تريدني أن أطلب من زوجي أن يدعمكم؟! حسناً، سأمد له يدي وأقول له: من فضلك ساعدنا، ساعد هؤلاء المساكين الذين تهدمت بيوتهم وتشردوا في الشوارع والطرقات.

أظلم وجهه وعلاه الغضب، وتوتر صوته قائلاً: سيدتي، لم أقل هذا أبداً، لقد فهمت كلامي بشكل خاطئ.

لم تمنحه فرصة ليكمل، وقالت: تستطيع أن تذهب إليه وتتسول منه بنفسك. الكرامة لا تُشترى بالمال.

انفض غضباً، واعتصر قبضته وهو يقول: الصورة لديك مقلوبة، الشعب الذي يواجه وحده حرباً عالمية، ليس متسولاً، أخطأت بالتحدث إليك، ففي لحظة ما ظننت أنك حمضية حقاً، لكن يبدو أنك لا تختلفين عن الدكتور إياد في شيء.

رحل غاضباً، وتركها ترتجف في كرسيها، هل يعرف إياد؟

تذكرت أنه كان يجلس في المكتبة على بعد أمتار قليلة منها عندما التقت إياد في الجامعة لأول مرة.

هل يظن أن هناك شيئاً بينها وبينه؟

يوم طويل مثقل بالهموم، كان يجب أن ينتهي تلك النهاية المأساوية البشعة، فقد انشقت الأرض عن إياد معترضاً طريقها للخروج من القاعة.

كانت وحدها في القاعة كعادتها في الأيام الأخيرة، تتأخر عن الانصراف وتبقى جالسة في مكانها حتى لا تجد بدءاً من الرحيل.

لكنها ندمت أشد الندم في تلك اللحظة على تأخرها، وتمنت لو كانت عادت إلى البيت مبكراً. ارتجفت رعباً عندما دخل القاعة الخالية إلا منها، وأغلق الباب خلفه.

اندفع نحوها والشرر في عينيه، فتراجعت أمامه وكادت تتعثر، فقبض بكفيه على كتفيها وثبتها إلى الجدار.

حاولت أن تصرخ طلبًا للنجدة، لكن صوتها حبس من الرعب، ولم يخرج.

قال بصوت بث الرعب في خلاياها: تزوجت من ناجي الكيلاني!

والآن، ما الذي تدبرينه مع هذا الشاب الحمصي؟

أحذرك.. لا تتدخل في أمور الآخرين.. حتى لا يتكرر ما حدث لك سابقًا.

فتح الباب فجأة، ليظهر من خلفه أحمد الذي فوجئ بالمشهد، وظهرت الصدمة في ملامحه.

همت لين أن تستصرخه لنجدة، لكن إياد اعتصر كتفها بأصابعه، وكأنها ينذرهما مغبة ذلك.

ظنت أن أحمد سيغادر كما جاء، لكنه لم يفعل، بل وقف بتحدٍّ عاقدًا ساعديه ينظر لإياد شذراً.

فاضطر إياد أن يطلق سراحها، ففرت هاربة من المكان.

وعندما وصلت إلى البيت وجدت سيارة ناجي، لم تكن بها طاقة لمواجهة أو التحدث إليه، فاتجهت إلى الغرفة التي تدرس فيها وأغلقتها عليها جيداً، وانهارت على الأرض خلف الباب، وانفجرت في البكاء والنحيب وجسدها ينتفض رعباً، وصارت أحلامها كوابيس.

عندما قررت يوماً أن تكون طبيبة، ما تخيلت وقتها أن مهنتها ستعرضها لرؤية كل هذا القدر من الدماء والموت.

كان الدافع الأساسي لرغبتها في الانضمام للمظاهرات هو مساعدة المصابين، بعد أن صار الرد بالرصاص على التظاهرات السلمية مقررًا يوميًا.

وفي جمعة الإصرار خرجت لين خائفة مترقبة، وانضمت إلى خالد وياسين، وكانت تتوقع أن يسقط الكثير من الشهداء، فقد كانت التظاهرات يومها ضخمة عمت أرجاء البلدة، لكن اليوم مر بسلام دون قتل.

ولكن في اليوم التالي خرجت مظاهرات ليلية في المدينة ردًا على خطاب الحاكم أمام البرلمان، فواجهتها قوات الأمن بالرصاص الحي، وسقط أكثر من خمسة عشر شهيدًا.

وفي الأيام التالية لم تهدأ البلدة، بل ازدادت التظاهرات وصارت تخرج من كل مكان، والأمن يرد بالرصاص، فيشيع الناس شهداءهم ويضرب الأمن الجنازة، فيزداد سخط الناس وإصرارهم على الاستمرار في الخروج حتى إسقاط الحاكم.

كانت أياماً عصيبة، شهدتها لين بحكم تواجدها المستمر في التظاهرات، والمساعدة في إسعاف المصابين.

وفي يوم ذكرى الاستقلال عن المحتل الفرنسي عمت التظاهرات كل سوريا وكانت الأكبر، وأطلق الأمن النار على التظاهرات.

وفي حمص سقط أكثر من ثلاثة عشر شهيداً، وكثير من الجرحى، وفي اليوم التالي خرجت حشود أكبر لتشيع الشهداء، وصلوا عليهم في مسجد المدينة الكبير، وبعد أن أتموا دفنهم في مقبرة تل النصر اتجهت الحشود الكبيرة في تظاهرة ضخمة إلى ساحة الساعة في وسط المدينة، وعندما مرت المظاهرة من حي الحميدية هتف الشباب «واحد واحد واحد.. الشعب السوري واحد»..

«حرية.. حرية.. إسلام ومسيحية»..

وبادر أهالي الحي برش المتظاهرين بحبات الأرز، وقدموا لهم الماء، وانضم لهم عدد كبير من شباب الحي.

كانت خطوة لها بالغ الأثر في النفوس، فالشعب كله بمسلميه ومسيحيه يؤيد مطالب التظاهرات ويسعى للحرية، إلا الطائفة المتنفعة من الحاكم والمستفيدة من قمع الشعب.

كان يوم الثامن عشر من نيسان يوماً لا يُنسى

اضطرت لين إلى الخروج من الغرفة عندما طرق ناجي الباب بإصرار ليطمئن عليها. فبالرغم من الأثر السيئ الذي ما زال يعاني منه منذ عطلة نهاية الأسبوع، وصمته وشروده الدائمين، إلا أنه لا يتعد كثيراً.

وانضمت مضطرة إلى مائدة الطعام التي أصر ناجي على أن تشاركه إياها، لا تمد يدها إلى شيء من الطعام، بل لا تراه أمامها، من الضباب الذي غشي عقلها.
تتمنى أن يهدأ عقلها قليلاً، أو يأخذ هدنة فينسى كل ما يخيفها ويؤرقها.
انتهت أخيراً على صوت ناجي يناديها: لين، ناديتك كثيراً ولم تسمعيني، ما بك؟! لم أنت شاردة دائماً؟!!

زفرت بضيق: لا شيء، فقط أعاني الصداع والإرهاق.
قال بخيبة أمل: حسناً، في أي لحظة تودين فيها الحديث، ستجدين هنا مستمعاً جيداً.
هزت رأسها ولم ترد عليه يعود إلى صمته، لكنه لم يفعل، بل قال: لين، الحفل غداً، تعلمين كم أن حضورك هام وضروري بالنسبة لي، أحتاجك إلى جوارى، أرجوك لا تخدlinني.
قالت بنفاد صبر وهي تكظم غيظها: حسناً، سأحاول.
قال: عديني.

ضربت المائدة بكفها وانفجر غضبها من عقاله، كانت تفرغ في صراخها كل ما عانتها اليوم من ضغوط شديدة: ألا تهتم لشيء في الحياة سوى الغناء وهذا الحفل السخيف؟! لم لا تأخذ الحياة بجدية وتنشغل بعمل مفيد؟! الحياة الحقيقية ليست غناءً وحفلات وشهرة ومتع حسية، كنْ جاداً مرة وتحمل المسؤولية.

كان يجابه صراخها بالصمت، ويبتلع إهاناتها بصبر، وكلما صمت زادت في صراخها وإهاناتها، حتى صار الموقف لا يحتمل، فانسحب من المكان، وغادر البيت.

دخلت غرفة نومها واندست تحت أغطيتها، وسكبت مدامعها.

نادمة هي.. لا تدري لم فعلت ذلك.. أفعلته خوفاً منه أم من نفسها؟

لم تعجز عن البوح له؟ لا تثق به؟ أم لا تثق بنفسها؟

كانت في أشد حالات الإرهاق النفسي والبدني، ورغم ذلك لم تستطع النوم، وبقيت تتقلب في فراش من العذاب حتى طلوع النهار، وكان عليها الذهاب إلى الجامعة وهي في أسوأ حال، ثم تعود مبكراً لتجهز لحفل الليلة، وبعد الحفل عليها أن تجد طريقة تصلح بها ما أفسدته في

سورة غضبها، وأن تقدم اعتذارًا لائقًا لناجي.

ماذا لو اعترض إياد طريقها وتحرش بها مجددًا؟

كانت الفكرة مرعبة إلى درجة أنها جعلت جسدها يرتجف.. لكن اليوم مر دون أن تتحقق مخاوفها.

استوقفها صوت مشجرة صاحبة وهي تتجه إلى باب الخروج من الجامعة، وأصابها صدمة عندما رأت أحمد بكل عنفوانه وحماسته يشتبك مع إياد في شجار التف حول كل الطلبة المتواجدين.

ورغم المحاولات المضنية من الطلبة العرب، لم يستطع أحد أن يفض اشتباكهما، والذي انتهى باستدعاء الشرطة.

أعاد لها هذا الموقف أحداث الليلة الماضية وما فعله إياد، ومعها أسوأ مخاوفها.

كانت تجاهد للسيطرة على ارتجاف يديها، والتغلب على خوفها، وهي تجلس وحيدة في المقعد الخلفي لسيارتها الحمراء، والسائق يقودها إلى البيت.

امتلاء عقلها بالهواجس والظنون.. هل علم أحمد بما بينها وبين إياد؟ هل وشى إياد بها؟

المقعد الخالي بجوارها والصمت المطبق أصابها بالوحشة وضاعفا خوفها، وتمنت لو أنها الآن في سيارة ناجي يؤنسها صوته، فكرت أن تتصل به، لكنها لم تفعل، لا شك أنه مشغول بالاستعداد لحفل الليلة.

دخلت غرفتها وألقت بجسدها المنهك على الفراش تشد بعض الراحة، قبل أن تبدأ الاستعداد للحفل.

اتصل بها خالد يخبرها بأن المظاهرة تتجه إلى ميدان الساعة، وأن الناس يطالبون بالاعتصام.

لم يكن الصوت الذي يصل إليها من الهاتف هو صوت خالد وحده، بل طغى عليه أصوات الهتافات والمظاهرات من حوله، وتبينت كلمات مثل: «إلى الساحة».. «اعتصام»..

وكانت المفاجأة الحقيقية التي أسعدتها أيها سعادة، هي عندما أخبرها خالد بأن العم طلال ويحيى معه الآن في المسيرة، بعد أن شيعوا الجنازة.

اتجهت من فورها إلى الميدان، هذه المرة لم تتمكن قوات الأمن من إطلاق النار، فعدد الحشود كان كبيراً ويتوافدون من كل مكان.

كانت فرحة الناس بالوصول إلى ميدان الساعة عارمة، فمنذ خروجهم من الميدان يوم الجمعة العزّة وهم يحاولون الوصول إليه مجدداً، لكن الحصار الأمني كان شديداً حوله، واليوم فقط نجحوا، فقد اختفت عناصر الشرطة وقوات الأمن من المدينة.

وانضمت لين إلى النساء والفتيات الذين تجمعوا للمشاركة بأعداد كبيرة بشكل منظم وراقٍ، وهنَّ يحملن اللافتات ويهتفن بصوت واحد للحرية والشهداء والمعتقلين، ويهتفن باسم طل الملوحي: «لوحي لوحي.. بدنا طل الملوحي».

ويرفعن شعار: «ارحل.. ارحل».

وكان الهتاف الغالب للجميع هو: «الشعب يريد إسقاط الرئيس».

المطلب الذي تَوَحَّد عليه جميع طوائف الشعب.

فبعد سفك كل تلك الدماء الطاهرة في أيام قليلة، لم يعد هناك أي أمل في أي تغيير إلا برحيل الحاكم.

نُصبت الخيام، وشُكِّلَت لجان لمراقبة المداخل وتفتيش الداخلين إلى الساحة، للحفاظ على الروح السلمية للثورة، ومنع تسرب أي مندسين أو حامل سلاح مهما صغر.

ولم يكسر المتظاهرون كاميرات المراقبة الموجودة على أبواب المصارف في الساحة، بل قاموا بتغطيتها بأكياس سوداء، حتى لا تستخدمها المخابرات فيما بعد ضد المتظاهرين.

وتألفت قيادة من الشخصيات الوطنية والوجهاء والمشايخ، لتتولى التحدث باسم المعتصمين.

كانت الأعداد في ازدياد، حتى قُدِّرَ عدد المشاركين بمئة ألف تقريباً.

وقام الشباب بتشكيل مجموعات لتنظيم الاعتصام: مجموعات لتأمين النواحي المعيشية من طعام وشراب، ومجموعات للحفاظ على نظافة الساحة.

وشُكِّلَت لجنة إعلامية تشرف على الهتافات والشعارات المرفوعة ومكبرات الصوت، ولجنة لتنظيم الصفوف لتشكيل لوحات بشرية بالمتظاهرين أنفسهم.

كان الأمل والتفاؤل بالغد هو الغالب على المعتصمين، وكانت تجربة ميدان التحرير في مصر تجربة ملهمة، وكانت نتائجها حلماً على وشك التحقق، وإن قضوا أياماً وليالي في الساحة يفترشون الأرض ويلتحفون بالسما.

عزيمة ماضية، وإصرار لا يلين، فقد شاركت كل حمص في هذا اليوم، وكسرت حاجز الخوف، وصارت عاصمة الثورة السورية.

ورُفِعَ علم الاستقلال عن المحتل الفرنسي، الأخضر والأبيض والأسود ذي النجوم الحمراء، وصار علماً للثورة.

الأرض لا تُرى من كثرة الناس الذين تجمعوا حول عامود الساعة، وتوزعت الحشود نحو شارع الدبلان وباتجاه الساعة القديمة.

امتلأت ساحة مبنى البريد القديم وشارع نادي الضباط بالناس.

وقام أحد الشباب بتمزيق صورة كبيرة للحاكم معلقة على مبنى البريد، وإنزال علم حزب البعث وسط الهتافات «ارحل.. ارحل» من بقية الناس

وانتشرت أنباء الاعتصام على الفضائيات.

وعند منتصف الليل، وصل تسريب من أحد الضباط بأن هناك أوامر عليا بفض الاعتصام قبل الفجر بأي ثمن كان.

وبدأ التوتر يعم الساحة، وحاول الشيوخ إقناع الشباب بفض الاعتصام، وانقسم المعتصمون، فبعضهم فضل الرحيل، والبعض الآخر أصر على البقاء، ومنهم ياسين الذي لم يستطع أي إنسان إقناعه بالرحيل عن الساحة.

وعند الواحدة والنصف صار التسريب تهديداً صريحاً من قيادة أمنية اتصلت بأحد المشايخ، وطلبت فض الاعتصام في موعد أقصاه الثانية صباحاً، وإلا ستدخل القوات لفضه بالقوة مهما بلغ عدد الضحايا.

لم يكن الوقت كافياً لإقناع ياسين والشباب المتحمس أمثاله بالرحيل عن الساحة، ولم يستطع خالد ويحيى ولين مغادرة المكان دون ياسين.

لكن العم طلال خاض شجاراً عنيفاً معه ليجبره على العودة، وحاول خالد ويحيى تهدئة العم طلال، ووقفت لين تحدث ياسين بضرورة الرحيل الآن، لكن رأسه كان يابساً كالحجر الصوان.

وتركهم ياسين وتقدم نحو شارع عبد الحميد الدروبي، ولين تحاول اللحاق به وتناديه أن يتمهل..

عندما اقتربت منه سمعت دوي أصوات الرصاص، وفي لحظة أغمضت عينيها، وتطاير رذاذ سائل على وجهها وملابسها..

أدركت بعقلها أنها دماء ياسين الذي سقط بجوارها..

فتحت عينيها، وأخذت تصرخ بفزع ولوعة: ياسين! ياسين!

عندما انتبهت لما حولها، وجدت نفسها جالسة في فراشها، وناجي يضمها بين أحضانها ويمسح على ظهرها، هامساً: لا تخافي، أنت بخير.. أنت هنا في أمان..

لم تكن واعية لما حولها، فكل شيء مختلط في عقلها..

ولم تدري هل انتقلت من الحلم إلى الواقع أم العكس، لكنها تعلقت بناجي محاولة الخروج من نفق الألم والخوف، حتى أغمضت عينيها.

عندما استيقظت أخيراً، واستردت وعيها كاملاً، لم تجده، وكأنه كان حلماً.

أزاحت الغطاء عنها فوجدت نفسها بنفس ملابسها التي عادت بها من الجامعة، وأدركت أن النوم قد سرقها.

نظرت باتجاه النافذة، لتجد السماء مظلمة بالخارج، فهبت من فراشها مذعورة، لقد تأخرت عن الحفل، والآن عليها أن تتجهز في بضع لحظات، لتنتقل بسرعة إلى المسرح.

اغتمست في بضع دقائق، وعندما غادرت الحمام، فوجئت بلون السماء يتبدل في النافذة، وتزول الظلمة تدريجياً، فداهما الشك، وتناولت الجوال لتجد الوقت فيه قد تجاوز الفجر!

صدمتها حقيقة أنها نامت كل هذا العدد من الساعات وأضاعت الحفل، وجوالها يمتلئ
 بعدد لا بأس به من المكالمات الفائتة من ناجي وأمينه، لم تسمع أو تنتبه لصوت أي منها.
 كانت تحاول استيعاب ما حدث، وهي تلوم نفسها وتعاتبها بغیظ على غبائها. كيف يمكنها
 إصلاح الأمر الآن مع ناجي؟
 ناجي..

هل كان موجودًا بالأمس حقًا؟ أم كان جزءًا من أحلامها؟

(٦)

السؤال الذي شغلها في الأيام التالية: أين ذهب؟
 لم يعد ناجي إلى البيت، ولم تره منذ أن غادر بعد آخر شجار بينهما.
 تستطيع أن تقدر كم يبلغ عمق الجرح الذي أصاب مشاعره، لعدم حضورها الحفل الذي
 كان يعتبره أهم مناسبة في حياته.
 تُرى، كيف أصبحت صورتها في عينيه؟
 أنانية.. لا مبالية.. تستخف بمشاعره..
 أقسمت بينها وبين نفسها عندما يعود أن تقدم له ترضية يستحقها، وتفرغ نفسها لتتعرف
 أكثر على عالمه وما يحبه، وربما تقضي معه بعض الوقت في الريف.
 لم تكن تتخيل يومًا أن ناجي سيضطرها لفعل أكثر شيء تكرهه.
 كانت الدماء تغلي في عروقها، وأصابعها تطرق يد المقعد بتوتر، وهي تتأمل تلك المتحذلة
 الباردة التي تتابع عملها بلا اكتراث لوجودها في مكتبها، وتتعمد تأجيل الرد على أسئلتها،
 وكأنها تختبر آخر مدى لصبرها.
 زفرت لين بضيق: سيدة سوايز!

رمقتها جان بنظرة باردة، وقالت بحزم: أرجو أن تمنحيني بضع لحظات فقط، لأنهي عملي وأتفرغ لك.

ذيلت جملتها بابتسامة مفتعلة: من فضلك.

زفرت لين، ووارت غضبها خلف صمتها، وأخذت تتأمل تلك المتعجرفة ذات الجسد الأنثوي الفاتن، والملابس الأنيقة المنتقاة بعناية، وهي منهمكة في مطالعة الأوراق التي أمامها على المكتب، وتهز ساقها وتعبث بكعب حذاءها، فتدخله وتخرجه في قدمها.

انتظرتها لين بصبر حتى انتهت، والتفتت إليها قائلة: حسنا سيدة لين، كيف يمكنني أن أساعدك؟

ابتلعت لين عباراتها المستفزة، وقالت مباشرة: أين ناجي؟

رفعت حاجبها بدهشة مفتعلة: المفترض أن تجيبي أنت عن هذا السؤال!

- ناجي اختفي من ليلة الحفل.

- هل أنشر إعلاناً لمن يرشد عن مكانه؟ لا أفهم لم أتيت إليّ!

تحملت بصعوبة لهجتها الساخرة: أتيت لأسألك عن مكانه، باعتبار الصداقة التي تجمع بينكما.

- بالطبع الصداقة التي بيننا عميقة، وعمرها سنوات، من قبل حتى أن يتعرف إليك، لكن صدقيني هذه المرة لم يخبرني إلى أين ذهب.

- ومن أسأل إذن؟ قد تعرفين أصدقاءه المقربين.

- ولكنني لست زوجته لأعرف خاصته من الأصدقاء.

كانت لين تجاهد لإخماد ذلك البركان المتصاعد بداخلها، وتفتعل البرود: حسناً، كما تعلمين، ما زلت حديثة عهد بتلك البلدة، ولم أتعرف إلى ناجي إلا من وقت قصير، والآن هاتفه مغلق.

- ناجي رجل راشد، رجل حقيقي، يعتمد على نفسه ويُعتمد عليه، لا تقلقي، سيعود وقتما يشعر بالرغبة في ذلك.

- بهذه البساطة؟ ألا تشعر ك تغييره بأن في الأمر شيئاً غير طبيعي؟ وأنه قد يكون في خطر؟

- أمر مستبعد، لم لا تقولين إنه يريح أعصابه في مكان هادئ ويستجم بعيداً عن الناس؟ بعد الخذلان الذي اعتراه بعد الحفل.

لم يخفَ على لين ما في الجملة الأخيرة من اتهام مبطن لها، مما جعل أعصابها على حد سكين، وانبرت مدافعة بلا تفكير بتبغّي رد الإهانة: ما كان زوجي ليذهب إلى أي مكان دون أن يخبرني. صفعتها كلمات جان المفعمة بالسخرية اللاذعة، وهي تسترخي في مقعدها باستفزاز: حقاً؟ ولم أتيت إليّ إذن؟

لم يكن حظها مع المحامي أفضل حالاً من جان، التي أعطتها عنوان مكتبه، إلا أنه كان وقحاً ومتكبراً بشكل أشعرها بالتقزز.

كان مضطجعاً على كرسيه ماداً ساقيه فوق مكتبه يتأملها بوقاحة، وعلى وجهه ارتسم الاستخفاف.

تناول عدة مناديل ورقية من العلبة التي على مكتبه، وتمخط بصوت مقزز. كادت تترك المكتب وترحل، لكنها تعلم جيداً أن آخر حدود معلوماتها عن ناجي هو ذلك الرجل المقزز.

انتظرت بصبر الإجابة عن سؤالها الذي ألفته على مسامعه، حتى قال أخيراً: والآن، ماذا تريدان؟

- أريد أن أعرف أين زوجي.

- وهل سيحدث هذا فارقاً؟

- ماذا تعني؟

زفر بقلّة صبر، وقال بروتينية: حسناً، يمكنك أن تعودني إلى بيتك ودراستك، واطمئني تماماً، فسأخذ كل الإجراءات اللازمة.

- لن أتحرك من هنا قبل أن أعرف ما الذي ستفعله، ثم.. ما تلك الإجراءات اللازمة؟

- سيدتي، هذا مكتب محاماة، وليس مُتحرّياً خاصاً.

قضت الليل ساهدة مؤرقة تتميز غيظاً من ذلك المجنون الذي تزوجته، كيف يزوج بها قسراً في مواقف تضطرها لسكب ماء وجهها عند نوعيات من البشر كذلك المحامي وتلك الصحفية؟

تزوجت من مجنون بالفن، مزاجي كل يوم بحال، يترك زوجته لأنها لم تقف في محراب فنه ولم تتغزل بصوته، ولم تنضم إلى صفوف المعجبات بالنجم الشهير!
راودها الندم والأسف على زواجها منه، لم تحسب حساب يوم كهذا، أن يهين كرامتها كزوجة ويضطرها لإذلال نفسها لمن يعرف مكانه، واستجداء أية معلومة تدل عليه.
أخذت تسبه غيظاً وتتمنى لو لم تكن التقته يوماً ولا تزوجته.
ولكن.. ماذا لو كان قد أصيب في حادث؟! أو كان قد.. مات؟!!

لا يستحق الموت!
ما الجرم الذي ارتكبه ليقابل برصاصات اخترقت رأسه وصدره؟!
أي خطأ فعله فتى لم يتم السادسة عشرة ليمطروه بوابل من النيران؟!
لم يكن ياسين من الجماعات التكفيرية المسلحة كما ادعى تليفزيون الحاكم ليبرر سفك كل هذه الدماء الطاهرة..

لم يكن يحمل سلاحاً، ولا حتى عصا خشبية..
لم يمهلوه حتى يمسك حجراً.. فقط حجراً.. وبعدها يتهمونه بأنه إرهابي..
سقط ياسين غيلة، لم يمهلوه حتى ليطلق صرخة ألم..
أطلقت قوات الأمن تهديداتها للمعتصمين إن لم ينته الاعتصام في الثانية صباحاً، فسيتم اقتحامه مهما كانت الخسائر في الأرواح..

هم يعلمون أن هناك خسائر في الأرواح، ويهددون الثوار المعتصمين بذلك، لكن تهديداتهم كانت تقابل بالتكبير وبهتاف: «الشعب يريد إسقاط النظام»، لم يكن هناك أي أثر لخوف في نفوس الشباب..

لكن الشيوخ بدوا قلقين، فهم أكثر من اكتوى بنيران هذا النظام..

لكنهم كعادتهم غدروا بالشباب وفتحوا النيران قبل نهاية فترة الإمهال..

قوات المخابرات الجوية، وقوات المخابرات العسكرية، والشرطة والقناصة والشبيحة، يطلقون الرصاص من كل مكان صوب الميدان، يصبون النار صَبًّا على شباب أعزل ليس معه ما يدرك به القتل عن نفسه، ولا مكان يفر إليه من الموت المحيط به من كل اتجاه..

توقف الزمن في عقلها، ولم تعد تسمع سوى صوت الرصاص ولا ترى سوى الدماء، يتساقط من حولها الشباب، والكل يجري فزعاً في كل اتجاه هرباً من الرصاص..

دماء ياسين المسفوحة لطخت وجهها وملابسها، لم تكن تعلم أن الدماء لها طعم الألم والقهر..

حتى جسد ياسين الطاهر عجزوا عن استنقاذه منهم، فقد حملت جثته الجرافة، وألقت به في شاحنة كبيرة أحضروها لتحمل جثث الشهداء إلى مكان ما، تبين فيما بعد أنه المستشفى العسكري..

ذهب العم طلال ليتسلم جثة ياسين، وكانت تلك آخر مرة ترى فيها العم طلال، فقد عاد من هناك إنساناً آخر، إنسان سُلِبَتْ منه آدميته..

فقد اضطره قهراً للتوقيع على ورقة يعترف فيها بأن ياسين قتل برصاصات إرهابيين، وإلا فلن يتسلم جثمانه..

مئات من الشهداء لا يحصيهم إلا الله قضوا في تلك الليلة، وجرفت أجسادهم الطاهرة بالجرافات، وألقوا في شاحنات كما لو كانوا قمامة يسارعون بالتخلص منها، وأُجبر أهالي الشهداء على التوقيع باعترافات أن أبناءهم قضوا بأي طريقة إلا برصاص الأمن..

وعند الفجر أزيلت الدماء الشاهدة على الجريمة البشعة التي ارتكبت ليلاً، بمياه سيارات الإطفاء وخراطيم البلدية، وكأنه لم يكن هنا من ساعات قليلة بشر يتساقطون برصاص الغدر..

لن يستطيعوا أبداً إزالة ذكرى ذلك اليوم العظيم الشاهد على وحدة الشعب السوري من ذاكرة الناس..

فخيمة الوحدة الوطنية كانت تضم كل الأطياف، وساحة الساعة التي تحول اسمها إلى ساحة الحرية احتضنت الجميع في رحابها..

حتى عندما اندس بعض أفراد الأمن داخل الاعتصام ليشعلوا الفتنة الطائفية بهتافات ضد الشباب العلوية الذين أتوا للمشاركة في الاعتصام، انكشفت الخدعة للثوار، وتبين أنهم من عناصر الأمن والشبيحة..

اعتصام كهذا لو كان استمر لربما غير وجه التاريخ، وصنع نموذجًا قابلاً للتكرار في كل مكان حتى إسقاط النظام..

فعلم الثورة السورية الذي رُفِعَ يومها كان يومًا رمزًا للاستقلال عن المحتل، والآن صار علمًا لكل الثوار في سائر الأرض السورية..
لكن..

ما كان لدكتاتور أن يترك الشعب يتوحد ضده، فانضمام المسيحيين للثورة وبعض من شباب الأحياء العلوية كان فضحًا لكل أكاذيب إعلام الحاكم المتعطر عن الطائفية والإرهاب..
وكان عليه أن يدافع عن وجوده، وإن أحال البلاد كلها إلى جحيم..

وكأن الدماء التي سالت في تلك الليلة هي بداية نزيف شريان الحياة في سائر الأرض السورية..

فمن وقتها لم يتوقف فيضان أنهار الدم..

أول يوم تستيقظ فيه دون أن يطرق عليها أحد الباب، فلا أحد ليمسك بيدها ويتشلها من كوابيس الدماء إلى عالم الواقع، ولا أحد ليضمها إلى صدره، ويمسح دموعها التي أغرقت وسادتها.

حتى غادرت إلى الجامعة لم تسمع في البيت سوى صوت الجمادات، واكتمل يومها الأخرس باعتذار أمينة عن الانضمام إليها وانشغالها بأمور تخصها.

كانت مضطرة لانتظار ما سيفعله ذلك المحامي المتغطرس، فما زالت غريبة عن تلك البلاد، تتحسس خطواتها بتوجس، وتحتاج إلى من يرشدها.

أدركت متأخرة خطأ انطوائها، فوحدتها طوال اليوم وابتعادها عن تجمعات الطلبة والطالبات جعلت منها صيداً سهلاً لذلك الذئب المتربص بها باستمرار، ومنحته الفرصة ليقترح وحدتها بصفاقة، ويكدر صفو هدوئها، ويبدد شعورها بالأمن والاستقرار.

فوجئت به يجلس إلى الطاولة التي تجلس إليها، وهي عاجزة عن الاعتراض، منكشمة على نفسها كهريرة خائفة تتوجس الشر، فيأيد بالنسبة لها هو تجسيد لصور الشر في عالمها.

أعيها الخوف عن الهروب من أمامه، وأخذت تنظر إليه بتربص في انتظار ما سيقوله.

- يؤسفني حقاً أن يكون التعامل بيننا على هذه الدرجة من الارتياب وانعدام الثقة، رغم أننا أبناء بلد واحد.

فاجأها أسلوبه المداهن، وألقى في روعها سؤالاً: ما الذي يريده منها؟! بل ما الذي يدبره لها؟!

صمتها شجعه ليكمل: ما رأيك أن نبدأ صفحة بيضاء جديدة مبنية على الثقة المتبادلة، فبالإضافة إلى أننا من بلد واحد، صرنا زملاء دراسة في الجامعة.

ابتسامته الصفراء زادت من مقتها له وارتياحها في نواياه، كانت تدرك تماماً أن الشيطان لا يؤمن جانبه، والساذج هو من يثق بشعبان.

لكن عليها أن تُبقي أفكارها داخل حيز عقلها ولا تبوح برأيها فيه، حتى ترى كم يبلغ قاع البئر.

- أرجو المَعذرة، نسيت أن أقدم لك تهنئة لائقة بالزواج، شيء رائع أن تلتقي برجل متفتح العقل كناجي الكيلاني.

توترت أعصابها، وقبضت على مقبض حقيبتها حتى ابيضت أظفارها، وأخذت تهز ساقها بعصبية، وأنفاسها تتسارع، وهو يكمل بكلمات بطيئة تحمل معاني مبطنة مقصودة تفهمها هي جيداً: رجل ينظر إلى المرأة نظرة مختلفة عن سائر العرب، لا يهيم ماضيها، ولن تتبدل معاملته لها حتى لو كان لها صور تحجل من أن يراها أحد.

انفضت بحركة حادة، وهمت أن تترك الطاولة، فعاجلها قائلاً: لا تغضبي، وكوني من أصحاب العقل المتفتح كزوجك، وتقبلي ماضيه كما تقبل هو ماضيك، أنت في فرنسا، هنا ثقافة التسامح والتغاضي عن طيش الماضي والنزوات العابرة.

فضيحتة في المستشفى الذي كان يعالج فيه والده، والتي تسببت بطرد المريضة ليست بالخطأ الكبير.

تسارعت أنفاسها، وكادت تصرخ في وجهه، لولا وجود عدد من الطلبة والطالبات في المكان، فأخذت تطحن أسنانها غيظاً، وتقول بصوت حاولت جاهدة السيطرة عليه: كاذب وأفاق.

ثم رمته بنظرة مقت حادة، فأكمل بصوت بدا في أذنيها كالضحك: أعلم أنك تكرهيني، ولكنني لست كاذباً.

أستطيع أن أفهم عدم ذهابك إلى الحفل، عقلك كعقول سائر العرب، لا يتقبل الاختلاف بسهولة، ولا يستطيع التخلص من رواسب تربية الماضي.

لغنت روح شيطان الريبة الذي تلبس عقلها، لا تستطيع أن تصدقه، لكنها في نفس الوقت تعلم أن إياد لا يجازف بافتعال أكاذيب لا أصل لها ويلقيها فقط ليستفز غضبها، بل هو يخطط لشيء ما، فعقله مصنع للمؤامرات.

هو يخطط الحقيقة بالكذب بنسبة تحقق له أهدافه، التي تعلم يقيناً خبثها.

يلقي بسمه الزعاف في العقول، وهو موقن بأنه سينال مراده ولو بعد حين.

كان عليها أن تستعين بأمانة، صوت العقل، ربما يهديها لحل يهدئ من عقلها المشتعل.

لكنها اعتذرت كعادتها في الآونة الأخيرة.

أصبحت علاقتها بأمانة همماً يضاف إلى همومها الكثيرة، وحيرة ترسم في عقلها علامات استفهام عديدة، توحي تصرفاتها واعتذاراتها المتكررة بأنها تعتمد الابتعاد عنها، مما جعل لين تراجع أقوالها وأفعالها معها في الآونة الأخيرة، علها تجد فيها ما يسيء لأمانة أوزير عجبها، لكنها لم تهتد إلى شيء.

لو تعلم كم هي بحاجة إليها، لما تركتها تتخبط بين جدران الوحدة الضيقة.

هل يمكن أن يكون ذلك الكائن الذي تزوجته واحدًا من مطربي الشوارع الخلفية بكل ما فيهم من سوقية وفوضوية وتمرد وانحراف؟ كثير منهم يستخدم بذاءة الألفاظ والحركات ليعبر عن تمرد على المجتمع من خلال أغانيه ذات الرتم الواحد والإيقاع الرتيب، بل وأغلبهم سقطوا في مستنقع الإدمان والاتجار بالمخدرات.

فتحت جهاز (الكمبيوتر)، المحمول وهي تقنع نفسها بأنها لا بد أن تعرف الحقيقة مهما كانت.

أدخلت الاسم بنفس الهجاء الذي كتبه لها إياد على ورقة كبيرة، حتى لا تخطئ في حروفه. ورغم أنها لم تأخذ الورقة، لكنها حفظت ترتيب الحروف في عقلها.

Maitre Gina

لم تكمل إدخال الحروف، فقد تراصت نتائج خيارات البحث أمامها على الفور، فتحت بسرعة الفيديو الأكثر مشاهدة قبل أن تخونها شجاعتها، وتعرفت ملامحه بوضوح في الفيديو، ويظهر معه وشم كتفه الذي تعرفه جيدًا.

أغلقت (الكمبيوتر) ببطء بعدما داهمتها الصدمة، التي لم يخفف من وطأتها معرفتها المسبقة بما ستراه.

ولم تنتظر لتشاهد أيًا من الفيديوهات الأخرى التي بدت بأعداد كبيرة، مما يدل على شهرة صاحبها.

استولى على رأسها دوار عنيف، وشعرت كأن الجدران ستنقض عليها.

لآخر لحظة كان لديها أمل بأن إياد كاذب، لم يكن بإمكانها تحمل اعتذار جديد من أمينة، فلا أحد لتثق به غيرها، وأسرت إليها أمينة بعد أن أنبأها صوتها في الهاتف بعظم الخطب.

ألقت إليها بالقصة كاملة، وكأنها تريد أن تتخلص منها وتريح نفسها من عبء أُلقيَ على كتفها ولا قبل لها به، وهي تسكب دموعها سكبًا.

هزت أمانة رأسها بأسف، وقالت بتعاطف: عزيزتي، الأمر ليس بهذه الصورة البشعة التي في خيالك.

قالت بصوت بالك: كلماتك المهدئة لم تعد تجدي، ألا تعلمين كيف هي حياة هؤلاء الذين اتخذوا من الشوارع الخلفية أسلوب حياة لهم؟
خمر.. مخدرات.. زنا.. مشاجرات..

ومن يعلم.. ربما يتورطون في السرقة وبيع المخدرات والجرائم كما نسمع.

تنهدت بحيرة، وقالت: اهدئي يا عزيزتي، فثورتك لن تحل الأزمة، واضح أن الفيديو قديم، فملاحمه تبدو فيه أصغر سنًا، كما أن تلك الأمور لا يفعلها الشباب إلا في مرحلة المراهقة، وناجي أصبح الآن رجلاً مختلفًا، فالحفل لم يكن بالصورة التي تعتقدينها.

هتفت غاضبة: لا تهوني من فداحة الأمر، فهو ما زال يمارس تلك الحياة حتى الآن، لقد كان يرقص تلك الرقصات مع شحاذ في الطريق.

ثم ماذا عن تلك الفضيحة في المستشفى التي تسببت في طرد إحدى الممرضات؟ كلام إياد يدل على أنها من وقت قريب، عندما كان والده يتلقى علاجه في المستشفى قبل موته.

قالت أمانة: لا تثقي بكلام إياد، فبرغم حداثة عهده بالجامعة، إلا أنه اكتسب سمعة في غاية السوء بأفعاله القبيحة، ومشاجراته مع أغلب الطلبة العرب.

قالت بحرص حتى لا تثير تساؤلاتها عن علاقتها بإياد: نعم، علمت بذلك، لكن هذا لا يمنع أن أخباره صادقة.

زفرت أمانة: أعلم أنك لن ترتاحي إلا إذا تأكدت بنفسك، حسنًا.. فلنذهب إلى المستشفى ونتقصّ الأمر.

لقاؤهما مع مدير المستشفى كان تأكيدًا على الصورة التي تشكلت في ذهنها عن ماضي ناجي، تلقت الصدمات واحدة تلو الأخرى، لكن هذه كانت القاصمة..

وكانت كلمات مدير المستشفى كسياط ملتهبة: كان عليّ أن أطردها، فلا عبث في أوقات العمل الرسمية، حياتها الخاصة لا شأن لي بها، لكن العمل لا أسمح فيه بأي تهاون.

كان عليها أن ترى تسجيلات كاميرا المراقبة التي استفزت المدير إلى هذه الدرجة، وجعلته يطرد المريضة، ووافق المدير بعد عناء أن يسمح لها بمشاهدة التسجيلات، فقط لأنها زوجة ناجي، ذلك الذي ظهر جالسًا فوق المكتب في قسم التمريض، يبدو من حركاته بوضوح أنه يغني، والممرضة تتمايل أمامه منتشية بروعة صوته.

لم تستطع أن تكمل، فقد خافت مما يمكن أن تراه بعد تلك اللقطة..

عادت إلى البيت في أسوأ حال، وأمينة تحاول أن تهدئ من روعها..

لين: أخبريني، كيف يمكن أن أتخلص من ذلك الكابوس؟ لم يكن لي من البداية ولم أكن له، والآن صارت الحياة معه مستحيلة، ولا سبيل إلا الانفصال.

قالت أمينة بأسى: حتى يتم ذلك عليك أن تجديه أولاً.

انتبهت لين أخيراً من صدماتها على الحقيقة المرة.. ناجي ما زال مختلفاً ولا أحد يعرف مكانه.

وأخيراً، كان عليها أن تبلغ الشرطة، فهي لا تثق بذلك المحامي المتغطرس، وبعد أن اتضحت لها حقيقة ناجي وكيف يحيا، لم تعد تثق بأي إنسان يعرفه.

أخذت تسبه في سرها، وهي تجلس أمام الشرطة التي تتلقى منها المعلومات والبيانات، وتسألها الأسئلة الروتينية المعتادة، من قبيل: هل تشاجرت مع زوجك؟ هل هو على علاقة بامرأة أخرى؟

اضطرارها لعرض بعض من تفاصيل حياتها الخاصة على أغراب أصحابها بالضيق والغثيان.

زفرت لين بنفاد صبر، وطلبت من الشرطة أن تكتفي بهذا القدر من الأسئلة، وتأخذ منها بيانات زوجها وتتحري عنه كيفما تريد، ولكن الشرطة بمجرد أن سمعت اسمه حتى انتبهت واعتدلت في مجلسها، وتأملت لين لحظة، ثم استأذنت منها وغابت عنها، ثم عادت واقتادتها إلى مكتب رئيس الشرطة، الذي تولى بنفسه التحقيق في الأمر، ممّا أوحى للين بالأهمية التي يحظى بها ناجي في البلدة، وبرغم أنها تركت الأمر برمته للشرطة، لكنها كانت تتميز غيظاً من الموقف المحرج الذي وضعها ناجي فيه رغماً عنها.

قررت أن تتبّه إلى دراستها وشؤونها، وإذا ما ظهر مجدداً فستطلب منه أن يطلق سراحها بهدوء ودون مشاكل.

وبعد عدة أيام تلقت اتصالاً هاتفياً من شخص يقول إنه مدير البنك الذي يتعامل معه ناجي، يدعوها إلى مكتبه في لقاء عاجل لأمر هام.

وبرغم تعجبها من أنه حصل على رقم هاتفها، كان عليها أن تذهب لترى إن كان يعرف أية معلومات عن مكان ناجي.

كان الرجل في غاية التهذيب وهو يرحب بها ويدعوها للجلوس في المقعد المواجه لمكتبه، ملاحظه ولهجته تشي بأنه من أصول عربية، كان ذا صوت هادئ، وجم التهذيب، وشخصية مريحة تدعو للاطمئنان، عرفها بنفسه قائلاً: مراد كساب، مدير البنك الذي يتعامل معه السيد ناجي. انتبهت حواسها وتحفرت لما سيقوله، وبدأ عقلها يضع الاحتمالات.

لكنه فاجأها قائلاً: أرجو أن تتقبلي عظيم أسفي لاختفاء السيد ناجي، وأرجو له السلامة. تمتمت شاكرة، ثم سألته مباشرة حتى تقطع عليه أية أسئلة للاستفسار عن مكان ناجي: أرجو أن يكون الموضوع الهام الذي استدعيتني لأجله خيراً.

قال مُطمئناً: كل الخير إن شاء الله.. أود أن أسألك: أما آن للحرب القائمة من أيام السيد عمر الكيلاني أن تضع أوزارها؟

- عفواً! لم أفهم مقصده! عن أي حرب تتكلم؟

- ألم يرو لك السيد ناجي عن ذلك الصراع الممتد بين والده السيد عمر الكيلاني رحمه الله والسيد كريستيان؟

- لم يفعل.

- إذا عليّ أن أخبرك بالسباق المحموم الذي يدور منذ سنوات طويلة، بين السيد عمر والسيد كريستيان، حول أحقية كل منهما في امتلاك أفرع المطعم المنتشرة في محافظات عدة.

- الحقيقة أنني لا أهتم بهذا الأمر، ولا ينتابني أي فضول لمعرفة تفاصيله.

ارتد بظهره إلى الخلف، وارتسمت الدهشة على ملامحه، وصمت يتأملها لبرهة.

تنحنح، ثم قال: الحقيقة أن زوجك ناجي ورث هذا الصراع من بعد والده الراحل، وبناء عليه فالأمر يعينك، بل إنني أطمح في إنهاء تلك الحرب المستمرة منذ أمد بعيد على يدك.

قالت مصححة: عفواً سيدي، اخترت الشخص الخطأ، عليك انتظار عودة زوجي ليحل مشاكله بنفسه، فأنا لا علم لي ولا دراية بمشكلات عمله.

قال: وما الذي يضطرنني لانتظار عودة السيد ناجي وصاحبة المطعم تجلس أمامي؟ أصابتها كلماته بالتجمد للحظات، وأرادته أن يعيد على مسامعها ما قال، لتتأكد أن ما سمعته صحيح: عفواً! ماذا قلت؟

قال مؤكداً: المطعم ملكك سيدتي، ألم يكن لديك علم بذلك؟ نظراتها الذاهلة وانعقاد لسانها أنبأه بالإجابة، فقال موضحاً: لقد نقل السيد ناجي ملكية المطعم بكل فروعه إليك.

أسندت رأسها إلى كفها، وكانت عاجزة تماماً عن استيعاب المفاجأة، لكن مراد لم يمهلهما، ولم يتركها تستوعب المفاجأة المذهلة، بل قال مباشرة: وليس المطعم فحسب، بل نقل إليك كل أملاكه.

(V)

أغمضت عينيها للحظة، فقد كانت تود أن تستفيق من ذلك الحلم السخيف، أو تفتح عينيها فتجد من يقول لها: انظري باتجاه الكاميرا.. لقد كان (مقلباً)..

عفوًا سيدتي، هل أنت بخير؟

فتحت عينيها لتواجه واقعها الجديد، وتحيب عن سؤال مدير البنك، لكن صوتها لم يخرج من حلقها، وكان عليها أن تبتلع ريقها وتتنحج عدة مرات لتستطيع أن تتكلم: بخير.. شكرًا..

ظهرت الحيرة جلية في ملامحه: أعتذر لإزعاجك، فلم يخطر ببالي لحظة أنه لم يخبرك.

قالت متظاهرة بالثبات: ولا أنا، أرجو أن تعذرني، ولكنني بحاجة للانصراف.

هز رأسه متفهمًا، ومد لها ببطاقة: تلك هي أرقام هواتفني، وأنا على يقين بأننا سنلتقي ثانية.

غادرت وهي لا تكاد ترى الطريق من فرط الصدمة، حتى إنها اصطدمت بشخصين على الأقل وهي تتجه إلى السيارة، وبمجرد أن عادت إلى البيت حتى اعتزلت العالم، وأغلقت عليها باب غرفتها، فهي تحتاج إلى الهروب من كل شيء.

تأملت جدران الغرفة الفاخرة والديكورات الغالية، والأثاث المتقني على أحدث طراز..

لكم تتوق إلى رائحة بيت جدها القديم وذلك الدفء الذي يملأ أركانه على بساطتها!

اشتاقت إلى أخيها وأمها..

اشتاقت إلى أحببتها..

راودتها نفسها أن تفتح جهاز (الكمبيوتر) وتنظر إلى بعض مَن تبقى لها من ماضيها، لكنها نفضت الفكرة عن رأسها بسرعة، لا يجب أن تنسى أبدًا أنها زوجة، وعليها أن تحمي كرامتها وتصون قلبها عن الزلل، وتحفظ بكرائها أمام نفسها.

بقيت وقتًا طويلًا في صراع مرير تعاني وحدة قاتلة.. حتى انهارت أخيرًا فوق وسادتها تسكب دموعها سكبًا.. وتسب سجانها الذي طوق عنقها بأطواق من فولاذ تعجز عن التخلص منها.. ففرت مسرعة إلى النوم.. حتى تحمي قلبها من مزيد من الألم..

كانت تنظر إلى وجه أمها المستدير كالبدن المنير، معذور والدها إذ أسرَّ لها يوماً بأن أمها سكنت فؤاده من أول يوم رآها فيه، ووقع أسير تلك العيون الحزينة على الدوام..

كانت ابتسامتها عزيزة، لا تظهر إلا للغالي، تواري همومًا ثقيلة في قلب غلَّفته، بالصمت وأغلقتة على ذكريات مروعة لا يعلم بشاعتها إلا الله..

لا يجزئ أحد على توجيه أي سؤال لها يتعلق بالماضي..

فهو منطقة خطرة عُرِلت عن حياتها، وأُحيطت بأسوار عالية، وسُيِّجَت بسياج شائكة..

كان هذا هو العامل المشترك بين ذلك الجيل من أهل حماة..

الصمت..

هو الدرع الذي يتحصنون به من تكرار ما حدث بالأمس البعيد..

ولكن.. عندما قامت الثورة بدأت الأسوار تنهار والسياج يتفتت، وأضحى الصمت عبئًا على القلوب المهمومة..

كانت أم خالد هي أكثر من عارضت تلك الانتفاضة التي قامت ضد الحاكم في كل سوريا، وعارضت مشاركة خالد بها..

لكن دماء ياسين غيرت الكثير بداخل كل من عرفوه، الجميع لم يعد كما كان بعد أن أُرِيقَت دماء ياسين أمام أعينهم..

بدأت أم خالد تتابع أخبار الثورة تدريجيًا، في البداية عن طريق الإنصات لأحاديث خالد والعم طلال..

لكن ما حدث بعد ذلك كان عجيبيًا حقًا..

فبينما كان خالد ولين يتابعان أحداث الثورة في سائر محافظات سوريا، ويشاهدان الفيديوهات التي رفعت على اليوتيوب للمظاهرات من كل مكان، انتبها إلى اهتمام أمها بالأمر واقتراها من مجلسها بصمت، إلى درجة وقوفها في موضع يتيح لها مشاهدة ما يشاهدانه عن قرب..

لكنها اقتربت أكثر حتى صارت أقرب منهما إلى شاشة (الكمبيوتر) عندما رأت فيديوهات المظاهرات التي بُثت من حماة..

كانت تتأمل تفاصيل الصورة وتبكي بصمت، وكأنها تعرف تلك الأماكن حق المعرفة..
كان خالد هو أكثر من يشعر بأمه وروحها المتألّمة، كان يفهم نظرات عينيها ويسمع دموعها
دون الحاجة إلى كلام، ممّا جعله يقرر فجأة اصطحاب أمه وأخته للمشاركة في أكبر مظاهرات
حاشدة شهدتها الثورة السورية..

مظاهرات حماة..

أخيرًا.. وبعد عشرات السنين..

تكلمت المدينة الصامتة..

استقبلت أم خالد التراب الحموي ساجدة باكية مُقْبِلَةً أثرًا عاش فوقه الأحبة وقضوا..
اصطحبها خالد لتمر على كل الأماكن والشوارع والأحياء التي عاشت يومًا فيها، وما زال
بعضها يحمل آثار الدمار الذي لحق بالمدينة حتى الآن..

تلك الأرض التي غادرتها منذ عشرات السنين بأقدام حافية دامية فرارًا بحياتها..
تعود إليها الآن مستندة إلى ذراعي فلذتي كبدها، تذوب بين أهلها في ساحة العاصي وتهتف
معهم لبلدة استردت الحياة بعد عشرات السنوات العجاف..

لم تكن حماة بعيدة عن الثورة، بل كانت تغلي بصمت على تنور من الظلم والقهر المستمر من
عشرات السنين، فشاركت من بداية الثورة على استحياء، حتى شهد أهالي المدينة فيديو للحظات
مقتل أحد أبنائها تم بثه عبر الإنترنت وعلى وسائل الإعلام، عندما كان يشارك الشاب عمران
الدويك في رمي الحجارة على قوات الأمن التي تواجه التظاهرات السلمية بالرصاص..
تم القبض عليه، واجتمع حوله رجال الأمن وأوسعوه ضربًا بالهراوات على رأسه، تحت
سمع وبصر العالم، حتى أُصِيب بشلل دماغي قبل موته..

اختلطت صورة الشاب الحموي في وجدان الناس بصورة الطفل حمزة الخطيب، الذي
تم تعذيبه بأبشع الوسائل حتى الموت، في أحد الفروع الأمنية، وبثت صورته عبر الإنترنت
ووسائل الإعلام، مما أشعل النار في قلب كل سوري، فخرجت المظاهرات حاشدة في سائر
الأراضي السورية، تعبيرًا عن الغضب والرفض لوحشية النظام وإجرامه..

وفي حماة خاصة..

لكن التظاهرات السلمية تم مواجهتها بوحشية من قبل النظام، وتساقط الشهداء والجرحى،
لتخرج في اليوم التالي أعداد أكبر لتشيع ودفن الشهداء، فلا يجدون أمامهم سوى الرصاص،
ليتساقط المزيد من الشهداء..

ولم يكف الناس عن الخروج إلى الشوارع والساحات، يهتفون بسقوط النظام رغم القتل
والإرهاب..

وفي كل جمعة تمتلئ ساحة العاصي -أكبر ساحات المدينة- بمئات الآلاف من المعتصمين،
بعد انسحاب قوات الأمن من المدينة..

صارت الأيام كئيبة تحت وطأة انتظار عودة الغائب، أو أي خبر عنه من تحريات الشرطة.
ولأنها ليس بيدها شيء لتفعله، فقد انخرطت في دراستها محاولة نسيان همومها الخاصة كما
نصحتها أمينة، والاستذكار باجتهاد ودأب حتى تستطيع اجتياز تلك السنة الصعبة الحاسمة،
وتحتفظ بمقعدها في الجامعة.

من بعد لقاءها الأخير مع إياد أصبحت تتعمد الجلوس في أكثر الأماكن ازدحامًا، والاختباء
داخل تجمعات الطلبة، بلا اختلاط حقيقي أو اندماج فعلي يساعدها على التعارف مع بعض
من رفيقات دراستها، أو حتى مشاركة الطلبة العرب في أحاديثهم أو نقاشاتهم المشتركة.

كانت تجد الأمان من مطاردات إياد لها بين زحام الطلبة، لكنها تعزف عن الاختلاط بهم،
ورغم ذلك لم تستطع حماية نفسها من نظراته المتوعدة، ولا تهديداته الصامتة.

تحتاج إلى من تتحدث إليه، لكن أمينة صارت منشغلة عنها بالأنشطة التي تقوم بها مع
أحمد ورغد وصالح وباقي الطلبة العرب، ورغم إلحاحهم الشديد لتنضم إليهم وتشاركهم
فعالياتهم من أجل سوريا وفلسطين، لكنها رفضت ذلك رفضًا قاطعًا، فهي هنا لتكون طبيعية،
ولن تدع أي شيء يشغلها عن ذلك، كما أن حراك كل العرب المقيمين في بلاد المهجر لن يغير
أي شيء مما يحدث في المنطقة العربية.

كانت قد عاهدت نفسها أن تلقي وراء ظهرها أية أفكار تتعلق بوضعها الجديد، وبما منحه لها ناجي، فهي مقتنعة بأنها لا تملك شيئاً، وستجبره على إعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه فور عودته.

لم تكن تصدق تلك الاحتمالات غير الواقعية التي تتعلق بفرضية انتحاره أو قتله مثلاً، والتي وضعتها الشرطة كأحد مسارات البحث.

شيء ما في أعماقها يجعلها تستبعد تلك الاحتمالات إلى درجة الاستحالة.

لم تدم فترة إبعاد نفسها عن سياق البحث عن ناجي بإلقاء الأمر برمته إلى الشرطة طويلاً، فسرعان ما عادت إلى واقعها الذي ترفضه بشدة، باعتبارها صاحبة كل ما امتلكه ناجي يوماً.

اتصل بها السيد كريستيان، والذي عرفت اسمه بناء على المعلومات القليلة التي حدثها بها مدير البنك، وطلب أن يلتقي بها لأمر هام.

لم تكن لديها فكرة عما يمكنها أن تفعله أو تقوله إذا ما تحدث معها في أمر الصراع القديم، أو حل المشكلات الخاصة بما تملكه الآن، لكن إلحاحه الشديد لم يترك لها رفاة الاختيار.

وعندما طلب منها أن يأتيها في البيت، حارت في الرد، وكيف تفهمه أنها لن تستطيع استقباله في بيتها دون وجود ناجي!

لكن فكرة لا بأس بها أسعفت عقلها في اللحظة الأخيرة، فطلبت منه أن يكون اللقاء في المطعم، على اعتبار أنه محل العمل والمكان المتنازع عليه.

ذهبت قبل الموعد ببضع دقائق، واستقبلها العاملون في المطعم بالترحاب، وعلى رأسهم مدير المطعم، وهو شاب عربي لبق ومهذب.

وبرغم أنها ليست المرة الأولى التي تتراد فيها المطعم، لكنها المرة الأولى التي تنتبه فيها لكل ما حوّلها وتتمعن في تفاصيل وأشياء لم تكن تهتم بها قبلاً.

أوصت النادل بأنها تنتظر ضيفاً هاماً، وعندما انصرف لإعداد اللازم، ساقطها قدمها إلى آخر المطعم، حيث الطاولة المفضلة إلى ناجي.

وكان شيئاً ما يلقي في روعها أنها ستجده جالساً هناك ينظر شاردًا من النافذة، كما رآته سابقاً عندما أحضرها أمل إلى المطعم.

توقفت فجأة عن التقدم.. وتجمدت في موضعها..

لم يكن ناجي.. بل جانيت..

اشتعلت النار في جوفها، وهي تتأملها وهي جالسة على نفس المقعد الذي يحبه ناجي، تحتضن قذح قهوتها بكفيها، وتلقى بنظراتها الشاردة خارج النافذة.

طحنت أسنانها غيظاً، وتمنت لو تجذبها من شعرها وتلقي بها خارج المطعم.

لكن اللحظات التالية لم تدع لها فرصة للتصرف، أو حتى التفكير فيما ستفعله أو ستقوله.

انتهت جان من شرودها، وتصادمت نظراتها، كلتاهما تحمل للأخرى قدرًا لا بأس به من المشاعر العدائية، تتجلى بوضوح من خلال نظراتها.

في نفس اللحظة التي تحركت فيها باتجاهها لتقوم بتصرف ما، لحق بها مدير المطعم، وأخبرها بأن السيد كريستيان يطلب لقاءها.

رمقتها بنظرة متعالية، ثم تبعته إلى حيث الطاولة التي اختارتها في صدر المطعم، وأمرت بتجهيزها لاستقبال الضيف.

برغم المعاملة الدبلوماسية التي حظي بها السيد كريستيان، إلا أنها لم تنتبه لنظرات الكراهية المحتدمة في أعين العاملين في المطعم، إلا بعدما نبهها هو قائلاً بتهذيب: لم يكن مناسباً قدومي إلى هنا، لكنني أطعت رغبتك.

قالت بقله فهم: أعتقد أن المكان مناسب تمامًا للأمر الذي ستحدث فيه.

قال: الكل هنا ينظر إليّ كعدو، فكلهم رجال ناجي وحاشيته، ويدينون له بالولاء. لن أخفي عنك، لكنني بدأت بالفعل أصدق ما يقال عن هذا المكان.

قطع كلامه عندما مرت بالقرب منهما جان مغادرة، وتوقفت أمامهما للحظات تصب عليها نظرات الاحتقار والاشمئزاز، وعلى ثغرها نصف ابتسامة ساخرة.

بمجرد أن رحلت قال بتوتر: لا أفهم حقًا لم تكرهني!

أرادت أن تبعد تفكيرها عن تلك المخلوقة المستفزة، فردته إلى طرف الحديث السابق: عفواً، ما الذي كنت تقصده بما يقال عن هذا المكان؟

قال: إن ما يتداوله الناس عن هذا المكان ليس إيجابياً بالمرّة، فيه الكثير من العنصرية، فهو يفضل الفرنسيين ذوي الأصول العربية على غيرهم.

- ليس ما يتداوله الناس صحيحاً دائماً.

- سيدتي، لقد أصبت بالضرر بشكل مباشر، بُتِّ مقتنعاً بأن هذا المكان يحوي عصابة يتزعمها السيد ناجي.

- ليس لأن بينك وبين زوجي خلافات تسمح لنفسك بأن...

- سيدتي، لقد قاموا بتحطيم المطعم الخاص بي، وضرب كل من يعمل فيه.

- ولم أَلَمْ تشكّه للشرطة؟

- فعلت، ولكنه محال دليل ضده.

- نتحدث كما لو كنا في دولة عصابات، لا في دولة ديمقراطية حديثة!

- السيد ناجي معتاد على مخالفة القانون، منذ أن كان فتى جاحلاً.

أكمل عندما وجد الدهشة العارمة مرتسمة على ملامحها: تعلمين كيف ينشأ هؤلاء الفتية الذين يقضون مراهقتهم في الشوارع الخلفية، ويتمتع سلوكهم بالانحراف المجتمعي.

هم يعيشون في شكل عصابات تتخفى عن أعين القانون، وكل عصابة يحمي أفرادها بعضهم البعض، وهذا السلوك قد يظل ملازماً لهم حتى في الكبر.

لم تجد ما يمكن أن ترد به على كلماته، فهي لا تعرف شيئاً بعد عن ماضيه، وما رآته في الفيديوها ليس ببعيد عما يقوله السيد كريستيان.

- عمر الكيلاني هو من أسس تلك الإمبراطورية التي تتخفى تحت ستار سلسلة مطاعم تعمل بشكل قانوني، وتضم تحت جناحها مهاجرين غير شرعيين وعاهرات...

- عاهرات؟!!

كان من الصعب عليها استيعاب كل تلك المفاجآت والبقاء متماسكة أمام هذا الغريب، الذي فتح لها نافذة تطل على الجحيم.

قال مؤكداً: بإمكانك أن تسألي أي أحد في المطعم عن شانتال.. أمّه.. الكل يعلم أنها كانت على علاقة قديمة جداً بعمر الكيلاني.. الكل هنا مخلص تمام الإخلاص لتلك العصابة.. عصابة «مايتر جينا».

لم تستطع أن تمنحه الإجابة التي أتى خصيصاً لسمعتها. ليس بإمكانها التصرف فيما لا تملكه، وإن كان ناجي قد ألقى إليها بذلك الحمل الثقيل، فهي توقن بأنه أمانة ستعود إلى صاحبها بمجرد ظهوره.

لكن ما أرقها وقض مضجعها هو أنها لم تعد على ثقة بذلك الرجل الذي تزوجته، ولا بأخلاقه، ولا بماضيّه، كانت صدمتها الكبرى أن أمه عاهرة.

اقترحت عليها أمانة أن تحاول بنفسها البحث عن ناجي بسؤال من يعرفه أو كان على علاقة به، وعرضت عليها مساعدتها في البحث بأن تستعين بالفيديوهات التي تم تصويرها في حفل زفافها، لتتعرف منها على الأشخاص المحيطين بناجي.

لاقت الفكرة استحسان لين، فطلبت منها أمانة أن تترك لها هذا الأمر، وستستعين بصالح في مساعدتها، فلديه خبرة كبيرة في (الكمبيوتر)، كما أنه صديق لطلبة كثيرين من مواطني هذه البلاد، ويستطيع أن يعرف بسهولة الشخصيات الشهيرة فيها.

شعرت لين بالامتنان الكبير لصديقتها التي لا تتوانى عن مساعدتها قدر ما تستطيع، فباستثنائها هي صار كل من حولها أعداءها، ينظرون إليها نفس نظرة المحامي البغيضة: محتالة لعبت برأس زعيمهم واستولت على كل شيء يخصه.

ترى، هل يرتابون أيضاً في أنها قتلتها وأخفت جثته؟!

الآن فقط فهمت لم يعاملها كل من في المطعم بحذر وتصنع، إذ يبدو أن ناجي كان محاطاً بالولاء من كل من كان يعرفه.

بمن تستطيع أن تثق وهي محاطة بكل هذا الكم من الكراهية والرفض؟! حياة ناجي من قبلها محاطة بكثير من الشكوك عن طبيعة أعماله أمام القانون وخلف القانون، كيف يمكنها أن تحسم أمراً كهذا وهي لا تدري شيئاً عن ماضيه؟! فكرت لأكثر من مرة أن تذهب للقاء شانتال، التي تقصّت عنها وعرفت أنها تعيش في دار للعَجَزَة، لكن شعورها بالاشمئزاز من ماضيها حال دون ذلك، ممّا ألقى في روعها سؤالاً: إن كانت هي تسمئز من مجرد التفكير في الالتقاء بعاهرة، فكيف كان ناجي يشعر عندما أدرك أنها أمُّه؟! أُمُّه؟!!

هل تتهمه لماضيه أم تشفق عليه منه؟ فلا يسحق كرامة الرجل سوى أمُّه. لكن في النهاية، كان عليها أن تذهب إليها، ربما تتوصل إلى سر رحيل ناجي والمكان الذي ذهب إليه، أو تعرف عنه أية معلومات. عندما تقدمت لين بطلب لزيارة شانتال في دار العَجَزَة، ما كانت تتوقع أنها ستري أمامها امرأة تشبه المومياء في نحافتها! خد هضيم.. عينان جاحظتان.. عروق زرقاء بارزة.. شعر أبيض خفيف.. كانت المرأة القعيدة على كرسي متحرك تحمل بقايا من جمال قديم، طمس الزمن والمرض أغلب ملامحه، وكانت ترافقها امرأة تقوم على رعايتها وإطعامها. عندما نظرت لين في وجهها انتابها شعور غريب بأنها تعرفها، فسألته بفضول: هل تعملين هنا في الدار؟

أجابت: لا، لقد استأجرتني السيد ناجي لمرافقتها والعناية بها. ازدادت شكوكها وتحولت إلى يقين بعدما أخبرتها أن اسمها إيميليا. إنها نفس المريضة التي طردها مدير المستشفى بسبب ما فعلته مع ناجي. طوت غضبها في صدرها ولم تتكلم.

جلست لين أمام شانتال تتأمل ملامحها التي اكتست بمسحة حزن، ونظراتها الشاردة، وحاولت أكثر من مرة أن تتحدث إليها، لكن المرأة لم ترد، حتى أصاب لين اليأس.

المرأة كما هو ظاهر، مُسِنَّةٌ قعيدة لا تعي شيئاً.

ولكن.. هل هي أمه حقاً؟!

قامت من مكانها مغادرة، لكن صوتاً ضعيفاً استوقفها: أنت لين؟

عادت إلى مقعدها ونظرت في وجه المرأة، وقالت: نعم.

ابتسمت المرأة: عمر يحبك كثيراً.

داهمتها خيبة الأمل، فالمرأة وصلت إلى درجة من الخرف عجزت معها عن التمييز بين الابن وأبيه!

لكن الجملة الغريبة التي ودعتها بها تركت صدى في عقلها لمدة طويلة..

«انتبهى جيداً للشعلب الصغير»..

لم تكن جملة بلا معنى من امرأة غاب عقلها خلف حجب الشيخوخة والمرض، فقد عرفت من العاملين في المطعم أن الثعالب الثلاثة هم: ناجي وسعد ومروان، صديقه المقربان، تزينت جدران المطعم بالكثير من الصور التي تجمعهم مع (المعلم) أو بدونه.

وفي البيت أخذت تبحث في الخزانات والجواريير، لتجد الكثير من الصور لهم معاً..

أخذت تتأمل إحدى صور ناجي تزينت بإطار أنيق..

التقطت الصورة لمدخل مستشفى، وضمت (المعلم) يجلس على كرسي متحرك، وحوله الثعالب الثلاثة.

تلك المحبة التي تشع من عيون الشباب الثلاثة للرجل الكبير، وتلك العناية والمكانة التي يحظى بها وسطهم..

ذلك الرجل الذي رحل وترك خلفه أطناناً من الشكوك تدور حول شخصيته وأفعاله..

والأصدقاء الثلاثة الذين تفرقت بهم السبل بعد موته، ذلك الذي كان يجمعهم، لا تدري أكان يجمعهم على خير أم شر!

كانت تجلس أمامه وهي تسأل نفسها: أمن الممكن الوثوق به وهي لا تعرفه؟ وهل لديها حل آخر لتصل إلى الحقيقة؟

مراد كساب ربما يكون دائماً حريصاً على مصلحة عملائه، كما أنه من أصول عربية، وكان عليها أن تسأله عن عمر الكيلاني.

أجاب عن سؤالها ببساطة: حسناً، السيد عمر له شعبية كبيرة هنا بين الجاليات العربية. تنحني، وخفض صوته قليلاً، ثم قال: لست بحاجة للتأكيد بأن ما سأخبرك به الآن لا يجب أن يصل إلى أذن أي من العاملين هنا.

انتبهت، وساورها القلق عما يمكن أن يبوح به لها، هل ستلقى صدمات جديدة؟ لكنه لم يتركها في حيرتها طويلاً، وقال بصوت منخفض: كان (قبضاي).

أقلقتها الكلمة بشدة، (قبضاي) وعلى علاقة مشبوهة بعاهرة؟! أي رجل هذا؟!
- العرب هنا يلتفون حوله ويستعينون به في حل كل مشكلاتهم، وهو لم يكن يخذلهم أبداً.
- أي نوع من المشكلات بالضبط؟

- أي شيء وكل شيء.

- ضد القانون مثلاً؟

- سيدتي، لا أحد هنا يسأل مثل تلك الأسئلة، في كل يوم يفد إلى هذه البلاد أعداد هائلة من العرب بالطرق الشرعية وغير الشرعية، هم بحاجة إلى (قبضاي) مثل عمر الكيلاني، يعرف تلك البلاد جيداً، ليؤويهم ويحل لهم مشكلاتهم، وينجز لهم أوراقهم، وقد يجهز لهم أوراقاً بطرق خاصة لمن يعجز عن إيجاد أوراق له.

- هل تتحدث عن التزوير؟!

أدركت مدى غباء السؤال عندما قلب كفيه وألقى إليها نظرة دهشة من غرابة السؤال.
تابع قائلاً: لذلك فقد وجد الآلاف يرحبون بخدمته عندما طلب منهم مساعدته في تأديب كريستيان.

قال عندما وجد علامات الاستنكار على وجهها: سيدتي، العرب هنا حياتهم صعبة، ويعانون من مصاعب كثيرة، وفي أحيان كثيرة يعاملون بعنصرية بغیضة، وقد يتعرضون لاعتداءات من بعض الأفراد أو الجماعات التي تتبنى الفكر العنصري وكرهية المهاجرين، ولذا فهم بحاجة إلى رجل قوي وقديم هنا مثل عمر الكيلاني، ليحميهم ويساعدهم ويخفف عنهم مصاعب الحياة، حتى وإن خالف القانون أو عمل أحياناً بالأعمال القذرة.

لا تدري لم لم تحل كلماته محل التعاطف بداخلها، فتلك الحياة الغريبة التي عاشها ناجي ووالده هي بعيدة كل البعد عنها وعن تربيتها ومبادئها.

-هنا كل العرب يحبونه ويقدرونه، فلا تلمي عليه فيما فعله بكريستيان، فإن (المعلم) يجب أن يحمي ممتلكاته، ويحمي كل من يستجير به.

هل حقاً يحتاج العرب إلى (قبضاي) يحميهم؟!

نفس السؤال الذي فرض نفسه على الثورة السلمية، التي صارت أنهار دمائها الطاهرة تجري في كل ساحة وشارع على أرضها.

لم يكن فض ساحة الحرية (الساعة) هي آخر الدماء التي سالت، بل كانت مجرد بداية لشلال الدم.

بعد انتشار المظاهرات في كل ساحات المدينة، وبالخصوص حي الخالدية، فقد صنع الأهالي مجسماً خشبياً كرمز لساعة حمص الجديدة في ساحة الحرية بالخالدية، وكان النظام يواجه المظاهرات بالقتل والرصاص الحي، والتنكيل والتعذيب والإرهاب، لمن يقع بين يديه من الثوار السلميين.

نشر في الطرقات الحواجز الأمنية لیتصيد بها الثوار، وبدأ سلاسل من الخطف في الشوارع للرجال والنساء على السواء، وانتشرت فيديوهات مروعة لرجال الأمن وهم يعذبون المعتقلين وينكلون بهم بوحشية، ويجبرونهم على قول كلمة الكفر وإعلان الحاكم إلهاً من دون الله، وهم يسجدون لصورته.

كان استنتاج خالد أنهم ينشرون تلك الفيديوهات ويعلنون عن اغتصاب النساء في المقرات الأمنية حتى ينشروا الرعب بين الناس، فيحجمون عن المشاركة في المظاهرات.

أما العم طلال، فقد كان يعتقد أن الحاكم يسعى بجد لإشعال فتنة طائفية وحرب أهلية في البلاد.

كل عمليات خطف النساء تمت في الأحياء التي يعيش بها الطوائف المختلفة جنباً إلى جنب، ممّا قد يفتح الباب للانتقام من الطائفة التي ينتمي لها النظام وحاشيته، فيقومون هم بالرد، فتفتح أبواب عمليات ثأرية لا تنتهي.

لكن كل هذا التنكيل بالشعب لم يفت في عضد الناس، ولا حتى إقحام الجيش في قمع المظاهرات، والقيام بعمليات عسكرية في الأحياء، واقتحام حي باب السباع والحميدية لتأديب الأهالي وترويعهم، بل كان كل ذلك يزيد من إصرار الناس على التمسك بمطالب الحرية وإسقاط النظام، فلا حل لوقف القتل والتنكيل والترويع إلا برحيل الحاكم الدكتاتور ونظامه المستبد.

بانتشار القتل والخطف والتعذيب والاغتصاب صار الناس لا يأمنون على أرواحهم وأعراضهم، وأصبح هاجس الجميع هو: كيف يحمون أنفسهم ويحمون المظاهرات السلمية؟ أصبح من الضروري والحتمي الدفاع عن النفس.

في ذلك الوقت برزت حالات انشقاقات في جيش الحاكم لضباط وجنود رفضوا الولوع في دماء بني وطنهم، بعضهم هرب بعائلته إلى الخارج، وبعضهم انضم إلى الثورة، وصار كل ضابط وجندي منشق انضم للثورة محط احتفاء واحتفال بالقبلات والأحضان من الثوار في ساحات الحرية، وازداد الأمل بين الناس بإمكانية إسقاط النظام.

ثم صارت المظاهرات التي تخرج تصاحبها لجان مسلحة للحماية والتأمين من لواء الضباط الأحرار، الذين أخذوا على عاتقهم مهمة حماية المدنيين، وكانت تلك اللجان رادعاً مؤقتاً للشبيحة وقوات الأمن، الذين يهاجمون المظاهرات بالرصاص الحي، يسمح للثوار بالانسحاب من مكان الخطر.

لكن.. مع ظهور السلاح بأيدي الثوار، بدأ النظام في استخدام إستراتيجيات تنكيل وأساليب وحشية جديدة في التعامل مع الثورة، حتى تم الإعلان عن أول تنظيم مسلح في الثورة السورية لحماية المدنيين في حمص..

«كتائب الفاروق»..

(٨)

استطاعت إجبار نفسها على الانخراط في دراستها مهما كانت الضغوط ومهما كلفها الأمر، يوماً ما سيعود ناجي، وسيعيد حياتها كما كانت من قبله، وستصبح طبيبة كما أقسمت.

خرجت الى الساحة فوجدت أحمد يقف وإلى جواره رغد وقد علت الكآبة ملامحها، وهو يصرخ هاتفاً ويكرر: «يلعن روحك يا حافظ على ها الجحش الي خلفته».

فهمت ما يحدث من أمانة، فرغد مهددة بسحب المنحة الدراسية بسبب تقارير أمنية عنها رُفِعت لأجهزة المخابرات في دمشق من الاتحاد الوطني لطلبة سوريا، فرع فرنسا.

الاتحاد الذي يتابع تحركات الطلاب الموفدين وهمساتهم وعلاقاتهم ويدعوهم إلى تجمعات سياسية أو اجتماعية في المناسبات المختلفة، ويتنصت على أحاديثهم، يقوم بإرسال تقارير إلى دمشق قد تتسبب في حرمان الطلبة المتعاطفين أو حتى من يلتزمون الحياد مع ما يجري من منحتهم الدراسية، وكانت رغد ضحية أحد تلك التقارير الوضيعة.

رفعت وجهها باتجاه رغد، وتأملت عينيها الدامعتين، والهزيمة التي كست ملامحها.

لم تندش من الخبر، فذاك هو المتوقع، فاتحاد الطلبة ما هو إلا فرع من فروع الأمن داخل سوريا وخارجها، يقوم بتجنيد بعض الطلاب ليكونوا أعياناً وأذرعاً لعناصر الأمن داخل الجامعات.

قبل الثورة كان عملهم التجسس ورفع التقارير، وبعد الثورة تم تسليحهم في الجامعات السورية، وتحولوا إلى شبiche، ليدخلوا إلى الجامعة تحت سمع وبصر الحرس الجامعي، ويعتدوا على الطلبة، وأحياناً المعلمين.

يشهرون مسدساتهم كنوع من التخويف أو التباهي، وقد يتحرشون حتى بالطالبات.

تذكرت لين تلك الطالبة التي كانت في كلية الآداب، واقتادها الشبيحة إلى إحدى غرف الكلية بشكل مهين، وقام زملاء دراستها بالتحقيق معها وضربها، ثم سلموها إلى أحد أفرع الأمن.

أيهم غزول الذي قُتل على أيدي زملائه في الجامعة، وفي إحدى القاعات داخل كليته تحولت إلى غرفة للتحقيق والتعذيب أيضاً، ضربه زملاؤه حتى فقد الوعي وأصيب بنزيف داخلي في الرأس، ثم سلموه إلى أحد الأفرع الأمنية ليموت هناك متأثراً بجراحه.

«يلعن روحك يا بشار».. تمتمت لنفسها بغل!
 في إحصائية أجراها اتحاد الطلبة الأحرار فرع حمص:
 «آلاف الطلبة والطالبات تم اعتقالهم من الجامعات، ولم يتم توثيق سوى ٥٢٤ حالة فقط»..
 أشعلت دموع رغد نيران ذكرياتها، وهي تراقبها من بعيد..
 تعرف هي جيداً طعم القهر والعجز وفقد الحلم..
 تمتت لو تربت على كتفها أو تواسيها..
 لكنها تدرك أنها بحاجة إلى شيء أكبر من التعاطف والمواساة..
 بحاجة إلى حل جذري لمشكلتها..
 التفتت خلفها، فطالعتها نظرات إياد المتوعدة وابتسامته القميئة المشفوية..
 لم يكن لديها أدنى شك أن له يداً قذرة في مشكلة رغد، فهي أكثر من اكتوى من خسته
 ودناءته..

عندما طلبت أمينة أن تلتقيها، أصابها القلق من نبرة صوتها، فلم تكن تبشر بخير، ولم يتركها
 القلق طوال الفترة التي قضتها في انتظار إحصار السائق لها إلى المنزل.
 تُرى، هل وجدت ما يسوء في أفلام الفيديو الخاصة بحفل زفافها؟!
 سقط قلبها في أقدامها عندما رأت ملامح وجهها التي تنطق بالفرع، وتنبئها بشراً كانت تتوقع.
 كان أمينة تلهث بشدة، والإثارة تتملك كل جزء فيها: لا أدري كيف أخبرك بالأمر، كنت
 على حق لرفض تلك الزيجة من البداية.

احترقت أعصابها وصارت رماداً، فهتفت بها: ما الذي وجدته في فيديوهات الزفاف؟
 قالت بتوتر: عندما ترك ناجي المدعويين وانصرف لاستقبال بعض الشخصيات التي جاءت
 إلى الحفل، كنا قد رأينا صورهم واضحة في الفيديو، أحدهم كان وجهه واضحاً بصورة لا تحتمل
 أي لبس، عرفه صالح على الفور، فهو شخصية شهيرة هنا تتداول الصحف والمجلات صورهِ.

صمتت لبرهة لتسترد أنفاسها المتهتجة، فاستحثتها لين بقلق: ها..

قالت: يوسف منير.. إنه أحد رجال الأعمال الأقباط المهاجرين، انضم إلى منظمة تعمل على بث الفتن وإشعال الطائفية في مصر، وشارك في الإعلان عن دولة قبطية انفصالية في المهجر.

عجزت عن أن تحملها قدماها، فلاذت من دوار رأسها العنيف لأقرب مقعد لها.

- عليك أن تعلمي الحقيقة كاملة، هذا الرجل وأمثاله من المتآمرين على الربيع العربي، ومحترف بث الفتن الطائفية في الشعوب العربية.

بدا لها صوت أمينة كما لو كان قادما من قاع بئر سحيق: وليس هذا فحسب، بل شارك في إنتاج الفيلم المسيء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وإلى الإسلام والمسلمين.

(٩)

كانت كلمات أمينة تتردد في أذنيها، والسيارة تتجه بها إلى مكتب مراد كساب.
«لا تتسرع في الحكم، فربما لا نرى الأمر على وجهه الصحيح، فليكن همك الحقيقة، الحقيقة فقط».

ما طبيعة العلاقة التي تربط بين ناجي ورجل الأعمال سيء السمعة يوسف منير؟
ألقت السؤال مباشرة على مراد كساب، وهي تجلس في مكتبه بوجه متجهم وعينين مليئتين بالقلق والترقب.
أجابها بضحكة قصيرة متوترة زادت من قلقها: كأي علاقة تربط بين اثنين من مشاهير هذه البلدة..

الكل هنا تتقاطع مصالحه مع بعضهم البعض ومع مؤسسات الدولة..
وكلاهما عميل في البنك..
قالت: أسألك عن العلاقة التي قد تجعل ناجي يدعو ذلك اليوسف منير إلى حفل زفافه!
- أعتقد أنك مضطرة لانتظار عودة السيد ناجي ليجيب بنفسه عن تساؤلاتك.
- وماذا لو لم يعد؟
اكتست ملامحه بالتعجب والدهشة، فاستدركت: أعني ماذا لو أن هناك ظروفًا قاهرة تمنعه من العودة أو الاتصال بي!
عقد حاجبيه باهتمام، وقال بقلق: سيدتي، هل تعتقدين أن السيد ناجي قد اختطف؟
قالت: لو أن لديك استنتاجًا آخر لاختفائه فإني أود سماعه.
قلب كفيه بحيرة: الحقيقة لا تفسير لدي، لكن استنتاجك خطير..
هل هاتفك أحد بخصوص فدية أو شيء من هذا القبيل؟
- لا.

- إذن علام تستندين في استنتاجك هذا؟
- سيد مراد، زوجي مختفٍ، ولا أحد من معارفه أو أصدقائه يعلم شيئًا عن مكانه، أليس هذا كافيًا لاستنتاج أنه اختُطف؟
- ولكن ما الدليل على ذلك؟ الخاطف في العادة يطلب شيئًا، فدية من مال، أو شيء يملكه المخطوف.
- ربما المطعم.
- اتهمين السيد كريستيان؟
- لا، وإلا لكنت قدمت شكوى رسمية ضده، ولكني لا أستطيع استبعاد الارتياح في كل شخص ينافسه في عمله، أو يعتبره خصمًا له.
- وما علاقة السيد يوسف منير بالأمر؟
- سمعته بين الجالية العربية ليست على ما يرام.
- أترتابين فيه لمجرد أنه حضر حفل زفافك أنت وناجي؟
- أنا فقط أبحث عن كل معارفه ومن لديهم أي صلة به، لأسألهم عن أية معلومات تفيد عن مكانه.
- أردفت وهي تؤكد على كلماتها: وإني لأرجو منك أن تساعدني.
- حتمًا سأساعدك، وسأبذل كل ما أستطيعه للبحث عن السيد ناجي، ولكن كيف؟
- حسنًا، أود منك سؤال هذا المدعو يوسف منير عن علاقته بناجي، فكما قلت، هو عميل في البنك.
- ولكن، لم لا تتحدثين إليه بنفسك وتسألينه عن كل ما يخطر بذهنك؟ أستطيع أن أرتب لك موعدًا في مكتبه.
- قالت بحسم: إن لم يكن لديك مانع، أفضل أن يكون ذلك عن طريقك.
- قال دون اقتناع: حسنًا سيدتي، كما تريد.

قضت الوقت في الترقب والانتظار والقلق..

حتى جاءها اتصال من مراد كساب، لم تكن إجابته صادمة بقدر ما وضعتها في مأزق يحتاج إلى حل..

يوسف منير رفض أن يدلي بأية معلومات يعرفها عن ناجي، ويصر على التحدث إليها شخصياً.

حارت في اتخاذ القرار الصحيح، لا تستطيع الالتقاء بشخص ذي سمعة مشبوهة، وفي نفس الوقت كان كلام مراد كساب منطقيًا..

عليها أن تستمع إلى ما سيقوله، فعلاقاته المتعددة قد تفيد في البحث عن ناجي..

كما أن مراد استشف من لهجته الواثقة أن لديه معلومات..

وفي النهاية، كان عليها استقباله في المطعم، فذاك هو المكان الوحيد الذي يمكن أن تشعر فيه بالأمان..

كما أنها اشترطت أن يحضر مراد الحوار، ولم تحف عنه أن السبب هو قلقها الشديد من الجلوس مع شخص سيء السمعة.

اجتمع الثلاثة حول طاولة في أحد أركان المطعم، وقالت لين بلهجة عجزت عن إخفاء نبرة التوتر فيها: أخبرني السيد مراد أن لديك معلومات عن ناجي.

ابتسم نصف ابتسامة وهو يتأمل الجدية والتجهم اللذين يكسوان ملامحها: تعجبني المرأة التي لا تهدر وقتها في موضوعات فرعية، وتتجه إلى هدفها مباشرة.

لمح في عينيها قلة الصبر والترقب لإنهاء اللقاء عند أي بادرة تشعرها بالتلاعب، فتحنح راسمًا الاهتمام على ملامحه: حسنًا، أعرف ناجي جيدًا، ومن قبله والده عمر الكيلاني، ولي معها معاملات عديدة.

ضابت عيناها: ما طبيعة العلاقة التي تربطك بناجي؟

- علاقات في حدود العمل والمعاملات المالية، كما أنني صديق شخصي لمحاميه الخاص

بيتر.

شيء ما في لهجته أشعرها بالخوف، ففضلت عدم الدخول في تفاصيل أعماله مع ناجي، وقالت مباشرة: أليديك معلومات عن المكان الذي اختفى فيه أو سبب اختفائه؟

تنحنح ثم قال: الحقيقة نعم.

انقبضت عضلاتها بتوتر، ولمعت عيناها بلهفة: أين هو؟

- صدقاً لا أعلم.

انتفضت من مكانها وقالت بحدة: لا وقت لدي لتلك الألاعيب.

وقف الاثنان، وقال مراد: إنه لم يقل شيئاً بعد، أرجو أن تصبري قليلاً حتى نخبرنا بما لديه.

قال يوسف بلهجة اعتذار: أعرف من وراء اختفاء السيد ناجي، ولكنني لا أعرف مكانه.

عادت إلى مقعدها، فجلس الاثنان، وقال يوسف: السيد ناجي تم احتجازه بسبب المطعم.

قالت بارتياح: كريستيان؟

- ليس هو فحسب، عمر الكيلاني ترك لابنه إرثاً يحمل الكثير من الصراعات.

- ماذا تعني؟

- ما أعنيه لن يفيد السيد ناجي الآن، لقد رفض أن يترك لهم سلسلة المطاعم، ولهذا

احتجزوه، والآن صار أمره بين يديك، إما أن يعود، أو لا يعود أبداً.

- ألهذا السبب حول كل شيء يملكه لي؟ حتى لا يضعف ويترك لهم ما بذل والده عمره في

بنائه؟

- ربما، المهم هو أنهم لن يتركوا ناجي إلا إذا أخذوا ما يريدون.

- وماذا لو أبلغت الشرطة؟

- لن يجدوا سوى جثته.

أفزعها ذلك الخاطر، وصمتت لتجمع شتات أفكارها التي تبعثرت في لحظة.

لكنه عاجلها قائلاً: الشرطة عاجزة عن فعل شيء، وإلا لكانت وجدته عبر تحرياتنا وطرقها.

كما أن الخسارة لن تلحق ناجي وحده، فهؤلاء قد يرتكبون أكثر من جريمة ليحصلوا على

ما يبتغونه، ولا أظن أنك تريدين مواجهة هؤلاء.

خيم الصمت على ثلاثتهم، ونظرت إلى مراد تبتغي منه مشورة أو كلمة، لكنه قلب كفيه ومط شفثيه بقلة حيلة.

انتبهت إلى النادل وهو ينحني لها ليهمس ببضع كلمات، يخبرها أن مدير المطعم يريد التحدث إليها.

انتهزت الفرصة لتحصل على هدنة من كل تلك المفاجآت.

في المطبخ كان جميع العاملين مجتمعين، وقام مدير المطعم الشاب المغربي محمد بالتحدث إليها، ونقل غضب واعتراض الجميع على وجود هذين الرجلين في المطعم.

كادت تجادلهم في أن ذلك قد يكون لصالح عودة ناجي، لكن محمد جعلها تحجم عن ذلك عندما قال بشكل صريح: عفواً سيدتي، ولكن إن لم يرحل فوراً فسيخذ العاملون هنا إجراء ما يعبرون به عن اعتراضهم.

شعرت بأن الأمور سترداد تعقيداً إذا ما أصرت على إكمال اللقاء رغماً عن إرادتهم، خاصة أنها لا تتمتع بينهم بالمحبة والود كناجي، ففضلت أن تعود إلى الرجلين لتخبرهما بعدم استطاعتها إكمال الحديث في المطعم.

هز يوسف رأسه متفهماً، وقال ببساطة: لقد أوضحت الموقف، وعليك اتخاذ القرار الذي ترينه مناسباً.

هم بالرحيل، فاستوقفته قائلة: ماذا لو عرضنا عليهم المال؟

التفت إليها، وقال بنصف ابتسامة: سيدتي، الأمر أكبر من المال.

قالت بإصرار: لم لا نفاوضهم؟ ربما..

تساءل ساخراً: هنا؟

ارتبكت، ولم تجد جواباً مناسباً، أين يمكن أن تتحدث إليهم؟ وعلام ستفاوضهم؟

لم تمر بهذا الموقف العجيب من قبل، ولا تعرف كيفية التصرف الصحيح..

كل ما تعرفه هو أنها يجب أن تفعل أي شيء لتنقذ ناجي، إن كانوا حقاً يحتجزونه..

ولكن لا يمكنها الذهاب إلى مكان لا تعرفه، فيجب أن تتحلى بالحذر..

كما أن استقبال أي غريب في البيت دون وجود زوجها ضد مبادئها المحافظة..

طالت حيرتها، حتى ألقى إليها مراد بطوق النجاة: سيدتي، بإمكانني تدبير لقاء آخر بينكما في مكتب زوجتي الخاص بالتسويق وإدارة الأعمال، أعلم أنها سترحب بذلك.

تم تحديد موعد اللقاء، بعد أن اتصلت لين بـ زوجة مراد كساب وتحدثت إليها شخصياً عن حاجتها إلى إجراء ذلك اللقاء الهام في مكتبها، وأبدت السيدة تفهماً للموقف وإيجابية كبيرة، وودعتها لين بعزير الشكر.

وقبل الموعد تقصّت جيداً عن المكتب وعن نشاطه، وصاحبه.

في الموعد تماماً اصطحبها السائق إلى المكتب، واستقلت المصعد تحمل معها توترها وقلقها، والرغبة التي سكنت قلبها.

كان في استقبالها مراد كساب وزوجته، وأحسنّا استقبالها، وبالدخل كان ينتظرها يوسف منير وكريستيان.

حاولت قدر استطاعتها أن تغلف قلقها ورهبتها بقناع من البرود، وألقت بسؤالها: هل لي أن أعرف ما علاقة السيد كريستيان بالأمر؟

رد يوسف منير ببساطة وهو يسترخي في مقعده واضعاً ساقياً فوق الأخرى: السيد كريستيان هو من سيفض الاشتباك، فبمجرد أن يستعيد المطعم سيعود كل شيء إلى طبيعته، ونستريح جميعاً. بدا لها الأمر كمؤامرة تُحاك من أطراف عدة، وانقلب قلقها إلى خوف حقيقي، فاعتصمت بصمتها حتى لا يتبدّى خوفها في نبرات صوتها.

استعجلها يوسف قائلاً: ها.. ما قرارك سيدة لين؟ كل الأوراق الرسمية والعقود جاهزة للتوقيع.

ابتلعت ريقها، وقالت بثبات مزعوم: قبل أي شيء أريد أولاً الإجابة عن سؤالين.

ظهر الضيق على وجهه، لكنه أوماً إليها موافقاً، فقالت: لم تريدون المطعم؟ ما الشيء الهام الذي يجعل من مطعم عادي محلاً لكل تلك الصراعات والنزاعات للحصول عليه؟

هز رأسه، وقال بنصف ابتسامة: ما زلت حديثة العهد بتلك الأرض، وبرغم أنك زوجته لكن يبدو أنه لم يخبرك بشيء.

مطعم ناجي ليس مطعمًا عاديًا، إنه بؤرة لتجمع العرب، وفي الآونة الأخيرة انزلق إلى منحدر خطر جعله يستعدي فئات وأحزاب ومجموعات عديدة، وخاصة اليمين المتطرف. هزت رأسها بفهم: السياسة.

قال موافقًا: ما كان عليه أن يتدخل فيما لا يعنيه.

صممت مفكرة، أدركت الآن عمق الحفرة التي سقطت فيها، فحتى الصراخ لن ينقذها، ولكن بقي أمر أخير يجب أن تعرفه لتحدد ما ستفعله. سألته مباشرة: أين ناجي؟

تردده في الإجابة أكد لها ما توقعته، وبقي أن تسمعها منه، فقالت تستحثه على الاعتراف: لن أوقع قبل أن أعرف مكانه، أو على الأقل أستمع إلى صوته. تبادل الثلاثة (يوسف وكريستيان ومراد) نظرات قلقة.

لكن يوسف قال بغرور: أعترف أن ما فهمته صحيح، وأن الأمر كله حيلة لإجبارك على التنازل عن المطعم. حيلة!!

قالتها بلهجة ساخرة، ثم نظرت نحو مراد: والسيد مراد أيضًا ضالع في المؤامرة؟! قلب كفيه وهز رأسه: ساحيني سيده لين، لا خيار لدي.

رتمته بنظرة اشمئزاز، ثم أشاحت بوجهها بعيدًا، ثم قالت ليوسف: لا أنوي التنازل عن المطعم، وعلي الرحيل الآن.

نهض من مكانه ووقف أمامها بجسده الطويل، فاستشعرت كبر حجمه وضآلة حجمها، ورغماً عنها تراجعت خطوتين إلى الخلف.

قال بخشونة: خروجا من هنا مرهون بالتوقيع على بيع المطعم للسيد كريستيان.

قالت بارتباك: وما دخلك أنت؟!

قال ساخرًا: أنا العراب.. الحقيقة أنني ما كنت لأندخل، لولا أن السيد مراد أخبرني أنك تتهميني باختطاف زوجك، فأعجبني الفيلم، فقررت المساهمة فيه ببعض من مواهبي.

فيلم!!

أجابها ساخرًا: بالتأكيد فيلم، امرأة مرتابة مثلك بحاجة إلى جانبٍ تتهمه باختطاف زوجها. طبيعتك المتشككة تتمسك بإنكار أن زوجك ربما يكون قد هجرك، أو مات، أو أغوته امرأة أخرى.

منحتك ما تريد، وأكدت الصورة الذهنية التي وصلتني عني، وفي مصر يقولون: «إلى يحضر العفريت يصرفه».

قالت بصوت مرتجف: ابتعد عن طريقي لأخرج.

- معذرة سيدتي، لن تخرجي قبل أن توقعي.

- السائق ينتظرنني بالأففل.

- جيد، بالتأكد ستوجه له التهمة بمجرد أن يعثروا على جثتك في أحد المناطق النائية.

جلست على أقرب مقعد إليها، وعقدت ساعديها ببعضهما لتوقف ارتجافتهما.

قال بلهجته الواثقة المقيتة التي تبث الرعب في أوصالها، وتشعرها بأنها قد أحيط بها: بالنسبة للشرطة فأنت غادرت البناية بالفعل، وذهبت مع سائقك الخاص، لذا فهو الوحيد الآن المسؤول عن سلامتك، والسيدة صاحبة المكتب غادرت الآن، وأمن البناية سيشهد على ذلك.

أسندت رأسها بكفها وعجزت عن الرد، فأكمل وهو يجلس على المقعد المقابل لها: سأمنحك عشر دقائق كاملة لتفكري في موقفك، وتتخذني قرارك.

دقيقة واحدة قد تفصل بين الحياة والموت..
ستون ثانية زمن طويل قد تُرتكب فيه آلاف الجرائم.. وتُزهق آلاف الأرواح..
هنا..

الموت هو جزء أساسي من الحياة اليومية للبشر..
وفي أيام قد يصبح الموت هو الأساس.. والحياة مجرد استثناء أو مصادفة..
هنا..

الموت هو كل شيء ولكل شيء وبكل شيء..
الموت هو كل شيء لمن فقد كل شيء..
الموت لكل شيء: إنسان.. حيوان.. نبات.. وحتى الجماد..
الموت بكل شيء: بصاروخ، ببراميل، بغازات سامة..
بالحرق.. بالخنق.. بالغرق.. بالتسمم.. بالجوع.. ب.....
هنا..

الموت بجانبك.. وخلفك.. وأمامك..
تنام وهو بجوارك.. وتستيقظ وقد مر ببابك..
لم يعد غريباً عنك.. بل صار أليفاً مألوفاً.. وصارت الحياة غريبة بعيدة..
مغادرتها أسهل من البقاء فيها..
هنا.. تأمر العالم على سوريا..

روسيا وإيران والمليشيات الطائفية العراقية والبنانية والكردية..
هنا.. صارت السماء تمطر الموت على رؤوس البشر.. والأرض مستباحة لكل محتل طامع..
من الغريب حقاً أن يُهدد بسلب الحياة من لم يكن له بها حاجة..
من يعتبرها عبئاً يود التخلص منه..

والأغرب أن يُخَوِّف بالموت بعد أن صار الموت أملاً له للخلاص من عذاب لا ينتهي..

«يا الله بدي أموت.. ليش ما عنا خبز.. خدنا علي الجنة حتى نأكل خبز»..

عندما يطلبها طفل صغير نعلم أن الحياة صارت أشد هولاً من الموت..

لم يكن طفلاً واحداً

بل آلاف الأطفال..

عدد لا تستطيع تذكره من كثرة من مروا بها..

لم تعرف حتى أسماءهم.. لكن ملاحظهم تأبى أن تغادر ذاكرتها..

كانت تعمل في المستشفى الميداني.. تحمل الأطفال جُثثاً ومصابين ضحايا قصف المجرمين والبراميل المتفجرة والصواريخ الروسية..

تهدم البيوت على ساكنيها.. البعض يستطيعون إخراجه والبعض يصير بيته مقبرة له..

مرت بها أيام كان فيها الموتى الذين التقتهم أكثر بكثير من الأحياء الذين عاجلتهم..

لم يعد للموت تلك الرهبة المرعبة بعد أن صار معطفها الأبيض مخضباً بدماء الشهداء..

أن تموت.. ذلك لا يثير فيها أي اندهاش أو قلق..

بل إن ما يدهشها حقاً أنها ما زالت حية إلى الآن.. فقد كان الموت أقرب إليها من أنفاسها..

ذلك الشاب الذي لا تعرف عنه شيئاً سوى ملامحه التي ظلت راسخة في ذاكرتها لا تمحوها

المصائب ولا الآلام

يقود سيارة الإسعاف.. ينقل معها الجرحى إلى المستشفى فوجاً بعد فوج..

كانت تجلس بجواره وهو يجري بالسيارة في الشوارع والحارات.. يتجنب القصف ما

استطاع.. وصوت الانفجارات من حولها يخلع أعتى القلوب..

في تلك اللحظات كانت توقن بأن الموت يطلبها.. واستسلمت لفكرة أنها ميتة لكن تبقى لها

بضعة أنفاس من الحياة عليها أن تستكملها..

وصلت السيارة إلى المستشفى ونزلت منها.. وأفرغت حمولتها من الشهداء والمصابين أمام الباب بمساعدة الشاب الذي أتم مهمته وسبقها إلى السيارة..
وهكت أن تتبعه ليجلبا فوجاً آخر إلى المستشفى.. لكنها تجمدت في مكانها..
فالسيرة أصابتها قذيفة من أعلى مباشرة إلى كرسي السائق..
تعجز عن تحويل عينيها عن مشهد انفجار السيارة والنار تأكل ما تبقى منها..
تعجز حتى عن ذرف دمعة واحدة على جثة الشاب التي تمزقت واحترقت أشلاؤها..
لقد كانت هناك تجلس في المقعد المجاور له..
مر بها الموت ولم يقبض روحها..



«انتهت الدقائق العشر»..

انتبهت من خضم أفكارها وذكرياتها، وراقبته وهو يضع بضعة أوراق وقلماً أمامها على طاولة صغيرة، ويقول بحسم: بإمكانك أن توقعي الآن.
ضمت قبضتيها وقالت بهدوء: لقد أتيت إلى هنا لأعرف مكان ناجي، لا توقع دون ذلك.
انتفض بحركة لا إرادية تنم عن غيظ، وضرب كفه في فخذه غاضباً، وقام كريستيان من مقعده وأعطاهم ظهره..
أما مراد فقد توجه إليها قائلاً بهدوء: سيدة لين..
قاطعت متوجهة بالكلام إلى يوسف: فلتأمر كلبك بالكف عن النباح حتى أستطيع سماع ما ستقوله.

مسح مراد عرقه بإحراج، ورماها يوسف بنظرة غاضبة، وقال بتوعد: يبدو أنك لا تدريين المأزق الذي أنت فيه، المقايضة الآن ليست على حياة زوجك، بل على حياتك أنت.
قالت بثبات: إن كنت لا تعرف مكانه فعليك إيجاده، وهذا كل ما لدي، لن أبيع قبل أن أعرف مكان ناجي.

اقترب منها وقال مهدداً: زمن الشعارات انتهى، والقبور مليئة بأمثالك من المعاتيه الذين يموتون من أجل الأوهام، لدي ألف وسيلة تجبرك على التوقيع، فأنت هنا بلا ثمن، كما كنت في بلادك بلا ثمن.

ضمت ذراعها إلى صدرها، ووضعت كفيها تحت إبطيها، واعتصمت بالصمت، وهي تراقب الثلاثة بحذر.

فجأة اقتحم المكان مجموعة كبيرة من الرجال، يسوقون أمامهم زوجة مراد كساب وهي ترتجف كعصفور.

عرفت لين بعضاً منهم، كانوا من العاملين في المطعم، فاستردت أنفاسها مع وصول الإنقاذ. لكن المفاجأة الحقة عندما رأت بيتر يدخل إلى المكان بتمهل، وحذاؤه يحتك بالأرض ويشق صمت المكان.

وضع كفيه في جيب بنطاله وهو يتسم بصلف، ويقول بتهكم: هل قاطعت اجتماعاً هاماً؟ ثم توجه إلى مراد بالحديث: اضطرت أن أصطحب زوجتك معنا بحجة أننا عملاء ليسمح لنا أمن البناية بالصعود، أظن أنك لن تمانع، فهي تعمل بالأعمال القذرة بعلمك.

تقدم خطوتين نحو يوسف: مرحى يا صديقي، ما زلت قذراً كعهدي بك، تعجز عن مواجهة الرجال فتمارس ضغوطك على النساء.

التفت إلى كريستيان: وأنت أيها الوغد العنصري، فلتعلم أن مطعم ناجي هو أبعد لك من نجوم السماء.

قال يوسف وهو يضغط على أسنانه: بيتر ألكسندر هو آخر من يتحدث عن القذارة.

قال بيتر بتهكم: أوه، صديقي، لا يصح أن تتبادل الألفاظ القذرة أمام السيدة المهذبة.

التفت إلى لين، وانحنى قائلاً: سيدتي، سائقك الخاص ينتظرك أسفل البناية، أما السيد يوسف فلي معه حساب، ولكن في وقت آخر.

انسحبت لين من المكان وركبت سيارتها، وانطلق بها السائق إلى البيت، في موكب من السيارات التي يملؤها رجال ناجي، وعلى رأسهم بيتر.

بمجرد أن وصلت السيارة إلى البيت أسرع إلى الداخل متجهة إلى غرفتها، لتلوذ بجدرانها وتحتمي خلف بابها، لكن بيتر تبعها إلى الداخل مسرعاً، واستوقفها قائلاً: سيدة لين، علينا أن نتحدث.

قالت بتوتر: لن أتحدث الآن.

هتف بانفعال: بل يجب الآن، تهورك ورفضك للنصيحة وعدم استشارتي بصفتي محامي زوجك الخاص كاد يفقدك حياتك ويضيع المطعم، كفى كبراً واستمعي إليّ! اختلط صوتها المرهق بأنفاسها السريعة: لا يحق لك الصراخ هنا، أنت أحد الأسباب التي اضطررتني إلى اللجوء إلى المدعو مراد كساب.

قال بغضب: بل فقدانك الثقة بزوجك وارتياك في سلوكه وأصدقائه..

أنفهم عدم ثقتك بوغد مثلي..

ولكن كان عليك أن تثقي بالرجل الذي وهبك كل شيء..

حبه.. واسمه.. وماله..

لم تعد تحتمل كل تلك الأسرار المحيطة بها، فانفجرت في وجهه صارخة: أخبرني الآن: ما الذي يحدث؟ وما علاقة ناجي بيوسف منير؟

قال بيأس: لا فائدة، ما زلتِ ترتابين به.

صرخت بغضب: أطلب مني الثقة برجل لا أعلم عنه شيئاً؟

طلبت منك أن تخبرني بمكانه..

قال بأسى: وكيف أخبرك بها لا أعرفه؟

لقد استيقظت يوماً ولم أجده، هكذا ببساطة فقدت صديقي..

- وكيف لم تبلغ الشرطة عن اختفاء صديقك؟

- ها أنت قد أبلغتهم، فماذا حدث؟ أخرجت الزناير من أعشاشها، وأنت أول من اكتوى بلدغاتها..

ويعلم الله ما الذي يدبرونه الآن، قد يثيرون حوله الأكاذيب والإشاعات، كما اهتموا مروان من قبل بأنه هرب لينضم إلى الجماعات الإرهابية في العراق..

ولكن.. هذه المرة ستكون أكثر تصديقاً، بعد أن تزوج من سورية..

حدقت فيه بصدمة، وعجزت عن الرد، فتناول أحد المقاعد وقربه منه، ووضع إحدى قدميه فوقه، وقال كمعلم يلقي درساً: تريد أن تفهمي ما يدور حولك؟ حسناً.. دعيني أمثل لك الأمر بشبكتي عنكبوت، هناك شبكة عنكبوت تشكلت ضد ناجي، هدفها الاستيلاء على كل ما بناه عمر الكيلاني..

فصنع ناجي أيضاً شبكة عنكبوت من أصدقائه ومحبيه، لتحميك وترد أي أحد يفكر أن يؤذي..

كل الأشخاص الذين يحبون ناجي ويهتمهم أمره حملوا على عاتقهم مهمة حمايتك والذود عنك.. بمن فيهم أنا..

صدقني هذا أو لا تصدقي، ولكن من أجل ناجي قد أضحي بكل شيء، لأحمي امرأة أنانية مثلك، لا تعرف لزوجها قدره..

تركها واتجه إلى الباب مغادراً، فصرخت فيه: بيتر، لم رحل ناجي؟

التفت وألقى إليها نظرة باردة: فلتسأل نفسك هذا السؤال.. واعلمي، اسمي ليس بيتر.. بل بطرس السيد ربيع إسكندر..

صعيدي.. من حرافيش مصر..

هاك دليلاً آخر أنك لا تعرفي أي شيء عن زوجك..

قضت ليلتها مستيقظة تحت غطاء فراشها الوثير، وتتقلب على جمر القلق، وتتجرع الغصة تلو الغصة، تشفق أحياناً على ناجي، ثم تعود فتلعنه.

أدركها أول شعاع للشمس بعد أن هجرها النوم، فانسلت من فراشها تبتغي الهروب من أفكارها.

ذهبت مبكرًا إلى الجامعة، وأخذت تبحث عن أمينة، لتجدها أخيرًا مع رغد التي بمجرد أن لمحتها حتى أسرع إليها، والغضب يعلو ملامحها، وهتفت في وجهها: منحكجية!!
أصابتها الكلمة في الصميم، وأشعلت بداخلها الغضب والدهشة، فصاحت: ما هذا الذي تقولينه؟!

هتفت رغد في وجهها: انكشف ما تخفيه، وظهرت حقيقتك، منحكجية وضيعة، وماذا أيضًا؟!

تُرى، هل جندك أعضاء الاتحاد لتمارسي التشبيح على زملائك وتكتبي التقارير فيهم؟

- يكفي، هل أصابك الجنون؟

- لا تدعي البراءة، فيديوهاتك الوضيعة انتشرت على صفحات فضح الشبيحة في أوروبا، والجميع شاهدوها.

- ما هذا الهراء الذي تقولينه؟!

فتحت رغد جوارها وأعطته للين، وبمجرد أن نظرت إلى شاشته أصابها صدمة عنيفة!

كان الجوال يعرض فيديو لها وهي تحمل لوحة كتب عليها: «منحك يا بشار»، وهي تهتف وتردد مرات بصوت عالٍ: «بالروح.. بالدم.. نفديك يا بشار»..

نظرت لها رغد باحتقار: إياك أن تقتربي من أحد منا أو من تجمعاتنا، وإلا لن تري إلا ما يسوؤك..

تركتها ورحلت، واقتربت منها أمينة، وسألتها بحيرة: ألن تقولي شيئًا؟ ألن تبرئي نفسك؟

قالت بيأس: وهل سيصدقني أحد؟! الناس لا يصدقون إلا ما يرونه!

هزت أمينة رأسها بأسف: لم أعد أفهم أي شيء، هل حقًا هو الذي كان يسعى خلفك ليتزوجك؟ أم أنت التي أوقعت به في شباكك؟

لم تحتمل الصدمة من صديقتها الوحيدة، فرحلت تحمل الخيبة والقهر على عاتقها..

لكنها فوجئت بأحمد في طريقها، كانت نظراته لها جامدة، ورغم أنه لم يحاول التقدم نحوها، أو قول أي شيء، لكنها أدركت أنها صارت كائنًا منبوذًا ملعونًا يرغب الجميع في الابتعاد عنه..

عندما وصلت إلى البيت كانت طاقة الصبر لديها قد نفدت، واستولى عليها الإرهاق البدني والنفسي والروحي..

كانت تشعر بشعور المقاتل الذي خرج من كل معاركه مهزومًا جريحًا ممزق الروح والفؤاد، لا يعلم إلى أين يذهب ولا إلى من يلجأ، ليضمّد جراح روحه ويروي ظمأ قلبه ويهدئ من روعه..

كانت تفتح باب البيت وهي تعلم أنه خالٍ، ليس به إلا الجدران الباردة والأثاث الأخرس.. لن يسمعها أحد وإن ملأت الدنيا صراخًا، ولن يمسخ دموعها أحد وإن سكبتها سكبًا..
تمنت لو يعود ناجي لتلوذ بأحضانه من آلامها، وتأنس بصوت دندنته من وحشتها..
تمنت لو يربت على ظهرها ويهمس في أذنها: أنت هنا بأمان..
لكنه ليس هنا..

ولجت إلى البيت، وتجمدت في مكانها..

لم يكن البيت خاليًا كما تصورت..

(١٠)

لم تدرِ ما إذا كانت قد استيقظت لتوها أم أنها لم تنم منذ البداية، ليلتها كانت مليئة بالكوابيس والأحلام البشعة..

يوسف منير وكريستيان ومراد وإياد يحيطون بها، أياديهم تمتد إليها من كل اتجاه، يريدون نزع ردائها..

تنتفض مستيقظة من الفزع، لتفيض عيناها بسيل من الدموع ينسكب على خديها ووسادتها.. حاولت أكثر من مرة أن تقوم من فراشها لتصلي، لكن دوار رأسها العنيف أقعدها.. تلك هي الليلة الثانية التي لم تذق فيها طعم النوم، فمتوالية الأحداث السريعة لم تدع لها فرصة لالتقاط الأنفاس..

ولولا وجود الحاجة سعاد لربها هامت على وجهها في الشوارع..

تذكرت عندما ولجت إلى البيت أمس لتفاجأ بالحاجة سعاد تستقبلها بابتسامة بشوش..

ودون كلمة ارتمت لين على صدرها تسكب مدامعها وتتنحب بألم، والحاجة سعاد تربت على ظهرها وتتلو بعض الأدعية، عليها تنجح في تهدئتها، فالحاجة سعاد تذكرها بجدها ونساء بلدتها، بوجهها الصبوح وابتسامتها البشوش وذلك الحنان والاحتواء..

صوتها.. بسملتها.. أدعيتها.. حتى رائحة ملابسها وضممتها وتربيتها على ظهرها..

سمعت طرقاتها على الباب فأذنت لها بالدخول، واستقبلتها بابتسامة متعبة..

بشت الحاجة سعاد في وجهها، وقالت بحنان: هيا، قومي كي لا تتأخري عن الجامعة..

أغمضت عينيها بألم: لن أذهب اليوم، فالدوار يكاد يقتلني..

وضعت كفها على جبينها باهتمام، ثم قالت: حرارتك طبيعية، ربما من إرهاق الدراسة، سأحضر لك الإفطار هنا.

استوقفتها لين بسؤال: لم أتيت؟ أعني هل أتيت من نفسك؟ أم أن أحدًا طلب منك المجيء؟
 قالت باسمه: هاتفني السيد ناجي قبل الحفل، وطلب مني الانتقال إلى هنا بناء على
 رغبتكما، فحضرت عدة مرات من قبل، ولكنك كنت في الجامعة، فقضيت بعض الوقت في
 مساعدة الخادمة، وأملت عليها بعض التعليقات قبل أن أغادر، فلم أكن قد أنهيت بعد شؤوني
 في الريف.

سألها لين بوهن: هل ستبقين؟

قالت: نعم، لقد أحضرت جميع أغراضي.

أغمضت عينيها وابتسمت: وجودك هنا يسعدني للغاية.

تذكرت كلمات بطرس عن شبكة الحماية التي شكلها ناجي حولها، لقد أدرك مدى حاجتها
 لامرأة كالخاجة سعاد لتبقى معها في البيت، تؤنس وحشتها وتمنحها الطمأنينة، وتسد بعضًا من
 الفراغ الذي أحدثه غيابه.

كان ذهابها إلى الجامعة تحديًا كبيرًا عليها أن تنجح فيه..

فقد انتبعت إلى أن دوار رأسها العنيف يبدأ في الصباح، ويستمر حتى موعد انتهاء دروسها
 في الجامعة، فقدرت أن الأمر هو حالة نفسية للهروب من مواجهة واقعها الجديد في الجامعة،
 باعتبار أنها صارت في عيون زملائها جميعًا منجكجية..

لم تكن تأبه لإصلاح الصورة الخاطئة أمام زملائها بقدر قلقها من أن تصير كالغنمة الشاردة
 في عيني إباد، فالفرص تكبر وتتسع أمامه لاصطيادها..

ابتسامته الشامتة المقيتة وتعمره الظهور أمامها عدة مرات هذا اليوم، وهو يرميها بنظرات
 تمتلئ بالتوعد، أكدت لها استنتاجها الذي لا يحتاج تأكيدًا.

فإباد هو من أرسل الفيديو إلى صفحات الطلبة السوريين الأحرار في أوروبا..

فليس أسهل من صنع حساب باسم مغاير على وسائل التواصل الاجتماعي والتظاهر بتأييد
 الثورة، ثم بث أخبار وفيديوهات بطريقة: «انظروا من هم الشيعة والمنجكجية»..

هو الوحيد الذي يمتلك هذا الفيديو، فلقد صورته لها بنفسه..
 قضت الأيام التالية تتألم من تجاهل أمينة، ونظرات رغد الناقمة، ومراقبة أحمد الصامته..
 حتى صالح صار يتجاهلها، الكل يعتبرها عارًا ونجسًا لا بد من اجتنابه..
 تقضي الوقت محاولة إقناع نفسها أن ابتعادهم عنها لن يضرها، لقد أتت إلى هنا فقط لتكون
 طيبة..

فلتنه دراستها هنا، وبعدها ليكن ما يكون..
 كانت تصم آذانها عن حديث الحاجة سعاد المستمر عن ربيبها وأبيه، فالمرأة تعد ناجي أكثر
 من ابن لها، ولا تكف عن اجترار مآثره ومواقفه الحسنة أمامها..
 إذ يبدو أن الحاجة سعاد قد حملت على عاتقها مهمة إصلاح ذات البين، وتحسين صورته في
 عيني لين..

امرأة بخبرتها وعمرها لها حاسة قوية تستشعر بها ما يدور بين الزوجين الشابين..
 لكن لين كانت دائمة التهرب من الحديث معها بحجة الاستذكار والدراسة، وقد تصدها
 أحيانًا إن لم تجد حلاً آخر لإسكاتهما، وغم ذلك فهي لا تياس من فرض اسم ناجي على أية
 أحاديث تجمعها بلين في أي وقت..

كانت قد بدأت تعتاد الوحدة وتألف هدوء هاتفها من أية رنات، فلم تعد تتلقى أية
 اتصالات من أحد، ولم يعد أحد يهتم بالسؤال عنها ولا معرفة أخبارها..
 لكنها فوجئت أخيرًا بأن هناك من يطلبها على الهاتف..
 والأعجب أنه هاتف المنزل..

أجابت المكالمة، فأتاها صوت امرأة تتحدث بعربية ركيكة، تطلب منها أن تلتقيها بشكل
 عاجل، وعندما أعلنت عن هويتها لم تستطع لين أن ترفض، وأسرعت إليها..
 فالمرأة هي أم أمل..

«لم تأكل منذ الأمس»..

كانت تستمع بتأثر إلى كلمات الأم، وهي تقف بجوارها أمام باب غرفة المعيشة تراقب
الطفلة الوديعه، وهي تجلس على الأرض أمام شاشة كبيرة، لاهية عن الدنيا..

كانت تلك الكلمات القليلة كافية تمامًا لتفهم لين لم دعتها أم أمل إلى بيتها..

فقد كان وجه ناجي على الشاشة..

ولم تكن تحتاج إلى معلومات أكثر لتدرك أن الصغيرة تشاهد حفلاتها الغنائية التي تشاركها
في وقت ما..

استمعت إلى الأم، والحزن وقلة الحيلة تغلف كلماتها: لا أدري ما الذي يمكن أن أفعله..

لقد نفذت كل الحيل التي أعرفها لأخرجها من حالة الكآبة التي صارت ملازمة لها،
وفشلت..

درجاتها الدراسية تتردى بشكل غير مسبوق، وفقدت التفاعل مع زملائها في المدرسة
ومعلميها..

لقد بدأ الأمر بشكل تدريجي عندما علمت بأنه رحل دون أن يودعها، حتى وصلت إلى أن
تعاف الطعام..

تنهدت بأسى وامتلاأت عينها بالدموع: حتى موت والدها لم يترك كل هذا الألم بها..

أرجو أن تعذريني لأنني اتصلت بك، فلقد فرغت أسبابي وانسدت كل السبل أمام وجهي..
ربما تستطيعين مساعدتها، فهي تحمل لك الكثير من المحبة والتقدير..

شعرت لين بأنها في مأزق كبير، فالأم تعتمد عليها لإقناع الطفلة بتناول بعض الطعام..

دخلت الغرفة، ونظراتها تتردد بين الشاشة التي يملأها وجه ناجي، والطفلة الساكنة التي
لم تصدر عنها أي حركة تشعرها بأنها انتهت لوجودها، جلست إلى جوارها على الأرض
بصمت، وأخذت تتأملها، رغم أن الطفلة لم تُدرْ وجهها الحزين عن الشاشة الكبيرة، وعندما
رفعت جهاز التحكم في الشاشة لتأتي بفيديو جديد، أثرت لين مشاركتها فيما تشاهده بصمت،
حتى تجد مدخلًا مناسبًا تبدأ به الحديث معها..

بدأت المقدمة الموسيقية، وظهرت أمل على الشاشة، وبجوارها ناجي..
سمعت من خلفها صوت الأم: لم أعد أحصي عدد المرات التي تشاهد فيها تلك الأغنية
كل يوم..

التفتت لين إلى الشاشة، لتجد ناجي ممسكاً بيد الصغيرة وهما يتبادلان الغناء في أغنيتهما
الطفولية المرحّة المشتركة، وأرجلهما تتحرك بتناغم على الإيقاع..

ثم التفتت نحو أمل، فوجدتها تمسح دموعات سالت على وجنتيها، وفمها المقوس يرسم
الأسى على ملامحها، وهي تستعيد تلك الذكرى الغالية مع ناجي، الذي ما إن انتهت الأغنية
حتى انحنى راکعاً على إحدى ركبتيه أمام الصغيرة، وطبع قبلة على كفها بحب، وابتهامته
الباشة تضيء وجهه..

انحنت الصغيرة نصف انحناء وهي تحمل طرفي ثوبها بأصابعها كأميرات الحواديت،
وتبتسم بفرح، ثم تعلقت بعنقه لتمنح خده قبلة امتنان كبيرة..

انزعت لين نفسها من التأثير المغناطيسي للمشهد الذي يملأ الشاشة، وانتبهت إلى الصغيرة
التي انخرطت في بكاء حزين، ولم تستطع أن تمنع نفسها من التجاوب مع مشاعرها المتألّمة
بسكب دمعاتها تأثراً بما لحق بالطفلة من حزن وألم..

ثُرى، أي شيء يمكن أن تقوله أو تفعله تستطيع أن تعوض به طفلة فقدت أباهما مرتين؟!
هذه هي الحقيقة، فناجي بالنسبة لها في منزلة الأب الذي دلل ابنته حتى صارت كالأميرات..

ولا أحد غيره يمكن أن يشفي ذلك الجرح القاتل الذي أصاب قلب الصغيرة..

كانت تسترجع أحداث اليوم وهي مستلقية في فراشها آخر النهار، ودمعاتها تهرب من بين
أجفانها كلما تذكرت وجه أمل الحزين وهي تبكي لفراق ناجي، وبصعوبة نجحت في إطعامها
بضع لقيمات، مع وعد بمعاودة زيارتها..

«يلعن روحك أيها الطائش المجنون».. صرخت بغیظ..

ثُرى، أي شيطان أغواه ليحطم قلب ملاك بريء لم يحن من قربته سوى التعاسة؟!!

كيف يختفي دون أن يودع الصغيرة أو يترك لها ذكرى طيبة تحيي في قلبها الأمل إلى حين
عودته؟!

أخذت تتقلب في فراشها كما لو كان يمتلئ بالشوك، حتى غلبها النوم..

(II)

لم تكن تتخيل أن سؤالها عن شانتال وعلاقتها بناجي سيثير عاصفة من الغضب لدى الحاجة سعاد وهي تقدم لها الإفطار..

فقد احمر وجهها بشدة، وثارت ثورة عنيفة، وحذرتها أن تقترب من تلك المرأة الأفارقة ذات السمعة القذرة..

تعجبت من ثورة الحاجة سعاد، فقد كان رد فعلها مبالغاً فيه بشكل كبير، لكنها قالت بهدوء: لم تعد نصائحك تجدي الآن بعد ما فعله عمر الكيلاني، فلا أنا أستطيع إخراجها من حياة ناجي، ولا هو شخص وضيع ليلقي بأمه خارج حياته..

- أمه؟! هل سترددين أنت أيضاً تلك الشائعات؟! تلك العاهرة الوضيعة لم تكن أبداً أمّاً لناجي..

- لا وقت لدي للرد على كلامك..

حملت حقيبتها واتجهت نحو الباب، فاستوقفتها الحاجة سعاد بقولها: لا تصدقي أكاذيبهم، ليست أمه..

أعرف عمر الكيلاني منذ سنوات طويلة، وقتها لم يكن يمتلك سوى مطعم واحد في بلدة ساحلية صغيرة، وكان ناجي طفلاً صغيراً يحمله معه أينما ذهب أو حل بمكان، لم يتعرف إلى تلك العاهرة إلا بعد سنوات عديدة، عندما افتتح فرعاً للمطعم في باريس، كنت أنصحه بأن يبعد ناجي عنها، بعد أن استولت عليه وغسلت دماغه وأسكنته في بيتها..

- ربما كان عمر الكيلاني يعرفها قبل أن عملي معه..

- حاولت كثيراً أن تخدع ناجي بذلك، لكنه لم يصدقها..

- وما أدراك أنه لم يصدقها؟!

- لو كان فعل، لكانت تعيش معك الآن في هذا البيت..

أصابتها الحيرة من ذلك المنطق، ومن تلك الثقة المفرطة التي تتحدث بها الحاجة سعاد..

مما جعل ثوابتها تهتز، وصار كل ما صدقته عن ناجي هباء منثورًا..
 من الصعب أن تطلق حكمًا بالصدق أو بالكذب على كلام الحاجة سعاد، فحتى الآن لم
 تتحدث إلى شانتال ولم تسمع منها قصتها مع عمر الكيلاني..
 تلك الحيرة التي أشعلتها سعاد في قلبها، لن تجد ما يطفئها سوى زيارة عاجلة إلى شانتال
 بعد أن تنهي يومها في الجامعة.

استقبلتها إيميليا في بهو الدار بابتسامة مرحبة، فسألته لين: كيف حالها اليوم؟
 أجابت بانشرح: تحسنت كثيرًا، زيارتك لها في المرة السابقة بدلت حالتها النفسية، وصارت
 تتحدث كل يوم عنك وعن السيد ناجي.
 تمت لين بالحمد، فشانتال واعية، وحالتها النفسية على ما يرام، وتستطيع التحدث إليها.
 لكن إيميليا قالت: اسمحي لي، أود أن أتحدث إليك في أمر هام.
 قالت: لو أن الأمر يتعلق بأية مصروفات أو أي أموال تحتاجها، فأنا...
 قاطعتها: الأمر لا يتعلق بالمال، لكنه بي أنا، لقد عرفت من إحدى زميلاتي القدامى في قسم
 التمريض أنك قد زرت المستشفى وتحدثت إلى المدير، وشاهدت الفيديو المسجل من كاميرات
 المراقبة.

- لم يعد هذا الأمر يعني، ولا أهتم له.

- لكنه يعني، ولدي توضيح أرجو أن تسمعيه.

عقدت لين حاجبها مفكرة، واستمعت لها بصمت..

- عندما نُقِل والده إلى الرعاية الفائقة، وكانت نوبتي الليلية، وقف أمامي يرجو ويتوسل
 والدمع يملأ عينيه، يخبرني بأنه ابتعد عن والده وقتًا طويلًا، وهو الآن يحتاج أن يبقى إلى جواره،
 حتى إذا ما حانت لحظاته الأخيرة لا يتركه يلفظ أنفاسه وحيدًا.

قالت لين بحدة: وماذا عن تسجيل الكاميرا؟

مطت شفيتها وقالت: لقد كان يغني لي.

سمعتة مرة وهو يغني لأبيه، قبل أن تسوء حالته ويدخل الرعاية.

أكملت إيميليا: سрни للغاية اهتمامه بأبيه، كما سрни صوته، وأنا أعشق كل صوت جميل، لذلك حينما طلب مني أن أخالف لوائح المستشفى وأدعه يبقى ليلاً مع والده، وجدت الفرصة سانحة لي لأطلب منه أن يغني لي.

حتى لو لم يفعل، فما كنت لأستطيع أن أقف أمام إصرار شاب كل أمله في الحياة أن يفترش الأرض في برد كانون الثاني، تحت سرير والده الذي يحتضر.

شيء ما في حديثها مس ثنايا قلبها، فقالت محاولة السيطرة على ثباتها: عندما رآه المدير طردك!

ردت: لا، بل لأنني ساعدته على أن يخرج أباه خلسة من المستشفى، متحدثاً أوامر الأطباء ونظام المستشفى.

هتفت لين بدهشة ممزوجة بالغضب: وكيف توافقيته على هذا الجنون؟!

ردت بأسى: الرجل كان منتهياً بشهادة كل التقارير الطبية، والحياة بالنسبة له ما هي إلا بضع ساعات.

قالت بحيرة: ولكن لماذا غادر المستشفى؟

قالت: لشيء يتعلق بتقاليد الموت في ديانتته، وطقوس ما عليه أن يتبعها حتى يموت مرتاح البال، لم أستطع أن أرفض للرجل الكبير آخر أمنية له في حياته.

تعاظمت الدهشة بداخلها، وصار بداخلها بدلاً من السؤال الواحد ألف سؤال..

أي طقوس تلك التي عليه أن يتبعها؟ وما تقاليد الموت التي لا يصلح أن تتم في المستشفى؟

أم أنه يخاطب وجدان الممرضة ويستثير مشاعرها، حتى يخرج من المستشفى لأمر ما في عقله؟

دخلت لين غرفة شانتال، وحيثها وهي تجلس على المقعد المواجه لها، فابتسمت لها شانتال، وقالت بلهجة ظهرت فيها السعادة: شيء ما بداخلي أنبأني بأنك ستأتين اليوم.

هزت رأسها بارتباك، وقالت بابتسامة مترددة: كيف حالك اليوم؟
لا تدري كيف تبدأ معها الحديث دون أن تتطرق إلى سؤالها الحائر، الذي أتت خصيصًا لتعرف إجابته!

تفحصت شانتال عينيها، وابتسمت: الإجابة هي لا.

تأملتها لين بتعجب، وسألت بدهشة: أهذه إجابة السؤال الذي سألته؟

- بل إجابة السؤال الذي لم تسأليه.

- أي سؤال تعنين؟

- السؤال الذي أرقك طويلًا وأتيت خصيصًا لتعرفني إجابته.. لستُ أمّه.

فوجئت لين بصراحتها المطلقة، وبأسلوبها المباشر، فارتبكت ولم تدري ماذا تقول، فابتسمت شانتال: عجبًا، أكل العرب لديهم عيون كالمرايا؟!

أستطيع أن أرى بوضوح ما في عمق قلبك..

ارتبكت لين وتوترت، وأخذت تبعثر نظراتها في كافة الاتجاهات، لكن شانتال استمرت في حديثها، وكأنها تطارد حلمًا جميلًا استولى على أفكارها: الطفل الوحيد في هذا العالم الذي تمنيت أن أكون أمه هو ناجي.

حدقت لين بتلك العينين الهرمتين اللتين اغرورقتا بالدموع، وابتلعت ريقها، شيء ما اهتز بداخلها..

أربكتها شانتال بصراحتها اللا معقولة، كانت تعتقد أنها ستجابه حربًا ضارية منها للدفاع عن فكرة أن ناجي ولدها، لكنها ألقت بكل الحقيقة بين يديها، بلا أية مقاومة أو مراوغة..

بدأت الذكريات تتدفق من بين شفيتها، وعيناها تشعان ببريق الحب، وابتسامة حاملة ترتسم على شفيتها: أول مرة التقيته فيها كان على ظهر سفينة غادرت لبنان متجهة إلى فرنسا..

كنت امرأة ناضجة شقراء جميلة في أوائل الثلاثينيات، بحاجة إلى تلك الجولة السياحية في لبنان، بعد تجربة طلاق حديثة خرجت منها رابحة مادياً، لكنها تركت أثراً مؤلماً بداخلي، وفي لبنان رحلت السفينة بدوني بسبب تأخري عن موعد الإبحار..

اضطرت إلى أن أستقل أخرى أقل في الفخامة، كي أعود سريعاً إلى فرنسا، وبذلك فقدت المجموعة التي رافقتني طوال الجولة السياحية، وصرت وحيدة، وما زاد من ضيقي ونقمتي هو صوت طفل لا يكف عن البكاء كلما صعدت إلى سطح السفينة، وأخذت ألوم في نفسي تلك الأم المهملة التي ترك طفلها ينفطر من البكاء، ويزعج ركاب السفينة إلى هذا الحد، وأتلفتُ أبحث عن ذلك الطفل الباكي..

ورأيت..

لمعت عيناها ببريق عجيب، ورحلتا بعيداً وكأنها تسافران إلى الماضي: كان شاباً طويلاً عريض الكتفين، لا يزيد عمره عن الخامسة والعشرين، تختفي ملامحه تحت شارب كث ولحية سوداء لم تهذب منذ شهور..

كان يبدو معدماً بحذائه البالي ومعطفه القديم المهترئ..

هيئته تثير الخوف والاشمئزاز، ولا تشجع أحداً على الاقتراب منه..

لكن.. في وسط تلك الصورة كان به شيء جذبني، كان يحمل بين يديه رضيعاً يبكي، يفعل ما بوسعه لإسكاته، يهزه، ويربت على ظهره، يحدثه ويغنى له..

كان يتحدث إليه بالعربية التي لم أكن قد تعلمتها بعد، ثم تبع الكلام بفعل عجيب، فقد فتح معطفه ووضع الصغير على صدره، ثم ربط أزرار المعطف، وأخذ يهز جسده ويسير ذهاباً وإياباً محاولاً إسكات الطفل..

ابتسمت لطرافة المشهد، وبقيت أراقبهما بشغف، حتى نام الطفل وذهب الرجل به، وبعد عدة ساعات رأيته في أحد الأركان يربط الطفل على ظهره، ويعمل بالتنظيف، كان من السهل استنتاج أنه معدم يسعى لأي عمل ليحصل على بضعة قروش، كي يوفر طعاماً للطفل، ويناام فوق سطح السفينة..

أصبح ذلك المشهد يجتذبي، بل وأحياناً أفتقدهما، فأبحث عنهما وأراقبهما من بعيد..

رأيت الرجل نائماً على أحد المقاعد المنبسطة، والطفل بين أحضانه..

يصرخ من الجوع، يبدو أن الإرهاق قد بلغ منه مبلغاً عظيماً، فهو لم يستيقظ على صوت بكاء الطفل الشديد، ولا بكفيه الصغيرين وهما يضربانه على وجهه ويشدان شعره ولحيته، كان نومه كالأموات، فتركه الطفل وأخذ يتجول في المكان وهو يصرخ..

حُرّت ماذا أفعل، هل أندخل؟ أم أتركهما وشأنهما؟

لكن احتمال أن يضيع الطفل أو يتعرض للخطر دفعني دفْعاً إلى أن أتبعه وأتلففه بين يدي، وبمجرد أن حملته تمسك بي واشتد بكاءؤه، وكأنها يتوسل إلى أن أطعمه..

اصطحبت الصغير إلى السوق الصغيرة بالسفينة، واشترت له طعام الرضع، فالتهمه بنهم، ولم يُبقِ منه شيئاً، ثم اشترت له لعبة أطفال تصدر أصوات شخشة، ثم عدت إلى سطح السفينة..

كان الرجل قد استيقظ ولم يجد الرضيع بين ذراعيه، ففزع فزعاً شديداً وأخذ يصرخ باسمه وهو يجري في كل مكان فوق سطح السفينة: ناجي! ناجي! ناجي!

بمجرد أن رأيته رق قلبي شفقة له، فأمسكت بيد الصغير الممسكة باللعبة وحركتها، فأصدرت اللعبة صوتاً جعله يتبته لنا، فتجمد في مكانه، وعينه تكاد تخرجان من محجريهما، ووجدته في لحظة أمامي يلهث من فرط الفزع الذي انتابه وهو ينظر إلى الصغير، وكأنها لا يصدق أنه وجده ثانية، ثم مد يديه يريد استعادته، لكنني تمسكت به وقلت: دعه قليلاً، إنه سعيد مطمئن، لقد أطعمته ولاعبته حتى هدأ..

أخيراً انتبه لوجودي، ونظر إليّ نظرة امتنان عميقة، لكن الدموع التي ملأت مقلتيه هزت أوتار قلبي..

لم تكن فقط دموعاً، بل مشاعر متدفقة اجتاحتها وأصاب أذنيه ووجتيه وأنفه بنيران هبها.. ترك الطفل بين يدي والتفت إلى البحر، ووضع كفيه في جيب معطفه القديم، ودموعه تذوب من هواء البحر قبل أن يلتقطها خداه..

اجتاحتنني مشاعر جارفة تجاهه، تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها رجلاً يبكي لسبب إنساني حقيقي..

يبكي فزعاً لفقد طفل..

كنت أعتقد من تجاربي الفاشلة السابقة بأنه لا رجل يبالي، كلهم قساة القلوب، عديمو المشاعر، لا تحركهم إلا رغباتهم..

لكن هذا الرجل حرك بداخلي شيئاً ما..

سألته وأنا ألاعب الصغير: ما اسمك؟

فأجابني بلهجة فرنسية ركيكة وهو يمسح عن عينيه بقايا الدموع، بعد أن عادت بشرته إلى لونها الطبيعي: عمر..

ابتسمت، وأنا أعلم أنه لن يدير وجهه عن البحر ليرى ابتسامتي: والصغير ناجي، أليس كذلك؟ سمعتك تناديه..

هز رأسه بشرود..

أخذت أتأمل ملامحه، وهو شارد يلقي نظراته إلى أمواج البحر، ومس شغاف قلبي ذلك الحزن الذي يملأ عينيه السوداوين، وتلك الهموم التي تثقل كاهليه..

تُرى، فيم يفكر؟

هل يفكر في توفير المال اللازم لإطعام الطفل؟

وماذا عنه؟ متى آخر مرة تناول فيها طعاماً؟

قلت: أنا جائعة، ما رأيك أن تتناول معي الطعام؟

هز رأسه نفيًا وهو يمد يديه إليّ لأعطيه الصغير: شكرًا، عليّ أن أرحل..

تمسكت بالصغير، وتركته واتجهت إلى السلم: إذن سأتناول طعامي مع ناجي..

وتحقق لي ما أردت، فقد تبعنا رغماً عنه إلى المطعم..

لم أكن جائعة، بل كنت سعيدة للغاية وأنا أراقبه وهو يلتهم طعامه، فبمجرد أن رأى الطعام أمامه لم يطل أمد تمنعه، وانقض على المائدة يطفئ جوعه، وانشغلت بهز الطفل حتى نام بين يدي، وأنا أسأله عن سبب سفره، وعن عمله، فأخبرني أنه فلسطيني ترك المخيم في لبنان لضيق العيش، ويأمل أن يجد عملاً في فرنسا..

ثم راح يعدد لي مهاراته والأعمال التي يتقنها، من طهي وتنظيف وجلي وإدارة وبيع، فقد كان يعمل في أحد المطاعم، حتى أتقن تماماً الأطعمة الشرقية..

كان يتحدث وعينا يتابعان هيئته وحركاته وتعبيرات وجهه، فذلك الخجل الذي يعتريه كلما وقعت عينه على وجهي يمنحه جاذبية لا تقاوم..

غمرني شغف عارم برؤية وجهه ومظهره، إذا ما حلق ذقنه وهذب شاربه وقصر شعر رأسه وارتدى ملابس أنيقة تناسبه..

شعرت لين بالخرج والضيق، وأخذت تهز ساقها بتوتر، لا ترغب في سماع المزيد، وتبحث عن سبب مقنع يجعلها تغادر دون أن تتسبب في استشارة عجب شانتال، فقد حصلت على المعلومة التي أتت لأجلها..

تنحنحت بخرج، وهمت أن تقوم من مجلسها: عفواً، يجب أن...

لم تسمعها شانتال، بل لم تكن تنتبه لها، فقد كانت تعيش في الماضي بكل كيائها، واستمرت في الحديث ونبرات السعادة تتراقص بين حروفها: الوقت الذي قضيته معها كان يوازي عمراً من السعادة..

ذلك الذي استولى على ثقتي المطلقة لمجرد بضع ساعات قضيتها بصحبته، وبخلاف كل من عرفتهم قبله كان يتجنب أن يلمسني ولو بدون قصد، مما منحني شعوراً بالطمأنينة لم أعده من قبل بصحبة رجل..

أنهى طعامه وهو يقدم لي عظيم الشكر والامتنان، وحانت اللحظة التي كنت أتوقعها، سيأخذ الصغير ويرحل..

قبل أن يمد يده إليه كنت الأسبق، وغادرت المطعم بالصغير، وأنا أقول: لن يستطيع الصغير أن ينام فوق سطح السفينة، فجسده متعرق، سأخذه إلى قمرتي حتى يستيقظ..

ألقيت إليه برقم قمرتي وأنا أسرع الخطأ، وتركته خلفي حائرًا ينادي: سيدتي! سيدتي! لم أجبه، ومن وقت إلى آخر كنت ألتفت خلفي فأراه يتبعنا بقلة حيلة، فابتسمت ضاحكة متعجبة، فذلك الكائن الضعيف الذي ينام بين أحضاني هو الطاقة التي تحرك ذلك الشاب القوي، فطالما كان بين يدي أستطيع أن أوجهه حيث أشاء..

أرقدت ناجي على الفراش، وانتظرت أن يأتي عمر إلى القمرة، وتركت الباب مفتوحًا، لكنه لم يفعل، بل جلس أرضًا بجوار باب القمرة، ضامًا ركبتيه إلى صدره، مُسنِّدًا رأسه إليهما، لم يستطع أن يلج قمرتي، ولا أن يبتعد عن الصغير، ولا أدري إن كان نائمًا أم مستيقظًا، لكن الرجفة التي انتابتني مع هواء المساء البارد جعلتني أشفق عليه من قضاء الليل على السطح، خاصة أن السفينة تقترب من القارة الأوروبية..

أيقظت الصغير رغمًا عنه فبدأ بالبكاء، وعندها فقط ولج عمر من باب القمرة المفتوح، فابتسمت..

أخذ الصغير يهدده ويهدئ من روعه، وأراد الرحيل، فجلُتُ بينه وبين الخروج، وأنا أحاول إقناعه أنه من الخطر على صحة الصغير قضاء الليل فوق السطح، كما أنه يجب أن يتناول طعام الرضع الذي اشتريته له..

لم ألتق رجلاً يصعب إقناعه كعمر الكيلاني، لكنه استسلم في النهاية، وترك لي الصغير لأطعمه، وانتحى هو إلى أحد الأركان، وجلس أرضًا محتضنًا ركبتيه..

أخذت أحدثه عن العمل، وما يمكن أن يفعله في فرنسا، وهو صامت لا يرد، وبطريقة ما أقنعت أنه لا أحد سيمنحه عملاً بمظهره المخيف هذا..

فعلى الأقل عليه أن يخلق ذقنه ويهذب شاربه..

شعرت بالسعادة لأنه أخيرًا استمع إليّ واتجه إلى الحمام، واستخدم أدوات الخلاقة المتواجدة لخدمة الركاب..

عقلي يرسم الخطط المختلفة للاحتفاظ بهما في حياتي..

طرق باب الحمام قبل أن يخرج محيطًا وجهه بالمنشفة، وأنا أطلع إليه بفضول، حتى أزاها أخيرًا والخجل يملكه..

كنت أحاول السيطرة على نبضات قلبي التي تدق بجنون، حتى لا تصل إلى مسامعه فيهرب خجلاً، فقد كان يحاول تجنب النظر إلى وجهي، وقد أخجله تطلعي إلى وجهه..

عندما هم بمغادرة القمرة تشبث بذراعه، فارتبك وتراجع إلى الخلف، فقلت له: غداً سنصل إلى الشاطئ، والجو في الخارج بارد للغاية، بإمكانك أن تقضي بضع ساعات في أي ركن من الأركان حتى تشرق الشمس..

إن أُصِبتَ بالمرض فلن تجد عملاً، ولن تستطيع توفير المال اللازم لإطعام الطفل..
توترت عضلاته وفتح الباب، فهبَّت رياح باردة أشعرتني بالرجفة: لا تقلق، سأنام بجوار الصغير على الفراش، ونم أنت على الأرض..
ابتسمت عندما أغلق الباب بتردد، وتكوم على نفسه في الركن، فتركته وجلست بجوار الصغير على الفراش..

لم ينم، بل سقط مغشياً عليه من الإرهاق، وقضيت وقتاً أطعم الصغير وألاعبه، ومن وقت إلى آخر أتأمل ذلك النائم وأبتسم، وكلما مر عليّ الوقت يستولي على جزء من قلبي، حتى شخير المزعج صار جذاباً..

وأدركت في النهاية أنني لن أستطيع أن أعود إلى حياتي في فرنسا من دونه، بمجرد أن يصحو سأقنعه بالعمل معي، سأمنحه المال ليفتح مطعمًا للوجبات الشرقية في باريس، ويكون شريكاً لي بالإدارة..

غفا الطفل فغفوت بجواره وكان آخر ما أغمضت عيني عليه هو وجهه السمع..
صمتت شانتال للحظات، وانسكبت دموعها، وأخذت ملامحها ترتعش من الانفعال، فابتلعت غصة تركت أثر حشجة في صوتها: لم أندم في حياتي على شيء قدر ندمي على تلك الغفوة التي أضاعت عمري وحطمت حياتي..
لقد ذهب..

أخذ ناجي وذهب في هدوء، وترك لي هذه..

أخرجت من جيبها ورقة قديمة مطوية، فتَحَتَّها وقرأت ما فيها على مسامع لين: لستُ لَصًا،
 كنت مضطراً لأخذ ثمن علبتي حليب أطفال وزجاجة إرضاع..
 أتمنى أن ألتقي بك يوماً لأرد لك ما أخذته من حقيبتك..
 ساعيني..

طوت الورقة، وحاولت التماسك حتى لا تنهار منتحبة، وابتسمت ابتسامة حنين مختلطة
 بالدموع: لم يمد يدًا حُلِّيِي الذهبية، ولا لآلاف الفرنكات التي أضعتها في حقيبتني..
 فقط بضعة فرنكات لا غير..
 لقد أخذ أقل بكثير مما كنت أخطط لمنحه إياه..
 بل أقل حتى من ثمن العشاء الذي دعوته إليه..
 كفكفت دموعها، ثم قالت بشجن: هناك نوع نادر من البشر، إذا ما صادفناه مرة، تتغير
 حياتنا من بعده إلى الأبد..
 ناجي من هذا النوع..
 نظرت لين إليها لتؤكد أنها لم تخطئ في الاسم، فنظرت إليها شانتال نظرة عميقة، وأكدت:
 نعم، تمامًا كما سمعتِ..

(١٢)

كان عليها أن تجبر نفسها على الابتعاد عن أي شيء يخص ناجي أو اختفائه، ولترك الأمر للزم..
لكن يبدو أن للقدر رأياً آخر..

فقد داهمتها مفاجأة أصابتها بالذهول، وأخرستها تماماً، لدرجة أن الشرطة التي هاتفتها ظنت أنه حدث لها مكروه عندما لم ترد على نداءها، فقالت بصوت بدا فيه الأسف: أرجو المَعذرة، ولكن عليك الذهاب إلى المستشفى اليوم لتتأكد إن كانت جثته أم لا..

أملتها عنوان المستشفى ثم أغلقت الهاتف..

لاذت بأحد المقاعد لتتقي السقوط، فقد داهمها الدوار الذي يأتيها كلما أصابها انفعال شديد، لم تكن تعتقد أن خبراً كهذا سيصيبها بكل هذا التشتت، على الرغم من أنه كان احتمالاً وارداً في زمرة الاحتمالات التي تدور حول اختفاء ناجي، لكنها كانت دائماً تكذبه، والآن عليها مواجهة الأمر الذي كانت تنفيه بكل قسوته..

فقد وجدت الشرطة جثة بلا أوراق رسمية يشكون بأنها جثة زوجها..

قضت الوقت المستغرق للوصول إلى المستشفى تحاول بصعوبة التغلب على دوار رأسها العنيف، والتماسك في مواجهة الأمر..

وعندما وصلت إلى المستشفى استقبلتها الشرطة التي هاتفتها، ومعها شرطي آخر..

فسألته لين: إن كانت الجثة بلا أوراق هوية كما تقولين، فكيف عرفتُم أنها لزوجي؟!

قالت بجديّة بها نبرة تعاطف: لقد وجدوا الجثة في الشوارع الخلفية، تحديداً في المنطقة التي بها عصابة سنومي، الذي كان زوجك يُكوّن معه فريقاً غنائياً منذ عدة سنوات، ووجدوا في جيب السترة بضع دعوات لحفل زوجك الأخير، ليس لدينا ما يثبت أو ينفي أنها لزوجك، فالجثة مشوهة الوجه..

اقشعر بدن لين، وابتلعت غصة كانت كالشوك في حلقتها، والشرطة تقول: فلتلقي نظرة على الجثة، لعلك تجددين بها ما ينفي أو يثبت أنها لزوجك..

كم من الجثث المشوهة التي رأتها في المستشفى الميداني وتعاملت معها في تلك الأيام المتخمة بالقتل، والبراميل المتفجرة تسحق كل حياة في كل مكان في سوريا..

حتى صار القتل هو الحدث المتكرر الذي يصبحون ويمسون عليه..

كم من أحبة فقدتهم، وكم شربت ملابسها من دماء الشهداء، حتى استحال الأحمر القاني لون ملابسها اليومي..

ولكن تلك المرة مختلفة، هل لأنها عاشت فترة هدنة طويلة من مجاورة الموت والابتعاد عن منظر الأشلاء ورائحة الدماء؟

أم لأن الأمر هذه المرة متعلق بزواج تنتظر عودته؟

كانت تحاول تفحص الجثة التي ترقد أمامها على الطاولة، وهي تتجنب قدر استطاعتها النظر إلى الوجه المشوه..

عندما طال صمتها أعادتها الشرطة من شرودها إلى الواقع: سيدي، هل وجدت به أية علامة مميزة؟

التفتت إليها بنظرات تمتلئ بالحيرة، وهمت بقول شيء، لكن سبقها دخول جان، فتبادلا نظرات خاطفة عندما قال الشرطي: سيدة جانيت صديقة السيد ناجي المقربة، أرجو أن تخبرينا إن كانت الجثة له أم لا..

اقتربت جان من الجثة، وعلا وجهها الاشمزاز والألم، ولم تكمل دقيقة في تفحصها حتى قالت: ليس هو، أصابع يديه مختلفة، ولون رقبته داكن، ولا وشم على كتفه..

كلمات جان كانت كدلو ماء بارد صب على رأس لين في يوم قاطظ، وبدأت أعصابها المشدودة ترتخي، وأنفاسها اللاهثة تهدأ..

اشتعلت النيران في قلب لين فجأة، ماذا دهاها؟ أيمن ألا تتعرف جسد زوجها؟ كيف تنسى أن لديه وشماً على كتفه؟

لقد حسمت جان الأمر في أقل من دقيقة، وتبينت الفرق بين الجثة التي أمامها وجسد ناجي..

انتبه الجميع على وصول رجل، عرفتھا الشرطية عليه بأنه سعد صديق ناجي المقرب، كان يلهث وكأنها قضى الطريق إلى المستشفى عدوًا، وجهه يحمل قلقًا شديدًا، ولمحة تأثر لا تخطئها عين..

قص عليه الشرطي الأمر باختصار، ثم قال: نحتاج تأكيدًا منك حتى نحسم الأمر تمامًا، السيدة جان تنفي، في حين أن زوجته لم تتعرف عليه..

عندما عادت لين إلى البيت كانت طاقتها النفسية قد نفذت تمامًا، ولم تستطع الرد على كلمات الحاجة سعد، بل اتجهت إلى فراشها مباشرة، لتندس تحت الوسائد والأغطية وترتوي من دموعها، وتبتلع صوت نحيبها ونشيجها..

كانت الطعنة النافذة التي تلقتها كرامتها تؤلمها، ولم تفلح كلمات سعد في المستشفى في مواساتها، وهو يعدّها بزيارة قريبة يجيب فيها عن كل ما يحيرها، ويحكي لها عن صديقه العزيز والمعلم..

نظرات جان لها كانت كسهام مسمومة، وهي تقف متجمدة أمام الجثة بلا حول ولا قوة.. عادت إلى البيت واستغرقت في البكاء والنشيج، حتى غابت عن الوعي، لكن الألم ظل ملازمًا لها حتى في أحلامها..

هذه المرة كانت أحلامها مختلفة، لم يكن منبعها الماضي، بل كانت كلها تدور حول ناجي..

انفض الطلبة من قاعة الدرس، ولم يتبق إلا هي، لم تتحرك من مكانها، لم يكن لديها رغبة في العودة إلى البيت..

شعرت بالسخرية من نفسها، على أيام كانت تتأخر فيها عمدًا حتى لا تعود إلى البيت لأنه هناك، والآن لا تريد أن تعود إلى البيت لأنه ليس هناك..

كيف تبدل كل شيء في مدة قصيرة؟

بدد شرودها صوت نحنحة يأتي من خلفها، فانتابها الخوف وتحفزت كالقطة التي تنشر مخالبها استعدادًا لهجوم وشيك من إياد..

التفتت بحدة، وكادت تأتي بفعل عدائي..

لكنها فوجئت بآخر شخص يمكن أن تتوقع أنه يريد التحدث إليها..

لم تصدق أنه بعد كل ما حدث يأتي أحمد ليتحدث إليها..

بدأ حديثه بالاعتذار عن إزعاجها، ثم تردد قليلاً قبل أن يقول: أحياناً قد تبدو الأمور على غير حقيقتها، وعندما يفتقد الإنسان حريته ويدخل قلبه الخوف، قد تتغير أفعاله إلى النقيض، ويرغم على فعل المكره والمضطر..

بدأت تهدأ، وأنصت إليه وهو يكمل: عدد كبير ممن يعيشون هنا لا يستطيعون المجاهرة برغبتهم الحقيقية في أن يكونوا مع الثورة بسبب الخوف، فالدكتاتورية لا تفهم سوى سياسة ليّ الأذرع، والسكين على الرقبة..

مس قلبها الألم عندما قال: كان لأخي فيديو مشابه..

هو الآن أسير في سجونهم، ولا أحد يعلم إن كان حياً أم ميتاً، وذلك الوغد إياد يساومني على حياته..

ليتني أضمن أن استسلامي لما يريدون سينقذ حياته، لما ترددت لحظة، لكنهم أوغاد لا كلمة لهم..

لم يعد بإمكانني التراجع، وصلنا إلى نقطة اللا عودة..

من أول لحظة رأيت فيها الفيديو، أدركت بأنك قد فعلتها مضطرة، وأن حجم الضغوط التي يمارسها عليك ذلك القذر تفوق قدرتك على التحمل..

تأملته بدهشة، وفي عينيها ألف سؤال، فأجاب حيرتها: من السهل الربط بين توقيت نشر الفيديو على الإنترنت، وما فعلته لرغد..

ارتبكت وتحيرت، فكيف لأحد أن يعرف ما فعلته لرغد؟!

أكمل وعلى وجهه ابتسامة امتنان كبيرة: بفضلك ستمكن من إتمام دراستها دون ضغوط أو تهديد..

تركها ورحل، ورأسها يمتلئ بأفكار كثيرة..

كان صوت أحمد وأسلوب كلامه يشعل الحنين في قلبها إلى حمص وأهلها، ويردها إلى ماضيها..

لكن.. حتى السفر بخيالها إلى الماضي صار كابوسًا

اتصل بها سعد كما وعدها، وطلب لقاء عاجلاً قبل أن يعاود السفر، فقد اضطر إلى قطع سفره والعودة سريعاً إلى باريس، بعد أن علم أن الشرطة تطلبه للتعرف على الجثة التي وجدوها. أخبرته أن اللقاء سيكون في المطعم، وقبل الموعد بدقائق جلست تنتظره في نفس المكان الذي اعتاد ناجي الجلوس فيه، كان المكان هادئاً، والزبائن قلة في وقت خالٍ من الوجبات الرئيسة.

سمعت صخباً وصفيراً مرحاً قرب باب المطعم، فوقفت تطالع ما يحدث بفضول، فوجدت كل العاملين في المطعم قد تجمعوا للترحيب بسعد، الذي وقف بينهم يمزح معهم ويضاحكهم. إنه أحد الثعالب الثلاثة الذين ضمهم هذا المكان مع (المعلم)، ترى كيف سيكون استقبالهم لناجي عند عودته؟

أنهى سعد حديثه الودود مع عمال المطعم، واتجه إلى الطاولة التي تجلس إليها، وبعد التحية والترحيب سألته مباشرة: لماذا رحل ناجي؟ وأين ذهب؟

أسقط في يده، وعجز عن الرد، وارتسمت الحيرة على وجهه، فقالت معذرة: معذرة، لا أقصد أن أصعب الأمور، ولكن أتمنى أن تُقدّر أنه لا شيء يشغلني سوى هذا السؤال في الوقت الراهن.

تنهد بأسى قائلاً: وذلك هو ما يشغلني أيضاً، لقد أصبت بالفزع عندما علمت أن الشرطة قد وجدت جثة هناك في المنطقة التي يسيطر عليها ذلك الوغد سنومي، تخيلت أنه قد يكون قد قتله.

كان هذا بداية خيط لسلسلة الأسئلة التي حيرتها طويلاً: لم انضم ناجي إلى تلك العصابة؟ لا أتخيل أن فتى هو الابن الوحيد لصاحب سلسلة مطاعم، ينحرف عن طريقه وينضم لعصابات الشوارع الخلفية!

قال سعد: والده لم يكن متقبلاً لأمر احترافه الغناء، وكانت هذه هي نقطة الخلاف الوحيدة بينهما.

- أهذا مبرر كافٍ؟

- لا، ولكنه بتفكير فتى مراهق مندفع، يبدو مبرراً كافياً.

- الأمر لا يتعلق فقط بفترة مراهقة، ناجي بدل حياة طفلة، وجعل محور حياتها الغناء معه، الطفلة الآن تعاني وتكاد تفشل في دراستها.

- لقد كانت فكرة (لمعلم).

عندما علم (المعلم) أن أمها أرملة تمر بظروف مادية صعبة، وترفض تلقي المساعدات من أحد، فكر في مساعدتها بإشراك أمل في الحفلات التي يقيمها ناجي، ولم تكن الوحيدة التي تحظى برعايته.

تلك هي حياة عمر الكيلاني وأفعاله، يشعر بمعاناة الآخرين من قبل حتى أن ينطقوا بها.

شرد ببصره بعيداً، وقال بلهجة حنين: لا يمكنني أن أنسى أول مرة رأيته فيها.

كنت أنا ومروان ملتحقين بمدرسة الحي، نكتفي بصداقتنا ولا نندمج مع الآخرين، فقد كان أبوانا يعرفان بعضهما البعض بحكم السكن في نفس الحي، ويرفضان الاختلاط بالفرنسيين، وعلاقاتهم بالعرب في حدود ضيقة..

حتى أتى ناجي..

كان صبيّاً مختلفاً عن كل من أعرفهم من العرب، مرحاً، متقبلاً ومحبوباً، يصادق الجميع، لا يخشى شيئاً..

ذات يوم خرجنا من المدرسة، لنجده منخرطاً في شجار مع مجموعة من الصبية المشاغبين، أراد مروان التدخل لمساعدته، فذكرته بأبيه وما سيفعله به إن عاد إليه مصاباً أو ممزق الثياب، فقد كان والده شديداً وحازماً..

لكن مروان -الذي كان انفجار غضبه على شعرة- انخرط في الشجار يرد العنف بعنف أكبر، وأنا معه..

والعجيب أننا هزمناهم، نحن الثلاثة هزمننا عددًا من الصبية أكبر من ضعف عددنا..
لحظة الانتصار أشعلت فتيل صداقة امتدت عمرًا طويلاً..
تلك الصداقة التي دعمها (المعلم)، وكان سندًا وملاذًا لها..
لم يكن بإمكاننا العودة إلى البيت على تلك الحال المزرية، وإلا سيكون عقابنا وخيبًا، لكن
ناجي أتى بنا إلى هنا..
استرخى في مقعده، وبدأت عيناه تطاردان الذكريات في أرجاء المكان..
هنا كان أول لقاء لنا بـ (المعلم)..
ضحك بحنين: عندما وقعت عيني عليه شعرت أنه طويل جدًا، قويًا جدًا، غاضبًا جدًا،
ويصرخ في أحدهم بطريقة أصابتنا بالرعب كأطفال وقتها..
وعندما تقدم نحونا، ولينا الأدبار أنا ومروان، لدرجة أننا نسينا حقيبتينا وأغراضنا في المطعم..
لكنه لم يتركنا، فقد أمر ناجي بالقفز إلى دراجته وإعادتنا إلى المطعم، وبالفعل لحق بنا وأقنعنا
بالعودة بعد أن أقسم لنا أن أباه ليس غاضبًا من منظرنا ولا من الشجار، ولن يمسنا بسوء..
جمعنا نحن الثلاثة في آخر ركن في المطعم، حول تلك الطاولة..
نقر نقرتين بإصبعيه على سطح الطاولة: لذلك فناجي لا يفضل الجلوس في أي مكان في
المطعم إلا هنا..
وأخذ يستمع لنا بصبر ونحن نتبادل قصص ما حدث..
ثم سأل السؤال الذي لم يخطر على بالنا أن نسأله لناجي، ماذا كان سبب الشجار؟
من وجهة نظرنا كصبية، كان من الأمور العادية تفجر شجار كهذا، فلا غرابة أن عصابة من
المشاغبين تشتبك مع أي صبي في المدرسة..
لكن ناجي قال: لأنني عربي..
ثم دار أمامي أغرب جدال يمكن أن أسمعه بين أب وابنه، فقد سأله (المعلم): وهل هذا
سبب كافٍ للاشتباك في شجار مع صبية يفوقونك عددًا وعمرًا وحجمًا؟

قال بضيق: لقد أهانوني وأهانوا بلادتي..

قال بهدوء: كان عليك أن تُعْمَلَ عقلك قبل أن تجرب صديقك إلى شجار لا ناقة لهم فيه ولا جمل..

قال ناجي بانفعال: أنا لم أستصرخ أحداً للدفاع عني، ولم أطلب العون منهما..

قال (المعلم): لكنهما قد يواجهان مشكلة مع أبويهما عندما يرونها على تلك الحال، ولا تحاول التنصل من الأمر، فأنت مدين لهما..

في كل أيام عمري، لم أرَ أحداً يمكنه إقناع ناجي بالحوار والمنطق كعمر الكيلاني، حتى أنا اقتنعت، ومروان أصابته الدهشة، فلم يكن يعلم أن هناك آباء يستخدمون مع أبنائهم طرقاً أخرى غير الشدة والأوامر..

طلب (المعلم) من سعاد أن ترتق لنا ملابسنا الممزقة، وقام بنفسه بمعالجة جروحنا، ثم قدم لنا وجبة ساخنة من صنع يديه، لم أستطع من بعدها أن أستلذ بأي طعام آخر..

ومن يومها لم نفرق أبداً نحن الثلاثة، وأوقات الفراغ واللعب كنا نقضيها هنا، بعلم أهلنا أو بدون علمهم أحياناً..

أتذكر يوم أن شكوت له من ضيقي من قلة المصروف الذي يعطيني إياه والدي، فقال لي: من يرد المال فإن عليه أن يعمل..

علمنا (المعلم) أن نعتد على أنفسنا، ووفر لنا عملاً بأجر في المطعم، في البداية كنا نقوم بتوزيع ورق الدعاية الخاصة بالمطعم، ونظف المناضد ونقيم المكان، وبعد وقت قصير صار لكل منا دراجة كدراجة ناجي..

لمعت عيناه بدموع الحنين: هنا تعلمنا معاً وكبرنا معاً، لم يستطع أن يتقن ناجي فن الطبخ كأبيه، لكن مروان فعل، صار فناناً في الطبخ، ومدّه (المعلم) بكل أسرار الطبخ التي يعرفها..

أتذكر كم كانت ثورة والديه عارمة عندما عرفا بما يفعله في المطعم، وحسباه في البيت لبعض الوقت، فمن وجهة نظر عائلة مروان من المعيب أن يعمل الرجل عمل النساء، فسيصبح مسار تندر وسخرية الخلائق..

لكن مروان كان قد وصل إلى سن يستحيل معها التحكم فيه، ما أسوأ أن تواجه ثورة مراهق
قضى سنوات عمره تحت ضغط عنيف من والديه!

ولم يجد والده من يستعين به سوى الرجل الذي يتهمة بإفساد ابنه..

وبالفعل، لم يستجب مروان لأحد سوى (المعلم)، الذي نجح في تهدئة ثورته وإقناعه بالعقل
والدين أن ير أبويه ويعاملهما بإحسان، وعاد إلينا مروان بعد عدة أيام، بعد أن انفك عنه
الحصار وتركه والده يفعل ما يريد، فصار مساعدًا لـ (المعلم)، وطاهيًا شهيرًا في المطعم، يطلب
الزبائن أكالاته المميزة..

ولكن.. ما نجح فيه عمر الكيلاني مع مروان، فشل فيه مع ابنه..

عقدت لين حاجبيها، وانتبهت باهتمام: ماذا تعني؟

- كان ناجي يحب الغناء، وشارك في عدة أنشطة مدرسية، لكن (المعلم) لم يكن راضيًا عن
ذلك، وخاصة عندما اتجه ناجي لغناء أغاني أشهر المطربين في فرنسا، ثم بدأ يغني في الشارع
ويلتف حوله الناس، ورغم أن ناجي لم يفعل ذلك سوى بضع مرات، لكن الأمر وصل بينه
وبين والده إلى قطيعة وانفصال وخصام، أدى إلى ترك دراسته والانتقال للعيش في بيت شانتال..

سألته باهتمام: وشانتال؟ ما علاقتها به؟

قال: أعلم ما يدور برأسك، ليست أمه، ورغم ذلك ترك الناس يظنون أنها أمه، كما لو كان
يريد إغاطة (المعلم) واستثارة غضبه، وشانتال سعدت بذلك وتمادت في الأمر..

قالت: ولكن (المعلم) محق في أن يحمي ولده، ويمنعه من الغناء في الشوارع!

قال بدهشة: من بين نساء العالم لا يجب إلا امرأة تحمل نفس أفكار عمر الكيلاني!

شعرت لين بالغضب، وظهر على ملامحها الضيق، لكنها ظلت محتفظة بصمتها، واستمعت
إليه وهو يقول: كان من الممكن أن يعالج الأمر بشكل مُرضٍ للطرفين، لكن مع الأسف، لم
يدرك (المعلم) ذلك إلا متأخرًا..

طاقته الصوتية الرائعة كان من الممكن أن تستغل في الأغاني الهادفة، وتقديم فن يخدم قضايا
الوطن والمغترين في المهجر..

صديقي هذا، من علمه الغناء وحببه فيه هو (المعلم)، وكان مسرحه الدائم في هذا المكان، يقف على تلك الطاولة ويصدح بأغنية عربية، لينال بعدها التصفيق وعبارات الاستحسان من كل المتواجدين..

أذكر يوم أن طلبت منه أنا ومروان ترديد أنشودة حفظها من أحد زبائن المطعم الدائمين، كنا في آخر اليوم والزبائن قلة، وبدأ ناجي في الغناء، فأبكى كل من كان متواجدًا في المكان، حتى أنا ومروان..

فما أن اجتمع الصوت الشجي مع اللحن العذب والكلمات التي فجرت المواجع المدفونة وآلام الغربة، حتى شعر كل عربي بأنها تخصه، وأن الكلمات تعنيه هو..

إن طال بعدي عنك يا بلادي والنوى..

وحرمت شم الورد والياسمين والهوى..

فسيبقى ذكرك عاليًا طول المدى..

شلت يميني إن نسيتك يا بلادي..

شرد بصره بعيدًا وترقرق الدمع في عينيه، وبدأ وكأنها يستعيد تلك الذكرى ويجترها في قلبه: ما زال صوته في أذني إلى الآن..

ذلك الأثر البالغ الذي أحدثه صوت ناجي في الجميع، كان طاغيًا على (المعلم)، فقد تفجرت دموعه وانسحب من المكان، وأغلق عليه بابه..

شرد بصره، وبدأ كما لو كان يوجه رسالة لشخص ليس هنا: يا إلهي! إلى متى ستظل تعاني يا صديقي من أقرب الناس إليك؟!

إن الغناء بالنسبة إلى ناجي هو الماء الذي يروي عطشه للحياة..

تنهدت وقالت بتعجب: أظن حقا أن سبب الشرخ الذي حدث بين ناجي وأبيه هو منعه من الغناء؟

رد: وما الذي يمكن أن يحدث بينهما أكثر من هذا؟

وصل المحامي بطرس أو بيتر إلى المطعم، في البداية ظنت أنها زيارة عادية يتابع فيها أعمال ناجي، لكنها فوجئت به يتجه مباشرة إلى طاولتهما، ثم سلم على سعد بحرارة، وطلب منه مباشرة أن يتحدث إلى لين بمفردها..

ويبدو أن سعد كان معتادًا على أسلوب بيتر اللفظ وطريقته المباشرة، فاعتذر من لين.. بمجرد أن غادر سعد، جلس بيتر إلى الطاولة، وسألها مباشرة بجرأة صدمتها: أريد أن أعرف كيف وجدوا جواز سفرك في أحد بيوت البغاء في تركيا؟ جفت دماؤها وخرس لسانها، وثلت المفاجأة تفكيرها.. كيف عرف بالأمر؟ ذلك هو السؤال الذي احتل عقلها، وجعل صورة إياد تقفز فجأة أمام عينيها..

ارتجفت أطرافها على صوته: لم أسمع إجابة.. ابتلعت ريقها وتبعثرت نظراتها بتوتر.. هل تخبره؟ ثم تذكرت فجأة أنه لا أحد يحق له محاسبتها أو سؤالها، فأخذت نفسًا عميقًا، واستردت رباطة جأشها، وقالت بثبات: لا يحق لأحد أن يسألني سوى زوجي.. - يجب أن أعرف حتى أستطيع إيقاف ذلك الوغد يوسف منير، وإلا ستفاجئين بصورتك في الصحف، ومعها قصة تواجد جواز سفرك في بيت للبغاء.. - يوسف منير؟! -

- هل فوجئت حقًا؟ أظننت أنه يمكن أن يتركك هو أو ذلك الوغد العنصري كريستيان؟ الحرب بينهما وبين عمر الكيلاني مستمرة منذ أمد بعيد، وكل من ستنقل إليه سلسلة المطاعم سيتعرض بالتأكيد لتلك الحرب رغمًا عنه..

ما أدهشها حقًا أن الأمر لم ينكشف عن طريق إياد، بل عن طريق يوسف منير، كيف عرف يوسف منير؟ وهل له علاقة بإياد؟

قاطع بيتر أفكارها: أعلم أن ثقتك بي معدومة، لكنك مضطرة للاستعانة بخبرتي كمحامٍ له باع طويل في هذا البلد، إلى أن يعود ناجي..

قالت: لست مضطرة لأي شيء، وزوجي هو الوحيد الذي...

مسح وجهه بكفيه وقاطعها بنفاد صبر: يا إلهي! أرجوك لا تقولي إنه لم يخبرك بأن جواز سفرك كان معه

هتفت بحيرة: معه؟

كانت الأمور حولها تزداد تعقيداً، وصارت الحياة أمامها كمجموعة من الأحاجي والألغاز، مفاتيحها مع شخص واحد أرهقها البحث عنه..

منذ أن وطأت أقدامها تلك الأرض الغريبة عنها، حتى ظنت أنها ألقت بكل أثقال ماضيها المؤلم خلف ظهرها، لكنها يوماً بعد يوم تكتشف أنها سجين في ذلك الماضي، عاجزة عن الفكك من قيده..

سألته بجديّة: كيف حصل ناجي على جواز سفري؟

فرد بدهشة: أهذا كل ما يقلقك؟ وماذا عن تهديدات يوسف؟

- أجب عن سؤالتي..

- لا أعرف..

نظرت له بارتياح، فقال مدافعاً: ناجي لم يخبرني بأي شيء عنك، كل ما حدث هو أنه أحضر لي يوماً جواز سفرك، وطلب مني أن أنهي إجراءات التحاقك بالجامعة وتسديد المصروفات الخاصة بعامك الدراسي، ثم تركت جواز سفرك هناك عند إدارة الجامعة حين قدومك لاستلامه..

عادت بها الذاكرة إلى اليوم الذي ذهبت فيه إلى الجامعة، لتسأل عن طبيب المخيم الذي شجعها وقدم لها أوراق الالتحاق بالجامعة، لم تجده، لكنها وجدت أن طلبها للالتحاق بالجامعة قد قُبِلَ، والأكثر من هذا، وجدت جواز سفرها الذي يُست من عودته، وقتها لم تسأل نفسها لماذا وكيف، فلا يسأل الغريق من الذي أرسل إليه القشة التي أنقذته..

- منذ متى وناجي يعرف أنني في فرنسا؟

- منذ أن اتصلت بي الوظيفة التي تعمل في إدارة الجامعة، وأخبرتني أنك وصلت أخيراً واستعدت جواز سفرك، فقد تركت لها رقم هاتفي لتبلغني بقدومك..

- وأبلغت أنت ناجي بدورك؟ إذن فلقاؤه بي في محطة قطار الأنفاق لم يكن مصادفة!
- لقد كان يتبعك من قبل ذلك بكثير، من العجيب حقاً أن شاباً كناجي يمتلك كل أدوات الجاذبية، يقضي شهراً من حياته يذهب مرتين أو ثلاث كل يوم إلى السوبر ماركت ليشتري أشياء لا يحتاجها، فقط ليقف بضع دقائق يتطلع إلى الفتاة التي تحاسبه، ليحظى منها بكلمة أو كلمتين لا أكثر، الحقيقة أنني ظننت أن صديقي قد جُنَّ..
- تطلعت إليه بعجب، فأردف: أنا لا أؤمن بذلك النوع من الحب..
- تداعت الذكريات إلى رأسها، وقت أن كانت تعمل في السوبر ماركت الكبير، وعجزت عن أن تربط بين ملامح ناجي وتلك الفترة من حياتها..
- تلك الفترة من حياتها كان كل شيء فيها مشوشاً فاقداً لاتزانه..
- قالت بصوت ضائع: أكمل..
- قال: استسلم ناجي لإلحاح سعد، وقبل أن يغنى من جديد بدأ الاستعدادات والتدريبات ونشر أوراق الدعاية..
- يقيني الآن أنه فعل ذلك ليلفت انتباهك ويتعرف إليك..
- وأخيراً تزوجك..

(١٣)

رحل بيتر بعد أن فتح عليها باباً لنار الحيرة لا يحمد لهبها، ناجي، إن كان قد حصل بطريقة
ما على جواز سفرها، فهو بالتأكيد يعرف أين كان، من سيجيب عن كل تلك الأسئلة التي
تفجرت في عقلها إلا هو؟

أخبرها بيتر أنه كان يعد العدة لمغادرة فرنسا قبل أن يلتقيها، تُرى، هل غادر بالفعل؟
لكن تحريات الشرطة تؤكد لها أنه لم يغادر فرنسا عبر أي طريق معروف..

كانت جان تتفحصها وتراقب حركاتها وانفعالاتها، وبدت قوية ومسيطرة وهي تسألها
باقتضاب: لم أتيت إليّ؟

تنحنحت لين وهي تشعر بغصة حارقة تكاد تخنقها، ورغم ذلك ردت بهدوء: لأنك
صديقته المقربة..

قالت ساخرة: حقاً؟ لقد انتبهت أخيراً لهذا الأمر!

تحملت لين سخرتها بصبر من أجل أن تصل إلى الإجابة عن سؤالها: أريدك أن تساعدني
في البحث عنه، بالتأكيد تعرفين بعض الأماكن التي من المحتمل أن يذهب إليها، كما أن عملك
كصحفية يجعل لديك طرقاً كثيرة للتوصل إلى المعلومات..

- وهل تعتقدين أنني كنت في انتظار أن تطلبي مني ذلك لأبدأ البحث عنه؟

شعرت لين بأنها لم تعد قادرة على تحمل لهجتها العدائية، فهتفت بضيق: سيدة جانيت، هل
تكرهيني؟

ابتسمت نصف ابتسامة، وقالت بسخرية: أنفهم تماماً أنك لا تتمتعين بخبرات كافية - رغم
أنك لست صغيرة - لتدركي عمق العلاقة التي تربطني بناجي وعمر الكيلاني، ربما تفهمين
وقتها لم أكرهك..

لم نكد نستفيق من نكبتنا بفقد عمر الكيلاني، حتى فُجِعْنَا باختفاء ناجي..

والآن صارت فرنسا جحيماً من دونها..

انتفضت من مكانها وقالت بضيق: أتيت إليك لتساعديني، أين يمكن أن أبحث عنه؟ ومن أسأل؟ يجب أن يعود..

- ولمن يعود؟

هاها لهجة الأنفة في صوتها ونظراتها المتعالية، فهتفت بغضب: يعود إلى عمله.. أصدقائه.. حفلاته.. جمهوره.. يعود إلى حياته..

قالت باستهزاء: أم يعود لامرأة جافة باردة لا تفهم معنى الحب والاشتياق؟

تصاعدت الدماء إلى رأسها، واحمر وجهها غضباً، وهَمَّت أن تصرخ في وجهها، لكن جان أكملت بنفس اللهجة الساخرة المستهزئة: أغلب العرب ينظرون إلى العشق نظرة دونية، يعتقدون أن الاعتراف بالحب شيء معيب لا يجوز النطق به..

انظري إلى وجهك في المرأة كيف شبت فيه النار.. أغضبتك كلماتي.. لكنها حقيقة..

انفجرت لين في وجهها: عن أي حقيقة تتحدثين؟ لسنا مثلكم، ولن نكون، تعتقدين أنني لا أحب زوجي فقط لأنني لم أصرخ بكلمات الحب أمامك؟ لم ولن أقبله في الشوارع وعلى الجسور كما يفعلون هنا، لم أشتري قفلاً وأكتب عليه اسمينا وأعلقه على جسر الحب..

من لا تفعل هذا هي من وجهة نظرك جافة باردة؟ نظرتك للحب سطحية للغاية..

اشتدت حدة نظراتها وعلا تهكمها: كل ما قلته قد يكون حُباً أو تظاهراً بالحب، لكنني أتحدث عن أمر آخر، عن امرأة تعجز عن تذكر أبسط التفاصيل في جسد زوجها..

عن رجل يفتح قلبه للعشق لأقصى مدى، وامرأة لا تستمع إلى دقات قلبه الوله..

هتفت بغضب وقد صارت أعصابها كجمر النار: وما أدراك أنت؟ هل شكاك لك؟ أم أنها حاستك السادسة؟

- لا يحتاج أن يشكو أو يبوح بما هو واضح كضوء الشمس..

المرأة التي لا تنظر في عيني زوجها ولا تنتبه لتفاصيل جسده، كيف لها أن تدرك ما في قلبه؟ خرجت لين من مكتبها مثقلة بالألم، كجندي جريح يحمل عار هزيمته في معركة مصيرية..

في الصباح الباكر..

فضلت مغادرة البيت والذهاب إلى المطعم، قبل أن تتوجه إلى الجامعة، فهي هنا لن تجد الحاجة سعاد، ولن تتعرض للاستجواب والأسئلة عما حدث أمس أو ما ستفعله اليوم..

هنا ستحتفظ بمساحة خصوصية تحتاجها بشدة، لتتعمم ببعض الهدوء وتللم شظايا روحها التي تحطمت بالأمس، وترتق ثقوب نفسها التي انكشفت أمام جان..

اتخذت من آخر طاولة في المطعم مُستقرًا لها، وكأنها تحاول أن تثبت لنفسها أنها زوجة صاحب تلك الطاولة، وأنها الأحق بالجلوس في المكان الذي يحبه، ولقد أحسن الشاب محمد الذي يدير المطعم خدمتها وتوفير جو من الهدوء والسكينة لها..

وكان عليها تناول عدة أقذاح من القهوة، لتتغلب على آثار تلك الليلة البشعة التي قضتها في الفراش ما بين بكاء ورثاء لروحها الجريحة، وبين شعور مرير بالغضب والاشمئزاز من نفسها..

لقد مرت بما هو أشد قسوة، وتغلبت عليه، عليها أن تستمر وتمسك بهدفها حتى النهاية.. فليعد ناجي أو لا يعود، لن توقف حياتها لأجله، أو لأجل أي كائن من كان، لقد فقدت أغلى من لديها، وناجي مهما كان لن يكون أغلى ممن ذهبوا ولن يعودوا..

لن تهتم لتهديدات يوسف ولا لألاعيبه القدرة، فهو لن يستطيع إليها سبيلاً طالما كانت بين رجال (المعلم) وتحت حمايتهم..

بدأت تشعر ببعض الراحة وتسترخي في مقعدها، وهي تشاهد زخات المطر من خلف زجاج النافذة الكبيرة، لكن يبدو أن المشاكل تبحث عنها أينما تواجدت بمكان..

انتفضت من مكانها مذعورة على فرقة رجت المكان رجًا، وكل من في المطعم يصرخ ويجري بذعر، وقفت متجمدة من الدهول، لكن الشاب محمد قفز إليها بسرعة وسحبها من يدها ليخرجها من المكان بسرعة، وهو يصرخ: المطعم يحترق!!

مرًا من أمام الباب المؤدي إلى مطبخ المطعم، ورأت النار مشتعلة بصورة مخيفة، فهتفت بخوف: أهنالك أحد بالداخل؟

لم يرد، ووصل بها إلى الباب ودفعها دفعًا إلى الخارج، فصرخت وهي تهم بالعودة إلى الداخل: والعاملون؟ يجب أن أساعدهم!

منعها الشاب محمد من الدخول، وصرخ في وجهها: لا، عليك أن تبقي في مكان آمن! وقفت في الخارج على الرصيف المقابل للمطعم، تنظر إلى رجال (المعلم) وهم يخرجون كل من في المطعم، ويستدعون الدفاع المدني..

مشهد احتراق المطعم عاد بها إلى الماضي.. أيام الحصار والقصف وهدم البيوت واحتراق المباني، الوجوم في ملامح أهل الأرض.. دموع الحسرة في عيون أصحاب المكان، فرع الأطفال وبكاء النساء.. الشعور الوحيد القائم والمستمر..

الشعور بالفقد..

فقد الأرواح، فقد الممتلكات، فقد الأبناء، فقد الأرض..

فقد الوطن..

الضياع..

خرَّت جالسة فوق الرصيف بعد أن خارت قواها وعجزت عن التماسك..

كل المشاعر التي مرت بها في الماضي ترتد إليها الآن في أقسى صورها..

وقت أن كانت تعمل بالمستشفى الميداني كانت أكثر قوة وأكثر تماسكًا، لم يكن لديها فرصة لتفكر في أي شيء، فقد كانت منشغلة بنقل الجرحى وتطبيبهم، كل همها هو كيفية الإبقاء على حياة إنسان، أو التخفيف من ألمه..

دارت عينها في المكان، فوجدت بعضًا من العاملين في المطعم قد نالهم بعض الحروق، أدركت أن سبيلها للعبور من ألمها الخاص هو مساعدة الآخرين والتخفيف من آلامهم..

أرسلت من يحضر لها بعض المواد الطبية، ثم دارت على المصابين تتفقدهم وتفحص حروقهم وإصاباتهم، وتداوي من بحاجة إلى علاج، وحمدت الله تعالى أن الأمر مر بسلام دون

أن يفقد أحد حياته..

ثم وقفت تتحدث إلى الشاب محمد وتسأله عما حدث..

كان متأكدًا أن الحريق تم بفعل فاعل، وأن الأمر مدبر ومقصود..

تُرى، هل بيتر محق؟ كان كلامه واضحًا وهو يقول إن يوسف منير وكريستيان لن يتركوها..

(١٤)

بعد أن قامت الشرطة بفحص المكان وإجراء التحريات اللازمة اقتحم سعد المكان قادمًا
عدوًا من الخارج، وعلى وجهه ذهول الصدمة..

أخذ يدور في المكان، وعيناه تتفقد بتحسر ذكرياته التي كانت حية أمام عينيه بالأمس،
والآن صارت رمادًا..

طفر الدمع من عينيه وهو يتمتم بعدم تصديق: مستحيل!!

كانت لين تتابعه ببصرها، وقد انتقل إليها شعوره بالحسرة، فما كان يحكيه لها بالأمس وعيناه
تحتضن بحنين موطن ذكرياته صار اليوم أطلالًا، كم من مرة عصرتها مشاعر الحسرة وهي
تراقب ماضيها وذكرياتها تحترق وتصبح أثرًا بعد عين، وهي عاجزة بلا حيلة..

ما أبشع أن تفقد ماضيك مرتين! مرة لأنه صار ماضيًا، ومرة باحتراق حتى ذكرياته..

خيم الصمت الحزين على المكان، فلا أحد يجد ما يقوله، وسعد يمسك بإطارات الصور
المحترقة يقلبها بين يديه.. دموع الحسرة متجمدة في عينيه: اللعنة على العنصرية البغيضة،
الكراهية نار تأكل كل شيء جميل، وكأننا لسنا أبناء لهذا البلد، كل هذا بسبب حثالة من النفوس
المريضة تعجز عن تقبل الآخر، فقط لأنه يختلف عنها في العقيدة..

وكان كلماته كانت الجذوة التي أشعلت بداخلها النار الكامنة تحت الرماد..

ذلك الحقد الأسود الذي تفجر لمجرد أن الشباب طالبوا بالحرية..

تلك الكراهية العمياء التي انبثقت من قلوب شوهتها الطائفية..

عادت بها الذكريات إلى تلك المعركة التي نزع القناع عن وجه طائفي قبيح، ليطل بكل
شراسته..

معركة القصير..

كانت بداية للتدخل السافر لحزب الله اللبناني، وقتاله جنبًا إلى جنب مع نظام فقد أهليته
وقاتل شعبه، فجاسوا أرضًا ليست أرضهم، وقاتلوا لينتزعوا فتيل الطائفية، ويحققوا مقولة

النظام الفاسد التي اتضح أنها خطة لتشويه الثورة، ونجح النظام أخيراً فيما كان يهدد به، ولو حتى بالتدخل الخارجي..

فقد حولها إلى حرب طائفية..

كان حزب الله اللبناني يقاتل بضراوة، من أجل عدم إسقاط نظام يعتبره ظهيراً له في تحقيق مصالحه الخاصة في المنطقة، ومن أجل تلك المصالح دخل الأراضي السورية، قتل أكثر من ألف إنسان في معركة واحدة، وجرح مثلهم..

«هدف النظام هو السيطرة على تلك البلدة الإستراتيجية وتحويلها إلى معركة طائفية أمام العالم»..

كانت تلك كلمات خالد وهو يحكي لها، بعد أن عاد مصاباً من القصير، فقد كان يقاتل مع الشباب بعد أن انضم إلى كتائب الفاروق، ومعه العم طلال.

لكن خالدًا عاد وحيداً، ولم يعرف أي شيء عن مصير العم طلال..

عاد خالد بعد أن انسحب الجيش الحر من المدينة، بعد ثمانية عشر يوماً من المقاومة الباسلة، واستولى عليها جيش النظام وقوات حزب الله..

كانت الطائرات تدك كل شيء، والمدافع والصواريخ تحصد الأرواح والبيوت، ثم يدخل جنود حزب الله برفقة جنود النظام ليستولوا على الأرض المحترقة..

على طول حرب النظام على الشعب لم تتغير تلك الإستراتيجية..

فليس أسهل من أن تدك المناطق العصية على الاقتحام بالطائرات والصواريخ لأيام وتسويها بالأرض، ليدخلها الجنود بعد أن أنهكت كما لو كانوا في نزهة..

خرج خالد من القصير مصاباً، وخرج العم طلال بعده، لكنه خرج شهيداً على يد مليشيات حزب الله الطائفية..

العم طلال قاتل لآخر نفس دفاعاً عن أرضه، لكن أحد الذين كانوا معه أخبرها أنه كان مصاباً، لكن الميليشيات الطائفية أجهزوا عليه..

كانت صدمتها كبيرة لموت العم طلال، سالت دموعها وهي تتذكر جسده المسجى على المحفة، بكته كما بكت أباهما الراحل منذ سنوات عديدة، وطافت بخيالها صورة يزن، وتخيلته وهو يبكي أباه بعد أن وصله الخبر في الخليج..

عادت إلى واقعها على صوت سعد وهو يصرخ: لماذا؟!

والشاب محمد يحاول أن يهدئه، كان يبكي ويصرخ بحسرة، وهو يقول: هل كُتِبَ علي أن أفقد كل شيء أحبه؟! عمر ومروان وناجي؟! والآن موطن الذكريات ولحظات الطفولة السعيدة؟!!

هل حكم على أن أفقد (لمعلم) حيًّا وميتًا وأفقد حتى أثره وذكرياته؟!!

لماذا يا ناجي؟! لماذا حكمت عليّ أن أعامل معاملة الغريب؟ فلا أحمل نعش (لمعلم) ولا أدفنه ولا أودعه إلى مثواه الأخير! فقط أصلي عليه صلاة الغائب كالغرباء!

اقتربت منه لين وهو يتحب ويمسح دمعته، وسألته بوجل، وكأنها تشعر في قرارة نفسها أن الإجابة ستفتح لها بابًا لحيرة جديدة ومزيد من التساؤلات: ألم تشارك في مراسم دفن (لمعلم)؟ قال بحسرة: ولا أعرف حتى الآن أين قبره لأزوره، أخرجته ناجي من المستشفى سرًّا، ثم اختفى، وعندما عاد لم يكن في حالة تسمح لنا بسؤاله، ولا أدري لم لم أسأله! ربما تقبلت الأمر كواقع لا أستطيع تغييره بعد أن فقدت (لمعلم) للأبد، أو هي تلك الفكرة التي سيطرت على رأسي وقتها، وجعلتني أستنتج أن ناجي دفن جثة (لمعلم) في غزة..

- غزة؟!!

- نعم، كأى فلسطيني قديم يتمنى العودة إلى موطنه، فناجي قدم عرضًا غنائيًا في غزة من قبل، ورغب (لمعلم) في مرافقته، ولكن حالته الصحية لم تكن تسمح..

- هل ذهب ناجي إلى غزة حقًا؟!!

- ألم يخبرك بقصة الصورة المضيئة التي تحتل نصف جدار كامل في غرفة المعيشة؟!!

قضيت أسبوعًا أنا وهو في غزة، وهناك انضم إلينا مروان الذي أتى خصيصًا من العراق ليلتقينا..

كان اللقاء رائعاً وفريداً، أجرى الدموع من المآقي، ورد إلينا سيل الذكريات الغاليات،
وتصالح مروان وناجي بعد سنوات من القطيعة..

قالت متسائلة: قطيعة؟!

رد بصوت متألم: نعم، فقد كان مروان ثائراً للغاية على ناجي، بسبب انفصاله عن والده
وتردّي حاله، فقد أصبح شخصاً آخر غير ناجي الذي نعرفه..
وبعد سنوات من الفراق اجتمعنا في غزة، وهناك عرفنا من ناجي أن (لمعلم) هو من دبر
لهذا اللقاء..

قدم ناجي حفلاً غنائياً، وصور (فيديو كليب) عن غزة والحصار، واستعدنا أيام صداقتنا،
ورقصنا معا (الدبكة)، ثم أرسلت الصور لـ (لمعلم) عبر البريد الإلكتروني، وعندما عدت
أنا وناجي فوجئنا بتلك الصورة التي في غرفة المعيشة، صنعها له (لمعلم) بإضاءة خاصة،
وعلقها في المكان الذي يجلس فيه دائماً، بعد أن أقعده المرض، لن تتخيلي مدى حب ناجي لتلك
الصورة، فقط لأنها هدية من والده..

عاد مروان إلى العراق، ومات (لمعلم)، وعجز ناجي عن أن يسترد روحه التي تاهت منه
بفقدته والده..

أطرقت برأسها مفكرة، ومست كلمات سعد وجدانها، وجعلتها تنظر إلى ناجي نظرة مختلفة،
لم يكن شاباً مدللاً تافهاً، بل كان حزيناً، وحيداً، مزق فقدّه لوالده روحه..

دمعت عيناها عندما تذكرت لحظات أمها الأخيرة، وهي تحتضر بين ذراعيها، كم كان
فقدتها مؤلماً!

كم عانت وما زالت تعاني من فقدتها لأمها واشتياقها إليها!

أيقظها صوت سعد من الاستغراق في ذكرياتها: حفلته الأخير لم يكن سوى رسائل حب
لوالده..

ولك..

زلزلت الكلمة أعماقها، واجتاحها ألم لم تستطع دفعه، رفعت وجهها نحو باب المطعم، وفي روعها اشتعلت رغبة جامحة لرؤية ناجي يدخل إلى المكان، ليهرع إليه الجميع ويلتفوا حوله..

أخرج من جيبه ذاكرة (كمبيوتر) محمولة (فلاشة): سيدة لين، ستجدين هنا كل ما يتعلق برحلتنا إلى غزة، وبعض (الفيديو كليات) التي صورها ناجي قبل موت (المعلم)، وأيضاً حفلته الأخير كاملاً..

أخذت منه (الفلاشة) شاكرة، وعادت مسرعة إلى البيت، وبمجرد أن دخلت حتى اتجهت إلى الغرفة التي تستذكر فيها دروسها، وفتحت (الكمبيوتر) المحمول بسرعة، وكأنها غلبها الشوق العارم لوجهه وصوته، وفتحت أول (فيديو) صادفها عشوائياً..

كان ناجي يغني فيه أغنية شهيرة لفيروز:

نسم علينا الهوا من مفرق الوادي..

يا هوا دخل الهوا خدني على بلادي..

يا هوا يا هوا يا الي طائر بالهوا..

في متتورة طاقة وصورة..

خدني لعندن يا هوا..

فزعانة يا قلبي..

أكبر بها الغربية..

وما تعرفني بلادي..

خدني على بلادي..

دندناته تتردد بصوت خافت، بالكاد يصل إلى من حوله، لكن الكلمات يقرع صداها عقله وترده إلى أيام خلت، كان فيها صبيّاً محتضن خصر عمر الكيلاني، الذي التف ذراعه حول كتفه على قصر قامته ليرقصاً معاً (الدبكة)، ويردد عمر الكيلاني: «خدني على بلادي»..

تهتز الحافلة التي تقله، فيهتز معها المقعد وزجاج النافذة الذي يسند إليه رأسه، ليفتح عينيه وهو ما يزال يدندن بالأغنية، ووجهه (المعلم) يستولى على ذكرياته..

نظر إلى قطرات المطر التي تجمعت على النافذة وابتسم، ثم أحكم قلنسوته الصوفية حول رأسه لتغطي أذنيه..

تداعت الذكريات الجميلة تترى لرأسه، حيث كان الثعالب الثلاثة يجوبون الشوارع والجسور على دراجاتهم تحت رذاذ المطر، وهم على أبواب الفتوة، كم كان طعم المثلجات رائعاً في يوم شتاء بارد لا يجعل بذوبانها، تنهد عندما تذكر غضب مروان وضيقة وهو يحاول أن يمنعه من الغناء والرقص على الجسر، لكنه لم يبالٍ وتراجع مروان عندما تجمع الناس والتفوا حوله يشاهدونه ويصفقون له، لكنه تجمد عندما وجد نفسه وجهًا لوجه أمام (المعلم)..

رحل الفتیان وقلوبهما يغشاها التوجس مما سيفعله (المعلم) بانه، ربما علقه ساخنة أو صفعه قوية يتورم لها وجهه، فقد سحبه من بينهما، وتجاهل توسلاتها بالألاعاقبه، وعاد به إلى المطعم.. ابتسم ناجي وهو يتذكر نظراتها المودعة، فلم يدركا بعد أن (المعلم) لم ولن يمد إليه يدًا بسوء أبداً..

بقي ناجي جالساً في ركنه البعيد المفضل، يراقب (المعلم) وهو يمارس عمله المعتاد في المطعم، حتى انتهاء الدوام، وأخيراً أتى وجلس قبالة، انتظر ناجي قليلاً عليه يبدأ الحديث، لكنه لم يتكلم، فبادر هو قائلاً: لا أفهم ما الذي فعلته ليستجلب الغضب!

رد (المعلم) بهدوء: أحقاً لا تعلم؟ ما الذي يجعلك ترقص على الجسر؟

- لقد كنت أحاول مساعدة أحد الشحاذين، كان يغني ويعزف على الجيتار جاهداً، عله ينال بضعة فرنكات، ففكرت ربما لو صرنا اثنين لانتبه له الناس ومنحوه القليل من مالهم..

- وهل كانت الفكرة ناجحة؟

- ألم تر كيف تجمع الناس حولنا وأخذوا يصفقون ويلقون إليه بالبنسات؟ لقد امتلأت جيوبه..

لم يمنع (المعلم) شبح ابتسامة أخذت تحوم حول شفتيه، ولانت ملامحه وهو يحاور ذلك الفتى العنيد: حسناً، أنت أردت مساعدته، وهناك ألف طريقة أفضل، قد تمنحه بعض الفرنكات، أو

مثلاً وجبة من مطعم ناجي ستكون بالتأكيد أكثر مما يجمعه من مال في عدة أيام..
لقد علمتني أن مساعدة الناس بأن نسهل عليهم طريق العمل والكد، لا أن نساعدهم على التسول..

- هذا صحيح، ربما يجدر بك أن تدعوه لغسل الصحون في المطعم، أو تنظيف المكان لبعض الوقت ليأخذ أجرًا على عمل يعمل به بجد..

- وما العيب في عمله الآن؟

- إن ما أغضبني هو ما فعلته أنت، لا ما فعله هو..

- وما الخطأ فيما فعلت؟ الغناء والرقص في هذه البلاد عمل قانوني ولا ينتقده الناس..

- ما يناسب الناس هنا لا يناسبنا، ثقافتهم تختلف عن ثقافتنا، أغانيهم تحمل الكثير من المعاني التي لا نقبلها في ديننا..

- ولكننا مواطنون هنا، ونخضع لنفس القانون ولنا نفس الحقوق..

- وأيضًا نحن عرب مسلمون، لنا ديننا وتقاليدنا..

- وان كنا عربًا، فلم لا نعود إلى بلادنا؟

صمت (المعلم) واختفى بريق عينيه، وكأنها صارت بلا حياة، فأكمل ناجي بغيظ: أرايت؟ لسنا عربًا، وليس لنا وطن لنعود إليه، حياتنا هنا في فرنسا، أوراق هويتنا، العمل، المدرسة، الأصدقاء، حتى لو فكرنا في الانتقال إلى بلد آخر فلن نستطيع..

علينا أن نألف حياتنا هنا، ونعيش كما يعيش أهل هذه البلاد، فهي موطننا الآن..

قست ملامح عمر الكيلاني واحتدت نظراته، وقال بصوت عميق: وطنك هو أن تكون أنت أينما كنت، لا ما يريدونك أن تكون عليه..

أنت بالفعل تعيش في بلد ديمقراطي حر، لا يجبرك على التخلي عن هويتك والتظاهر بأنك شخص آخر ليس أنت..

تساءل ناجي بوجل: وماذا لو فعلوا يومًا؟

قال عمر بلا مواربة: سنترك البلد على الفور، فما قيمة أن تحيا في وطن يقطع لسانك ويسلبك هويتك ويسحق آدميتك؟

توقفت الحافلة لتوقظه من ذكرياته، فأخذ يتطلع نحو السائق، الذي نهض من مكانه والتفت إلى الركاب قائلاً: ستغادرون الحافلة وتعبرون الحدود سيراً على الأقدام، وعند نجاحكم في الوصول بسلام، ستجدون هناك حافلات تنتظركم لتكملوا بها رحلتكم..

غادر ناجي الحافلة ليلفحه الهواء البارد في وجهه محملاً برذاذ المطر، فأحكم وشاحه الصوفي حول عنقه، وحمل حقيته على ظهره، ووضع كفيه في جيب سترته، وسار باتجاه الشريط الحدودي، وصوت عمر الكيلاني في أذنيه:

«فلتحمل هويتك ووطنك في قلبك أينما ارتحلت، ولا تسمح لروحك أن تذوب في فضلات حضارات الآخرين»..

كانت تحاول جاهدة أن تربط الخيوط ببعضها لتعرف كيف عرف يوسف منير بأمر جواز سفرها..

ما الذي أوصله إلى يد ناجي؟ هل عرف عن طريق يوسف منير؟ هل اشتراه منه؟ هل يوسف منير على علاقة بإياد؟

لم تجد سوى بيتر لتسأله: ما علاقة ناجي بيوسف منير؟

صمت لحظة ثم أجاب: ليس هناك علاقة..

- إذن من أخبر ناجي بأمر جواز سفره إن لم يكن يوسف منير؟

- وما أدراني؟

- ومن يعرف إذن؟ هل أذهب إلى يوسف منير وأسأله؟

- إياك أن تفعل شيئاً كهذا، فأنت لا تعرفينه مثلي، فهو ثعبان..

اتسعت عيناها بفهم، وطرقت رأسها فكرة أزعجتها، فهتفت بغضب: إنه أنت.. أنت من عرفت ناجي بيوسف منير.. أنت الحلقة التي تربط بين الاثنين.. فكلارك مصري..

صمته أكد لها صحة فكرتها، فصرخت فيه: أخبرني الآن كيف وصل جواز سفري إلى ناجي؟

هتف: لا علم لي، كل ما أعلمه هو أن ناجي يتصل من وقت إلى آخر بمنظمات الإغاثة التي تقوم بتوصيل التبرعات والمعونات إلى اللاجئين في تركيا وسوريا..

صمتت تمامًا، وأخذ عقلها يطحن الأفكار ويبحث عن الخيوط ويربط بين المواقف، وأدركت أن عليها أن تتصل بالطبيب الذي التفته في المخيم ونصحها بالقدوم إلى هنا، والالتحاق بالجامعة، وظنت وقتًا طويلاً أنه هو كافلها في الجامعة..

اتصلت به على هاتفه الدولي، وكان حظها حسناً أن وجدته، فقلما يتواجد في فرنسا بسبب انشغاله بالجمعيات الإغاثية والسفر إلى البلاد المنكوبة..

- مرحباً د. جورج..

- مرحباً، كيف أخدمك؟

تنحنحت بحرج، ثم قالت: أنا لين، كنت إحدى مساعدك في مخيم اللاجئين، ونصحني بـ...

هتف بصوت فرح بمجرد أن تذكرها: مرحى، كم أنا سعيد لسماع صوتك! كيف حالك أيتها السندريلا؟

ابتلعت ريقها وصممت برهة، فما توقعت أن يكون متبسّطاً معها إلى هذه الدرجة، لكنه أكمل بصوت مرح: كنت أتمنى أن ألبى دعوة ناجي لحضور حفل زفافكما، لكنني كنت خارج البلاد فاعتذرت منه..

سقطت كلماته على رأسها كالحمم، من هذا الشخص الذي يتحدث عنه؟

أهو حقاً زوجها؟

هتفت بتوتر، وأنفاسها تتلاحق: د. جورج، هل تعرف ناجي؟

قال وما زال صوته يمتلئ بالمرح: بالتأكيد، ألم يخبرك بالرحلة التي قطعناها معاً؟

تجهم وجهها بشدة، والدماء تتصاعد إلى رأسها: لم يخبرني بشيء..

صمت لحظة، ثم قال بلهجة جادة: ولا بقصة الحذاء؟

تمتت بدهشة: حذاء؟!

قال: لقد جاب العالم بحثاً عنك ولم يجدك، وعاد يائساً كسير القلب يحمل معه جواز سفرك وحذاءك..

كنت أقول له دوماً إنه سيجدك يوماً ما..

ولكم كانت سعادتي عظيمة عندما اتصل بي ليلغني بأنه وجد السندريلا صاحبة الحذاء أخيراً!

انطلقت تجري إلى غرفة نومها، ولم تبال بالحاجة سعاد التي اصطدمت بها في طريقها..

توجهت إلى خزانة ملابس ناجي، وأخذت تفرغ ما فيها بعصية، والغضب يلتهم أعصابها، حتى وقفت أمام حقيبة ظهر رمادية تبدو منتفخة، فأخرجتها من مكانها وفتحتها، وبمجرد أن رأت ما فيها حتى خرَّت جالسة على الأرض، وغرقت في بحر من الحيرة والتساؤلات، والدموع تسيل على وجنتيها..

أدركت أخيراً صدق كل كلمة نطق بها د. جورج..

فقد كان حذاؤها الشتوي ذو الرقبة العالية مختبئاً داخل حقيبة الظهر القابعة في خزانة ناجي!

(١٥)

لم تكن تتخيل أنها ستعيش ذاك الألم وتكابه مجدداً..

تجتره كالعلقم في صورة ذكريات تداعت طوعية إلى رأسها، بمجرد أن سعت بنفسها إلى لقاء عاجل مع د. جورج، والذي صار واحدة من حلقات الوصل الخفية التي تربطها بناجي.. ترقق الدمع في عينيها عندما تذكرت أمها ولحظات وفاتها، والتي تمت كثيراً أن تمحو ألمها من ذاكرتها..

وعادت الأحداث الأليمة حية متأججة كما لو كانت بالأمس..

عندما تطوعت للعمل في المركز الطبي بالمخيم، وقت أن اشتد المرض على أمها حسرة على ما وصل إليه حالها بعد أن انفض الجميع من حولها، وعاشتا في المخيم كاثنتين من الأيام تكابدان ويلات الحياة، بلا سند أو ظهر يحميهما..

كان أكثر ما يؤرق روحها ويخيف قلبها هو أن يأتي يوم ولا تجد أمها دواءها..

وسرعان ما أتى ذلك اليوم كما توقعت، فمع وجود إياد كطبيب عامل في المركز الطبي للمخيم في لبنان، كان لا بد للدواء أن يستنزف، فقد صار خبيراً في التمرس في اختلاس الأدوية والعقاقير الطبية المخصصة للاجئين، وبيعها لجمعيات وهمية تدخل المخيم متلبسة ثوب مساعدة اللاجئين..

كان لديه من الخيل الشيطانية الكثير، تزوير في أعداد المرضى في الدفاتر يجعله يحصل على أعداد زائدة من أدوية معينة، يتكسب من بيعها لمن لا يستحق..

كم من مريض منحه تشخيصاً خاطئاً لمرضه واستبدل مرضه باسم مرض آخر! وكم من مريض أحال حياته جحيماً عندما كتب عنه تقريراً مزوراً باشتباه في الايدز أو الكبد الوبائي!

بالإضافة إلى ما كان يدور حوله من شبهة تورطه مع عصابات الاتجار بالأعضاء، مما يجعله وسيطاً بين المستشفيات القائمة على عمليات نقل الأعضاء وشباب من المخيم، يقوم بإقناعهم ببيع أعضائهم في مقابل مبلغ مالي قل أو كثر حسب التفاوض، ليخرج هو بمكسب الوسيط من تلك المقايضات القذرة، التي تعتمد على استغلال حاجة اللاجئين للمال..

لم يكن إياد وسيطاً فقط في عمليات نقل الأعضاء، بل كانت تسمع من بعض الأمهات أنه توسط لبناتهن بزيجات مشبوهة، وليس هذا فحسب، بل يُقال إن له علاقات مع شبكات دعارة، يقوم لها بدور قواد يستقطب الفتيات الصغيرات اللاتي فقدن كل أهلهن..

كان إياد يمارس جريمة منظمة في المخيم دون أن يستطيع أحد التدخل أو حتى الشكوى، وكان عليها أن تصمت ولا تفتح فمها..

فيوماً بعد يوم كان يجمع حوله الشبيحة والعاطلين ويمنحهم المال ليقوموا على حمايته، حتى صاروا عصاة تنكل بأي أحد يحاول أن يوقف جرائمه..

واضطرت لين إلى أن تختمي بالصمت خوفاً من الشبيحة والبلطجية، بعد أن رأت بعينها ما يحدث من تنكيل وإرهاب لكل من يحاول التدخل..

لكن أمام مرض أمها وحاجتها للدواء لم يعد السكوت ممكناً..

كان عليها أن تواجهه وحدها، ورغم أنه هدهدها لكنها لم تخف، بل رفضت التراجع حتى أخذت منه كمية من الدواء الذي كان يدعي نفاذه، بعد أن هددته أنها ستبلغ المنظمات العالمية عن جرائمه..

لكنها لم تكن تعتقد أن وحشيته يمكن أن تبلغ هذه الدرجة..

كانت تتوجس منه وتتوقع دائماً الخطر، ولا تدرى كيف تتصدى له..

فما من أحد يساعدها سوى الشيخ أحمد، ذلك الرجل الفاضل الخيّر، وهو عضو نشط لإحدى الجمعيات الخيرية اللبنانية التي تعمل على مساعدة أهل المخيم، وكم من مرة شكت له أفعال إياد وحكت له عن سرقاته وجرائمه، لكنه لم يستطع أن يتخذ موقفاً صارماً خشية أن يتهور إياد ويؤذي لين..

وقد كان..

فبينما هي تجلس في المركز الطبي ليلاً، حيث خفت الأقدام عن المركز وأوى الجميع إلى خيامهم، شعرت بحركات مريبة، وأفعال غريبة، وبدا لها أنها حوصرت داخل المركز من قبل شبيحة إياد، ولم تجد بُدّاً من الاتصال بالشيخ أحمد عندما استشعرت الخطر الداهم يقترب منها..

شل الرعب أطرافها وأغرق العرق جسدها، وهي تسمع صوت أقدامهم أمام الباب، ولم يطلُ بها الوقت حتى اقتحم الشيحة الغرفة ویتزعمهم إياد، فلم يكن بابها عصياً على الكسر.. صرخت صرخة مدوية فانقضوا عليها، وعندما حاولت الهرب جذبها أحدهم وطرحها على الفراش الطبي الأسود، وثبت يديها فوق رأسها فشل حركتها، وكمم إياد فمها براحة يده كي لا تصرخ..

أخذت تتنفض كفرخ ذبيح عندما شرع إياد في نزع ملابسها بعنف، وتمنت الموت في تلك اللحظة، وهي تتخيل مصيرها المرعب..

لكن الشيخ أحمد اقتحم المركز بمساعدة مجموعة من أهالي المخيم، وأنقذوها من بين أيديهم..

كانت تلك الليلة الرهيبة هي القاصمة لإياد ولها..

فقد طُردَ من المركز الطبي، وغادر المخيم إلى غير رجعة، بعد أن أبلغ الشيخ أحمد المنظمات والدوائر الأمنية..

ودخلت أمها في غيبوبة بعد أن عجزت عن أن تتحمل خبر ما حدث، أو أن تلوك بضع نساء من المخيم سيرة ابنتها التي خرجت من المركز الطبي ليلاً ممزقة الملابس، ولم يطلُ بها الأمر حتى صعدت روحها إلى بارئها..

«لم أندم على شيء في حياتي قدر ندمي على رحيلي عن المخيم بعد وفاة والدتك»..

هكذا بدأ د. جورج حديثه معها وهو يتأمل بإشفاق وجهها الناحل الحزين، وعلامات الإرهاق البالغ والسهاد التي ارتسمت عليه بوضوح، ثم أخذ يسرد على مسامعها لقاءه الأول مع ناجي..

- لو كنت انتظرت بضعة أيام فقط في المخيم لكنت التقيت به، لقد سألت عنك إدارة المخيم، فأعطوه رقم جوالي الدولي، فاتصل بي على الفور، كنت وقتها في الطريق عائداً من تركيا إلى لبنان، وعندما وصلت إلى المخيم استقبلني بلهفة، وقد طالت عليه ساعات الانتظار، أخبرني بأنه قريب لك، وقتها شعرت بأنني قد أذنبت في حقك، فعلى الأقل كان عليّ الانتظار لأعرف ماذا ستفعلين وإلى أين ستذهبين..

قاطعته بتنهيده أسي، وابتلعت دموعها قبل أن تقول: كنت مضطرة إلى التوجه إلى تركيا لاستقبال قافلة المساعدات..

قال: لو لم يكن لديك اختبار في السفارة لكنت اصطحبتك معي..

سألته بتردد: هل عرف ناجي بما حدث في المخيم؟

بدت لها مدى سخافة السؤال عندما قال ببساطة: نعم..

تقوس فمها من الضيق، فعاد إلى الحكاية: عندما فقدنا أثرك لجأنا إلى الشيخ أحمد، فهو بالتأكيد الشخص الوحيد الذي يمكن أن تثقي به، بمجرد أن عرفه ناجي بنفسه حتى أصابه الارتباب، وأخذ يستجوبه، فقد أدرك الشيخ ما لم أنتبه له، فكيف لفلسطيني أن يدعي قرابتك! تنبعت حواسها وسألته: وبماذا رد؟

قال: بدا مرتبكاً متردداً أمام سيل الأسئلة التي حاصره بها الشيخ أحمد، فالشيخ كان قلقاً من أن يسعى خلفك لإيذائك أو استغلالك، وتأخرنا بعض الوقت حتى أجرى الشيخ اتصالاته، وتأكد من أن ناجي هو ابن لرجل اشتهر في فرنسا بالسمعة الطيبة ومساعدة العرب، فأخبرنا أنك ركبت سفينة إلى تركيا..

شرد عقلها إلى تلك الأيام التي تموج بالألم، وتذكرت كيف ساعدها الشيخ أحمد على بيع الحلي الذهبية التي ورثتها عن أمها الراحلة، لتضمها إلى المال الذي ادخرته أمها طوال عمرها وخرجت به من حمص، واستطاعت أن تدبر المال اللازم لرحلتها إلى أوروبا، وقضت مع أسرته في بيروت عدة أيام حتى أنهت اختبارات السفارة، واطمأن الشيخ أحمد إلى أنها درست طريق رحلتها جيداً، وتجهزت بكل ما تحتاجه، فقد كانت تتابع صفحات المهاجرين الذين سبقوها إلى أوروبا وحكوا تجاربهم على الفيسبوك والمواقع، واستفادت من خبراتهم وحفظت تحذيراتهم، وخبرت كل الطرق التي تحدثوا عنها، وتجهزت بكل ما نوهوا عنه..

واحتفظت في عقلها بأصغر معلومة قد تحتاجها في رحلتها، ثم ركبت من ميناء طرابلس سفينة متجهة إلى ميناء مرسين بتركيا، تصحبها كل الدعوات الطيبة من الشيخ أحمد..

كانت تلك هي المرة الأولى التي تخرج فيها إلى العالم الواسع الغريب، وحيدة بلا سند..

كما لو كانت جنيئاً يخرج إلى دنيا لا يعرفها عبر مخاضٍ عسيرٍ قاسٍ..

تأملت في وجوه العرب الذين يشاركونها رحلتها، فزادت وحشتها..
 ملامح يعلوها الألم والخوف من مصير مجهول..
 الكل صامت لا يتكلم، ولا يقترب من رفيق رحلته، وكأنها يخشى أن يسمع صوت الألم
 والخوف القابع في أعماقه..
 القاسم المشترك بين الجميع هو الغربة..
 غربة الجسد... والروح..
 نظرت إلى شواطئ لبنان، آخر شيء عربي مألوف لديها، وها هي ترحل عنه مضطرة لتقطع
 رحلة في طريق مجهول، إلى عالم آخر لا شيء فيه مألوف..
 انتزع آخر ما لديها من شعور بالأمن، ليحل محله الخوف والحذر من كل شيء، لم تعد ترى
 من العالم سوى البحر والسماء، فخرت جالسة وضمت ركبتيها إلى صدرها وأخفت وجهها
 بينهما وانخرطت في بكاء طويل، وهي ترتجف من البرد والوحدة لساعات طويلة..
 وعندما ظهرت الشواطئ التركية في الأفق، أدركت أنه لا عودة على المدى القريب، كان
 عليها التماسك والتظاهر بشجاعة لا تجد لها أثراً في نفسها لتكمل طريقها الذي عزم عليه،
 فقد أقسمت أن تصبح طبيبة..

كان يجلس على سطح السفينة يراقب الأمواج، المتتابعة مخلقة على سطح الماء زبدًا أبيض
 سرعان ما يتبدد ليولد غيره..
 كان البرد فوق السطح قارسًا ينخر العظام، ولولا سترة المطر الثقيلة المبطنة التي تكسو
 جسده لما تحمل البرودة..
 ابتسم لطيف داعب ذاكرته، لتلك الصورة المحببة التي يحملها دائمًا في قلبه، ولكن سرعان
 ما داهمه الألم عندما تذكر رحلة معاناتها القاسية..
 تلك الرحلة التي تركت بداخله شعورًا دائمًا بالذنب، وألم يغزو ذاكرته كلما عادت به إلى
 تلك الأيام الموغلة في القسوة..

بين السماء والماء لا يجد ما يسلي وحدته سوى ذكرياته، وإن كانت مؤلمة..

استسلم لها وهي تجرّفه بعيداً..

أبعد من شهور مضت..

عندما وصل إلى المخيم بعد رحلة طويلة ولم يجد من يبحث عنها، كم كان شعوره باليأس قاتلاً بعد أن أدرك أنه وصل متأخراً!

لولا بصيص من أمل تمثل في ذلك الطبيب الذي غادر إلى تركيا وسيعود قريباً إلى المخيم..

فهو الوحيد الذي لديه المعلومات الكاملة عمّن يقصدها..

قضى ساعات الانتظار يستمع إلى حكايا من بعض من يعرفونها وتعاملوا معها..

تلك الأم التي ساعدتها على وصول جنينها إلى الحياة سالماً معافى في برد المخيم، وذاك الشاب الذي يحمل لها قدراً كبيراً من الامتنان، لما بذلته من جهد ووقت في علاج جراحه التي تلوثت وتقيحت بفعل الظروف الصعبة التي يحياها في المخيم..

وذلك العجوز الذي يلهج بآيات الشكر لها لحسن خلقها ومعاملتها الرحيمة الرقيقة مع المرضى، والتخفيف من معاناتهم..

ثم أشار له إلى خيمة كبيرة نوعاً عن غيرها ومفتوحة، تقف فيها فتاة: يمكنك أن تسأل تلك الفتاة عن الدكتورة..

الدكتورة..

ذلك اللقب الذي منحها إياه أهل المخيم، من قبل أن تحصل على شهادة الطب، لم يكن فقط لقباً..

بل كان تقديرًا خاصاً من أهل المخيم لها..

وفي طريقه إلى الخيمة انتابه إحساس بأن الفتاة التي يبحث عنها ليست عادية أبداً..

ابتسم ناجي عندما تذكر لقاءه بفاطمة، ذات السبعة عشر ربيعاً، وهي تقوم بدور معلمة تعلم أطفال المخيم اللغة والرياضيات، وتساعد من كان ملتحقاً منهم بالمدرسة قبل الحرب، كي لا ينسى ما تعلمه في صفه..

«لن ينسى أهل المخيم فضل الدكتورة في إنشاء تلك الخيمة التي نعلم فيها الأطفال».. دارت عيناه تتأمل ما في الخيمة، تلك الزينات البدائية التي تتدلى من سقف الخيمة وأركانها، وتلك البالونات التي فقدت لمعتها وارتخت، وقد مر عليها وقت طويل وهي معلقة في مكانها.. نظر إلى اللوحة السوداء الخشبية الكبيرة التي تقف على قوائم طويلة، وانتابه العجب أنه ما زال هناك في العقد الثاني من الألفية أطفال يكتبون بالطباشير الأبيض على لوح خشبي أسود.. أخذ يستمع إلى كلمات فاطمة، ويتأمل مجموعات الأطفال وهم يجلسون على الأرض في حلقات، ويمسكون دفاترهم وأقلامهم وكتبهم، وبجوارهم حقائق مدرسية: تلك المبادرة التي قامت بها الدكتورة شجعت الكثير من المنظمات والجمعيات التي تساعد اللاجئين على توفير الأدوات المدرسية للأطفال..

شعر بشيء ما يعتصر قلبه وهو ينظر إلى وجوههم البريئة ومرحهم الطفولي، وتذكر أمل وابتسامتها الجميلة، شيء ما في أعماقه يتوق إلى الغناء الآن، ولا يدري سبباً لتلك الرغبة التي تأتيه في أوقات غريبة!

تُرى، هل يمكن أن يرسم غناؤه بعض السعادة على وجوه الأطفال؟

لم تتحول رغبته إلى فعل، فقد أتاه من يخبره بأن الدكتور جورج وصل المخيم، فاتجه من فوره إلى إدارة المخيم للقاءه..

لم يكن الأمر صعباً لإقناع الدكتور جورج بأنه قريب لها يبحث عنها ليساعدها، في حين أنه كان شبه مستحيل مع الشيخ أحمد، الذي يبدو أنه كان يعتبر لين في مقام الابنة، ويخشى أن يسيء إليها أحد..

واضطر ناجي إلى التأخر عدة ساعات أخرى، حتى اقتنع الشيخ أحمد أخيراً بأن يخبره عن الوجهة التي قصدتها لين وخط سيرها، وقد كان الفضل في ذلك لاسم وسيرة عمر الكيلاني بين الجاليات المسلمة في فرنسا..

وكانت تلك هي نقطة انطلاق رحلته خلف لين..

عندما وصلت إلى الشواطئ التركية غادرت السفينة، في زحام من البشر الهاربين من جحيم معلوم إلى مصير مجهول، الجميع يتحرك باتجاه واحد كسَيْل بشري، وقد أداروا ظهرهم للمنطقة العربية بأسرها، بعد أن عقرتهم العروبة التي ينتمون إليها ويتغنون بها..
وقفت لحظة في الميناء، وفكرت أن تلتفت لتلقي نظرة وداع أخيرة نحو الشواطئ العربية، لكنها تذكرت فجأة حنظلة..

تلك الشخصية الكاريكاتورية التي ابتكرها الرسام ناجي العلي، عن طفل فلسطيني أدار ظهره للعالم الذي أنكر حقه في أرض ووطن..

لم تلتفت، بل شدت على حقيبة سفرها وسارت إلى الأمام مسرعة، لتذوب بين جموع البشر التي قررت الاتجاه صوب أوروبا لتحيا، بدلاً من أن تموت تحت أقدام العروبة المكذوبة..
فقد أدركت أخيراً أن حنظلة لم يعد فلسطينياً فقط..

كان عليها التوجه إلى اليونان، فهي مفتاح دول الاتحاد الأوروبي، بعد أن فشلت تركيا في الانضمام إليه، ومن اليونان ستعبر إلى غرب أوروبا..

توجهت من مرسين إلى أزمير، هناك حيث يكثُر المهربون..

وهناك أيضاً حيث اتفقت عبر الإنترنت مع أحد الأشخاص الذين يعرفهم الشيخ أحمد، واتخذ لنفسه اسماً مستعاراً (أبو عمار) يقوم بمساعدة الشباب العربي الراغب بالهروب إلى أوروبا، وتقديم النصائح والدعم لهم بما له من خبرة بالطريق، وما فيه من عوائق ومهربين وغيره..

كانت تعلم من كثرة ما تابعت من قصص المهاجرين على الإنترنت أن المهربين كذابون، وعليها الاحتراس منهم، وألا تدفع قرشاً قبل الوصول إلى وجهتها..

اتصلت بأبي عمار، ووصف لها الطريق إلى أحد المهربين، وعندما وصلت إلى هناك فوجئت بعدد كبير جداً من العرب من أكثر من جنسية، واضطرت إلى الانتظار في طابور لحجز اسمها في رحلة بحرية، وكان الاختيار محصوراً بين سفينة سياحية أو مركب سريع، أو قارب مطاطي (بلم)..

وكل له سعره من الأعلى إلى الأرخص على الترتيب، فاختارت الوسط في المال وفي درجة المخاطرة أيضاً..

لكنها لم تكن تتوقع أن عليها الانتظار عدة أيام حتى يأتي دورها، وكان عليها تدبر أمر البقاء في البلدة والمبيت في فندق..

أدركت أن عليها الاقتصاد في الإنفاق قدر ما تستطيع، لتحافظ على ما معها، حتى تصل إلى نهاية رحلتها..

لم تستقر بعد على نهاية رحلتها، هل تتوجه إلى ألمانيا كما يفعل غالبية الشباب العربي؟ أم تتوجه إلى فرنسا وتلتحق هناك بكلية الطب؟ فقد وعد لها د. جورج بالمساعدة في تحقيق حلمها بأن تصبح طبيبة، ولكن مميزات اللجوء إلى ألمانيا هي الأفضل بكل المقاييس..

وفي النهاية قررت أن تتبع الطريق المعروف لكل الشباب السوري، وتتوجه إلى ألمانيا، وهناك تقرر ماذا ستفعل..

قضت وقتها في التجهز لرحلتها، وشراء ما يلزمها..

وفي الوقت المتفق عليه مع المهرب، كانت تقف مع مجموعة كبيرة من الرجال والنساء على الشاطئ، في انتظار المركب السريع، للتوجه إلى جزيرة ساموس اليونانية..

طالت ساعات الانتظار، والهواء البارد يلفح الوجوه ويرجف الأجساد..

لا تدري هل تلك الرعشة التي استولت على أوصالها سببها البرد أم الخوف..

بذلت جهداً كبيراً في محاولات مضنية للسيطرة على أعصابها المتوترة..

لكن ما شعرت به خلال ساعات الانتظار، لا يبلغ معشار الرعب الذي انتابها عندما أدركت أنها ستقطع البحر بقارب مطاطي (بلم)..

وبدأت الأصوات تعلو بالاعتراض الغاضب، واشتبك بعض الشباب مع المهرب الذي بدل الاتفاق وأخلف وعده وأحضر لهم قارباً مطاطياً ليعبروا به البحر بدلاً من مركب كبير سريع، واستولى على ضعف المتفق عليه من المال..

ابتعدت لين عن مكان الشجار ووقفت بعيداً، والدمع متجمد في عينيها، لا تدري ماذا تفعل، وانتاب الجميع اليأس والإحباط بعد أن صار الأمر واقعاً، وأمواهم بين يدي المهرب، وعليهم أن يقرروا في التو واللحظة إذا كانوا سيعبرون البحر أم يرتدون إلى أزمير خائبيين..

ولم يطل بهم التفكير، فالغالبية قررت المضي قدماً وعدم العودة إلى الخلف مهما حدث، مما شجع لين على خوض تلك المغامرة الخطرة، والأسوأ أن المهرب لم يحضر عدداً كافياً من سترات النجاة، لكن خيار العودة كان مرفوضاً من الجميع..

وركب مجموعة من الشباب في قارب مطاطي، فأسرعت لين خلفهم قبل أن يمتلئ ولا تجد مكاناً، وتضطر إلى الانتظار مجدداً على الشاطئ، أو العودة إلى أزمير..

لم يخف على الركاب أن همولة القارب هي أقل بكثير من عدد الركاب، فكيف لقارب مطاطي تسعة أمتار أن يحمل عدداً من البشر يتجاوز الثلاثين فرداً؟!

لم يعترض أحد، فالكلمة الأولى والأخيرة في ظل تلك الظروف للمهرب الذي يتحكم في حياة البشر كيفما يريد، ولا يهتم لسلامتهم..

انطلق القارب المطاطي، وانكشفت لين على نفسها تتلو آيات القرآن وتلهج بالدعاء خوفاً ورعباً..

لكن لم يكد القارب يقطع مسافة في البحر حتى انفجر المحرك، مسبباً حالة من الذعر تفشت بين الجميع..

أغلقت لين عينيها بقوة، وأخذت ترتجف بعنف وتتلو الشهادتين، في انتظار أن يبتلعها اليم بين لحظة وأخرى..

لكن لحظات الخوف مرت سريعاً، وبدأ الشباب الخبير بتلك الرحلات يجادل المهاجرين الجدد ويهدئ من روعهم، ويشرح لهم أن القارب لن يغرق طالما حافظوا على هدوئهم واتزان القارب..

وفي النهاية كان عليهم العودة إلى شواطئ تركيا بالتجديف، وبمجرد أن وصلوا إلى الشاطئ ونزلوا من القارب، عادوا إلى أزمير سيراً عدة ساعات على الأقدام، حتى أنهكت تماماً..

في اليوم التالي عرفت بأمر القارب المطاطي الذي أبحر بعدهم نحو جزيرة ساموس، وقطع أربع ساعات في المياه، حتى أوقفته سفينة حربية وفتشت الركاب، وأخذوا أوراقهم وجوازات السفر وخربوا محرك القارب، وأرجعوه إلى المياه الدولية..

لولا أن أنقذتهم سفينة تركية وعادت بهم إلى الشواطئ التركية، لكان الجميع قد ضاعوا في قلب البحر..

لم يكن الوقوع في يد البوليس التركي مخيفاً، فالأمر لن يتجاوز غرامة أو حبساً لعدة أيام، لكن طريق جزيرة ساموس صار عبوره من الصعوبة بمكان، مع تواجد نقطة عسكرية قرب الجزيرة، تعيد كل من تمسك بهم إلى المياه الدولية..

وبعد عدة أيام اضطرت لين إلى السفر إلى بودرم..

واتصلت بأبي عمار لتستعين بنصائحه حول أفضل المهرين في بودرم..

لم تفكر كثيراً، واختارت مباشرة الحجز في رحلة بالقارب المطاطي، بعد خبرتها السابقة في أزمير، وبعد أن سمعت بنخب غرق قارب سريع في عرض البحر وموت ثلاثين من ركابه..

اتخذت لها فندقاً رخيصاً في انتظار يوم الرحلة، لكن الرحلة تأجلت عدة مرات، وكان عليها الانتقال إلى فندق آخر يمتلئ بالعرب الذين تأجلت رحلتهم مثلها، قضت فيه عدة أيام على حساب المهرب، كما جرت العادة في اتفاقات كتلك..

تجهزت لرحلتها بحقيبة ظهر صغيرة، فغير مسموح بأية أحمال زائدة، واشترت دواء لدوار البحر، وملحاً وليموناً وقليلًا من التمر والشوكولاته المحشوة بالفول السوداني، تلك التي يتواصى بها جميع المهاجرين، لما تمنحه من طاقة كبيرة للجسم تقي من البرودة..

والأهم من كل هذا أنها اشترت سترة نجاة لترتديها في القارب كي تتجنب المفاجآت، فقد خبرت من قبل أن المهرب لن يعطيهم سترات نجاة..

وبعد عدة محاولات فاشلة، تخرج فيها مع المجموعة التي سترافقها بالرحلة البحرية بأمر من المهرب، لتتوجه إلى الشاطئ، ثم تفشل الرحلة لتعود إلى الفندق، ففي مرة يتشاجر المهرب مع سائق الحافلة التي ستقل المهاجرين، ومرة ثانية تركهم المهرب في الطريق بين الغابات ليعودوا سيرًا إلى الفندق..

ومهما حدث، فعلى الجميع الصبر والتحمل بلا شكوى، على أمل إتمام الرحلة..

عند الفجر وصلت الحافلة التي تقل المجموعة التي بها لين إلى شاطئ بعيد عن أعين الشرطة البحرية، كانوا سبعة عشر فردًا، من بينهم ثلاث نساء بخلاف لين..

فتاتان من إفريقيا، ربما من إثيوبيا أو من إريتريا، وأم من سوريا تصطحب معها طفلاً صغيراً لا يتجاوز السنوات الأربع، والباقي شباب من سوريا والعراق..

وصدق حدسها، فالمهرب لم يأتِ بسترٍ للنجاة، ويبدو أن الأم السورية قد اشترت واحدة فقط ألْبستها طفلها خوفاً عليه..

اتخذ الجميع أماكنهم، وجلست لين بجوار الأم الشابة التي احتضنت طفلها والخوف يبدو جلياً على ملامحها، وكانت ترتجف وهي تتلو آيات القرآن بصوت مسموع، وبجوارها جلست الفتاتان الإفريقيتان تتشبث كل منهما بيدي صاحبتها..

ضمت لين ذراعيها إلى صدرها، ووضعت كفيها تحت إبطيها، وهي تردد بصوت هامس آيات القرآن خلف الأم المذعورة، وهي تحاول السيطرة على ارتجاف جسدها..

انطلق القارب أخيراً وسار بضعة أمتار، لكنه توقف عندما سمع الجميع هتافاً قادمًا من على الشاطئ: انتظروني، أنا قادم معكم..

أظلمت الدنيا في عينيها، وأخذت تكذب أذنيها، وتنكر ذلك الصوت الذي تمقته، لكن القشعريرة التي تملكك كل ذرة في جسدها، والذعر الذي ملأ قلبها، أعادها إلى الحقيقة المرة.. إنه هو..

خطا بقدمه إلى داخل القارب بعد أن توغل سيراً داخل الماء لعدة أمتار، وتلقفته أيدي الشباب تساعده على الركوب..

التقت عيناه بعينيها، وعندما أدرك أن القدر جمع بينهما في رحلة هجرة طويلة على غير موعد، أطلق ضحكة عالية طويلة وهو يشير إليها بسبابته، وعندما سأله الشاب الجالس بجوارها: أتعرفها؟ أجاب وهو يطحن أسنانه ببعضها، ومن عينيهِ أطلت نظرة شرسة: لا أعرف غيرها..

فأفسح له الشاب المكان، ليلقي بجسده إلى جوارها متعمداً الاحتكاك بها وهو يضحك، لتتكشم هي على نفسها برعب، وتلتصق بالسيدة التي بجوارها، وهي تحاول جاهدة منع نفسها من البكاء..

فالجحيم قد بدأ..

(١٦)

«كيف ستصل إليها من بين كل تلك الأعداد الهائلة من المهاجرين؟»

ذلك السؤال الذي ألقاه د. جورج أشعل في روعه الحيرة، وغلف قلبه باليأس، وهو يشاهد أعداد السوريين في ميناء مرسين، فبعد أن ألغت تركيا تأشيرة دخول السوريين إلى أراضيها، صار الجميع يتوجه إليها بحرًا أو جَوًّا أو عبر الحدود البرية..

أيمكن حقًا أن يصل إليها؟

كيف يعرف إن كانت في أزмир أم أنها رحلت بالفعل إلى اليونان؟

كان يتجادل مع د. جورج في جدوى الاتصال بجوال أبي عمار، فد. جورج غير مقتنع بفائدة ذلك، لأن أبا عمار ما هو إلا اسم مستعار لشخص يقدم النصائح للمهاجرين في طريقهم، ومن المتوقع أنه لن يحفظ اسم لين دونًا عن غيرها ممن يتصلون به، حتى وإن افترض أنها أعطته اسمها، وإن فعل فلن يدي بمعلومات عنها لأشخاص لا يعرفهم..

لكن ناجي لم يكن لديه حل آخر سوى تلك المحاولة اليائسة، فكيف له أن يصل إليها في خضم تلك الأعداد الهائلة من البشر دون دليل؟

وصدق رأي د. جورج، فأبو عمار لا يتلقى أي أسئلة حول هويات المهاجرين أو وجهتهم، وأغلق الهاتف في وجه ناجي مرتين قبل أن يرفض استقبال مكالماته..

وكان تعليق د. جورج: معلوماته غير ذات جدوى، فهي أيضًا ما كانت لتعطيه أية معلومات عن نفسها، ففي رحلة كتلك ينسلخ المهاجر من كل ماضيه، ويخفي هويته واسمه وأوراقه إلى أن يصل إلى وجهته..

زفر ناجي، واختنق صوته بالضيق: حسنًا، هل نعاود الاتصال بالشيخ أحمد؟ ربما يكون على اتصال بها..

قال: حل غير واقعي، فبالأكيد استبدلت شريحة الهاتف بأخرى دولية جديدة، ومسحت كل الأرقام القديمة، فلو أمسكت بها سلطات أي دولة من دول الاتحاد الأوروبي، وعرفوا من أين أتت، فسردونها من حيث جاءت، وهي بالتأكيد لا ترغب في العودة إلى المخيمات بلبنان،

ولا حتى البقاء في تركيا..

زفر بغضب ومسح وجهه بكفيه: والآن من أين نبدأ؟ دون أية معلومات أو وسيلة اتصال فنحن نبحث عن إبرة في كومة قش..

قال بصوت بدت فيه نبرة اليأس واضحة: ليس أمامنا سوى أن نحاول..

كان عليه أن يدور على كل المهريين المعروفين في أزмир، ويدفع مبلغًا كبيرًا لكل منهم لبحثوا عن اسمها بين الذين سجلوا اسمهم لرحلة بحرية إلى اليونان، كان الأمر أشبه بالخيال، لكنهم عرفوا اليوم الذي سجلته لرحلتها، ومع أي مهرّب..

وبسؤال بعض الشباب الذين يعملون مع المهرّب عرف ناجي أن تلك الرحلة التي كانت بمركب سريع استبدلت بقارب مطاطي، وأن القارب عاد إلى الشاطئ ولم يكمل رحلته إلى جزيرة ساموس..

وبمعرفة يوم الرحلة وما حدث بعدها للمركب التي كادت تصل إلى ساموس وردتها السفينة الحربية إلى المياه الدولية، أدرك ناجي ود. جورج أن لين غيرت وجهتها، فلم يعد الانطلاق من أزмир مجددًا..

فتوجهوا إلى ميناء بوديرم، لينطلقا من هناك إلى جزيرة كوس..

كانت لين تستمع إلى الدكتور جورج وهو يقص عليها تفاصيل رحلتها في البحث عنها بمزيج من الدهشة والعجب والألم..

وراودها سؤال عجيب: تُرى، هل كانت حياتها ستتغير لو أنها التقت ناجي في أثناء رحلة هجرتها؟

هل كان سيقبها كل تلك الآلام التي خاضتها ويمنع إياد عنها وعن إيدائها؟

ارتدت بها الذاكرة إلى تلك الساعات المربعة التي كانت تجلس فيها في المركب المطاطي وبجوارها إياد، وكأن رحلة القارب المربعة للانتقال من قارة إلى قارة كان ينقصها إياد!

تبدو أضواء الجزيرة على مرمى البصر، لكن الرحلة كانت مزيّجًا من معاناة وخوف، وتحرشات من إياد الذي لا يفتأ يمد يده إلى جسدها، وهي تحاول جاهدة دفع يده والابتعاد عنه دون جدوى، فما كان بوسعها الصراخ أو الشجار في قارب يتأرجح بين السماء والماء، وكل من فيه كبّلهم الرعب وأثقلهم الإعياء، وانتشر بينهم دوار البحر..

حمدت الله أنها متجهزة بدوائه، وأعطت منه المرأة التي لم تكن تحمل معها أي شيء سوى كيس بلاستيكي به بعض الخبز لصغيرها، وهي تعاني أشد المعاناة من الدوار والإعياء، وكادت تفقد طفلها في الماء عندما ارتخت يداها من حول خصره ومالت جانبًا، وقد غاب عنها الوعي للحظات..

لكن لين كانت متبهة، وتلقفت منها الصغير لتمسك به بقوة، وأسندتها الفتاة الإفريقية الجالسة بجوارها..

وبعد أكثر من خمس ساعات، لاحت لهم الجزيرة قريبة للغاية، فتنفس الجميع الراحة، وأتى الأمل إليهم مهرولًا، وبشت الوجوه، وبدأت تعلو الأصوات الفرحة والأحاديث المتفائلة، فسينضمون أخيرًا إلى الاتحاد الأوروبي..

لكن هتافًا صارخًا أفزع الجميع انطلق من أحد الشباب على المركب: احذروا! سفينة الخفر! توتر الجو بعنف، وانتفض الشباب من أماكنهم، حتى إياد أصابه التوتر، فالجميع يعلم ماذا يعني أن تلحقهم سفينة الخفر، ستجبرهم على العودة بقاربهم من حيث أتوا.. تلك السفينة سريعة للغاية وبلا صوت، وعندما ينتبه لقدمها من في القارب يكون الأوان قد فات..

ما من أحد على القارب كان على استعداد للعودة بعد كل ما حدث، وخاصة وهم على مشارف الوصول إلى اليونان، وكانوا يدركون جيدًا ما عليهم فعله، وكانوا مستعدين لمواجهته.. صمتت لين تمامًا وانكمشت على نفسها وجسدها، يرتجف من الخوف، وبدأ لها الموت قريبًا للغاية، فهي لا تعرف السباحة..

علا صوت الفتيات بالعويل والنحيب والهتاف بعدم إجادتهن السباحة، لكن بعض الشباب طمأنوهم بكلمات سريعة أنهم سيوصلونهن إلى الشاطئ ولن يتركوهن، ثم أخرج كل شاب

سكيناً وبدؤوا في تمزيق القارب المطاطي، واندفع الماء بسرعة ليغمر القارب..

تعلقت المرأة التي بجوار لين بكفها، وسألتها برعب: هل تعرفين السباحة؟

هزت لين رأسها نفيًا وهي تمسك بكف المرأة بقوة، فأخذت المرأة تهتف بالشهادتين في رعب، ورددت لين خلفها..

حتى وجدت نفسها في قلب الماء، بلا أرض تحتها ولا شيء تتمسك به، ولم يعد بإمكانها التفكير في شيء سوى محاولات النجاة، وهي تضرب بيديها وساقها بلا هدى، محاولة إبقاء وجهها فوق سطح الماء، والماء يعلو ويهبط بها ويضرب وجهها ويغمر رأسها، فيتوقف تنفسها لثوانٍ، حتى يعود ويخرج رأسها فوق الماء، قلبها يتفطر رعبًا، وقد أصابها اليأس وهي تصارع من أجل النجاة، ولم تتذكر أنها ترتدي سترة النجاة إلا بعد فترة..

كان جسدها يدور في دوائر، والماء يغمر رأسها كل لحظة، فتدرك أنها هالكة، وقد هزمها الإرهاق ونال منها التعب، واستولى عليها الخوف، وبرودة المياه تجمد أطرافها..

شعرت بذراع تلتف حول خصرها وتجذبها، لم تحاول المقاومة، فقد استوعب عقلها أن أحد الشباب يحاول أن يساعدها على الوصول إلى الشاطئ..

لكن الرعب عاد يدب في أوصالها مع صوت إياد وهو يتسلل إلى أذنيها: تماسكي، كدنا نصل..

انفضت صارخة، وأخذت تضرب بيديها وساقها محاولة الإفلات منه، لكنه هتف قائلاً: اهدئي، أنا أحاول إنقاذك..

لم تدرك كيف تتصرف، كان عقلها مشوشًا، وجسدها خائر القوى، يرتجف بردًا ورعبًا، فاستسلمت وتركته يجذبها، وبعد مدة بدت لها طويلة للغاية، شعرت بأقدامها تلامس الرمال..

انفضت ودفعت بذراعه بعيدًا عنها، فتركها واختل توازنها فغاصت في الماء، ثم ارتكزت على يديها، ودفعت بجسدها لأعلى فاعتدلت واقفة على أقدامها، وبقيت دقيقة في مكانها تحاول السيطرة على أعصابها، والتركيز في رؤية ما حولها، والاتجاه الذي يجب أن تذهب إليه..

سمعت صافرة من خلفها، فالتفتت ببطء لترى إياد قد سبقها نحو الشاطئ، وأشار إليها ملوحًا لتتبعه، فما كان منها إلا أن توجهت نحو الشاطئ..

كانت تجر أقدامها جرًا وتتعثّر كل بضع خطوات كلما لحقتها موجة قوية من خلفها، وبمجرد أن خرجت من الماء ارتقت على رمال الشاطئ تسترد أنفاسها الضائعة..

سمعت صافرة ثانية رفعت رأسها، لتجد أمامها إياد واقف يتأملها بعينين جائعتين، وابتسامة خبيثة، قرب وجهه منها، وقال ببطء: جميلة، وإن كنت خارجة من تحت الماء..

اشتعلت روحها بالغضب، وتحسست ملابسها وغطاء رأسها فوجدته قد انحسر إلى الخلف، تاركًا خصلات شعرها السوداء تلتصق بجبينها، فأخذت تصلحه وتعيد خصلات شعرها إلى مكانها، ثم هبت قائمة وأعطته ظهرها ووقفت تترقب قدوم الباقي، وسمعتة يسب ساخطًا بعد أن ابتل جواز سفره وهاتفه المحمول بالماء..

ارتعدت وأخذت تبحث في ملابسها عن أوراقها وجوالها، وحمدت الله كثيرًا أن وجدتهم في مكانهم ولم يظلمهم الماء، لأنها وضعتهم داخل قفازات الجراحة المطاطية، ولم تضعهم في كيس بلاستيكي كما فعل إياد، وحمدت الله أنها حرصت على تنفيذ نصيحة من عبروا هذا الطريق سلفًا..

سمعت صوت بكاء طفل، فالتفتت لتجد أحد الشباب يحمل الصغير -رفيق الرحلة- وهو مبتل ويكي ويصرخ من الخوف، أجاب الشاب سؤالها: وجدته وحيدًا يصارع الماء، ولم أجد أمه..

انقبض قلبها وسكنها الخوف، أخذت الصغير ومسحت الماء عن وجهه ورأسه، وأخذت تهدئه إلى أن تأتي أمه..

لكنها لم تأتِ..

أخذت لين تدور على رفاق القارب فردًا فردًا تسألهم عن أم الطفل، لكن أحدًا منهم لم يعطها جوابًا شافيًا، وبمضي الوقت أدركت أن الأم المسكينة لم تنج..

احتضنت الصغير الباكي، وتكومت على الرمال تنتحب من القهر والألم، لن تنسى تلك النظرة المرتعبة اليائسة التي ودعتها بها وهي تتلو الشهاداتتين..

كان الجميع صامتين صمت القبور، وانضمت إليها الفتاتان تحاولان مواساتها هي والصغير، لكن دموع الألم والقهر غلبت الجميع..

كان عليهم استكمال الطريق، فلا فائدة من الاستسلام للحزن، وقد وصلت قوات الخفر للمكان وأجروا معهم تحقيقًا عاجلاً، وأخبرت لين الضابط الذي يحقق معها بقصة الطفل، وأنه فقد أمه في البحر، فنصحها بتسليمه في مقر الشرطة ليقدموا له المساعدة، ثم اصطحبوهم جميعاً إلى مقر الشرطة..

كان من المخطط أن يسلموا أنفسهم إلى الشرطة ويقوموا بالبصمة، ليحصلوا على أوراق تمنحهم حرية التجوال في اليونان شهوياً حتى يتدبروا حالهم، ويتنقلوا من مكان إلى مكان بلا قلق، ليصلوا إلى حدود مقدونيا، وقد عرفوا مسبقاً أن البصمة في اليونان غير معترف بها في بقية دول الاتحاد الأوروبي، ولا ينطبق عليها القوانين التي تجبر اللاجئين على العودة إلى البلد الذي قاموا فيه بالبصمة..

لكن ما حدث خلاف ذلك، فالشرطة في جزيرة كوس رفضت استقبالهم بسبب الزحام الشديد لأفواج المهاجرين الذين ملؤوا الجزيرة، وأخبرتهم بضرورة الذهاب إلى العاصمة أثينا.. حاولت لين أن تتحدث مع أي ضابط لتخبره بقصة الطفل، لكنها لم تفعل..

فاتصلت بأبي عمار، فنصحها بالتوجه إلى سالونيك لتسلم نفسها هناك بدلاً من أثينا، ولن يستغرق الأمر أكثر من ثلاثة أيام في الحجز لتخرج وتكمل رحلتها، وعندما صرحت له بمدى خوفها من الشرطة والحجز، طمأنها بأن الأمر يسير والمعاملة إنسانية..

كانت مجموعة القارب التي خرجت معاً من البحر يتشاورون فيما سيفعلون، واتفقوا على التوجه إلى أثينا مع أحد المهربين، نظراً لعدم تمكنهم من الحجز في إحدى العبارات المتجهة إلى أثينا، بسبب عدم وجود أوراق رسمية للتنقل، وإلا فسيعلقون في جزيرة كوس وينضمون لمن افترضوا الطرقات، لأنهم لم يستطيعوا مغادرة الجزيرة، ولأنه لا يوجد طريق مباشر من كوس إلى سالونيك، فكان عليها مرافقتهم إلى أثينا، بعد أن اشترت طعاماً لها وللصغير، ومن هناك تتوجه إلى سالونيك..

كان الصغير قد استسلم مكرهاً لحقيقة عدم وجود أمه، بعد أن قضى ساعات طويلة ما بين بكاء ونوم طوال الطريق، وعندما وصلوا إلى أثينا توجه بعضهم إلى الشرطة، واتجهت لين على الفور ومعها الصغير إلى محطة القطار لتكمل رحلتها إلى سالونيك، وهي تدعو الله ألا تقع في يد الشرطة اليونانية في القطار، ولم تنتبه إلى ذلك الذي يتبعها كظلها إلا عندما استقرت داخل القطار وتحرك بالفعل..

كانت رحلة معاناة أخرى المتسبب فيها إياد، الذي فرض وجوده على المكان الذي تجلس به، وصار لديها شبه يقين أنه يبتغي منها شيئاً، فصار الخوف والحذر منه هو المسيطر على مشاعرها.. كانت على وشك الاستغراق في النوم في القطار من فرط التعب والإرهاق بعد أن نام الصغير بين ذراعيها، ولم تكد تغفو عيناها حتى انتفضت منتبهة على صوت إياد..

وبرغم أن صوته كان منخفضاً، لكن شعورها بالقلق والتوتر لم يتركها لحظة..

أشاحت بوجهها إلى النافذة، لكنها استمعت له مضطرة وهو يقول: أعلم كيف هي طريقة تفكيرك، وهوسك بالحالات الإنسانية، خاصة فيما يتعلق بالأطفال، ولكن لا أظن أنه قد يبلغ بك الجنون إلى حد الاحتفاظ بطفل لا تعرفين أية معلومات عنه، بعد أن ابتلع البحر أمه ومعها كل أوراقه..

لم ترد على كلماته أو تلتفت إليه، لكن شيئاً ما في كلامه يبدو واقعياً رغم سوء طويته، مما جعلها تفكر فعلياً في عواقب الاحتفاظ بالطفل معها في رحلة كتلك، وكيف لها أن تمر به عبر دول غريبة لها قوانينها التي لا تدري عنها شيئاً..

بدا لها الأمر شائكاً ومسؤولية عظيمة تفوق قدراتها..

واستمر إياد في العزف على أوتار مخاوفها: كلما بقي الطفل معك لمدة أطول، علقت قدمك بمشكلات لا قبَل لك بها، وعلى وجه العموم هو ليس من أهلك، ولا تحملين تجاهه أية مسؤولية، ولا ضرر من تركه للشرطة، فسيحسنون العناية به كما في موائق حقوق الإنسان لديهم..

نعم، هي لا تحمل أية مسؤولية قانونية تجاه الطفل، ولكن ماذا عن المسؤولية الدينية والأخلاقية؟

كيف تتحمل عذاب الضمير إن تخلت عن طفل يتيم في بلاد غريبة؟

إنه سوري أولاً وأخيراً، وإن ترك وحيداً في أوروبا، فلن يخرج مصيره عن أن ينشأ في دار للإيواء، أو أن أسرة أوروبية تبناه، وتقوم بتبديل هويته ودينه واسمه..

اسمه..

هي حتى الآن لا تعرف اسمه..

استمر إياد يتحدث طوال الطريق دون أن تعطيه وجهًا أو تمنحه آذانًا، لكن قدرته الفائقة على السحابة أدهشتها، بعد ساعات من عذاب السفر لم تنهأ فيهم بغمضة جفن لدقائق، داهمت الشرطة القطار للتفتيش في محطة أمونيا، ودب الرعب في أوصالها، ولم تدّر كيف تتصرف، فليس معها أوراق تسمح لها بالتجوال في اليونان..

وقفت أمام الشرطي وهي تحمل الطفل وترد على أسئلته بخوف، ولا تدري من أين أتتها الفكرة بأن تخبره بأنها أم الطفل..

ولكن كيف لها أن تتخلص من ذلك الشيطان الذي اعترض طريقها ويصر على الالتصاق بها؟

لقد اندفع متدخلًا في حوارها مع الشرطي قائلاً: وأنا والده..

التفتت له وعلى وجهها الصدمة، وأدركت أنها لو سكنت فلن تعلق فقط بطفل، بل ستضطر لتحمل ملازمة إياد لها طوال الطريق..

فهتفت للشرطي: لا، إنه كاذب، ليس والده..

لم يتوقع إياد أن تعترض أو تنكر ما قاله، بل صدم من هجومها الشرس واتهامه أمام الشرطي بأنه يطاردها..

لم يتحمل الشرطي الشجار بينهما، وخاصة أن القطار كان به عدد كبير من المهاجرين لا يحملون أوراقًا، فأنزلها من القطار بعد أن أمرها بالذهاب إلى مقر الشرطة لاستخراج أوراق.. انطلقت لين في الطريق حاملة الصغير، وهو يفرض حديثه عليها فرصًا: لا تخافي، لن أؤذيكَ، فنحن أبناء وطن واحد، لنكمل طريقنا معًا، علينا مراجعة أحد المهرين، فلا أمل لنا في الوصول إلى مقدونيا دون مهر..

لم ترد على كلماته، بل كان كل همها الابتعاد عنه، فانتحت جانبًا واتصلت بأبي عمار تستشير، فكان رأيه موافقًا لرأي إياد بضرورة البحث عن مهر، ولكنها لم توفق في الاتفاق مع مهر، فأكملت طريقها إلى سالونيك..

ومن هناك اشترت لها وللصغير لوازم رحلتها البرية: حذاء شتوياً برقبة، معاطف واقية من المطر ومظلة، شاحن جوال متنقلاً، وبطاقة رصيد للخط الدولي للجوال، والكثير من التمر والشوكولاته المحشوة بالسوداني، ثم استقلت الحافلة إلى بولي كاسترو، ومنها إلى أفيزوني، آخر مدينة يونانية على الحدود المقدونية، وهناك فندق (هارا).. معقل المهربين..

(١٧)

كانت في حالة يُرثى لها من الإرهاق، فحجزت ليلة في الفندق لتنال بعض الراحة مع الصغير..

كان الفندق مزدحمًا بالعرب والأفارقة وبعض الجنسيات الأخرى من قارة آسيا، ونالت سريرًا في غرفة مشتركة مع ثلاث فتيات إريتريات. تحملت بصعوبة القلق والخوف حتى مرت الليلة بسلام، وجاء المهربون ليعرضوا خدماتهم على نزلاء الفندق، فكانت لين تسمع العروض بصمت دون تعليق، لكنها وجدت مجموعة من الشباب العربي يتجمعون أمام الفندق ويتشاورون حول كيفية إكمال الطريق، فانضمت إليهم، ثم لحقت بهم فتاتان إفريقيتان، وكلما اقترب منهم مهرب ليعرض خدماته، كانوا يرفضون عرضه، وفي النهاية، اتفقوا جميعًا على إكمال الطريق معًا، فذلك أكثر أمانًا..

بدأت المجموعة طريقها نحو قرية جيفيجيليا، أول قرية مقدونية حدودية، ولذلك كان عليهم الوصول إليها على أقدامهم بالاستعانة ببرنامج GPS خرائط القمر الصناعي، وفي الطريق، لحق بهم إياد وبعض الشباب من على الطريق، ولكن ما إن ابتعدوا عن الفندق حتى هاجمهم لصوص الطريق وأخذوا يقذفونهم بالأحجار. انتحت الفتيات جانبًا، وتولى الشباب التصدي لهجوم اللصوص ببعض العصي، فانتصروا عليهم وهرب اللصوص، وما كانوا بحاجة إلى كثير من الذكاء ليستنتجوا أن من دل عليهم لصوص الطريق هم المهربون أنفسهم..

عادوا إلى التجمع واستكمال الطريق، وساروا ساعات طويلة، حملت لين الصغير على ظهرها وسارت بصمت دون شكوى، فمهما بلغ بها التعب فلا فائدة من الشكوى. كانوا يسرون بعيدًا عن الطريق الرئيس حتى يتجنبوا أماكن تواجد الشرطة. مروا في طريقهم بعدة قرى، وقطعوا نهراً وحقولاً وغابات، حتى بدأت تمطر..

كأن قسوة الطريق وطول المسافة لا ينقصها إلا الوحل والمطر الذي أجبرهم على التوقف والبقاء في أماكنهم، حتى إياد ابتعد عنها وانشغل بنفسه، الكل يرتجف، ومنهم من قام يحرك جسده ويقفز هنا وهناك كي يتغلب على البرد..

احتضنت لين الصغير بعد أن ألبسته معطف المطر ولبست الآخر، وأمسكت بالمظلة فوقهما لتبعد عنهما ماء المطر، لكن هيهات أن تبعد عنهما البرد، فصار الاثنان يرتجفان، وبدأ الصغير يبكي. فأخذت تلهيه بالحديث، وصوتها يرتعش من البرد، تسأله عن اسمه والكارتون المفضل له، والأغنية التي يحبها، ثم قصت عليه قصة حتى أنسته الخوف والبكاء..

شعرت لين بالأنس لوجوده معها، وخاصة عندما أخبرها بأن اسمه خالد، مما ذكرها بأخيها الوحيد..

بدت لها ساعات المطر لا تنتهي، والشباب يدورون ويرتجفون من البرد، والفتيات غلبهن الخوف والبكاء، حتى صارت تتعجب لحالها وحالهن، وتساءلت: ترى لو لم تجد ذلك الطفل، هل كانت لتنهار مثلهن؟ هل يمنحها ذلك الصغير القدرة على الصمود؟ ترى كيف كان ليصبح حالها بدونه؟

انتهى المطر أخيراً، وكان عليهم استئناف الطريق، لم يكن الجو مستقرًا، ففضل الكثير منهم التوجه إلى محطة القطار للانتقال إلى العاصمة المقدونية (سكوبيه)، ورفض البعض وقرروا استكمال الطريق حتى لا تطالهم الشرطة وتعيدهم من حيث أتوا، واختارت لين أن تستقل القطار رحمة بالصغير، وكان خلفها إياد كالعادة..

انتظرت القطار مع مجموعة من المهاجرين حتى الخامسة صباحًا، ودفع الجميع ضعف قيمة التذكرة للموظف حتى يضلل الشرطة عنهم. واتفقوا معه أن يخبرهم بالمكان الذي سينزلون به قبل سكوبيه حتى لا تتلقفهم قوات الشرطة في محطة العاصمة..

قضت لين ساعات في القطار، وقد بدأ الصغير يألّفها ويضحك لها ويتحدث معها كثيرًا، حتى باتت تأنس به وينشرح قلبها لكلماته وتبتسم لحركاته الطفولية اللذيذة..

غادرت القطار مع مجموعات المهاجرين في المكان الذي أخبرهم به الرجل. ومن هناك، اتصلت بأبي عمار فوصف لها الطريق إلى ضيعة اشتهرت هناك بأن أغلب سكانها مسلمون..

وبالفعل، توجه إليها عدد كبير من المهاجرين، ولجؤوا إلى المسجد، واستضافهم الإمام وقدم لهم الطعام، ونالت لين قسطًا من الراحة في المسجد، ثم استعدت للرحيل، وعندما علم إمام المسجد بقصتها وقصة الطفل، تعاطف معها وساعدها على أن تستقل سيارة أجرة يعرف صاحبها إلى مدينة لويان الحدودية، وفي لويان، اتصلت بأبي عمار ليدها على مكان تجمع

المهاجرين، وكان في فندق بسيط، ومن هناك، انضمت إلى مجموعة كبيرة تنوي عبور الحدود إلى صربيا..

كان الطريق خطراً ووعراً ويمر عبر الجبال والغابات، ويتنشر به اللصوص والعصابات التي تسرق المهاجرين، لذلك فلا بد من صحبة عدد كبير وتحت إشراف دليل يعرف الطريق.. سارت الرحلة في طرق وعرة وصعبة بين الجبال، ولا أحد منهم يمتلك رفاهية الشكوى أو التعبير عن الألم.. ثم مروا على شلالات وأنهار، وانزلق أحد الشباب في النهر، لكنهم أنقذوه.. استمر السير تسع ساعات متواصلة، وما كادوا يصلون إلى أول ضيعة صربية حتى خارت القوى، وتساقط الكثيرون من التعب، وزحف عليهم الليل، فاضطروا إلى المبيت في الجبال، وقبل الفجر استأنفوا السير، وكان عليهم عبور نهر والتماسك لحماية أنفسهم من السقوط، ولكن التيار كان يسحب البعض، فيساعده الآخرون ويتشلونه بسرعة، وكادت لين تنزلق ويسحبها التيار والصغير على ظهرها، لولا أن أنقذها شابان من المجموعة..

ساعات من السير بين جبال الضيع الصربية، حتى انهار الجميع من الإرهاق، وكان معهم امرأة حامل وصل حالها إلى مرحلة خطيرة، وحاولت لين مساعدتها قدر ما تستطيع، وبمجرد الوصول إلى أقرب ضيعة، بقيت فيها هي وزوجها ولم يكملوا الطريق.. وكذلك فعل كثير من المجموعة، لكن لين أكملت الطريق مع الباقيين، وكان الهدف هو الوصول إلى بلجراد عاصمة صربيا..

وعند منطقة متفق عليها مع المهرب اختبئوا من الشرطة بين الجبال ساعات، حتى وصلت شاحنة كبيرة لتقلهم، وسارت بهم عدة ساعات، ثم أنزلتهم في مكان قريب من بلجراد، وهناك ركبت سيارة أجرة إلى بلجراد، ثم سلمت نفسها إلى الشرطة الصربية، حسب نصائح أبي عمار، فأعطوها أوراقاً للتجوال في صربيا فقط لثلاثة أيام، ثم أخذوها إلى المخيم، وهناك شاركت مجموعة من النساء من جنسيات مختلفة الغرفة، ولكنها لم تهتم لذلك، فلم تكن تنشد سوى الراحة بعد عناء الرحلة الصعبة..

وبعد يوم ونصف اتصلت بأبي عمار ليدلها على الخطوة التالية، فنصحها بالانتقال إلى الحدود مع مهرب، وحذرهما من أن تفتح ال GPS عندما تصل إلى الحدود..

أخذت تبحث عن مهرب في المخيم حيث يكون تجمع المهربين، لينقلها إلى الحدود الهنجرية، وانضمت إلى مجموعة من العرب اتفقوا مع أحد المهربين على نقلهم إلى قرية على الحدود بسيارات، ثم تجمعوا هناك ليكملوا الطريق سيرًا..

لكن الشرطة استوقفتهم وأمرتهم بالرجوع وعدم التوجه إلى الحدود، فعادوا مسافة قصيرة حتى ابتعدوا عن عيون الشرطة، ثم خرجوا بعيدًا عن الطريق الرئيس، وساروا باتجاه الحدود، فما كان ممكنًا العودة خطوة واحدة إلى الخلف بعد أن أوشكت الرحلة على الانتهاء..

فقط يصلون إلى بودابست عاصمة هنجاريا، ومنها إلى النمسا بسيارات أجرة، ثم إلى مقرهم الأخير.. ألمانيا..

كان الطريق سهلًا ويسيرًا حتى وصلوا إلى الحدود، ومع أول خطوة داخل الأراضي الهنجرية وصلت إليهم الشرطة، فقد فتح أحد أفراد المجموعة ال GPS..

أخذوهم إلى مقر الشرطة، وهناك كانت المعاملة سيئة للغاية ومتشددة، فبعد القرارات التي اتخذتها هنجاريا بتشديد الرقابة على الحدود وإعادة اللاجئين من حيث أتوا، صار التقدم عبر أراضيها صعبًا للغاية..

وفي مقر الشرطة التقت إياد الذي أوقفوه أيضًا على الحدود مع مجموعة أخرى حاولت عبور الحدود، وكالعادة لم تكثر له، واضطرت للبقاء هي وكل من معها في الحجز عدة أيام في ظروف صعبة، وتحت معاملة سيئة للغاية، وعندما تقرر خروجهم وإعادتهم إلى اليونان، طالبت بجواز سفرها، فأخبرها شرطي بأن شخصًا يدعى إياد قد أخذه، وقد أقنعهم بأنه أحد أقربائها..

كانت صدمتها كبيرة، فأخر ما يمكن أن تتوقعه هو أن يقع جواز سفرها في يد إياد، وأدركت أن الحيلة التي قام بها لا تكفي للاستيلاء على جواز سفرها، بل لا بد أنه دفع رشوة للشرطي..

ما الذي يريده منها؟ وكيف ستكون طريقة انتقامه منها؟

تم تجميعهم تحت حراسة الشرطة الهنجرية وإعادتهم إلى اليونان، وطوال الطريق وإياد قريب منها، لكنها تحجم عن الحديث إليه بعد أن حاولت مرة واحدة عندما خرجت من مقر الشرطة وطالبته بجواز سفرها، فضحك ضحكته السمجة وأجاب: إنه في أيد أمينة..

استنتجت أنه يدبر شيئاً ما فيه إيذاء لها، فاشتبكت معه في شجار، لولا أن هددتها الشرطة بإعادتها إلى السجن، فصمتت مُكرهة..

وفي النهاية فشلت رحلتها، وعادت إلى نقطة ما قبل الصفر بخطوة..

كيف عرف ناجي بمكاني؟

قطع د. جورج حديثه وصمت قليلاً، ثم قال: ما زال هذا السؤال يحيرني حتى الآن، فمن بين كل أعداد اللاجئين التي تصل إلى عشرات الآلاف، وكل تلك الطرق التي يتخذونها للعبور إلى غرب أوروبا، كان يتحسس طريقك بإصرار لم أر له مثيلاً، وكان الحظ حليفاً له في كل خطوة، وكم من مرة خطر لي خاطر أنه يأتيه إلهام يرشده للطريق الذي سرت فيه!

ترقق الدمع في عينيها، وهزت رأسها غير مصدقة، فأجاب حيرتها بقوله: بالتأكيد لم يكن الإلهام وحده كافياً لمعرفة خط سيرك، فقد كان ينفق بسخاء على كل من يشك بأنه يعرف معلومة تدله على طريقك.

تذكر شيئاً، فhez رأسه متعجباً: لكن ما أدهشني حقاً هو أنه لم يكن فقط ينجح في توقع خطواتك، بل كان يتوقع أيضاً ردود أفعالك!

عقدت حاجبيها بتساؤل، وانتهت حواسها وهو يكمل القصة: فعندما ذهبنا إلى جزيرة كوس اتجهنا مباشرة إلى مقر الشرطة، وعلمنا أنه لم يستقبل اللاجئين في اليومين الأخيرين، ونصحنا أحدهم بسؤال الخفر، فربما عثروا على قاربك، وحالفنا الكثير من الحظ بأن علمنا أن هناك فتاة وصلت إلى الشاطئ بعد غرق قارب مطاطي سجلت في سجلات الخفر باسم لين، ومعها طفل سوري غرقت أمه، وكنا بين خيارين: إما أن نبحث في كل المخيمات على الجزيرة، وهو عمل مستحيل تماماً، أو نتوجه إلى أثينا، فربما سلمت الطفل هناك.

لكن ناجي فاجأني بما لم أتوقعه!

لن تسلم الطفل.

قلت بدهشة: أنت مفرط في الثقة، احتفاظها بطفل لا تعرفه في ظل تلك الظروف هو عمل مخالف للمنطق!

- ومن قال لك إنها ستبعب المنطق؟

- على الأقل ستخاف من المسؤولية، وستبقى الطفل في مكان آمن، بعيداً عن مخاطر رحلة الهجرة.

- لن تفعل.

كانت لهجته تحمل إصراراً عجيباً، فسألته بدهشة: يبدو أنك تعرفها جيداً!

أجاب وعينه شاردتان: لم أرها أبداً من قبل.

تضاعفت الدهشة في أعماقي، ولم أستطع أن أرد علي كلماته عندما أكمل: ولا تسألني كيف عرفت، ولكن من المؤكد ستحتفظ بالطفل ولن تتخلي عنه.

- إذن فلا بد أنها ستسعى في أسرع وقت للمغادرة، وحتى وإن سلمت نفسها للشرطة، فستذهب إلى سالونيك حيث أقل مدة احتجاز.

عندما ذهبنا إلى سالونيك ولم نجد اسمك كان الاستنتاج الأقرب للواقع هو أنك أكملت طريقك إلى أفيزوني، وكان علينا السؤال في فندق هارا، أشهر فندق يرتاده المهاجرون ويعتبر معقلاً للمهرين، وتوزيع المال على العاملين فيه عرف أنك بت ليلة هناك، وبمزيد من المال عرف أنك غادرت مع مجموعة كبيرة من المهاجرين قرروا قطع الطريق دون مهر، مما جعل المهرين ينتقمون منهم ويرشدون عنهم لصوص الطريق.

وكانت المحطة التالية لك هي قرية جيفيجيليا تماماً كالمسار المعروف، ثم سكوبيه، ولقد أصر ناجي على أنك ستستقلن القطار إلى سكوبيه، وعندما سأله ولم لا تكمل بسيارات الأجرة أو الحافلة، أجابني بأن القطار هو أكثر الوسائل أمناً لفتاة تسافر ومعها طفل، وخاصة أن في داخل القطار من يساعد اللاجئين مقابل المزيد من المال.

لم يكن ينام ولا يأكل، كان هاجسه الوحيد هو أن يجده.

كلما غفا لحظات يحلم بها، ولا يكف عن التمتمة باسمها بصوت يمتلئ بالعذاب.

أيقظه د. جورج من النوم وانتزع من ذلك الحلم المزعج الذي أرق روحه.

- عجباً! كيف تحلم بفتاة لم ترها أبداً وتردد اسمها أثناء نومك؟!

زفر ناجي واعتدل جالساً على فراشه، يحاول جاهداً أن يطرد الإرهاق الذي استولى عليه، فبعد أيام قضاها في الطريق بلا نوم يبحث عنها، اضطر مرغماً وتحت ضغط من د. جورج أن يستريح في فندق في العاصمة المقدونية سكوبيه، حتى لا يقضي عليه الإرهاق.

، ثم أجاب سؤال د. جورج: لا أدري، ولكن عليّ أن أصل إليها سريعاً قبل أن يصيبها مكروه.

تنهد بضيق وأكمل بصوت قلق: شيء لا يصدق! فتاة وحيدة تحمل طفلاً وتتنقل به في الحقول والغابات، وقد تبست في العراء أو في فندق يمتلئ بالمهرين، كيف يأتيني النوم أو أرتاح لدقيقة قبل أن أجدها؟!

- لم تخبرني بعد، ما صلتك بها؟

زفر بضيق وقال بنفاد صبر: لا إجابة لدي لهذا السؤال.

تنهد د. جورج أسفاً، ثم بدل الحديث: سأطلب لك كوباً من القهوة.

استوقفه ناجي قائلاً: أليدك صورة لها؟

هز رأسه نافيّاً: لا، ولم قد أحمل صورة لها؟!

تعجب من خيبة الأمل التي كست وجهه، وتمنى لو يجدها ليريح ذلك القلب الحائر، ثم تذكر شيئاً، فقال له: انتظر قليلاً، قد أستطيع أن أحصل على صورة لها.

اعتدل ناجي وتوجه إليه باهتمام، فأخرج د. جورج هاتفه الجوال، وأخذ يبحث على شبكة الإنترنت وهو يقول: لقد قمت بنفسني بتقديم طلب التحاقها بالجامعة، وأدخلت صور الأوراق الخاصة بها على الموقع، وعندما أفتحه باسم المستخدم وكلمة السر التي وضعتها فسيدخلني إلى البيانات التي أدخلتها سابقاً.

كان يتحدث وهو ينفذ بسرعة، حتى ابتسم ابتسامة ظفر، وأدار له شاشة الهاتف وعليها صورة من الطلب المقدم للالتحاق بالجامعة، وعليه صورتها.

أمسك ناجي الجوال واتسعت ابتسامته ببطء، وهو يتأمل تفاصيل ذلك الوجه الحسن الذي يتعرف إليه لأول مرة.

ابتسم د. جورج لتعبيرات وجهه التي لانت وحوت ابتسامة حانية، ونظرة في عينيه لا يخطئها أي رجل.

تنهدت لين ولم تستطع أن تكبح جماح دموعها التي غافلتها وانهمرت على خديها، ودكتور جورج يكمل بصوت تجلت فيه العاطفة: لقد أخذ لقطة شاشة لصورتك، وأرسلها إلى هاتفه الجوال، وبقي ساعات طويلة ينظر إليها ويتأمل ملامحها.

لم تكن الصورة واضحة، لكنها كانت كافية تمامًا لتروي ذلك الشغف الذي استولى عليه تجاهك.

للمرة الأولى في سنوات عمري الطويل أرى أمامي قصة حب عجيبة تتشكل وتغزل خيطاً خيطاً.

عقدت لين حاجبيها بدهشة، فقال مؤكداً: نعم، صدقي ذلك، فمن تلك الآونة وهو يعشقك، لقد غزا حبك قلبه دون أن يراك!

(١٨)

كان دكتور جورج يعلم صعوبة المرور في الأراضي الهنجارية، لكن كان الأمل الأخير في العثور عليها هو أن يبحث عنها في سجلات الشرطة الهنجارية.

وأصر ناجي على التمسك بذلك الأمل الضعيف، وتوجه إلى هنجاريا، وهناك وجد اسمها في قائمة المهاجرين الذين تمت إعادتهم إلى اليونان.

لم يملك سوي أن ينتقل بالطائرة إلى اليونان ومعه د. جورج، وقضيا أيامًا في البحث عنها بين المخيمات التي انتشرت في اليونان على الحدود المقدونية، ولكن لم يتوصلا إلى أية معلومات عنها.

لم يسجل اسمها في أي خيم.

مرت عليه أيام بلا نوم أو طعام، يبحث ويبحث وقد أعيته الحيل.

- وصلنا إلى طريق مسدود، أخبرني أيها الطبيب، ماذا أفعل، وإلى أين أتوجه؟

لم يملك د. جورج إجابة سوى الصمت الحائر، فالفتاة اختفت بين عشرات الآلاف من اللاجئين العالقين على الحدود بين اليونان ومقدونيا، ولا أثر لها في السجلات.

قال بعد تفكير: ربما اتخذت طريق البحر مع أحد المهربين.

صرخ ناجي بيأس: أي طريق؟ طريق إيطاليا أم مصر؟ أم عادت إلى تركيا؟

أم اختارت الموت الرحيم وارتدت إلى لبنان لتقضي بين بني جلدتها في مخيمات اللاجئين؟

أم اختارت الموت السريع وتوجهت مباشرة إلى سوريا؟

تقطعت بها السبل، وما من مخرج أو بصيص أمل.

ولا أعلم إذا كان ما معها من ما قد نفذ أم تبقى لها شيء.

أخبرني، كيف يمكن أن أساعدها؟ أن أحياها؟

لم يجد د. جورج كلمة يستطيع مواساته بها، ولا فكرة يهدئ بها ثورته، كان اليأس قد بلغ به مبلغاً يكاد يفقده عقله، وما من أمل يلوح له في الأفق، أو خبر يطمئن قلبه المتنازع.

تنهد د. جورج وقال بأسى: لم يعد أمامنا سوى أن نأمل في أن تكون قد اختارت أقل الحلول خطورة بالعودة إلى تركيا.

لو كنت مكانها لفكرت في ذلك.

زفر ناجي بيأس وهو ينتفض ويدور في المكان كطائر ذبيح لا يملك من أمره شيئاً، ثم قال بصوت لا يوجد به قطرة أمل: لم نعد نملك أية خيارات، فلنسر خلف ذلك الخيط الواهي وليكن ما يكون.

انتقلا إلى تركيا، وهناك قضيا أياماً يبحثان في المخيمات، ويتواصل د. جورج مع جمعيات الإغاثة والصليب الأحمر، ويخاطب بعض المسؤولين وبعض أعضاء في البرلمان له علاقة بهم بحكم عمله في الإغاثة واهتمامهم بمشكلة اللاجئين، وأيضاً اتصل بالشيخ أحمد كأمل أخير، فربما تكون قد عادت إلى لبنان، لكنه لم يجد عنده أي خبر عنها.

وبعد أيام طويلة اتصل أحد المسؤولين بد. جورج، وأخبره بأن الفتاة التي يبحث عنها موجودة في أحد مراكز الشرطة.

انطلق ناجي ود. جورج من فورهم إلى مركز الشرطة الذي أعطاهما الرجل عنوانه، وهناك تحدثا إلى الشرطي المسؤول، فأعطاهما جواز سفر لين، وتركهما بضع دقائق قليلة، بعد أن أدلى لهما بمعلومات مذهلة لم يستطع أن يتمالك لها ناجي نفسه، فأسند ظهره إلى الجدار، وتسارعت دقات قلبه بجنون، وتساعدت الدماء إلى رأسه، فقبض على رأسه بكفيه وأطبق بأصابعه على خصلات شعره، محاولاً أن يوقف ذلك الغليان الذي يكاد يصهر جمجمته.

أخذ يجر الهواء إلى رثتيه جرّاً وهو يعتصر أجفانه.

قال دكتور جورج مواسياً وصوته يشتعل بالقلق: تماسك، عليك أن تكون هادئاً.

قال بصوت متقطع وهو يلهث من الانفعال: كيف أهدأ وأنا المذنب؟ تأخرتُ، تأخرتُ كثيراً، كان يجب أن أصل إليها مهما كان الثمن.

قال د. جورج وهو يحاول أن يسيطر على أعصابه: لا تقسُ على نفسك، لقد بذلت كل ما في وسعك، وليس بيديك شيء لتفعله.

عاد إليهما الشرطي وقال: الآن سنقوم بعرض الفتيات عليكما، فلربما وجدتما الفتاة التي تبحثان عنها.

سأله د. جورج عن تفاصيل ما حدث، فرد قائلاً: لقد داهمنا أحد بيوت البغاء غير المرخصة، والتي تعتمد على استغلال اللاجئات من كل الجنسيات، وإجبارهن على ممارسة الدعارة تحت التهديد والابتزاز واحتجاز جوازات سفرهن، وسجلنا بيانات جوازات سفرهن التي وجدناها مع الشخص الذي كان يدير البيت.

بدأت الفتيات بالدخول تبعاً إلى الغرفة، فلم يتحمل ناجي النظر إليهن، فأدار لهن ظهره، وأخذ يستمع إلى صوت د. جورج والفتيات يعرضن عليه تبعاً: لا، ليست هذه، ولا هذه.

ومع كل واحدة كان قلبه يدق بعنف خشية أن تكون لين هي التي تليها.

حتى قال د. جورج: ليست من بينهن.

قال الشرطي: جيد، إذن فهي لم تكن معهن.

تنفس ناجي الصعداء وارتدت أنفاسه إليه، وطفّر الدمع من عينيه، واحمر وجهه من شدة الانفعال.

قال د. جورج للشرطي: كيف لنا أن نعرف مكان صاحبة جواز السفر؟ وكيف وصل جواز سفرها إلى ذلك البيت؟

فتح الشرطي جواز السفر على صورة لين وعرضها على الفتيات، وسألهن: من منكن تعرف صاحبة ذلك الجواز؟

تقدمت إحدى الفتيات يبدو من ملامحها أنها من إفريقيا، وهزت رأسها قائلة: أنا أعرفها.

تجمدت الدموع في عينيها، وجف حلقها وهي تبتلع ريقها، وكأنها تبتلع شوگا.

لقد انتزعها د. جورج من حاضرها ليلقي بها لأيام من الماضي كانت أميتها الوحيدة فيها هي الموت، وعادت غيوم الماضي السوداء تلقي بظلالها على حاضرها.

تعلقت عيناها بتلك اللافتة الخشبية على الجانب الآخر من الطريق، والتي كتب عليها: «الطريق إلى الورود»، ثم أطلقت ضحكة ساخرة قصيرة تمتلئ بالمرارة، فاللافتة اللطيفة ما هي إلا لوحة إرشادية إلى بيوت اللبغاء نقالة ورخيصة، أقيمت على الحدود بين اليونان ومقدونيا، تحوي كل الجنسيات وتقوم باستغلال احتياج اللاجئين وظروفهم الإنسانية المتردية في المخيمات، واتخذوا لها مقرات مؤقتة في عربات قطار مهجورة أو مستودع قديم بجوار المخيم. ارتدت عائدة إلى المخيم بعد أن قضى خالد الصغير حاجته في الخلاء، فما كان يستطيع انتظار دوره في طابور طويل أمام دورة المياه.

كان المخيم يمتلئ بالبشر من كل لون، ومن بلاد تعرفها وبلاد لم تسمع باسمها من قبل، مرت من بين الخيام وهي تتأمل تلك الوجوه الكالحة التي تزيد النفس كآبة، والروائح السيئة التي تنتشر بسبب زحام الخيام.

تمر بها الأيام في ذلك المكان القذر المرعب، ومع كل يوم يموت جزء من الأمل، ليحل محله الكثير من اليأس.

هنا، حيث ينتشر الشبيحة والعصابات من كل جنسية وكل لون ويُفتَقَد الأمان، ولا تواجد لرجال الأمن، ولا تستطيع امرأة أن تخرج ليلاً وحدها ولو لقضاء حاجتها.

ينتشر التحرش بالنساء والأطفال، ولقد سمعت بوجود حالات اغتصاب!

نظرت نحو ذلك الفتى الذي لم يكمل الخامسة عشرة وهو يدور على الخيام، ويقطع المخيم ذهاباً وإياباً عدة مرات في اليوم الواحد، حتى حفظه أهل المخيم، فهو يقوم ببيع المخدرات لصالح عصابة تستقطب الفتية والأطفال وتستغل احتياجهم للطعام والمال، لتجبرهم على العمل في توزيع المخدرات، وتذكرت فتى مثله وجدوه مقتولاً منذ عدة أيام في مستودع قديم قريب من المخيم.

كان المال يتسرب منها بسرعة، رغم أنها لا تنفق إلا في أضيق الضروريات، فقط على طعام الطفل، وتقتصد للغاية في طعامها، وما زاد الأمر سوءاً هو مرض خالد، واضطرابها لشراء الدواء له بضعف ثمنه، يبدو أن عدوى ميكروبية انتقلت إليه بسبب الظروف الصحية السيئة في المخيم.

كانت الرعاية الصحية في المخيم غاية في السوء، تذكر تلك المرأة التي فاجأها المخاض وولدت طفلها بعملية قيصرية في ظروف صعبة للغاية، واضطروا لغسل الطفل بقوارير الماء.

انتبهت من شرودها عندما رأت جواز سفرها أمام عينيها، كان إياد واقفاً أمامها يلوح لها بجواز سفرها، فمدت يدها لتأخذه منه لكنه أبعد يده بسرعة، فاشتعل الغضب الجامح في نفسها، لكنها أغلقت فمها ولم تتكلم، فقال وهو يجلس بجانبها: تريدينه؟ ادفعي ثمنه، ما أريده ليس صعباً.

قالت بغل: سأدفع لك ما دفعته للشرطي ليعطيك ذلك الجواز.

- لا أريد مالاً، ما أطلبه هو أن ترافقيني في رحلة جديدة للهجرة، ولن نكون وحدنا، بل سنكون ضمن مجموعة، وسنستعين بمهرب.

قالت ساخرة: كيف وقد أغلقوا في وجوهنا طريق البلقان؟

- سنهاجر عبر البحر، إلى إيطاليا مباشرة.

أعلم تماماً كم تتلهفين للذهاب إلى فرنسا، وأن حلمك هو الالتحاق بجامعة فرنسية، كما أخبرك د. جورج، وهذا أيضاً نفس طريقي، فلي قريب يعمل في فرنسا، فإن ذهبنا معاً إليه فسيقدم لنا المساعدة.

أمامك فرصة ذهبية لتحقيق حلمك والالتحاق بالجامعة، فمن إيطاليا ستوجهين مباشرة إلى فرنسا.

كلانا له نفس الهدف، أن نغادر ذلك الجحيم.

قالت بتوجس: وماذا ستستفيد أنت؟

ابتسم بمكر، فسؤالها يعني أنها بدأت تلين: سأستفيد أنني لن أكون وحيداً في رحلتي تلك، وجود فتاة وطفل معي سيفتح لي كل السبل، فمن لا يرق قلبه لطفل صغير؟ أو لفتاة تحمل طفلاً؟

رفع جواز السفر أمام عينيها، ولوح به مبتسماً: سأنتظرك غداً.

تركها في بحر من الحيرة، كيف لها أن تأمن مرافقة مثل هذا الشيطان لها في رحلة هجرة؟

ولكنها إن لم تفعل فستفقد جواز سفرها للأبد، وستبقى قابعة في ذلك الجحيم، وسيتهيئ كل أمل لها في الحصول على فرصة للالتحاق بالجامعة.

نظرت إلى الصغير الذي شحب وجهه من المرض، ثم أعطته الدواء ومسحت على رأسه، وهي تفكر في مصيره، فهو أيضًا بحاجة إلى فرصة للعيش الكريم، أن يتربى في جو صحي ويحصل على فرصته للالتحاق بمدرسة، ولن ينال أيًا من ذلك إلا إذا انتقلا إلى غرب أوروبا.

لم تكن تملك رفاهية الاختيار، وخاصة أن الصغير تعرض لمحاولة خطف فاشلة من عدة أيام، فحسنت أمرها سريعًا، واختارت أهون الأمرين، وقررت مرغمة مرافقة إياد إلى إيطاليا.

تجهزت للرحلة، ثم توجهت معه إلى المهرب، كانت صامته تراقب ما يفعله، وتولى هو إدارة الأمر.

وفي الموعد المحدد نقلهما المهرب بالحافلة ليلاً إلى أحد الشواطئ، وكان الشاطئ مزدحمًا بالمهاجرين، ليقوم المهرب ورجاله بدسهم جميعًا داخل قارب (يخت) سياحي، مع مجموعة كبيرة من المهاجرين، ولم يكن الأمر يحتاج إلى فطنة لتعرف أن اليخت يحمل أضعاف حمولته الأساسية، فلم يكن به موضع لقدم، وكان الجميع في زحام متلاصقين.

مرت الساعات واليخت ينطلق بهم عابراً البحر متجهًا إلى إيطاليا.

ولكنه توقف في الطريق، في البداية لم تفهم ما يحدث، لكنها بعد فترة بدأت تستوعب الأمر، فهتفت بإياد غاضبة: أهذه هي الطريقة التي اخترتها لتنقلنا إلى إيطاليا؟

قال ببرود: أليس لديك طريقة أفضل؟

صمتت صاغرة، وبدأت تراقب انتقال المهاجرين على دفعات من اليخت إلى قوارب مطاطية لتكمل بهم الطريق، فالمهرب لا يستطيع الوصول إلى الشاطئ الإيطالي بيخت سياحي، حتى لا يقع في يد الشرطة، ولكنه يقوم بإنزال المهاجرين في قوارب مطاطية قديمة في المياه الدولية ليكملوا طريقهم، ثم يمزقون القارب قرب الشاطئ فلا يستطيع الإيطاليون إرجاعهم.

حمدت الله أنها تجهزت بستررات النجاة هي والصغير، وجاء دورهم للانتقال إلى القارب المطاطي، ودب الرعب في قلبها وهي ترى الماء وقد تسرب إليه، وأدركت أنه لن يكمل الطريق إلى الشاطئ، تمت لو تصرخ، لو تقتل إياد، لكن الأمر كله خرج عن يدها، ولم يعد باستطاعتها حتى الاعتراض.

همس إِيَاد في أذنها: اطمئني، لو غرق بنا القارب فسأحتضنك وأسبح بك إلى الشاطئ.
دفعته بكفيها بغضب، وتسربت دموع القهر من عينيها، وصمتت تترقب بوجل ما سيحدث.

مر الوقت عليها كأنه دهر، ونطقت بالشهادتين عشرات المرات، والقارب القديم يتراقص في البحر وينخلع قلبها كلما ارتفع مع موجة لينخفض بعنف مع الأخرى، ورأت الموت عدة مرات.

وقبل الشاطئ، اضطر الشباب لتمزيق القارب حتى لا يعيدهم الخفر من حيث أتوا.
ومرة أخرى وجدت نفسها تصارع الماء، والبرد يكاد يجمد أطرافها، والرعب يزلزل قلبها، ثم سيطر الصغير خالد على عقلها، لم يعد باستطاعتها إنقاذه، لقد فقدته بمجرد أن سقطت في الماء، ترى هل أنقذه أحد الشباب ليوصله إلى الشاطئ؟

عندما أمسك بها إِيَاد شعرت ببعض الاطمئنان، وشغلها حال الصغير، هل سيزداد مرضه عندما يخرج من الماء مبتلاً في ذلك الطقس السيء؟

وصلا إلى الشاطئ أخيراً، وبدأت لين تبحث عن الصغير، وحمدت الله كثيراً أن وجدته مع أحد الشباب.

كان مبتلاً ويكي من الخوف والبرد، ضمته إليها وهي تدعو الله ألا يزداد عليه المرض، لم يكن معها ما تدثره به، ولم تكن تحمل ملابس بديلة له، فرحلة كتلك ممنوع حمل أي شيء زائد بأمر من المهرب، وكانت حقيبتها الصغيرة لا تحوي سوى بعض الطعام والماء وأدوية الصغير.

حالفهم الحظ أن وصلوا إلى شاطئ لم يكن به خفر، فتجمعوا في مجموعات وانطلقوا لأقرب نقطة ليلتقوا فيها المهرب الثاني الذي سيستلمهم، وانتظروا عدة ساعات أخرى حتى جاء ومعه حافلة، وركبا فيها مع مجموعة من المهاجرين.

وتعجبت لين، وأخذت تفكر طوال الطريق، فالحافلة كان أغلب ركابها من النساء والفتيات من جنسيات مختلفة: عربيات وإفريقيات ومن شرق أوروبا وكرومانيا وألبانيا.

ورحمها إِيَاد من صحبته السمجة، وجلس بجوار فتاة رومانية ذات شعر أحمر تتحدث إنجليزية ركيكة، يداعبها ويضحكها ويتسلل معها طول الطريق.

مضت بها الساعات وهي قلقة على حال الصغير الذي ارتفعت درجة حرارة جسمه، فأعطته الأدوية اللازمة، فتحسنت حالته لبعض الوقت.

وصلت الحافلة بعد ساعات إلى إحدى الغابات، وهناك كان عليهم مغادرة الحافلة، ليلتقوا المهرب الذي كان ينتظرهم، وهو عربي ومعه بعض الرجال والفتية الأفارقة الذين لا تتعدى أعمارهم ستة عشر عامًا، وانتحى بإياد جانبًا، وأخذ يتجادلان جدًّا عنيفًا، ولكن صوتهما لا يصل إليها واضحًا، ثم تلفتت حولها لتجد أن كل من حولها من النساء والفتيات جلسن في صمت المترقب.

استشعرت لين الخطر، فانطلقت نحو إياد، وهتفت وقد بلغ توترها مداه: ما الذي تدبران له؟ ولم أتيت بكل هؤلاء النساء إلى هنا؟

صرخ إياد في وجهها: اصمتي، عودي إلى مكانك حتى أنهي حديثي مع الرجل.
صرخت: أنت تدبر شيئًا قذرًا!

لم يلق المهرب لها بالًا، ووجه حديثه إلى إياد: عليك أن تعود بهم، فوجودهم هنا صار صعبًا.
صرخ إياد به: بعد أن خسرت كل هذا المال؟ مستحيل!

كانت تستمع إلى حديثهما وبدخلها تتعاطم الصدمة، وأدركت أخيرًا ما وقعت فيه عندما قال المهرب لإياد: لم يعد بإمكاننا استقبال مهاجرات، على الأقل في الوقت الحالي، بعد تشديد الشرطة وتضييقهم على أنشطتنا.

بالأمس تم القبض على شبكة كاملة، أعرف منهم الكثير من الرجال معرفة شخصية.
هتف إياد وهو يمسك بتلابيبه: عليك أن تجد لي حلًّا، أنا لم أجازف تلك المجازفة وأنفق كل هذا المال لتردني خائبًا!

قال ببرود وهو يدفع بيديه بعيدًا عنه: ليس أمامك سوى أن تسوقهم في تركيا، هناك الأمر أيسر، نظرًا لأن البلد فُتح على مصراعيه للاجئين، وأصبحت قبضة الشرطة أضعف.
هتف بغل: أنت تسخر مني! وكيف أعود الآن إلى تركيا؟

قال بهدوء: ببعض المال سأدبر الأمر، ستعود معهن بالحافلة لنقطة على الشاطئ ليستلمك مهرب أعرفه، وينقلك بسفينة شحن مباشرة إلى تركيا.

هتف به: أتخدعني؟ لن أدفع بنسًا في رحلة العودة، وأنت مسؤول أن تقلني.

قال ساخرًا: ليس لك أن تضع شروطًا، فأنت عالق هنا.

شعرت لين بأن قدميها ما عادت باستطاعتها حملها، فخرت جالسة على الأرض تحاول أن تتمالك نفسها من الصدمة.

كل شيء في عقلها مشوش، كيف وقعت في هذا الفخ؟ كيف تثق بشخص تجرى الشياطين في عروقه؟ أين كان عقلها عندما استدرجها إلى ذلك الفخ؟

وها هو الآن يبيعها ويقايض عليها هي والفتيات، ويبحث عن سوق نخاسة ليجمع المال من لحمهن!

والآن كيف ستصرف؟ وإلى أين تذهب؟ إنها في منطقة غابات، ولا سبيل للخروج منها إلا بالحافلة.

كان إياد يتجول في المكان بتوتر، وقد اشتعل غضبه أضعافاً بعد الخسارة التي مني بها. وأخذ يجري مكالمات عديدة من جواله، حتى هداً أخيراً، وبدأ أنه قد وصل إلى حل يخرج من تلك الورطة.

توجه إلى المهرب وأخبره: المال في مكتب التأمين، ولن تحصل عليه حتى أصل بالشحنة سالمة إلى تركيا، وحتى ذلك الحين أنت المسؤول عن وصولنا إلى هناك.

قال بتأكيد: اتفقنا.

التفت إياد إلى النساء والفتيات، وهتف بهن: هيا إلى الحافلة!

قامت الفتيات باستسلام واتجهن إلى الحافلة، وكأنهن يعلمن مصيرهن مسبقاً ويستسلمن له بضعف، لكن لين لم تتحرك من مكانها.

صرخ في وجهها وهو ينتزعها من كتفها: قلت هيا إلى الحافلة!

دفعته بغل بعيداً عنها وصرخت: لن أذهب معك إلى أي مكان أيها الفاسق النجس!

- لن تحصيلي على جواز سفرك، وستتعفنين هنا في الغابات المقطوعة.

- اذهب إلى الجحيم!

- ستأتين معي رغمًا عن أنفك.

انتزع حقيبة الظهر الخاصة بها، وهي تقاومه بشراسة، لكن قوته غلبتها وأخذ الحقيبة وهي تصرخ: دعها، إن بها دواء الصغير المريض.

قال ببرود: تريدونها؟ اركبي الحافلة إذن.

وقفت أمامه بلا حيلة، بعد أن صارت في أقصى لحظات ضعفها، ولم تجد لها حيلة سوى أن ترجوه، فسالت دموع القهر من عينيها: أتوسل إليك، أعطني دواء الصغير، أنت طبيب وتعرف جيدًا أنه بدون الدواء سيموت.

قال بمكر: اركبي الحافلة في مقابل الدواء.

قالت بخوف: لن أفعل.

ابتسم: سأفكر في مقابل آخر.

أطاعته صاغرة، وتحولت إلى لعبة بيديه يحركها كيف يشاء، فأجبرها على تصوير فيديو بجواله تهتف فيه باسم بشار، وتقول: «منحك».

ضحك بتشفٍّ، فقالت بغضب: فعلت ما طلبته، أعطني الحقيبة.

ضحك هازئًا: هل صدقت حقًا؟ بالتأكيد لن أفعل.

صرخت: ستقتله! كيف تكون طبيبًا وتفعل هذا؟!

قال ببرود: انظري حولك، نحن في غابة يا عزيزتي.

أدركت أنه لن يعطيها الدواء عندما تركها واتجه إلى الحافلة، فهجمت عليه كنمرة متوحشة، وتعلقت بعنقه من الخلف، وغرزت أسنانها في رقبتة، فصرخ ألمًا، وأخذ يدفعها عنه بقسوة، ولم تسقط إلا عندما عقرت لحم رقبتة وأسالت دماءه، فأخذ يتألم ويتأوه محاولًا إيقاف نزيف رقبتة، ثم التفت إليها وشياطين الغضب تتراقص في عينيه، تراجعت للخلف وقد استولى عليها الخوف.

هجم عليها وظل يصفعها ويلكمها في وجهها، حتى خارت قواها وكادت تفقد الوعي، وانكملت الفتيات وتراجعن خوفاً وهن يشاهدن وحشيته في ضربها، وحملت إحداهن الصغير تهدئ من روعه، بعد أن انفجر في الصراخ فزعاً من قسوة المشهد.

بعد أن أفرغ غضبه قال: هل ظننت أنني أحبتك بالفعل؟ لقد أردت لك لأن عذراء جميلة مثلك ثمنها أضعاف الأخريات.

تقدم منه المهرب قائلاً: فلتنه هذا الأمر الآن، فلا وقت لدينا، دعها هنا، فلا شيء يمكن أن تفعله في غابة مقطوعة كتلك، لن يجدوا جثتها إلا بعد مدة طويلة، لو أخذتها معك فستثير المشاكل، وستدل الشرطة عليك.

قال بغل: حسناً، ولكن...

مد يده وانتزع وشاحها من فوق رأسها بقسوة.. حاولت أن تقاومه فلم تستطع.. فتركها ملقاة أرضاً، وأخذ الوشاح لفه حول رقبته وضمده به جرحه: سأحتفظ به للذكرى.

التفت إلى صديقه ذات الشعر الأحمر، وقال: خذي من ملابسها أي شيء تجدينه.

حاولت لين المقاومة لكنه لكها بوحشية، فلم تستطع النهوض، أخذت الفتاة حمراء الشعر من جيوبها الجوال وبعض المال، فقال إياد: وخذي الحذاء أيضاً.

انتزعت منها الحذاء الشتوي ذا الرقبة العالية، ثم صعدت إلى الحافلة بصحبة إياد، وركبت الفتيات وهن ما بين دامعة وباكية ومتحسرة على مصير رفيقة الحافلة وذلك الصغير، وانصرفت الحافلة من المكان، وغادر المهربون وقد قاربت الشمس على الغروب.

تقدم الصغير منها وهو يبكي، وجلس بجوارها والتصق بها خوفاً.

فتحت عينيها والألم يكاد يفتك بها، وضمت الصغير وربت على ظهره تطمئنه، ثم تحاملت على نفسها واحتملت آلام جسدها وقامت مرغمة لكي تغادر هذا المكان المقطوع، حتى لا تلقى حتفها هي والصغير.

حملته على ظهرها ومشيت لساعات طويلة حاسرة الرأس، تلتصق خصلات شعرها المشعث بخديها، وتحمل كافة أنواع الألم والجروح في قدميها العاريتين.

كانت الدموع تنهمر من عينيها وهي تعض على شفيتها من الألم، ولا تخرج صوتاً كي لا تخيف الصغير الذي بدأ يئن، وكان عليها أن تتوقف لترى ما به، وترى إلى أين وصلت حالة قدميها.

كانت الدماء تسيل من أكثر من مكان في أقدامها، وقد بلغت قدرتها على التحمل والألم أقصاها.

أمسكت بالصغير خائر القوى وأخذت تتحسس جسده، فوجدت حرارة جسده مرتفعة بشكل كبير.

أخذت تبحث في ملابسها عن أي شيء تسعفه به فلم تجد.

قررت أن تسير مجدداً، فلربما مرت على نهر تغسل منه رأسه لتخفف من حرارته.

حملته على ظهرها وهو يئن، فأخذت تحادثه وتحكي له قصة لتلهيه.

كانت تسرع الخطأ جاهدة، ونسيت أوجاع أقدامها وغرقت في خوفها على الطفل، ثم غنت له أغنية كانت أمها تغنيها لأطفالها وهم صغار:

عالمشمشة.. عالمشمشة.. وخالد تحت المشمشة..

إن شاء الله يكبر خالد.. ويقطف بإيده مشمشة..

ساعات طويلة من المشي المتواصل أنهكت جسدها ولم تعد تستطيع المواصلة، فانهارت أرضاً، وأمسكت بالطفل تدثره بين أحضانها، وتهزه وتناديه باسمه.

لكن الجسد الصغير البارد لم يتحرك، ولم يستجب لمحاولات الإفاقة، أدرك قلبها ما أنكره عقلها وعجز عن تصديقه لبشاعته، فانقبض بعنف، وجفت به يناييع الأمل، وزحف الظلام على روحها.

ظلام طويل لم يمحه الزمن حتى الآن.

قضت الليل تحتضن جثة الطفل وتهزه كما لو كان حياً، وعجزت عيناها عن ذرف دموع واحدة.

وفي اليوم التالي تجمع بعض الناس من الضيعة المجاورة، والتفوا حول جثة الطفل، وأخذوا يلتقطون لها الصور في انتظار وصول الشرطة.

كانت الجثة وحيدة، ولم يكن هناك أي أثر في المكان للين.

وقف ناجي شاردًا يستند إلى إحدى السيارات الواقعة بجوار قسم الشرطة، ينتظر د. جورج بعد أن ينتهي من الإجراءات ليأخذ جواز سفر لين على مسؤوليته الشخصية.

وأخذ ناجي يراقب خروج الفتيات اللاتي كن ضحايا لتجار البشر، وقد وقفن أمام القسم في انتظار الحافلة التي ستحضرها الشرطة لتقلهن إلى مخيمات اللاجئين.

تنهد بحسرة، ثم مسح وجهه بكفيه عندما وجد د. جورج قادمًا باتجاهه.

تناول منه جواز سفرها كما لو كان يتناول شيئًا ثمينًا عزيزًا لديه، ثم وضعه بعناية في جيب سترته الداخلي.

قال دكتور جورج: أما زلت مصرًا على أن تذهب إلى إيطاليا؟

هز رأسه وأجاب بشكل قاطع: نعم.

تنهد د. جورج وقال بأسى: من يعلم أين ذهبت؟ وأي طريق سلكت؟ تركوها وحيدة في الغابات بلا مال ولا هاتف، ومعها طفل مريض!

قال واليأس يقطر من حروفه: برغم كل شيء عليّ أن أبحث عنها.

التفت د. جورج نحو الفتيات اللاتي تجتمعن وجلسن فوق سلم مركز الشرطة، وقال بأسف: يزعجني كثيرًا أن تم إيذاؤها بذلك الشكل البشع

لم ينتبه لما قاله الطبيب، فقد كان مشغولًا بالتطلع إلى تلك الفتاة ذات الشعر الأحمر التي افترشت السلم، وأخذت تتطلع إلى العالم بلا مبالاة، تقلب نظراتها في وجوه من حولها، حتى استقرت على ناجي، عندما لاحظت أنه يخصصها بنظراته.

وقفت الفتاة عندما اقترب منها ناجي، وبادرتة قائلة بلهفة وهي تبتسم: كم ستدفع؟

- أكثر بكثير مما ستطلبينه.

- حسنًا، هل تعرف عنوان فندق؟

- اخلي الحذاء.

عاد إلى د. جورج حاملاً الحذاء الشتوي ذا الرقبة العالية، بعد أن نقد الفتاة مبلغاً كبيراً وتركها تلوك الدهشة والعجب، فبادره د. جورج الذي تابع الموقف باهتمام بالغ: يا الهي! ما كنت أتخيل أن يأتي اليوم الذي يكون فيه الحذاء أغلى ثمنًا من امرأة!

رد ناجي وهو يدس الحذاء بعناية في حقيبة الظهر: الحذاء يستمد قيمته من صاحبه الحقيقية، تلك التي فضلت طريق الموت على بيع نفسها، امرأة لا يستطيع أحد شراءها لأنها أغلى من أي ثمن.

تنهد د. جورج، وغمره التأثر: أعلم أن الموقف لا يحتمل أية رومانسية، ولكنك تستثير مشاعري بكلماتك.

تذكرني بقصة سندريلا، تلك الفتاة الفقيرة التي لا تملك شيئًا، لكن حذاءها أغلى ما في مملكة الأمير، ذلك لأن ثمنه كان الحب.

هتف ناجي بمرارة: رومانسية؟!

تجمعت قطرات الدمع في عينيه واحمر أنفه من التأثر، وابتلع غصة مؤلمة في حلقه، ثم قال بألم: هل توجد حقًا رومانسية في هذا العالم البغيض؟ هل توجد إنسانية؟ بعض من رحمة؟

- نعم توجد، أثق بذلك.

تملك اليأس من قلبه فهتف بألم: كن صادقًا وأخبرني، كم تبلغ نسبة نجاة فتاة شابة جميلة وحيدة من هذا العالم المتوحش وهي بلا مال أو أوراق أو إثبات هوية؟ فتاة بلا حذاء..

ثقلت أجفانه بالدمع فانسكب على وجنتيه الملتهبتين بنيران الألم، وهو يكمل بصوت كسير: بلا أي شيء تبعه سوى نفسها! كيف لها أن تحيا في تلك الغابة البشعة التي نطلق عليها مجازًا حياة دون أن تفقد كرامتها! دون أن تضطر إلى أن تخضع للاستغلال أو الإذلال!

تنهد الطبيب بأسى، وأطرق قليلاً، ثم أجابه: لا أعلم، ولكن ما أعلمه جيداً هو أنها قوية وعنيدة، ولن تستسلم.

يقيني أنها ستجد من يساعدها، وستصل حتماً إلى وجهتها، ولن تضيع.

عندما استقل الطائرة إلى إيطاليا كان قلبه قد تشبع بالحزن.

فهو يعلم جيداً أنها آخر محطة له، فإما أن يجدها أو أنها ضاعت للأبد.

وعندما بحث في سجلات الشرطة ولم يجدها، لم يكن الأمر مفاجئاً له.

لكنه قطع لديه كل أمل، وحينها أدرك أن حياته كلها صارت بلا معنى.

لكنه توقف طويلاً أمام الجريدة التي أعطاه إياها شرطي، عندما علم بأن الفتاة التي يبحث عنها في منطقة الغابات كانت تحمل طفلاً مريضاً.

وانعقد لسانه أمام الصورة التي أراه إياها في الجريدة.

صورة طفل ميت في أرض خالية بجوار ضيعة، يتوسط دائرة واسعة من الأحجار الكبيرة التي رصت بجوار بعضها البعض بعناية.

وفوق رأسه كتب بالأحجار وبحروف إنجليزية واضحة:

«لأنه سوري»..

وعند قدميه أكملت الجملة بالأحجار:

«قتله العالم»..

(١٩)

قضت ليلة حافلة بالأحلام والكوابيس، تنتفض في فراشها وتبكي.
 منذ أن عادت إلى البيت بعد لقائها بد. جورج وهي تصارع أمواج الحيرة بداخلها وتعتصرها
 الأسئلة، وما من جواب واحد ينقذها من حيرتها.
 أسئلة معلقة تنتظر شخصاً واحداً فقط ليجيب عنها.
 افتقدت روحها دندناته، فلم يعد عقلها يجترها كما في السابق لتأنس بصوته، بل خيم
 الصمت على حياتها ونشر كآبته في قلبها.
 استيقظت في الصباح باكية تصب عليه اللعنات، ذلك الغامض الذي يخفي عنها أكثر بكثير
 مما يبديه.
 لم انسحب من حياتها؟
 يأس أم عقاب؟ أم بحثاً عمّن تداوي جراحه؟
 كانت مضطرة لمغادرة البيت رغم إرهاق جسدها، والصداع الملازم لها، والذي لم تعد تؤثر
 به أية عقاقير.
 في سيارتها أدركت أنها لن تستطيع أن تتحمل إرهاق الدراسة بحالتها تلك، فطلبت من
 السائق أن يذهب مباشرة إلى المطعم لتطمئن على سير الإصلاحات.
 وعندما وصلت وجدت سعد وبيتر وجان ومعهم الشاب محمد يقفون معاً في دائرة
 ويتبادلون الحديث، وحوهم عمال الإصلاحات يعملون بجهد، وبضعة أفراد من عمال المطعم
 يساعدون في العمل.
 اتجهت مباشرة إلى جان، ووجهت حديثها الجاف إليها: سيدة جانيت، أحتاج إلى التحدث
 إليك بضع دقائق من فضلك.
 رفعت حاجبها ورمتها بنظرة باردة: ليس هناك ما نتحدث بشأنه.
 - بل هناك الكثير حول ذلك الغائب الذي كان يعتبرك صديقة له، وأنت لا تبالين.

- لا تحاولي إقناعي بأنك صرت تبالين حقًا بناجي وتهتمين لأمره.
- حاول بيتز وسعد التدخل لكن لين أسكتتهما، ثم قالت لجان: هذه المرة لن تنجحني في استفزازي، فقط أجيبي عن سؤالي، أين ناجي؟
- ما زلت تفكرين بطريقتك الفاشلة، ليس هذا ما يجب أن تسألي بشأنه، بل يجب أن تسألي: لمَ رحل؟ وتعيدي حسابات علاقتك به.
- كما توقعت إذن، أنت الوحيدة التي تعرفين مكانه.
- لو أن ناجي ينوي أن يخبر أحدًا بمكانه، فلن يكون سوى المرأة التي منحها حبه وثقته وماله، ولم يلق منها إلا الجحود والإعراض.
- همّت بأن تطلق عبارة ساخطة، فبادرتها جان: أثق بأنك لم تحاولي ولو مرة أن تشاهدي الأغنية الأخيرة في حفله الأخير، تلك التي انسحب فيها من المسرح ولم يستطع أن يكملها، بعد أن فاضت مشاعره بالآلامه.
- لم يستطع أي منا أن يلحق به بعد أن هرول إلى سيارته مبتعدًا، وترك أصدقاءه وجمهوره وكل من يحبونه، وفي اليوم التالي اختفى من حياتنا، لو كنت موجودة ما كان ليحدث أي من هذا، ولكنك تركته وحيدًا، لم تهتمي حتى بحضور الحفل.
- ازدردت لين لعابها بصعوبة، وهي تحاول أن تكبح جماح دموعها التي أطلت من مقلتيها، وقالت بصوت مرتجف: لو.. لو كنت حضرت الحفل لما كان ليتغير من الأمر شيء.
- قالت: بل لتغير كل شيء.
- تركتها جان تصارع مشاعرها ورحلت.
- واضطرت لين للعودة إلى البيت، لكنها لم تهرب إلى فراشها لتختبئ تحت الوسائد والأغطية وتطلق العنان لسيول دموعها كما تفعل دائمًا، بل اتجهت إلى حجرة الدراسة وفتحت (الكمبيوتر) المحمول وبه ناقل البيانات الذي أعطاه لها سعد، وفتحت الأغنية الأخيرة في الحفل، والتي سجلها سعد باسم: «أغنية الوداع».

بدأ ناجي بتقديم كلمة قبل الأغنية، تحدث فيها عن أبيه الراحل، ودعا له بالرحمة، ثم أهدى إليه الأغنية التي قال عنها إنه كان يغنيها معه وهو صغير.

عزفت الموسيقى، وبدأ ناجي حزيناً شاردًا، ثم بدأ يغني بضع كلمات، ثم تحشرج صوته من الانفعال فتوقف قليلاً، ثم حاول مرة أخرى، ولكنه لم يستطع، وعندما توقف للمرة الثالثة، اقتربت الكاميرا من وجهه حتى صار يملأ الشاشة، وقد ظهر بوضوح عروق وجهه واحمرار أنفه، وعيناه تشيان بأحزان قلبه الدفينة، خيل للين بأنه ينظر إليها مباشرة عبر شاشة الكمبيوتر، فتسارعت أنفاسها، وتجمعت العبرات في مقلتيها.

انفضت على صوت دوي يصدر من سماعة الكمبيوتر، ثم تحركت الكاميرا لتظهر للمشاهدين كيف سقط الميكروفون من يده محدثاً دويًا في مكبرات الصوت في المسرح. ثم انسحب ناجي مسرعًا، وغادر خشبة المسرح ليختفي عن الكاميرات. فطوت شاشة (الكمبيوتر) المحمول، واجتاحها البكاء.

ترى هل جان محقة؟

هل كان يمكن لوجودها في الحفل أن يحدث فارقًا؟

لم تسمع شيئًا من المحاضرات والدروس، فقد قضت يومها في الجامعة شاردة بلا تركيز، وعقلها غارق في أحداث الأيام الماضية.

كانت علاقة ناجي القوية بأبيه تفصح عن نفسها بوضوح من خلال أفعاله وتصرفاته. انفصاله عن أبيه كان هو الجرح العميق الذي ترك ندوبه الغائرة في قلبه وروحه، وبدل مسار حياته.

من يستطيع أن يخبرها عن تلك العلاقة العميقة بتفاصيلها ومنحنياتنا وتعقيداتنا؟ علما تجد فيها خطأً يوصلها إلى مكان ناجي، من يستطيع أن يخبرها بالسبب الحقيقي الذي دفع ناجي للانفصال عن أبيه وترك البيت؟

تكونت في عقلها حروف اسم لشخص كان له بالغ الأثر في علاقة ناجي بأبيه، وصلة مباشرة بفترة الجفاف والشقاق التي حدثت بينهما.

شانتال..

اتخذت لين قرارها بتقصّي حياة زوجها ومعرفة ما يخفيه عنها، ولا سبيل لها لمعرفة الحقيقة سوى شانتال.

أسرعت إلى خارج الجامعة، لكن أحمد استوقفها أمام البوابة يطلب الحديث إليها، وكان معه صالح ورغد، ولحقت بهم أمينة، فبادرها أحمد قائلاً: اتفقنا جميعاً على أن نجتمع ساعتين كل يوم في مطعم ناجي، لنبدل بعض الجهد في المساعدة في إصلاح المطعم.

غمرها التأثر من موقفهم، وصمتت لحظة ونظراتها تنتقل بينهم، ثم ابتلعت ريقها بارتباك، وقالت بصوت متهدج: ولكن..

أقبلت عليها رغد باسمّة: من دون لكن، لقد اتفقنا على ذلك فيما بيننا، ولن نسمح لك بالاعتراض.

أسلوب رغد ترك أثراً عميقاً في قلبها، فاختصتها بكلماتها: لستم مدينين بشيء لأي شخص ولا أي مكان.

قال أحمد بجديّة: كل عربي يعيش هنا يدرك أن مطعم ناجي ليس أي مكان.

قال صالح ضاحكاً: عن نفسي أنا مدين للمطعم بالعديد من الوجبات في الأيام التي كان فيها جيبي خالياً من المال.

ضحكوا جميعاً لطرفته، ثم شكرتهم لين بامتنان كبير، وذهبوا معاً إلى المطعم، وقدمتهم إلى الشاب محمد وبيتر وأوصتهما بهم، وبقيت لساعات تتابع العمل في الإصلاحات، وعقلها في وادٍ آخر، ولم يهدأ إلا بعد أن أجرت اتصالاً بدار العجزة تطلب موعداً للقاء شانتال.

كانت الأمل الأخير بالنسبة لها، وحتى تستطيع أن تصل بها للحديث عن ناجي، فلن يكون ذلك إلا من خلال الاستماع بصبر لحكاياتها وذكرياتها مع عمر الكيلاني.

لم يكن يعينها أو يثير فضولها قصة حب غابرة لرجل مات وامرأة تحيا على ذكره، لكن كان ذلك هو الجسر الذي لا بد أن تعبر عليه لتعرف ما يخفيه ناجي عنها، وربما تستطيع أن تستنتج من حكايات شانثال شيئاً عن مكان اختفائه.

استقبلتها شانثال بابتسامة سعادة كبيرة، وهي تقدم لها باقة من الزهور، ومعها هدية، ثم تنهدت وقالت: تشبهين أحداً ما.

لم تكن لين في مزاج يسمح لها بتبادل أية أحاديث سوى ما جاءت لأجله، فسألته دون مقدمات: كيف التقيت بعمر الكيلاني في باريس؟

ضحكت شانثال: تجيدين اختيار المدخل المناسب للحوار.

تنهدت بسعادة، ولم تنتظر منها رداً، بل شرعت في القفز في بحر ذكرياتها لتحيا بروحها مع ذلك الغائب، الذي لم يغب لحظة عن قلبها:

كنت ألتسكع في الشوارع والطرق قرب منتصف الليل، مع أحد الزبائن الذي أعماه السكر عن رؤية موضع قدميه.

شعرت لين بقشعريرة وغثيان من كلمات شانثال، لكنها تحملت كتمان مشاعرها واستمرت في الاستماع.

كان يبحث عن مكان يشتري منه زجاجة خمر، ومررنا من أحد الشوارع به مطعم صغير يبدو أنه افتتح حديثاً، وفي واجهته لافتة كتب عليها كلمة: «ناجي»، اجتذبتني الاسم، وشعرت بألفة محبة تجاهه، فهو يعيدني لذكراياتي السعيدة.

قلت لرفيقي: أنا جائعة، فلتناول أي شيء في هذا المطعم.

سار خلفي دون اعتراض، وهو يمضي نفسه بزجاجة خمر يخرج بها من المطعم.

دفعت الباب ودخلت..

تسمرت قدماي، وارتجفت كل عضلة في جسدي عندما وجدته أمامي، والتقت عيناي بعينيه بعد سنوات عجاف، فجف الدم في عروقي وكاد قلبي يتوقف..

أهو شوق أم خوف أم خجل أم مفاجأة؟

كانت صدمة المفاجأة جلية على ملاح وجهه، وقد عرفني من أول وهلة، واسود وجهه كمدًا.

لم أستطع أن أصدق أن يكون لقاءنا بعد كل تلك السنوات بهذه الكيفية! فبعد أن تعرف إلي يوما كسيدة راقية، أقف الآن أمامه بملابس رخيصة فاضحة وجسد منتهك، يطوق عنقي وغد قدر!

كان ينظر إلينا ومن عينيه يطل غضب مارد مسلسل بالفولاذ، ثم أجاب عن طلب رفيقي لزجاجة خمر، وشفته تترجفان غضبًا، ولهاث أنفاسه الملتهبة يصل إلى مسامعي: نحن لا نقدم الخمر هنا، فقط طعام ومشروبات خفيفة.

أخذ الثور المصاحب لي يزوم ويهرف بكلمات لم أتبينها، وهم بالاشتباك مع عمر في شجار، فأقنعتهم بأن نبحت عن مطعم آخر، وأنا أشير إلى عمر بكفي ألا يتدخل. رحلت والدمع ينسكب من عيني، يقتلني الألم والقهر. ومن خلفي سمعت صوت عمر: المطعم مفتوح أربعًا وعشرين ساعة، ويقدم عرضًا رائعًا على الإفطار.

استقبلت رسالته المبطنة، ورحلت ممزقة الفؤاد. لم يغمض لي جفن طوال الليل، وأنا أنتظر ظهور أول ضوء في السماء. ثم تجهزت بأفضل ما لدي من ملابس، وفضلت أن يكون وجهي خاليًا من التبرج، وحرصت أن أبدو كسيدة راقية أنيقة كما رأي أول مرة. وقفت أمام الباب الزجاجي مترددة، أخشى أن أدفعه فألتيقه أمامي، أخشى أن أنظر في عينيه فلا أجد سوى الاحتقار.

انترعني من شرودي يد تجذب الباب من الداخل، لأجده أمامي بابتسامة ودود ونظرة ترحيب لا أثر للاحتقار فيها، ثم قال كلمة واحدة: كنت أنتظرُك.

دعاني للجلوس إلى أفضل طاولة في المطعم، ثم قدم لي الإفطار بنفسه، وهو يقول بود: أعددتَه بنفسِي، أتمنى أن ينال إعجابك، وعندما تنتهين سيكون لنا حديث طويل.

لم أشأ أن أستيقظ من ذلك الحلم الجميل، وأفقد ذلك الشعور الرائع بالاحتواء.
استأذن مني أن يباشر عمله حتى أنتهي من الإفطار، فوافقت شريطة أن يشاركني تناول
القهوة، فقبل بترحاب.

لا أدري كم من الوقت قضيته في تناول الإفطار لكنه كان أطول جدًّا من المعتاد، فقد
انشغلت بمراقبته وهو يتحرك في المكان ويمارس عمله بنشاط.

مضت بضع سنوات منذ أن رأيته على المركب، لم تضيف تغييرًا كبيرًا على ملامحه، لكنها
خلقت بداخله روحًا جديدة، فلم يعد ذلك الشاب الشريد المسكين الذي تترقق عيناه بالدمع
قلقًا على طفله، ويرتجف قلبه فرعًا من المستقبل، بل صار رجلًا ناضجًا، يشع بالثقة والقدرة،
ويملك شخصية قوية مسيطرة تفتن أية امرأة تقترب منه.

شربت القهوة وأنا أنعم بصحبة عمر، وأأمل وجهه السمح ذا العينين البنيتين والحاجبين
الكثيفين، وشعره القصير ذا المفرق الجانبي، وشاربه الكثيف وثغره الباسم.

لا تدري لين كيف صبرت على حديث شانتال الطويل، ولكنها دربت نفسها على اجتياز
جسر طويل من حديث مليء بتفاصيل امرأة مولعة برجل، لتستطيع الوصول في النهاية لإجابة
عن أسئلتها.

وكلما مر عليها الوقت يزداد شعورها بأن شانتال تستغل صحبتها، لاسترداد تلك المشاعر
الجميلة التي افتقدتها طويلاً عن طريق اجترار ذكرياتها مع عمر الكيلاني، لكنها تقبلت ذلك
بتعاطف مع عجز لا تجد سلوى لها سوى تلك الذكريات.

(٢٠)

أكملت شانتال الحديث: قضيت النهار بصحبته، لا أريد أن أغادر المكان، تحدثنا في أي شيء وكل شيء، و كان عمر حريصاً أشد الحرص على ألا يجرح مشاعري بكلمة صريحة أو حتى بتلميح عما رآه بالأمس.

لم يسألني عما حل بي، ولم يسمح لفضوله بأن يؤلمني، حتى بحث له بإرادتي بكل ما حدث لي منذ أن وصلت المركب إلى فرنسا وحتى الآن، وكيف تبدلت حياتي بعد أن تزوجت تباعاً من اثنين من اللصوص نهبوا أموالي على مدار عامين، فاضطرت للعمل كفتاة ليل لأستطيع أن أعيش.

حكيت له ماذا أعمل ومكان النزل الذي أعمل به.

وعلى الرغم من الغضب الحبيس في عينيه، لكنه بقي يعاملني كأول مرة رأيته فيها. عندما عاد ناجي من المدرسة، دخل مباشرة من باب المطعم إلى عمر الذي أشرق وجهه بالسعادة، ورحب به بحب غامر، وتعانقت أكفهما، ليضم عمر كف الصغير إلى صدره. وأخذ ناجي يحدثه بحماس عما أنجزه في يومه الدراسي.

انتشت روحي بالتأثر لرؤية كيف أصبح صبيّاً جميلاً بهيَّ الطلة طلق اللسان ذا ابتسامة ساحرة يختص بها عمر، وتاقت نفسي لمداعبته وملاطفته كما كنت أفعل عندما كان رضيعاً، فغممني إحساس عميق بالأسى، فلم يعد ذلك ممكناً بعد الذي رآه عمر بالأمس.

يوماً ما صُنَّ عمر بالصغير على سيدة أجنبية، فكيف بامرأة خاضت في الأحوال؟!

لكن عمر فاجأني بما لم أتوقعه، فقد قال لناجي ببساطة: حيَّ السيدة شانتال، فهي تعرفك جيداً منذ أن كنت رضيعاً، التفت الصغير إليّ وسلم عليّ، ومنحني أجمل ابتسامة لديه جعلت قلبي يرفرف بين أضلعي، وسمح لي بأن أضمه وأمسح على رأسه، ثم تركنا وذهب لشؤونه.

صمت عمر لبعض الوقت احتراماً لتلك المشاعر الجياشة التي غلبتني، وتركني أبكي حتى تماكنت نفسي وهدأت ثورة مشاعري.

قلت وأنا أتطلع إليه بإعجاب: كبر الطفل الفاتن وصار صبيًا جذابًا، أهنئك، نجحت في اجتياز المحنة والعبور به إلى بر الأمان.

قال بابتسامة ودود: تلقيت الكثير من العون.
لحظة، تذكرت..

أخرج من جيبه بضعة فرنكات ومدّهم إليّ: تفضلي.

قلت وأنا أعرف الإجابة مسبقًا: ما هذا؟

قال باسمًا: إنه الدين القديم.

قلت بمرارة: نعم، ثمن علّيتي حليب وزجاجة إرضاع!

قال ممتنًا: أنقذت حياة طفل.

يد باردة اعتصرت قلبي، وذكّرتني بألم الفقد الذي عشته وقتها.

قال عندما طال صمتي ولم أمد يدي للمال: لا أريد أن أظل لَصًّا، اعتبريه اعتذارًا.

لص؟! ضحكت من الكلمة والمرارة تملؤني، ثم سألت السؤال الذي نال من روحي الكثير:
لم رحلت؟

تنهد ولم يرد، كان يبدو أنه لا يريد أن يجرح مشاعري بإجابة لن ترضيني، ولم تكن لأي إجابة أن ترضيني، فكررت عليه السؤال بإلحاح: لم رحلت؟ ممّ كنت تخاف؟ من أن أغويك أو أشتريك؟ كان عليك أن تثق بأنك ضد الإغواء، ولا أحد في العالم يمكن أن يشتريك، لأنك أغلى من أي ثمن.

أدار وجهه إلى النافذة، فلم يكن يملك الرد المناسب على كلماتي، فأدرت أنني لن أستطيع البقاء، فقد كان قلبي مشحونًا بمشاعر شتى، فحملت حقيتي وقمت من مكاني، وقلت له: أبقهم معك، حتى يكون لي مكان دائم هنا أشرب فيه قهوة الصباح كل يوم

تنهدت شانتال وامتلاّت عينها بالدموع، وقالت بتأثر: أمثال عمر الكيلاني لا يمكن شراؤهم ولا إغواؤهم، ولكن يمكن أسرهم بجميل يطوق عنقهم مدى الحياة.

لقد منحني عمر ما أردت، وأبقاني على مسافة قريبة منه ومن ناجي، شرط ألا أتجاوزها،
كرسي دائم في مطعمه وفنجان قهوة يومي، والأهم من كل ذلك.. حمايته.

كنت أحيأ حياتين: في الصباح حياة السيدة الراقية التي تتناول قهوتها في مطعم ناجي، وفي
الظلام حياة امرأة تبيع جسدها لتعيش.

وفي أحد الأيام شاركني عمر قهوتي، وعرض عليّ عرضاً لا يمكن رفضه:
ستعملين معي هنا في المطعم.

قلت بمرارة: وما الذي أفهمه في عملك لأعمل هنا؟

قال: هنا الكثير من الأعمال المتعددة، فاختاري ما شئت، من العمل في المطبخ، وشراء
مستلزمات الطعام، وحتى إدارة المطعم، اختاري ما شئت وستعملين به، فكري جيداً.

بقيت لدقائق مندهشة لا أكاد أصدق ما يقول!

ترى هل نلت جزءاً من قلبه؟

لم تشأ لين أن تبوح بما تفهمه عن شخصية عمر كعربي مسلم، حتى لا تفسد على شانتال
مشاعرها التي بدت في دمعات من السعادة التي ترقرت في عينيها لمجرد أن خطر لها أن عمر
يمكن أن يحبها.

فالحقيقة هي أن عمر يتعامل مع كل البشر بمبدأ: «ومن أحيأها فكأنما أحيأ الناس جميعاً».

قالت شانتال: عرض كهذا يعني أن عمر يجازف مجازفة كبيرة بسمعته بين العرب المهاجرين،
وأدركت أنه من النوع الذي إن اتخذ موقفاً، فهو يتحمل نتيجته مهما كان، فما كان يتنازل أبداً
عن قراراته وإن وقف العالم كله ضده.

لم أدرك مدى جدية عرضة واستعداده للمضي فيه قدماً إلى أبعد مدى إلا عندما أزعجه
رفضه وأثار غضبه الشديد، وكاد ينفجر في وجهي، لكنني غادرت المطعم باكية.

قالت لين باستنكار: ولم لم تقبلي العرض؟ إن رجلاً مثله لقادر على حمايتك وحماية نفسه من
القواد! أم أنك تعاقبينه على المرة التي انسحب فيها من حياتك؟

نظرت إليها بصمت، وكأنها مست لين وترًا حساسًا بداخلها، ولم تنكر شانتال: ربه، فلا يمكنني أن أنسى أن انسحابه من حياتي دمرها للأبد.

لو كان موجودًا، لما تزوجت من لصوص وأفاقين قضوا على ما معي من أموال وألقوا بي أتسول في الشوارع.

لو كان موجودًا، لما اضطررت إلى بيع نفسي لأجد وسادة أضع عليها رأسي وبضع لقيمات تسد جوعي.

والآن فقط يسمح لي بالاقتراب منه والعيش في كنفه بعد فوات الأوان!

سألته لين مباشرة: أهذا هو السبب الوحيد لرفضك؟

غلبتها الدموع وتحشج صوته: وهل يمكن للظمان أن يحيا كل يوم ناظرًا للكأس المحرمة؟ أفضل أن أقضي عطشًا على الهات حتى الموت خلف السراب.

فجأة قفزت صورة ناجي إلى عقل لين، وانتابتها قشعريرة عندما تذكرت كيفية انسحابه من حياتها بعد الحفل.

ترى هل فقد الأمل في أن يحظى بحبها؟

نفضت عنها ذلك الخاطر الذي كدرها بشدة، وقلب مزاجها، ثم عادت لشانتال، ولكنها لم تجد ما تقوله لها، فتركت لها مساحة صمت تسكب فيها مدامعها، وتعبر عن آلامها بحرية.

كان عقلها يضج بالكثير من الأسئلة:

هل أخطأ عمر حقًا بالانسحاب من حياة شانتال؟

وكيف تلوم رجلًا يرفض أن يطعم ابنه من عرق امرأة؟

لقد كان يحمي نفسه ويحمي ابنه!

لو كان بقي معها لربما أصبح شخصًا آخر غير (المعلم)، ولما حظي بالمكانة التي تليق به كنصير للمهاجرين.

(المعلم) ..

سألته لين بفضول بعد أن هدأت: ألهذا استحق لقب (لمعلم)؟
ضحكت شانتال وهي تمسح بقايا دموعها: لا يكف عمر عن تقديم المساعدة لمن يعرف
ومن لا يعرف من المهاجرين، ولكن للقب قصة أخرى.

(٢١)

أبقى عمر على تلك الدائرة التي تجعلني على مسافة منه تشعرني بالحماية، فدائماً هناك مكان لي مهما كان المطعم مزدحماً، كما أنه لم يمنع ناجي من إلقاء التحية عليّ كل يوم، ومبادلتي الحديث لدقائق.

كانت تلك الساعة اليومية التي أقضيها في مطعم ناجي هي مساحة السعادة الوحيدة في حياتي، وكم من مرة عدلت عن فكرة الانتحار ليلاً، فقط لأنني سألتقي ناجي بابتسامته العذبة وروحه النقية في الغد، وسأنعم بحماية عمر، وإن لم يتحدث إليّ.

وصارت الحياة أجمل بعد أن انضم إليه الصبيان: مروان وسعد، وصاروا ثلاثة لا يفترون ويملأون المطعم صخباً ومرحاً، وبمرور سنوات اعتادوا على وجودي كجزء من المطعم، وإن يجدوني يوماً متعباً أو مريضة يقدموا لي ما وسعهم من مساعدة، ويضاحكوني ويسلونني حتى أعود إلى طبيعتي، بل ساعدوني على تعلم العربية.

لم تكن سعاد راضية عن ذلك، وكم من مرة تدخلت لتحول بيني وبينهم، لكن سرعان ما كان عمر يوقفها فتسكت على مضض، بعد أن تلقي إليه بالتحذيرات أنني سأفسدهم. ولم تخلُ حياة عمر من مضايقات ومنغصات، خاصة بعد أن توسع عمله، واشترى المحلين المجاورين للمطعم، وزاد عدد العاملين.

صار المطعم ملاذاً لمن له مشكلة أو يعاني ضائقة ما، كما أن عمر أمر بتخصيص ساعة بعد منتصف الليل لتقديم وجبة مجانية للفقراء والمشردين، ممّا جعل للمطعم شهرة كبيرة جعلت كل المشردين في البلدة يتوجهون إليه.

في البداية وجد القرار معارضة من كل العاملين في المطعم، وكم من مناقشات وسجلات دارت أمامي لإثناؤه عن ذلك القرار الذي قد يجعله يخسر كل ما اكتسبه في سنوات الشقاء.

فتح المطعم دون حساب لكل من قال أنا مشرد أو أنا جائع، سيجلب أعداداً أكثر بكثير من الزبائن الذين يدفعون مقابل الوجبات، لكن عمر أجابهم بأنه سيتحمل وحده مسؤولية التنفيذ، فكان يبدأ العمل وحده ليلاً فيطهو ويقدم الطعام للزبائن، وكان الأسبوع الأول

كارثة، فالأعداد التي جاءت للحصول على وجبة مجانية تفوق قدرة شخص واحد، وكم من مرة أدخل إلى المطعم في الصباح لأجده قد واصل الليل بالنهار في العمل، وينظف المطعم من بقايا زبائن الوردية الليلية.

لم أكن وحدي التي أشفت عليه من ذلك الجهد المضاعف، فقد تطوعت سعاد لمساعدته دون أجر زائد، ومن سعاد إلى بعض العاملين، لتتحول الوردية الليلية إلى وقت طبيعي للعمل في المطعم، وشيئاً فشيئاً بات الأمر محتملاً، واستقر عدد الزبائن الطالين للوجبة المجانية، وصار الأمر تقليداً متبعاً ليس فقط في مطعم ناجي في باريس، بل في كافة مطاعم ناجي في فرنسا.

كان المكان ملاذاً للمهاجرين من كل الأصناف، من دخلوا فرنسا نظامياً ومن تسللوا إليها. وكانوا يتحدثون في المطعم عن مشاكلهم والصعوبات التي تواجههم، وعداء بعض العنصريين لهم، مما جعل للمطعم أعداء، برغم أن عمر يحرص أشد الحرص أن يبقى بعيداً عن المشكلات والمشاغبات.

ولكن أتى لشخص حمل على عاتقه الاهتمام بالناس أن يكون بعيداً عن المشكلات!

فكان المطعم أحياناً يتعرض للهجوم من بعض عصابات الفتية المراهقين المتعصبين ضد المهاجرين، فيكسرون الواجهة الزجاجية بقذف الأحجار، أو يتعرضون بالضرب لأحد العاملين في المطعم وهو يغادر ليلاً.

واتخذ عمر جميع الطرق القانونية لإيقاف ذلك العدوان، لكن الأمر لم يفلح، مما جعله يخص مجموعة من الشباب العاملين في المطعم يتوسم فيهم القوة البدنية والقدرة على الردع، بوظيفة الدفاع عن المطعم.

حتى ظهر كريستيان..

ذلك العنصري البغيض، لم يعجبه أن يصير مطعم ناجي مركزاً لتجمع المهاجرين ومساعدة المشردين، بل لم يعجبه أن يكون هناك مكان يمتلكه شخص مسلم يشتهر بين الناس ويساعد المحتاجين.

في البداية عرض عليه شراء المطعم بأكثر من ثمنه، ولكن عمر رفض، فبدأت المساومات والتهديدات ولم يفلح ذلك أيضاً، ثم صار التهديد واقعاً بتحالف كريستيان مع عصابات

من الشباب العنصريين المتعصبين ضد الفئات المهاجرة، وكان الإيذاء موجهاً بصورة خاصة للعاملين في المطعم.

كان عمر يخوض حرباً حقيقية تستهدف من حوله لتبعدهم عنه، وبالفعل ترك العديد من العاملين في المطعم العمل إما لتهديد أو لإيذاء مباشر، وصار المطعم مهدداً بالكساد، ورغم ذلك لم يكف عن استقبال الفقراء والجائعين وتقديم الطعام لهم، وصار عمر في أزمة حقيقية، لكنني كنت مطمئنة، فأنا أكثر من يعلم كم تبلغ قدرته على التحمل، وأدرك أنه سيجتاز تلك الأزمة كما اجتاز ما هو أسوأ منها.

وفي ليلة حدثني إحدى فتيات النزل الذي أعمل فيه، وهي رفيقة لأحد الشباب المنضمين لإحدى الجماعات العنصرية المتعصبة، بأنها سمعت منه أنهم سيهاجمون مطعم ناجي قبل الفجر. انطلقت إلى عمر بعد منتصف الليل فرعة، وأخبرته بما سمعت، وطلبت منه أن يترك المطعم ويرحل هو وناجي حتى لا يحدث لهما مكروه، لكنه طلب مني الرحيل.

رفضت، وطلبت منه أن يبلغ الشرطة، لكنه قال لي: في حرب العصابات الشرطة لن تستطيع شيئاً، فقط هي تؤجل المواجهة المحتملة لجولة أخرى، ولا سبيل لإيقاف الاعتداءات المستمرة إلا بردعهم.

كنت خائفة أن يصيبه مكروه، لكنني صمتُ، فلا أحد يمكنه أن يثني عمر عن قرار اتخذه. بعد وقت قصير وصل مروان وسعد، وقد تسللوا من بيتيها سراً، فصرخ عمر في وجه ناجي معنفاً بعد أن عرف أنه استدعاهما، وقد بلغ التوتر منه مبلغاً عظيماً، لكن الفتية الأصدقاء وقفوا قبالة كجدار ملتحم، وقد أقسموا على حماية المكان معه.

وقفت صامته أراقب الثلاثة وقلبي ينتفض إعجاباً بهم، ولم يستطع عمر أن يخرجهم من المطعم، وبدأ كل الموجودين في المطعم يعدون العدة لصدهم، واستعد الشباب المسؤولون عن الردع، والفتية الثلاثة قد انضموا لهم، وقد بدأوا يخططون لأساليب مبتكرة للمقاومة، مثل الماء الساخن وطفائيات الحريق، وكل ما يصلح به القتال.

وبدأت المعركة..

كان الجميع يقاتل معركة حياته، لكن الهجوم كان هو الأعنف والاكثر عددًا على الإطلاق، بدأ بتكسير واجهات المطعم بالعصي، فخرج لهم شباب الردع بالعصي ومعهم عمر، لكن الأعداد كانت أكبر بكثير، فأصابوهم بإصابات شديدة، وبعضهم خرج من المعركة، وأصيب عمر بإصابات مختلفة.

ثم بدأت المرحلة الثانية باقتحام المطعم، وتكسيه من الداخل، وكانت المقاومة باسلة، وعمر يقف لهم مع شباب المطعم يصد العدوان، والفتية يختبئون في أماكنهم التي خططوا لها قبل المعركة، ويستخدمون الأسلحة التي أعدوها قبل الهجوم، وأنا معهم أفعل ما وسعني للمساعدة، وبدأ شباب المطعم يتساقطون، وفرغت أسلحة الفتية، ونالنا جميعًا إصابات مختلفة، وعمر الذي كان يقاتل قتال حياته بدا وحيدًا بين مجموعة من المعتدين يوسعونه ضربًا، حتى طرحوه أرضًا بالقرب من الطاولة التي كنت مختبئة خلفها، فصاح بي عندما رأى بأن الغلبة لهم أن آخذ الفتية وأهرب من الباب الخلفي، ثم نهض واقفًا على أقدامه، وعاد للقتال ليعدهم عنا. تراجع متسترة بالطاولات، واقتربت من الفتية وحاولت إقناعهم بالهرب لكنهم أبوا، وبقينا مختبئين خلف باب المطبخ نرى ثلاثة مجهزون على عمر ويوسعونه ضربًا وركلاً، وهو صامد يرد الضربات كيفما استطاع، ولكن الفتية لم يجدوا بُدًا من التدخل للمساعدة، فأخذوا يستخدمون أثاث المطعم لمقاومة المعتدين.

لكن ميزان المعركة انقلب، عندما اقتحم المكان مجموعة من المشردين كانوا زبائن دائمين في الوردية الليلية للمطعم، ووقفوا يقاتلون إلى جوار عمر، وبدأ المعتدون بالانسحاب تبعًا هربًا من المكان، وألقى عمر والشباب بمن تبقى منهم إلى الخارج، وبرغم الانتصار الرائع لكن الجميع صمتوا بوجل أمام غضبة عمر الهادرة التي هبت في وجه الفتية الثلاثة، وصراخه العنيف فيهم لأنهم لم يطيعوا أوامره وتدخلوا في القتال.

كنت أقدر غضبه الذي فجره رؤية إصابات الفتية ودمائهم التي سالت.

لم يتحرك ناجي، بل وقف ينظر في عيني عمر الغاضبتين ولا يبالي بصراخه وكأنها أصيب بالصمم، وخشيت من أن ينفجر غضب عمر ويوسع ناجي ضربًا، لكن ما حدث كان عكس ذلك.. فقد اندفع ناجي فجأة وألقى بنفسه بين أحضان عمر، وأطبق بذراعيه على خصره، وهو يقول بصوت سمعه الجميع: «أبي البطل».

تجمد عمر من المفاجأة، وكأنها ألقى ناجي بدلو من الماء البارد على غضبه فأطفأه في لحظة، فوقف ينظر حوله بارتباك، واهتزت مشاعره، وفاضت روحه بالتأثر، فاحتضن ناجي بقوة وربت على ظهره وشعره بحنان.

وكانها كان تصرف ناجي -الذي يدرك تمامًا أن عمر من المستحيل أن يمد له يدًا بالأذى- كان إشارة الأمان لمروان وسعد من غضب عمر، فقفزا بحماس وصرخ مروان:

«الله حيو معلمنا».

فرد عليه سعد هاتفاً: «الله حيو».

ثم هتف الشباب العاملون في المطعم في لسان واحد: يعيش (لمعلم).

ثم انضم سعد ومروان إلى ناجي تحت جناح عمر الذي ابتسم أخيراً ونعتهم مازحاً بالثعالب الثلاثة، وهو يغمرهم بنظرات المحبة والحنان ويمسح على رؤوسهم، فالتف جميع العاملين حولهم وهم يرددون اهتاف بلا توقف: يعيش (لمعلم).. يعيش (لمعلم).. يعيش (لمعلم)..

وقفت أراقب بحسرة التفافهم حوله وهو يأخذهم تحت جناحه وبين أحضانه..

تلك الأحضان المتاحة للجميع ومحرومة عليّ، فانسحبت من المكان بهدوء دون أن يفتقدني أحد، وتركتهم يحتفلون بالانتصار في أول معركة لهم ضد كريستيان والعصابات العنصرية.

لقد قضوا وقتاً طويلاً في تلقي الضربات دون رد، ولكن الآن صار الوضع مختلفاً..

فالمهاجرون صار لديهم (لمعلم)..

قاطعت إيميليا حديثها وأخرجتهما من ذكرياتهما، واستأذنت لتعطي شانتال دواءها، وتأخذها لغرفتها لتناول قسطاً من الراحة في قيلولة الظهر، لكن شانتال تناولت الدواء ورفضت أن تذهب إلى غرفتها، فقد منحها سيل الذكريات طاقة ونشاطاً لم تنعم بهما منذ وقت طويل، فتدخلت لين: حسناً، دعيها حتى موعد الغداء، وإذا ما شعرت بالتعب فسأصطحبها إلى غرفتها بنفسني.

غادرت إيميليا مستسلمة لرغبتها، وممرت فترة صمت قصيرة قبل أن تقطعها لين: وبعد، هل استقرت أحوال (لمعلم) وهدأت الحرب؟

قالت: استقرت الأحوال نعم، ولكن الحرب لم تهدأ يوماً، بل كان ينضم لها أعداء جدد من وقت لآخر، وتتخذ أشكالا مختلفة، من مضايقات لناوشات، للاستعانة أحياناً ببعض عناصر من أفراد الشرطة تجري العنصرية في دمائهم، لكن كل هذا صار بسيطاً ومعتاداً بالنسبة لعمر، الذي أصبحت شهرته تجعل كل مهاجر جديد يتوجه مباشرة إلى مطعمه ليشعر بالأمان.

ولكن، ما كان يستفز فضولي حقاً سؤال ظل يؤرقني لسنوات طوال: من المرأة التي باع لها عمر الكيلاني قلبه وأغناه حبها عن نساء الأرض؟

تساءلت لين بتعجب وكأنها انتبهت أخيراً للغرابة الأمر: أم ناجي؟!

قالت: نعم، لم يأت عمر على ذكرها أبداً في حديثه ولو مصادفة، بل إن ناجي لم يعر الأمر اهتماماً، ولم يسأل يوماً عنها، لكن ما كان يشغله هو أن والده وحيد.

انتبه الثعالب الثلاثة الذين بلغوا مبلغ الرجال وبدأوا يستشعرون غرابة في الأمر، فهنا رجل تجاوز الأربعين بسنوات يحيا دون أن يرافق امرأة أو يفكر في الزواج.

ثم اجتمعوا معاً دون أن يدري، وأخذوا على عاتقهم مسؤولية سعادته.

وهدهاهم عقلهم إلى الاستعانة بي كخبيرة في الرجال، لتضع لهم خطة إقناعه بالزواج.

نظرت لها لين بدهشة، فهزت رأسها: نعم، يعرفونني ويعرفون ماذا أعمل، لكن اعتاد الجميع على وجودي بينهم، وبرغم ضيق مروان ونفوره مني، لكن ناجي هو من يدير الأمر.

كان عمر يتابع مباحثاتنا السرية باهتمام، ويضعنا دائماً تحت عينيه، فعندما يجتمع الثلاثة على طاولتي وتلاصق الرؤوس وتدور الهمسات فهو إذن تدبير لشيء خطير.

كنت أتلذذ برؤية الحيرة والترقب في عينيه، وأضحك عندما يحوم حولنا ويحاول أن يعرف فيم نتهامس، وأسعدني التقارب مع ناجي، فهو لم يعد ذلك الطفل الذي يحميه عمر مني أو من أي شخص.

وصلت مباحثاتنا أخيراً إلى أن أنسب شخص يصلح لعمر هي سعاد، بحكم العشرة والألفة وتلك المحبة الكبيرة التي تكنها له.

ولأنه لا يفكر في الزواج وليس لديه رغبة في امرأة بعينها، إذن فسعاد ستقوم بالدور اللازم كما ينبغي.

وبالفعل أظهرت سعاد فرحًا عارمًا بالفكرة عندما تحدث إليها ناجي وسألها عن رأيها، ثم أوصاها بالألا تتحدث إلى عمر أو تبدي له شيئًا.

وعاشت سعاد بضعة أيام تنسج الآمال والأحلام حول زواجها من عمر.

أما أنا، فقد كنت أساعدهم في خططهم، وأنا أخفي بداخلي ألمًا خلفته أمنية حسيرة لم أستطع إخراجها من قلبي.

والتقى الثعالب الثلاثة على عاتقي مسؤولية محاولة إقناعه بالمنطق بضرورة الزواج، فقد كان ناجي موقفًا بأنه بحاجة لينجب طفلة صغيرة يدللها، ويغدق عليها من فيض محبته.

وقال لي بحماس: من لها أب كعمر ستحيا في كنفه كالأميرات.

بدأت محاولاتي مع عمر بتلك الكلمات، وأنا أتأمل وجهه الذي بدأت تظهر به تجاعيد على جانبي العينين وحول الفم، وتسلفت شعيرات بيضاء معدودة إلى رأسه، فأجابني هازئًا: مضى وقت طويل للغاية على أن أفكر في هذا الأمر، ولا حاجة لي به الآن.

قلت: بل هو الوقت المناسب، فقد بدأت بالفعل في دخول نفق الوحدة

- لن أسمح لثلاثة من الصبية أن يديروا لي حياتي.

- انظر إليهم جيدًا، صاروا شبابًا، وناجي لن يلبث طويلًا حتى يبدأ في البحث عن الحب والزواج.

- عليك إقناعهم بأنني لن أوافق، وأن حياتي هكذا أفضل.

- بل ستوافق لأنك تحبهم، وحياتك ستكون أفضل بعد الزواج، أنت تستحق أن تحظى بأسرة وطفل يفتح قلبك للحياة من جديد.

رحلت وأنا أرى في عينيه الخوف، كان يعلم جيدًا أنه لن يستطيع أن يقف أمام حماسهم وإلحاحهم، وأن محبتهم هي نقطة ضعفه.

وفي اليوم التالي بكرت بالحضور قبل موعد فتح المطعم، وقبل حضور سعاد، فما كنت لأفوت المؤامرة.

وبالفعل استطاع الفتية حصاره، والتفوا حوله وكل منهم يلقي بكلمة، وأنا أراقب ذلك المحاصر الجالس في الركن المقابل لطاولتي باستمتاع، لكن ناجي حسم الأمر في النهاية عندما ألقى إليه بنظرته التي لا تخيب، وتعانقت أكفهما ليضعها ناجي على قلبه كما يفعل دائماً.

فناجي يدرك تأثير ذلك جيداً على عمر: أبي، يجب أن تتزوج، لن أحتمل أن أراقبك وأنت تعاني الوحدة، لن أقف مكتوف اليدين وعمر كيمر دون أن تحظى بالقليل من السعادة.

الطريقة الوحيدة التي يمكن هزيمة عمر بها هي الحب، وناجي يجيد استخدامه بمهارة.

أسلوب ناجي جعله يرفع راية الاستسلام ويقبل بسعادة.

وفي لحظة تفجر المكان بالفرح، وانطلق الشباب يقفزون فوق الطاولات ويرقصون (الدبكة) ويغنون بمرح وحماس.

كنت أراقبه من بينهم وهو يجلس مسنداً رأسه إلى الجدار، ويبتسم باستسلام، لكن الخوف لم يبرح عينيه.

ورأيتها..

انتبهت لين لتغير لهجتها، وقد شخص بصرها بعيداً: كان ينظر إليها.

تمتت لين بتعجب: سعاد؟!!

قالت وكأنها لم تسمعها: رأيت شبح المرأة التي يخفيها بين ثنايا روحه.

كنت موقنة بأن رجلاً مثله يمنح من حوله كل هذا القدر من المحبة والأمان والاحتواء، من المستحيل أن يحيا دون حب عظيم يروي فؤاده المعطاء، وفقد أكبر أنضج روحه على جمر الألم.

ذلك الحب الذي دفنه في بئر عميق في قلبه كي لا يدري عنه أحد، ظهر اليوم في نظرة وجد مؤلمة ودمعات اشتياق للماضي تعلقت بأجفانه وأبت أن تلامس وجنتيه.

لم يلحظ أحد سواي ذلك، ممّا جعلني أتوجس من إتمام تلك الزيجة.

وبالفعل لم يكتمل الأمر، ولم ينل عمر أي سعادة من بعد ذلك، فقد حدث بينه وبين ناجي الشرخ الذي لم يبرأ منه حتى الموت.

ارتجف جسد لين من كلماتها، وحاولت أن تطمئن نفسها، فقالت لسانتال: انضم ناجي لفرق الهيب هوب في الشوارع الخلفية، أليس كذلك؟

نظرت لها نظرة جادة: وهل تعتقدين أن سببًا تافهًا كهذا يمكن أن يؤثر في العلاقة القوية التي تربط ناجي بعمر؟

نظرت لين لعيني سانتال وارتجفت أطرافها رعبًا، كانت نظراتها تبدو كنظرات ساحرة في فيلم رعب.

نهضت بسرعة وهي تقول بارتباك: عليّ الرحيل وسأعود...

استوقفتها سانتال بصوت قوي: أتخشين معرفة الحقيقة؟ العرب جميعهم سواء، لا يتقبلون الحقيقة المرة بسهولة، يفضلون أن يعيشوا في الخديعة على مواجهة الواقع.

ناجي أيضًا لم يستطع أن يتحمل قسوة الحقيقة أبدًا، رغم أنه استسلم مرغماً للواقع بعد سنوات طويلة من السخط والرفض لكل شيء.

ترددت لين، فقد كان الأمر بالنسبة لها مخيفًا، كانت تشعر بأن سانتال ستصدمها بأمر جلل. وبرغم خوفها مما ستسمعه، لكنها قررت مواجهة الأمر بشجاعة، فقالت وهي تعاود الجلوس: أكملني..

كان يجلس في الحافلة الصغيرة ينظر شاردًا إلى الطريق، وصور الذكريات تجري في عقله كما تجري علامات الطريق في نافذة الحافلة.

تذكر يوم زواج عمر، كان يخشى عليه الوحدة، الآن هو أيضًا وحيد يستشعر ما كان يعانيه عمر. أجبرته الذكريات على الدخول في التفاصيل المؤلمة، وعجز عن مقاومة تيار الماضي، الذي سحبه نحو الدوامة التي أدخلته في النفق المظلم ليحيا متخبطًا في سنوات العذاب.

تذكر قبل عرس عمر بيوم، كان عائدًا من السوق هو وصديقه: سعد ومروان، بعد أن تجهزوا بما يلزم عمر للزواج، فقد كان متكاسلاً عن أي شيء يخصه، يفعل ويغضب لأنفه الأسباب، وقدرُوا أن ذلك بسبب توتره وقلقه من الزواج، بعد أن أمضى سنوات طويلة وحيدًا.

تعرض لهم بعض المشاغبين المتعصبين في الحي، وقطعوا عليهم الطريق، فاشتبك الثلاثة معهم، وتغلبوا عليهم، لكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد، فقد وصل الخبر إلى عصابات الشباب المتعصبين ضد المهاجرين، هؤلاء الذين هاجموا المطعم من قبل، فتربصوا بهم وراقبوا خطواتهم، وفي الليل هاجمهم بعد أن غادروا المطعم، وابتعدوا عنه بمسافة، واختطفوا ناجي من بينهم بعد أن أوسعوهم ضرباً، وأخذوه إلى مقرهم في أحد الأحياء القديمة، وعاد سعد ومروان إلى عمر وأخبروه بما حدث، فانطلق من فوره إلى هناك لينقذ ناجي، بعد أن أمرهما بعدم الذهاب معه وأن يذهبوا لإبلاغ الشرطة.

واندفع عمر مقتحمًا الحي القديم الذي كان معقلًا للشباب المتعصب، وخاض معركة ضارية من أجل إنقاذ ناجي، وكاد يلقي حتفه لولا أن لحق به شباب المطعم، وتدخلت الشرطة، وخرج عمر من المعركة بإصابات بالغة استنزفت الكثير من دمائه، وكذلك خرج ناجي بإصابات خفيفة، وانتقل الاثنان إلى المستشفى، وتلقى ناجي وعمر العلاج اللازم، أما ناجي فكانت إصابته لا تستدعي بقاءه في المستشفى، لكن عمر كان بحاجة إلى نقل دم والبقاء لفترة، واضطر سعد ومروان وشباب المطعم للمغادرة امتثالاً لنظام المستشفى، وخالف ناجي ذلك وأصر على البقاء بجوار سرير عمر الذي ما يزال نائمًا، كان يتأمل وجهه الشاحب، وشعوره بالذنب يكاد يقتله.

دخلت طبيبة الوردية الليلية لتتابع حالة المريض، وفوجئت بوجود ناجي، فقالت ببرود: ليس من المفترض أن تبقى هنا.

حاول إيجاد حجة مقبولة حتى لا يطرد، فأشار إلى السرير الآخر في الغرفة: أنا أتلقى العلاج هنا.

قالت بصرامة: تقرير الوردية السابقة يقول إنه لا يوجد مرضى هنا سوى هذا المريض!

قال بارتباك: نعم كنت أتلقى العلاج هنا من عدة ساعات، وعليّ أن أكمل علاجي.

قالت: اتبعني.

وقفت في الردهة خلف مكتب التمريض، وأخرجت سجل المتابعة الخاص بحالة ناجي بعد أن أخبرها باسمه، وأخرجت سجل عمر وقرأت التقريرين، ثم قالت: انتهت متابعتك الصحية، ومن المفترض أن تكون قد غادرت منذ ساعات، أما هذا فسيبقى لبعض الوقت.

هتف ناجي: إنه أبي، وعليّ أن أبقى إلى جواره، ربما احتاج لنقل دم.
 قالت بآلية: وجودك هنا لن يفيد بشيء، وإن احتاج لنقل الدم ففصيلة دمك لا تصلح له.
 اشتعل الغضب في نفس ناجي، فاندفع هاتفاً باستنكار: كيف لا تصلح؟ أنا ابنه، وسأ...
 قاطعته بآلية: التقارير تقول إنك بيولوجياً لست ابنه، وفصيلة دمك لا تصلح له، إذن
 فوجودك هنا مخالف لنظام المستشفى.

قال ساخراً: ما هذا الهراء؟! هل فقدت عقلك؟!
 قالت بصرامة: سأنادي رجال الأمن ليطردوك.
 هتف وقد بلغ انفعاله ذروته: لن أترك أبي، ولن أغادر من هنا قبل أن أطمئن عليه.
 تأملته لحظة، ثم قالت: هل تظن حقاً أن الرجل النائم بالداخل أبوك؟
 صمت ناجي لحظات ونظر لها مترقباً، أهى مجنونة أم تكيده؟ أم تستغزه ليغضب ويخطئ ثم
 تستدعي له الشرطة؟

لكنها لم تمهله، بل رفعت إليه التقارير الطبية وقربتها من وجهه، وقالت: فصيلة دمك AB
 وفصيلة دم المريض النائم بالداخل O. ، أعتقد أن الأمر لا يحتاج مزيداً من الشرح، أم أنك لم
 تذهب إلى مدرسة في حياتك؟

تركته وذهبت إلى عملها، وتجمد ناجي في مكانه، وقد فغر فاه وجحظت عيناه وارتجف
 قلبه، وصار كل شيء في رأسه مشوشاً.

مال جسده، فاستند بكفيه إلى مكتب التمريض كي لا يسقط.
 فهو يدرك جيداً معنى كلام الطبيبة من المعلومات التي درسها سابقاً في المدرسة في مادة
 البيولوجي، فالأب إن كانت فصيلة دمه O يصبح من المستحيل أن يكون له ابن فصيلة دمه AB.
 وهذا يعني أن الرجل الراقد على سرير المرض بالداخل ليس والده.

انتفضت لين صارخة: يكفي! يكفي! يكفي!

لا أريد سماع أي شيء، ما هذا الهراء؟ ما الذي يضطريني إلى مجالسة امرأة مريضة لساعات طويلة وهي تجتر ذكرياتها وتعيش في خيالات وهلاوس؟

تطلعت إليها شانتال للحظات، ثم اتسعت ابتسامتها حتى ضحكت.

استشعرت لين أن المرأة قد جُنَّتْ، فهتفت غاضبة: علام تضحكين؟

قالت بمرارة: هو أيضًا رفض تصديق الحقيقة، واتهم الطيبة بالجنون.

شعرت لين بأنها لن تستطيع أن تتحمل كلمة أخرى، فقالت بلهجة صارمة خالية من التهذيب: لن أسمع المزيد، بل سأرحل الآن.

انصرفت مسرعة وكأن الشياطين تطاردها، وعادت إلى البيت وجرت لتختفي في غرفتها، وحاولت الحاجة سعاد التحدث إليها لكنها رفضت واعتذرت منها بأنها متعبة وستخلد للنوم، فلن تتحمل استجواب الحاجة سعاد.

ظلت تدور في غرفتها كالمجانين وهي تتمتم: يا إلهي! أي شيطان ألقى بك في طريقي يا ناجي؟ كيف تفعل بي هذا؟

انسابت دموعها على خديها وانتحبت، كيف تخرج من تلك الدائرة الجهنمية التي ابتلعتها؟ أب ليس بأب، وزوج لا تدري شيئًا عن ماضيه، وكأنه شبح يطاردها في نومها ويقطتها، وكلما حاولت الوصول إلى الحقيقة تسقط في بئر مليء بالأسرار.

هل تصدق شانتال أم تكذبها؟ ليتها كانت أمه فتحل كل الأحاجي، لكنها تنكر ذلك رغم حبها العظيم لناجي ولعمر الكيلاني.

عمر..

كيف لرجل أن يحب طفلًا كل هذا الحب ويضحى بعمره لأجله، ويوقف مسار حياته عليه، ثم يأتي من يقول بعد كل تلك السنوات إنه ليس ابنه؟

أي جنون تحياه؟ ولماذا هي؟ لماذا اختارها ناجي من بين كل المهاجرين ليحملها جبالاً من الأسرار تنوء نفسه بحملها؟

ترى كيف كانت مشاعره عندما تلقى الخبر الذي نسف ماضية وهدم حياته؟
كيف تحمل وحده كل ذلك الألم؟ وكيف استطاع إخفاء الأمر كل تلك السنوات عن كل
الناس حتى أصدقائه المقربين؟ وتركهم يفترضون افتراضات لا أساس لها من الصحة حول
علاقته بشانتال!

انتحبت بآلم عندما هاجمتها فكرة أن ناجي ما كان ليجرؤ على الاعتراف لها أبداً بما يؤلم
روحه.

هل كانت لتقبل زوجها لو اعترف لها بالحقيقة؟ هل كانت لتعاطف معه كما فعلت
شانتال؟

هل كانت يوماً زوجة حقيقية له تشاركه آلامه؟ أم كانت تعتبره وسيلة لتحقيق أحلامها؟
أزعجتها تلك الفكرة للغاية، فما كانت يوماً انتهازية.

أم أنها كانت كذلك؟

هل يمكن أن تتساقط كل الأشياء الطيبة التي نحملها بداخلنا والقيم التي تربينا عليها في
ظل طغيان الظلم؟

هل يمكن أن نفقد ما نحمله من أخلاق دون أن نشعر عندما تتكالب علينا المآسي
والأزمات؟

بعد ليلة حافلة بالأحلام والكوابيس، استيقظت وقد اتخذت قرارها بالمواجهة وعدم
الهروب.

واتصلت بالدار تطلب موعداً آخر للقاء شانتال اليوم.

حمدت الله أنها لم تغضب مما حدث بالأمس ووافقت على لقاءها، فبدون شانتال لن تعرف
لين أبداً حقيقة الرجل الذي تزوجته.

وفي الموعد المحدد، كانت لين هناك في الدار، وبدأت حديثها مع شانتال بأن قدمت لها
الاعتذار والترضية اللائقة، حتى قالت شانتال: لا بأس، أستطيع أن أتفهم مدى صدمتك.

سألتها لين بلهفة: ماذا فعل ناجي بعد أن عرف الحقيقة؟

أكملت شانتال لترضي ذلك الفضول الذي ظهر في عينيها: في البداية واجه الأمر برمته بالإنكار والتشكيك، ثم قرر أن يعيد التحليل ثانية.

انتقى إحدى الممرضات توسم فيها التفهم، وألح عليها أن تأتيه بعينة من دم عمر، في البداية رفضت خشية انكشاف أمرها، لكنه ما إن حكى لها قصته حتى وافقت على تقديم المساعدة، فما من امرأة تستطيع أن تقاوم ذلك الإحساس الذي يستولي عليها تجاه ناجي إذا ما تعلق الأمر بالاحتياج إليها، وناجي في تلك اللحظة كان في أشد حالات الضعف والاحتياج لمساعدة الآخرين. اعتدلت لين في جلستها، وازدردت لعابها، وبدت بعض مشاعر الغيرة تتسلل إلى ملامح وجهها وصوتها: ماذا تعنين؟

ابتسمت شانتال وهي تتأمل ملامحها التي تبدلت للتجهم، ثم قالت: أعني التعاطف بالطبع. انتظرت لحظة حتى بدأت ملامح لين تلين، ثم عادت تحكي: كاد الأمر يمر دون أن يعرف أحد، لكن عمر استيقظ والممرضة تأخذ منه العينة، ولولا أنها ارتبكت أمامه ما كان لي شك بالأمر، لكنه لم يستطع استجوابها إلا بعد أن أخذ ناجي العينة واختفى، ومنها عرف عمر ما حدث، فخرج من المستشفى دون مبالاة بأوامر الأطباء لبحث عن ناجي الذي توجه إليّ دوناً عن كل أصدقائه.

- لماذا؟ هل كان يشك بأنك أمه؟

- لم يعتقد ناجي أبداً في أي وقت من الأوقات بأنني أمه، رغم أنني كنت أتمنى ذلك من كل قلبي.

- إذن لماذا أنت؟

صمتت شانتال لحظة، ثم قالت بأسى: ربما لأنني الوحيدة التي يمكن أن تتقبل حقيقته التي تكشف فجأة دون أن أنظر إليه بنظرة شفقة أو احتقار.

أو ربما أدرك ذلك الرابط العجيب بين قصتي وقصته، فكلانا تحطمت آمالنا وتهدمت حياتنا بسبب عمر الكيلاني.

تنهدت وانساب الدمع من عينيها: أتاني ناجي محطماً، بعد أن أعاد التحليل في مكان آخر وتأكد من النتيجة، وانهار بين يدي مشوشاً ممزقاً لا يدري ماذا يفعل.

لكن عقلي كان في مكان آخر، لقد تلقيت الصدمة التي أذهلتني وأعجزتني عن التصديق، ولم أستمع لناجي بتركيز وهو يشكو لي ويحكي ما حدث، ومشاهد حياتي مع ناجي وعمر الكيلاني تمر أمام عيني وأنا أكاد أجنّ.

انطلقت على الفور إلى المطعم، وهناك كان عمر يجلس وحيداً إلى الطاولة التي جمعته دوماً بالثعالب الثلاثة، كان شاحباً للغاية، وما زال يعاني من آثار الإصابة والجروح التي طالته، لكنه كان شاردًا حزينا لا يشعر بشيء مما حوله.

لم يرفع رأسه ويتبته إليّ إلا بعد أن أخبرته بأن ناجي في بيتي، كانت المرة الأولى التي أرى في عينيه نظرة انكسار على طول سنوات معرفتي به، وكأنها عاد ذلك الشاب الشريد الذي تدمع عيناه هلعاً لفقد صغيره.

لم يقل سوى جملة واحدة بصوت مهزوم: قولي له أن يعود إلى البيت.

استفزني للغاية تجاهله للأمر، كما لو كان ناجي قد ترك البيت بسبب مشاجرة عابرة، فقلت بقسوة: لأي بيت يعود؟ لقد انهارت ثقته بكل شيء.

عليك أن تتحدث إليه وتهدي من روعه.

كرر بصوت مشتت: أخبريه أن يعود إلى البيت.

تملكني الغضب فضغطت على أسناني: هل أنت واعٍ للكارثة؟ ناجي لن يعود إلى البيت قبل أن يحصل على إجابات تطفئ بركان الحيرة الذي ألقى فيه، يجب أن تعترف له بالحقيقة التي أخفيت لها كل تلك السنوات.

- لا أحد يملك الحق في استجابي.

- إنك بهذا تسلبه حقه في معرفة الحقيقة!

- أية حقيقة؟

- من تكون أمه؟

أخذت أترقب ما سيقول، وفي قلبي نار تشتعل..

لكن فضولي تحول إلى بركان من الغضب والنقمة عندما أجابني: ليس من حق أحد أن يسألني هذا السؤال.

انفرط زمام قدرتي على التحمل فانفجر سخطي بوجهه: ليس بعد أن دمرت حياته تقول هذا! ناجي من حقه أن يعرف مَنْ أمه!

كانت الرغبة الجارحة في معرفة المرأة التي استولت على قلب عمر حتى صار أسيرًا لها ولابنها قد سيطرت عليّ بشكل جنوني.

قلت والنار تأكل كبدي: من تكون تلك المرأة التي ألقت إليك بطفل ليس ابنك لتغدق عليه كل هذا الحب وتمنحه كل حياتك دون مقابل؟

تفجرت في قلبي مشاعر الحقد تجاهه، وتحولت إلى رغبة عارمة للانتقام منه عندما صاح في وجهي: لا شأن لك بما بيني وبين ناجي، هو ليس ابنك.

- كاد يومًا أن يكون، لكنك انتزعتني مني وحرمتني من أن يحظى بحياة رغيدة في كنف أم ثرية، وحرمتني أن أصبح أمًا صالحة، فوجود طفل كناجي في حياتي كان كفيلاً بإبقائي امرأة نظيفة راقية، والآن هو على استعداد لأن يصدق أي شيء بعد أن فقدت مكانتك لديه كأب. زأر في وجهي بغضب: إياك أن تكذبي عليه.

جعلني غضبه العارم أشعر بالتشفي، فقلت أغيظه: لم يعد من حقل أن تتحكم في حياته بعد الآن.

نهضت من مكاني لأغادر وأنا أقول بغل: سأحظى بالابن الذي حرمتني منه طيلة السنوات الماضية.

استفزت المارد الكامن بداخله، فانتفض من مكانه وأزاح الطاولة التي بيني وبينه بعنف وألقاها بعيدًا ليتهشم جزء منها، ثم قبض على عنقي وهو يزأر بغضب عارم ووجه محمر بالغضب: إياك أن توحى إليه كذبًا أن مومسًا مثلك قد تكون أمه، واعلمي أن أي شخص مهما كان يحاول إيذاء ذلك الصبي سأنتزع روحه بلا رحمة.

اشتعل الجنون في روحي فصرخت في وجهه: من تلك المرأة التي أخفيت خطيئتها عن العالم؟

صرخ بعنف وهو يعتصر عنقي بين أصابعه: اخربي، إياك أن تأتي على ذكر أمه بلسانك القذر، تلك المرأة كانت قديسة، وهذا ما لن يفهمه أمثالك أبداً.

كنت على استعداد تام أن أقضي بين يديه بنفس راضية إن كانت حياتي ثمناً لأعرف من هي أم ناجي، تلك المرأة التي سلبته عقله وقلبه لينعتها بالقديسة ولها ابن لا أب له! ترك عنقي، فأخذت أسترده أنفاسي وأسعل من جراء ضغط كفه القوية.

خرجت من المطعم وقد امتلأت روعي بالنقمة وقلبي بالغل، وأقسمت ألا أترك ناجي بعد الآن، حتى وإن نفذ عمر تهديده وقتلني بيده.

أخذنا ندور نحن الثلاثة في طاحونة تهرس أرواحنا، ومضت بنا الحياة في طريق الخسارة والفقد. خسرت مقعدي وقهوتي الصباحية في مطعم ناجي، وخسرت القرب من عمر. خسر عمر الشيء الوحيد الذي يعيش لأجله، وانطفأ النور من حياته، وصار همه الوحيد انتظار الموت على شوق.

أما ناجي، فخسارته هي الأعظم، لقد خسر نفسه.

خسر ناجي وصار «مايتر جينا».

اتخذ من الشوارع الخلفية مأوى، ورافق فتاة لا يعرف حتى اسمها، وعاش حياة عصابات فتية الشوارع، وصارت موسيقى وأغاني الشوارع هي ما يجلب له المال، وقطع كل علاقة له بحياته السابقة.

تنهدت شانتال ببطء وعجزت عن المتابعة، وقد غلبها النحيب.

عجزت لين عن منع عينيها من سكب دمعاتها، لقد انتقلت إلى مشاعرها معاناة ناجي عن طريق كلمات شانتال، واستشعرت مدى ألمه في دموعها.

هزت شانتال رأسها أسفاً: خسرت كليهما، فلم يصدق ناجي أبداً أنني أمه، وأنا بدوري لم أحاول إقناعه، كما لو كنا نمثل في مسرحية فاشلة لجمهور من فرد واحد يعلم يقيناً أنها مسرحية فاشلة، كانت محاولة خائبة لإجباره على الاعتراف بما يخفيه.

لكن زحزحة جبل عن مكانه أسهل من إجبار عمر على البوح بسرّه.

في هذا الوقت كنت قد اعتزلت عملي من فترة، وأتعيش من فوائد المال الذي اكتسبته لسنوات، وكان بيتي هو محطة يمر عليها ناجي من وقت لآخر، لم يكن يقيم في بيتي إقامة دائمة، برغم أنني خصصت غرفة دائمة له، وكان أحياناً يأتي إلى مصطحباً إحدى فتيات الشوارع، يقضى معها بعض الوقت ثم يرحل مجدداً، ولا أستطيع الاعتراض أو إبداء استيائي لأي تصرف يقوم به، فقد كنت أخشى أن يرحل للأبد.

لكنني كنت مخطئة، فما كان ليرحل أبداً مهما فعلت به.

فهمت متأخراً لم أقطع علاقته بي ويمحوني من حياته ككل شيء له علاقة بحياته السابقة، ولم يبقني دائماً على علم بمكانه، فأنا حلقة الوصل الأخيرة بينه وبين عمر.

فهمت هذا عندما أتاني مروان مكرها عدة مرات ليلتقي ناجي ويحاول إقناعه بالعودة إلى البيت، وكان ناجي لا يتخلف أبداً عنه، برغم أن لقاءهما كان ينتهي دائماً بشجار عنيف مأساوي.

وبقي الوضع متجمداً لسنوات، حتى ظهرت جانيت.

انتبهت لين عندما شعرت بشوكة مؤلمة تنغزها في قلبها، فازدردت لعابها بصعوبة، وحاولت أن تبدو طبيعية أمام شانتال التي انتبهت جيداً إليها وأخذت تتفحصها بدقة، وهي تقول: جانيت صحفية جريئة وجميلة، وتحمل قدراً كبيراً من الذكاء والتفهم، التقت ناجي في ظروف شديدة الغرابة، وكانت سبباً في اجتماع ناجي وعمر في بيتي.

ابتسمت شانتال وتوقفت عن الكلام، وهي تراقب ذلك التوتر الذي استولى على ملامح لين وحركاتها، والوهج الغاضب المشتعل في عينيها.

قالت لين بنفاد صبر: ها.. وبعد؟

- وبعد ماذا؟

- لم توقفت؟

- وكيف أكمل وأنت على ذلك القدر من التوتر؟

- لست متوترة. (هتفت لين بصوت مهزوز).

- لا داعي للغيرة، فجانيت ما هي إلا...

- مهلاً مهلاً، لا تفترضي افتراضات ليست صحيحة.

ضحكت شانثال: يا بني، لم تمر سنوات عمري الطويلة هباءً، أستطيع أن أستشعر غيرة امرأة من أنفاسها، من نبرة صوتها، من نظرات عينيها الزائغة، من نيران قلبها التي تنضح بألوانها على وجنتيها.

أتخجلين من الاعتراف بأنك تغارين على زوجك؟ ناجي يستحق ذلك وأكثر.

هزت لين رأسها ومسحت وجهها لتسيطر على مشاعرها، وهي تتعجب من ذلك الموقف العجيب الذي اضطرها لمجالسة امرأة تزن الرجال بمقاييس تحكمها مهنتها.

والتقطت شانثال بذكاء ما يدور بعقلها وكأنها تقرأ أفكارها، فقالت وكأنها ترد عليها: ناجي يحمل بداخله شيئاً أعجز عن وصفه، إنه أشبه بلمسة سحرية موجهة لمن يحبهم خاصة، تتبدل حياتهم بها للأبد.

تعجبت لين من كلامها، فتلك هي المرة الثانية التي تسمع منها هذا التعبير، ممّا جعلها تفكر ملياً، هل عرفت ناجي يوماً على حقيقته؟

أكملت شانثال مستغرقة في حكاياتها: لقد حاول جاهداً أن ينسلخ من روحه ويخرج من كل ما رباه عليه عمر، لكن عند أول محك انضح للجميع -وهو أولهم- أنه لن يستطيع أن يتخلى عن شخصيته الحقيقية.

كانت جانيت صحفية جريئة تهتم بشئون الشرق الأوسط، ولها آراء معارضة قوية جداً لسياسات فرنسا الخارجية، وتورطها في بعض قضايا الشرق الأوسط، بخلاف القضايا الداخلية كالالتجار بالبشر والعنف ضد المرأة، مما خلق لها أعداء كثرًا، لكن لقاءها بناجي وتعرفها إلى عمر أضاف لأنشطتها الحقوية العنصرية والقوانين الجائرة التي تستهدف المهاجرين والمسلمين.

ساقته الأقدار للمنطقة التي يلتقي فيها ناجي بفريق سنومي، فقد كانت تحاول الهرب من مطاردة بعض رجال العصابات المتورطين بالاتجار بالبشر، وكانت مهمتهم تأديبها لتتوقف عن تتبع أنشطتهم غير القانونية وفضحهم في الصحف.

سمع ناجي صوت صرخات مكتومة من أحد الشوارع القريبة، فتتبع الصوت حتى وجد بضعة شباب يمسكون بامرأة ويثبتونها بأيديهم إلى الأرض ويشرعون في نزع ملابسها، فوقف أمامهم وأمرهم بأن يطلقوا سراح المرأة، لكنهم استخفوا به، وتوعدوه بتكسير عظامه، وعندما تحداهم تركوها وعزموا على قتله كي يكون عبرة.

لم تتخيل جان أن هناك أحداً يمكن أن يقحم نفسه في موقف كهذا ويضحي بحياته لينقذها. بدأ حفل الضرب والتنكيل العنيف بناجي، فصرخ ناجي بها: اذهبي إلى مطعم ناجي وأخبريهم أن ها هنا عملية قتل تتم لشاب عربي. فنجحت في الهرب منهم والوصول إلى المطعم كما أملاها عنوانه.

دأب ناجي من صغره على أن يتصدر لمعارك غير متكافئة، ولم يكن ينتصر فيها دون مساعدة صديقيه، لكنه أبداً لم يستسلم أو ينسحب من أية معركة، وكنت أتعجب حقاً من المفارقة العجيبة..

ناجي يستطيع مواجهة العالم في معركة غير متكافئة، لكنه يعجز عن مواجهة أقرب الناس إلى قلبه!

كان بالفعل على وشك أن يلقي حتفه، ولم ينقذه منهم إلا أن أحدهم تذكر اسم مطعم ناجي، وعرف ما الذي يمكن أن يحدث إذا ما أتى رجال المطعم لينقذوا الشاب العربي، فتركوه غارقاً في دماؤه وهربوا قبل أن يصل رجال المطعم.

تحامل ناجي على نفسه حتى استطاع أن يعود إلى بيتي وحده، ففزعت من منظره وأحضرت له طبيباً كان فيما مضى صديقاً لي، فقد خشيت أن يكون متورطاً في أمر ما غير قانوني، فلم أستطع أن أفهم منه شيئاً وهو بحالته تلك.

أما عمر فقد فهم على الفور الرسالة التي ألقتها جان إليه، وعرف أنها من ناجي، فانطلق معها من فوره وخلفه شباب المطعم إلى المكان الذي تركت به ناجي، رأى عمر آثار المعركة وعرف أن ناجي أصيب، لكنه لم يجده، فذهب إلى بيتي..

وكانت المرة الأولى التي أرى فيها جان..

لم يتحدث عمر إليّ، بل اندفع يقتحم غرفة ناجي، وعرف من الضمادات التي التفت حول الكثير من أجزاء جسمه أنه كان تحت رعاية الطبيب، فالتفت إليّ وحدثني لأول مرة منذ سنوات: ماذا قال الطبيب؟

قلت وقلبي يحترق من التلهف: سيكون بخير، جراحه ليست خطيرة وسيشفى عما قريب. هدأ عمر قليلاً وجلس على طرف الفراش، وأخذ يتفحص جسد ناجي بعناية ووجهه المتورم الممتلئ بالجروح، ويطمئن على إصاباته بنفسه، فانتفض ناجي من نومه يشهق فرعاً، ورفع رأسه والخوف يبدو في نظراته وكأنها يظن أنه أحد مهاجميه، ولكن عندما التقت عيناه بعيني عمر استرخت ملامحه وغمره الاطمئنان وعاد له الهدوء، وامتلاأت عيناه بنظرات الحنان والشوق، فمد كفه إلى عمر الذي تلقاه بلهفة واشتياق، ليتعانق الكفان ويسحبه ناجي ليضعه على قلبه كما كان يفعل دوماً، ويستلقي مغمضاً عينيه مستغرقاً في نوم هادئ مطمئن.

عجز عمر عن إخفاء دموعه، ووقفت أنا وجان في صمت احتراماً لتلك المشاعر الجياشة. كنت على يقين من أن ناجي مهما ابتعد فسيبقى حبه لأبيه راسخاً في قلبه، وإن توارى خلف مشاعر السخط.

كانت جان منبهة بتلك العلاقة العميقة التي تربط عمر بناجي، لكنها كالجميع تعتقد أن سبب الشقاق وابتعاد ناجي عن أبيه هو رغبته في التحرر والاستقلال، بعيداً عن تحكمات أبيه وأفكاره الرجعية وعاداته الشرقية.

أما عمر فقد استجوب جان في أول يوم وعاملها بشك وارتياح، حتى تبين له أن لقاءها بناجي تم بالصدفة، وأنها لم تكن تعرفه قبلاً.

وصارت جان تتردد كل يوم على بيتي لتطمئن على ناجي إلى أن استرد عافيته، حتى صارت صديقة له، وتقبلها عمر بعد أن تعرف إليها وعرف نشاطها.

لم يكن ليمر الأمر بين عمر وناجي دون مواجهة، رغم حرصهما البالغ في البداية على تجنب الحديث المباشر، أو الخوض في الأمور المؤلمة.

ومع اقتراب شفاء ناجي اقترب موعد الفراق من جديد، لكن عمر أراد حسم الأمر وإنهاء ذلك الوضع المؤلم.

كان ناجي يقف أمام النافذة شاردًا يتظاهر بتأمل المدينة العريقة، لكنه في الحقيقة كان غارقًا في أفكاره.

وقفت أنا في مكان قريب بحرص لا يصل نظر أحدهما إليّ، فما كنت لأفوت حديثًا لهما قد يعترف فيه عمر ولو مصادفة بما يخفيه.

وقف عمر إلى جواره وقال بهدوء: عليك أن تعود إلى البيت.

تنهد ناجي بألم وتبدلت ملامحه للعناد: لن أعود قبل أن أعرف الحقيقة كاملة، كل ما حدث في الماضي.

تصلبت عضلات وجه عمر وعلاه الجمود: ما الذي تريده من ماضي عجز كل من عاشه حاضرًا أن يغيروا واقعهم المؤلم؟

أخذ شهيقًا عميقًا، وبدا كأنه يحاول التماسك: دع الماضي في قبره، ولا تنبش الجراح كي لا تحرق كل شيء.

قال ناجي بعناد: يجب أن أعرف الحقيقة.

كانت دموع عمر قريبة: الحقيقة الوحيدة التي أعرفها هو أن القدر جمعني بك في دنيا بلا رحمة لنبقى معًا كأب وابنه، وعلينا أن نبقي كذلك حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

التفت له ناجي وقد بدت الحمم الملتهبة تخرج من قلبه لتحرق جوفه وتكوي فؤاد عمر: أب وابنه؟ لم تتعامل معي أبدًا كأب حقيقي، لم تصفني يومًا كأبي سعد، لم تحبسنني في البيت وتضربني كأبي مروان.

تحشج صوته بالتأثر واحمر وجهه من الانفعال وسالت دموعه غزيرة: لم تفعل بي ما يفعله الآباء الحقيقيون.

هتف عمر بانفعال ووجهه يستقبل السيل القادم من مدامع عينيه: أتقيس محبة الأب بالضرب والقسوة؟

صرخ ناجي في وجهه بألم وهو يقبض على قبضته ويرفعها أمام وجهه: نعم، لم تكن تعاملني كابن، بل كيتيم قذفت به أمواج الحياة إلى مركبك، فكفلته ورعيته لتحظى بالأجر والثواب العظيم. كنت دائماً آمناً من قبضة (المعلم)، وموقناً بأن تلك الأصابع لن تمس يوماً وجهي بسوء، فما كنت لتجروا على صفع يتييم.

أطبقت أصابع كف عمر الأيسر على رقبته، وجذبه إليه بعنف وهو يصرخ غاضباً ودموعه تسيل: أيها المخبول! أظن أن الأب فقط هو من يضرب ابنه؟ إذن فلتتحمل ما جلبته على نفسك.

لكمه عمر في وجهه عدة لكعات وهو يبكي حتى أدمى شفتيه، فانفجر ناجي متحجباً وأمسك بقبضته يقبلها مرات ومرات ويغرقها بدموعه، فاحتواه عمر بين ذراعيه.

ولم يجد ناجي ملاذاً لألمه سوى أحضان الرجل الذي اختاره القدر ليتشله من أمواج الحياة المتلاطمة، ويمنحه حباً ربما ما كان ليستطيع أبوه الحقيقي أن يمنحه إياه.

في تلك الليلة المؤلة أدركت أن مشكلة ناجي الحقيقية لا تكمن في عدم معرفته حقيقة أبويه ومن هما، بل في أنه لا ينتمي لذلك الرجل الذي كان له يوماً الحياة بكل ما فيها.

رفض ناجي العودة مع عمر إلى البيت رغم محاولاتي أنا وعمر لإقناعه، وفي النهاية استسلم عمر على مضض، وودعه بعناق أبوي حانٍ وهو يمسح على رأسه ويربت على ظهره، وقال له جملة لم ندرك أنا وناجي معناها في وقتها: الأيام تجري بسرعة، وتفتلت من بين أيدينا، فقط أرجو من الله ألا يقتلنا الندم على تلك الأيام التي نهدرها في فراق لا طائل من ورائه سوى الألم. وهذا ما حدث بالفعل، فما زال ناجي يكابد آلام الندم، لأنه لم يستطع أن يفهم ما كان يعنيه عمر في وقته.

لم يفهم إلا بعد أن أتاه مروان بعدها بأكثر من ستة أشهر، وهذه المرة لم يتشاجر معه كعادته، بل جاء ليلبغها أن (المعلم) يحتضر في المستشفى بفعل داء السرطان.

(٢٣)

خرجت لين من عند شانتال بعد أن استمعت منها لفصل القصة الذي عاشته مع عمر وناجي.

ركبت سيارتها وأخذت تفكر في كل ما سمعته منها.

لم يكن عمر الكيلاني رجلاً عادياً، بل كان بين المهاجرين بطلاً كما وصفه ناجي، وهذا مما زاد من عمق مأساته، إذ كيف له أن يفقد فجأة كل ما كان يرتكن إليه من مال ونسب وحماية كابن (المعلم)؟

لم تستطع لين أن تغفو إلا بعد صلاة الفجر، لكنها استيقظت بعدها بوقت قصير علي مكالمة من أمينة تخبرها بصوت فزع بالكارثة التي حلت بأحمد ورغد، فأحمد يرقد بين الحياة والموت في المستشفى، ورغد معها في البيت الذي تعيش فيه مع زميلاتها مصابة بانهايار.

وعندما سألتها لين عما حدث، أجابتها بأن مجموعة من الشبيحة هاجموا في طريق عودتهما من المطعم ليلاً، وضربوها وكادوا يقتلونها.

أسرعت إلى المستشفى التي يرقد بها أحمد مصاباً، وأمام قسم الرعاية كانت أمينة تنتظرها، ومعها صالح وبعض أصدقاء أحمد، وكان أول سؤال سألته لين لهم: كيف حاله الآن؟

أجابها صالح بأسى: الطبيب قال إنه سينجو.

قالت: من فعل به ذلك؟

أمينة: لم نتأكد بعد، لكنه تشاجر مع إياد شجاراً عنيفاً خارج الجامعة منذ يومين.

تمت لين بغل: إياد!

حكّت لها أمينة باختصار: اتصلت بي رغد منذ عدة ساعات، وأخذت تصرخ في الهاتف بأن أحمد يموت، لم أستطع أن أفهم منها شيئاً سوى المكان الذي هما فيه، فاتصلت بصالح واستطعنا نقل أحمد إلى المستشفى.

قالت بقلق: وأين رغد الآن؟

قالت: مع صديقاتي في البيت الذي أسكن فيه، وأعطوها بعض المهدئات.
اتجهت لين للطبيب المسؤول عن حالته، واطمأنت منه أن الحالة مستقرة، ولكن يجب أن يبقى يوماً آخر تحت الملاحظة في قسم الرعاية، ثم سمح لها بزيارته.
دمعت عيناها عندما رأت جسده المسجى الممتلئ بالإصابات، ووجهه المتورم من الكدمات، تماسكت والغضب يشتعل في قلبها وهي تفكر: أي شيطان أنت يا إياد لتفعل هذا بالشباب المسكين؟!

ارتدت إليها ذكرياتها المريعة وكل ما فعله إياد بها في تلك اللحظة، فامتألت نفسها بالغضب العارم والرغبة في الانتقام، كم كانت وقتها ضعيفة وحيدة لا تستطيع دفع ضرر ولا حماية نفسها! لكن الآن، الوضع مختلف.

وفي لحظة ما تساءل عقلها: هل كان ليحدث هذا لأحمد لو أن (المعلم) حي؟
تذكرت فجأة أن أحمد ورغد كانا يقضيان وقت فراغهما في المطعم، يساعدان في الإصلاحات.
عندما فتح أحمد عينيه ورآها حاول أن يتسم وهو يقول بصوت واهن: شكراً لأنك أتيت لزياتي.

قالت باهتمام: من فعلها؟

صمت، فاستحثته بصوت يمتلئ غلاً: إياد، أليس كذلك؟
قال بتأثر: لا أريده أن يؤذي رغد، لقد طلبتها للزواج بالأمس ورحبت بسعادة.
أدارت لين ظهرها له وقد بلغ انفعالها أقصاه، ووضعت كفها على فمها تحاول جاهدة ألا تتنحب، فقال: كنت أصطحبها إلى بيت الطالبات ليلة أمس، فما كنت لأتركها تسير وحدها ليلاً، لكن باغتونا هو والشيخة بالهجوم، وهددني بأنه في المرة القادمة سيؤذيها هي.
التفتت له ودموعها تسيل على خديها، وقالت بحزم: أعدك أنني لن أسمح له بذلك، سأحرص على أن ينال عقابه.

قال بمرارة: الشرطة لن تستطيع إثبات أي شيء، إياد لا يعمل وحيداً.
ابتلعت دموعها، وقالت مبدلة الحديث: عندما تتعافى وتخرج من المستشفى، أعدك أن

خطوبتكما ستتم في حديقة بيتي .

تجواب معها، وقال باسمًا: وهل سيغنى لنا ناجي أغاني الأعراس الشامية؟
اسم ناجي أضاء في قلبها قبسًا من السعادة، فقالت باسمة وهي تقاوم دموعها: نعم، سيره
ذلك كثيرًا.

فقال مازحًا: إن كان الأمر كذلك، فهل يمكن أن أغادر المستشفى اليوم؟
تركته لين، وأوصت صالح ألا يتركه، ثم رحلت هي وأمينة لتطمئن على رغد.
كانت رغد تعاني صدمة الخوف، وتنتابها نوبات البكاء من وقت لآخر، فاحتضنتها لين بقوة
وربتت على ظهرها، وقالت تطمئنها: أحمد بخير، اطمئني، لن يستطيع أحد إيذاءك بعد الآن.
التفتت لأمينة وقالت مباشرة: احزمي حقائبك وحقائبها، ستأتين معي إلى البيت.
هتفت أمينة: ولكن.. ناجي؟
قالت لين بثقة: سيرحب بذلك.

ابتسمت لرغد وهي تقول: وعدت أحمد بأنه سيغني لكما في حفل خطوبتكما.
هتفت أمينة وهي تصفق بفرح: هل طلبك أحمد للزواج؟
هزت رغد رأسها وهي تمسح دموعها وتبتسم للين: هل أخبرك؟
قاطعتها أمينة مازحة: ذلك الماكر لم يخبر أحدًا سواك، لن ينجو مما سيفعله به صالح
والأصدقاء.
كانت متعجبة من نفسها..

هل صارت تعرف كيف يفكر ناجي وتتوقع رد فعله؟
من أين أتتها تلك الثقة بأنه سيقبل بكل خطوة تخطوها؟ ترى، هل لو كان هذا الموقف
حدث في الفترة التي سبقت رحيله، هل كانت ستتصرف بنفس الثقة؟ هل كانت تعرفه حقًا
وتعرف كيف يفكر؟

كانت أعصابها مشدودة، وعقلها يعج بالأفكار ومشاعرها مشتعلة بالغضب، وأخذت تفكر ملياً فيما ستطلبه من بيت، وفي ردود أفعاله، وكيف تجبره على فعل ما تريد.

دخلت المطعم فاستقبلها سعد والشاب محمد بترحاب، واطمأنت منهما على سير العمل والإصلاحات، وسُرَّت كثيراً بأن الإصلاحات قاربت على الانتهاء، وسيتم إعادة افتتاح المطعم قريباً، فتركتها يكملان العمل.

واتجهت لبيت وقالت أمرة: أريدك في عمل هام.

انتحت به جانباً وجلسا إلى إحدى الطاولات في آخر المطعم، وقالت باهتمام: سأعطيك بيانات شخص وأريدك أن تتحرى عنه، أريد أن أعرف على وجه الدقة هل هذا الشخص له علاقة بيوسف منير أم لا.

- وما شأنك أنت بيوسف منير؟ ألم تتعطي مما حدث سابقاً؟

- سمعني جيداً، ستنفذ ذلك وفي أسرع وقت.

- لن أفعل شيئاً من هذا الجنون أبداً، وأحذرك من الاقتراب من يوسف منير، فناجي لا تنقصه مشكلات جديدة توقعينه فيها بتهورك.

- بماذا يهددك يوسف منير؟

فاجأه سؤالها، فارتبك وتغير لون وجهه، وقال بتوتر: لا شيء، وهو لا يهددني.

قالت بحزم: أنت تكذب.

- لم يبقَ إلا فتاة غرة مثلك أنقذها الزواج من شاب ثري من التعفن في خيم اللاجئين لتحديثي بتلك الطريقة!

صمتت لين لحظات لتسيطر على بركان الغضب الذي يوشك أن ينفجر في وجهه، ثم قالت بوعيد: حسناً، فلتتحمل ما جناه عليك لسانك القذر، واعلم أن ناجي لن يرحم من يهين زوجته.

انتفض معتذراً: أنا آسف، أعذر عماً قلته، فقد كانت زلة لسان.

- عليك أن تفهم جيداً أنني ربة عملك، وإذا ما أطعت أوامري وأظهرت لي الاحترام الكامل، فلن تفقد وظيفتك.

قال بتوتر: سأنفذ أي شيء تطلبينه بعيداً عن يوسف منير.

- حسناً، فلنبداً القصة من البداية، ما علاقتك بيوسف منير؟ وبِمَ يهددك؟ وما دخل ناجي بالأمر؟

- ناجي لا علاقة له بيوسف منير، إنه فقط...

أكملت عندما صمت وبدأ على وجهه التردد: إنه فقط يحاول إنقاذك، أليس كذلك؟

لم تحتج لتأكيد منه لكلماتها، فقد كانت ملامحه المرتبكة ونظرة الأسف في عينيه كافيين لتعرف أن كلماتها أصابت الحق، واستغرق بيتر بعض الوقت ليتمالك أمره ويحجب عن سؤالها بخصوص علاقته بيوسف، مما أعطى لعقلها مساحة من التفكير في ناجي، فكيف لها أن تكون واثقة لهذه الدرجة أن ناجي سينتصر لها من صديقه بيتر؟

لم تراودها ذرة شك واحدة في رد فعله، بل باتت تتصرف بثقة مطلقة، معتمدة على ما يحمله لها من رصيد كبير من الحب.

أخفت بداخلها ابتسامة كادت تستولي على ملامحها، فلا شيء يضاهي لديها ذلك الإحساس بالأمن عندما يتعلق الأمر بذكر ناجي.

بدأ بيتر في قص الحكاية من البداية، وأصغت لين إليه باهتمام وهو يقول: كنت كأبي شاب نشأ في أقاصي الصعيد، تخرجت في كلية الحقوق ولم أجد عملاً في مصر، فانضمت لركب الشباب الذين غادروا قراهم في الصعيد إلى أوروبا هرباً من البطالة والفقر المدقع، مجازفين بأرواحهم على زوارق الموت لاجتلاب الرزق وتحسين أحوال ذويهم، الذين باعوا كل ما يمتلكون لمساعدة أبنائهم في الوصول إلى أوروبا.

كان حظي حسناً ووصلت إلى وجهتي سالماً، بعد رحلة معاناة قاسية في البحر، ولجأت لأحد أقربائي الذين سبقوني إلى أوروبا ببضع سنوات، فأوصى بي إلى أحد المحامين القدامى هنا، وهو مصري فرنسي وأحد أعضاء منظمة شهيرة معارضة في المهجر، وصديق مقرب من يوسف منير، العضو بنفس المنظمة.

ألحقني ذلك المحامي بالعمل معه، وكان يكلفني بأعمال كثيرة عندما لمس رغبتني في إثبات ولائني له، والرغبة الشديدة في الحصول على المال في أسرع وقت لتسديد ديون أبي، وتعويض

ما باعته أُمِّي للإِنفاق على تكاليف سفري.

لم أمانع عندما كان يرسلني لصديقه يوسف منير لأنجز له بعض الأعمال ويمنحني مقابلها أجرًا مجزيًا، حتى صرت أحد رجاله، وحزت ثقته.

و بالتدريج بدأت أتعرف على العالم السري ليوسف منير، عالم الاتجار في أي شيء وكل شيء.

سلاح، مخدرات، دعارة، فتنة طائفية، حتى وصل به الأمر للمشاركة في تمويل الفيلم المسيء للمسلمين.

وقتها لم أكن أبالي بأي شيء، كنت فقط أريد المال، ونجح هو في السيطرة التامة عليَّ بإعطائي ما أريد وأكثر، ولكن على سبيل الدَّين الواجب السداد.

وقتها لم أكن أدري بأنني وضعت رقبتني على حد سكينه، فقد كانت ثقتي به مطلقة، باعتباري أحد رجاله.

ثم عرفت فيما بعد أنه أحد الأقطاب الذين شاركوا في إعلان دولة انفصالية في المهجر للأقباط، ولكنني لم أستطع أن أتخذ موقفًا جادًا، كنت مشوشًا للغاية وواقعيًا تحت تأثيره، وأخذت أقنع نفسي بأنه لا دخل لي بالسياسة والصراعات السياسية، فليفعل الكبار ما يريدون، فما نحن إلا كائنات ضعيفة لا وزن لنا ولا صوت، نسعى فقط خلف لقمة العيش، وفي النهاية لن تضار دولة بحجم مصر ولها جيش كبير يحميها، من بضعة إعلانات دعائية لدولة هي فقط اسم بلا وجود حقيقي على الأرض.

هتفت لين بدهشة: يوسف منير أقنعك بذلك؟! وأنت صدقته؟!!

علامات الأسف والندم في ملامحه كانت خير جواب عن سؤالها، ولكنه قال: لم يكن أمامي بديل سوى التصديق، فرقبتني بين يديه، ولكن عندما أدخلوا إلى نفسي ليلاً، كانت تملأ أصوات من داخلي تنبهني أن هناك خطأ، وأنني لا بد أن أتوقف وأبتعد عن طريق يوسف منير.

ولكن حدث بعد ذلك ما جعلني أفكر جدًّا في الابتعاد.

التقيت محمدًا الذي اتخذ نفس الطريق الذي خضته إلى فرنسا، وهو أحد أبناء قريتي، ورفيقي في المدرسة الإعدادية والثانوية، وكنت أسعد بصحبته عندما يدعوني لتناول غداء

بسيط مع زملاء سكنه من المصريين، ونسهر معاً على القهوة في الحي العربي نستعيد ذكريات الصبا والفتوة والأيام الجميلة، لكن النقطة الفاصلة في علاقتي بيوسف منير، هي تلك الحادثة التي حدثت بين مسلم ومسيحي من أبناء قريتي، بسبب خلاف معتاد على مال.

لكن الأمر تطور بصورة لا تصدق وتحول إلى إحراق كنيسة، وكاد يشعل فتنة بين أبناء القرية، مما بثَّ الرعب في نفوس الكثير من المسيحيين، وجعل بعض الأسر تفر من القرية.

استغل يوسف منير الأمر، وقد كان يستشعر تغيراً ما في علاقتي به، فقد بدأت أتهرب من المهمات التي يكلفني بها، وأتذمر أحياناً، فاستدعاني ليطلعني على الحادث، وحكى لي القصة بصورة مبالغه أفرغتني، فخرجت من عنده مشوشاً لا أرى أمامي، وفي عقلي أتخيل صورة أهلي وهم يهربون من القرية خوفاً من هجوم المسلمين عليهم، وأنهم مهددون بالقتل أو إحراق البيت، أو الاعتداء عليهم.

كان أول ما فعلته هو أنني اتصلت بأختي التي تزوجت في بلدة مجاورة، فأخبرتني أن أسرتي تقيم في دار الحاج إسماعيل جارنا، وعندما اتصلت بالحاج إسماعيل وتحدثت إلى أبي وأمي فهمت الصورة الحقيقية التي كان يحاول يوسف منير أن يقنعني بضدها، فلم تجد أسرتي داراً تحتمي بها سوى دار جارنا المسلم الحاج إسماعيل، الذي يحمل لحمي جزءاً من حليب زوجته التي أَرْضَعَتْنِي مرات مع ابنتها الوسطى.

أدركت وقتها حجم الخطر الذي يمكن أن يتعرض له أهلي وأهل بلدتي، نتيجة لتصرفات بضعة أشخاص يتلاعبون بحياة البشر لأجل مصالحهم الشخصية.

هؤلاء الذين يسكنون القصور ويمتلكون جوازات سفر بجنسيات أخرى، ولا يحتفظون بجواز سفرهم المصري إلا عندما يتعلق الأمر بإشعال الفتنة أو تفريق أبناء الوطن الواحد.

وكان عليَّ النجاة من بين أذرع الأخطبوط المرعبة، ولكن كلما حاولت الابتعاد عن يوسف منير يأتي بي، مرة بالإغراء ومرات بالتهديد.

تركت مكتب المحامي وصرت مطارداً من رجال يوسف منير، وعندما يقرصني الجوع كنت أتجه إلى مطعم ناجي آخر الليل لأحصل على وجبة مجانية لمن ليس لديهم مال، وذلك بعد أن دلني عليه صديقي محمد.

ذات ليلة تبعني رجال يوسف منير إلى هنا، وأوسعوني ضرباً أمام المطعم، حتى تدخل عمر الكيلاني ومعه الثعالب الثلاثة لإنقاذني من بين أيديهم، بعد أن كدت أفقد الأمل وأستسلم للموت يأساً من أن تمتد لي أي يد للمساعدة، وعرفت فيما بعد أنه ما كان (المعلم) ليترك عربياً في محنة دون أن يتدخل لإنقاذه، ولك أن تتخيلي مدى التضحية التي قام بها (المعلم) بمجابهة يوسف منير، وهو يعلم جيداً حجم نشاطاته وعلاقاته بحكم أنه قديم في البلدة.

ليس هذا فحسب، بل إنني لا أكاد أصدق أنه يتدخل بنفسه ليحميني، بعد أن خاض في الصباح جلسة علاج كياوي في المستشفى، بل ويصدر ابنه الوحيد في شجار قد يصاب فيه بأذى!

ازدردت لين لعبها بعد أن أثارت كلمة (ابنه الوحيد) شجونها، وتذكرت ما قصته عليها شانتال، وأدركت من كلمات بيتر أن عمر وناجي نجحاً معاً في تجاوز الأزمة واسترداد العلاقة الجميلة التي تربطهما دون أن يكتشف أحد الحقيقة.

أكمل بيتر بتأثر: لقد منحتني (المعلم) ما لم يمنحه لي أقرب الأقربين، فقدم لي الطعام والمأوى، وساعدني على الالتحاق بعمل، وساندي وتولى عني سداد ديوني ليوسف منير، بل وساعدني على الالتحاق بالجامعة هنا حتى أستطيع أن أعمل في مجالي.

مرت عليّ لحظات كنت فيها أتساءل: ما المقابل الذي يريده (المعلم) مني؟ ومتى سيطلبني برد الجميل وتسديد الدين؟ وبأي نوعية من المهات سيكلفني؟

مات (المعلم) دون أن يطلب مني شيئاً، ورحل ناجي فجأة، وعرفت في النهاية أن سؤالي بلا إجابة.

رغم ذلك أقسمت بيني وبين نفسي أن أبقى مخلصاً للرجل الذي أنقذ حياتي هو وابنه، وأن أحمي ما تركه إلى أن يعود ناجي.

مرت فترة صمت طويلة، وكان بيتر يحاول السيطرة على مشاعره كي لا تنهمر دموعه، وأشاحت لين بوجهها للنافذة وهي تمسح دموعها، وبقيت صامتة حتى هدأت مشاعرها، فأخذت نفساً عميقاً وقالت: يوسف منير أعلن الحرب على (المعلم) وابنه منذ وقت طويل، وتحالف مع كريستيان لهذا السبب، وفي عدم وجود ناجي صارت كل الفرص أمامها متاحة لتدمير ما بناه (المعلم)، وبقيني أن إياد أيضاً له علاقة بيوسف منير، لقد أطلق شبيحته خلف

أحمد ورغد بعد أن غادرا المطعم، وربما يكون هو من أخبر يوسف منير بمكان جواز سفري، لذلك عليك القيام بتلك المهمة.

انفض بيتر وقال بانفعال: أخبرتك أن تبتردي تمامًا عن ذلك الشعبان يوسف منير، ودعي الأمر لناجي عندما يعود.

قالت بحزم: إن ابتعدنا عنه وأغلقتنا علينا باب الخوف فهو لن يفعل، لقد أحرقوا المطعم، وبالتأكيد لن يكتفوا بذلك.

زفر بيتر بضيق، وفكر لحظات ثم قال: لن نستطيع محاربته.

قالت بغضب: إن كنت خائفًا فلا ترني وجهك حتى يعود ناجي، واعلم أن هناك الآلاف غيرك يمكنهم إنجاز ذلك العمل.

تركته ورحلت، ووقف هو مشدوهاً ينظر إلى تلك المخلوقة العجيبة، التي كانت منذ بضعة أشهر فقط ترتاب في ظلها، وتسير في الطرقات كهرة تتلفت حولها رعبًا.



(٢٤)

عادت إلى البيت بعد يوم شاق ومؤلم ومعها أمينة ورغد، واستقبلتهم الحاجة سعاد بفتور ظاهر، ورغم أنها قامت بكل ما أملت عليه لين من أوامر، وساعدت الخادمة في تجهيز غرفة لرغد وأمينة ونقل حاجياتهما إليها، لكن لين أدركت من ملامح وجهها المكفهر أنها ستتتهز أول فرصة للانفراد بها لتفرغ ما في جعبتها، ولكن لين لم تكن في حالة نفسية جيدة، وأدركت أنها لن تتحمل أي صدام جديد مع الحاجة سعاد.

بعد العشاء اطمأنت لين أن أمينة ورغد مستقرتان في غرفتهما لا ينقصهما شيء، ثم توجهت إلى غرفتها لتنال قسطاً من الراحة، بعد أن اتصلت بصالح هاتفياً واطمأنت على حالة أحمد، لكن الحاجة سعاد لم تتركها كما توقعت، وتبعتها للغرفة لتبدأ معها تحقيقاً.

في البداية استعانت لين بأكبر قدر من ضبط الأعصاب حتى لا ينفلت لسانها، لكن الحاجة سعاد بدت متحفزة للغاية، واندفعت تقول بانفعال: من هاتان؟ وهل استأذنت زوجك لاستضافتهما؟

زفرت لين: سأخبره عندما يعود.

- وماذا لو لم يقبل بذلك.

. - لا تقلقي، أعلم أنه سيقبل

- من أين أتت تلك الثقة المفرطة؟ ألا تلاحظين أنك تتعاملين مع زوجك باستهانة؟

- حذرتك من قبل ألا تتحدثني إليّ بتلك اللهجة، ولا تتدخل في الأمور التي تخصني أنا وزوجي.

- أنت لا تقدرين الرجل الذي منحك اسمه وحبه حق قدره، وتعاملين معه كعامل أجير عندك.

- ما عادت بي طاقة لتحمل تلك السخافات، فلتلزمي حذك ولا تتدخل في ما يعينك

انفعلت الحاجة سعاد وانفلت عقل لسانها لتكيل للين ما تحتزنه في قلبها: بل هو يعينني، فناجي بمثابة الابن بالنسبة لي، حملته على ذراعي طفلاً، وقمت على رعايته صبيًا، وراقبته وهو يكبر أمام عيني يوما بعد يوم، وعندما أرى من اتخذها زوجة له لا تكن له أي احترام ولا تراعي له أي اعتبار، فلا بد أن أتدخل.

- لست أمه لتحشري أنفك في أموره، فلا تنسي وضعك هنا

- وتلك العاهرة القذرة ليست أمه لتذهبي إليها كل يوم دون إذن زوجك، لقد انفلت عيارك.

صرخت لين في وجهها بعد أن فقدت القدرة على التحمل: ولا كلمة، فلن أسمح لك بالمزيد، ستعودين في الصباح إلى البيت الريفي، وحتى ذلك الحين لا تريني وجهك، وعندما يعود ناجي فلتخبريه بما تريد.

هتفت الحاجة سعاد وقد صدمها رد فعل لين: لن يمكن...

صرخت لين بعنف: قلت لك اسكتي، لا أريد أن أسمع منك أية كلمة، واعلمي أن الشيء الوحيد الذي يجعلني أبقيك هو أن ناجي أوصاني بك.

احزمني حقائبك، وارحلي إلى البيت الريفي مع أول ضوء للنهار.

تركتها الحاجة سعاد وخرجت من الغرفة، لكنها قبل أن تفعل ألقت إليها بكلمة وضعت فيها كل ما يعتمل في نفسها من غضب تجاهها: أنت حقاً لا تستحقينه.

استلقت لين على الفراش، تحاول أن تتمالك أعصابها، كان يوماً شاقاً بكل ما فيه، وما كان ينقصه سوى نهاية مريحة كتلك.

في الأيام التالية..

لم تجد لين وقتاً لتفكر في أي شيء، فقد كان وقتها موزعاً ما بين الجامعة والمطعم الذي قارب على الافتتاح، ومشكلات زملائها وزيارات المستشفى.

ثم فُتِحَتْ لها جبهة جديدة، عندما وجدت رغد وأمانة تحاولان سد مكان أحمد في جمعيات إغاثة اللاجئين، ولا تستطيعان التغلب على المشكلات التي واجهتهما، فقد كان من المفترض أن يشارك أحمد في قافلة توزيع المساعدات المتجهة إلى المخيم المتواجد على الحدود مع إيطاليا.

لم تسعَ للأمر، لكنها وجدت نفسها غارقة فيه حتى أذنيها، ولم تستطع أن ترفض عندما طلبها أحمد منها صريحة مباشرة، أن تأخذ مكانه حتى يشفى ويقف على قدميه من جديد.

كانت تعتقد بأن الأمر لن يستغرق يوماً أو يومين على أقصى تقدير، لكنها فوجئت بالأيام تتوالى، ولم تنتهِ مهمتها، وما زاد الأمر سوءاً هو تلك العراقيل التي كانت تضعها السلطات لكل من يقدم المساعدة للاجئين، وبات الأمر واضحاً، فاللاجئون كائنات غير مرغوب في وجودها، وأي حلول تصب في فكرة التخلص منهم ومن مشكلاتهم هي مقبولة ومرحب بها

بمجرد أن خطت داخل المخيم ارتدت إليها كل الذكريات السيئة، ورحلة المعاناة المؤلمة التي خاضتها وكأنها كانت بالأمس، وجوه البشر الكالحة الخزينة وانقطاع أملهم بالمستقبل، وخوفهم من المجهول، كلها مشاعر كابدها يوماً وخبرت قسوتها، حتى الروائح والأحاسيس وكل ما كانت تشعر به وقتها، صار الآن مشاعر مجسدة أمامها في وجوه الناس وأصواتهم.

كانت تمشي بين الخيام صامتة لا ترد على أي كلمة أو سؤال من رغد أو أمانة، فقد كانت تجاهد لتخرج من تلك الحالة التي تلبستها، فهي تشعر بأنها جزء من كل هذا، وبعد لحظات ستصل إلى الخيمة التي تؤويها لتندس فيها قبل حلول الليل، ففي الليل يصير التجوال في المخيم مخيفاً.

كلما نظرت في وجه أحد الأطفال تهاجمها صورة إبراهيم، ذلك الطفل الذي استولى عليه الخرسان بعد أن فشل في هزيمة خوفه، ثم مات برداً بعد أن وهب كنزته لأخيه حديث الولادة. كانت تتلفت حولها كلما سمعت صوت طفل، ويهياً لها بأنها ستري خالد الصغير وستسمع صوته وهو يناديها.

كانت أمانة تتحدث إليها وهي عاجزة عن التركيز مع كلماتها أو سماعها، وشعرت في لحظة أنها ستفقد الوعي، وبالفعل بدأت تترنح، فأمسكت بها أمانة، وأحضر أحدهم كرسيًا وأجلسها عليه، وسقتها أمانة بعض الماء حتى بدأت تعود لوعيها، وتعي ما حولها، وسمعت أمانة أخيراً: هيا، لتعودي إلى الحافلة.

هزت رأسها وبدأت تتمالك مشاعرها، فأمسكت أمانة بيدها لتسير معها، لكن لين توقفت، فالتفتت إليها وقالت: ما بك؟ هيا لنغادر.

لكن لين كانت في عالم آخر، كانت تنظر لفتى أسمر لا يقل عمره عن الرابعة عشرة، تظهر ملامحه أنه إفريقي، كان يتجول بين الخيام، وبمجرد أن رآها تجمد في مكانه، وأخذ ينظر إليها وابسم كما لو كان يعرفها.

ثارت ذكرياتها كأمواج متتالية، وكل موجة تحمل معها ذكرى حاولت مرارًا أن تنساها لتبقي على هدوء عقلها، ولكن رؤية ملامح ذلك الفتى الأسمر عصفت بروحها، وردتها في لحظة إلى كل ما كانت تحاول أن تنساه.

تذكرت وجه خالد الصغير الذي غادرته الحياة بعد أن تركت بصمتها القاسية على براءته، وكيف قضت الليل تصنع له دائرة من الأحجار تلفت نظر العالم، بعد أن داس براءة الأطفال وانتزع طفولتهم بوحشية.

وقتها فقدت الإحساس بكل شيء، لم تعد تشعر بالبرد الذي ينخر العظام، ولا بالآلام أقدامها الدامية، ولا بالخوف من ظلام الليل وما يمكن أن يحدث لها في ذلك المكان الموحش، لم تعد تشعر سوى بالغضب العارم واليأس والحقد على الحياة وكل من فيها.

رحلت قبل بزوغ الفجر، وسارت في الطرقات بلا هدى ولا هدف، وسيطرت عليها رغبة جامحة للموت، ولولا بعض من إيمان ما زال قلبها يتمسك به لاختارت أن تنزع عن نفسها ثوب الحياة، ولن تعدم لذلك وسيلة، وفكرت أنها لو بقيت تسير وتسير دون طعام ولا ماء فقد يأتيها الموت.

وبالفعل بقيت تسير دون أن تتبين معالم الطريق، أو أيًا من اللافئات التي كانت تقابلها، حتى سقطت أرضًا وفقدت الإحساس بالحياة.

عندما استردت وعيها أدركت دون أن تفتح عينيها أنها ما زالت حية، وأن الموت لم يرحمها بعد من البقاء في عالم اللا رحمة.

أدركت أنها في مستشفى من روائح المطهرات التي تألفها أنفها، وتلك الأصوات التي تسمعها حولها، لكنها لم ترغب في فتح عينيها ولا التحدث لأي إنسان مهما كانت جنسيته، فكلهم صاروا الآن لديها سواء.

فتحت عينيهما واختارت الخرس الإرادي لتواجه العالم، وأدركت أنهم قرروا التخلص منها وطردها من المستشفى بعد أن اطمأنوا أنها لم تعد بحاجة لعلاج.

ارتدت ملابسها المهترئة من رحلتها المؤلمة، وتجنبت النظر في أية مرآة حتى لا تتذكر ذلك الحزني المؤلم الذي رافق انتزاع حجابها وانتهاك آدميتها في الغابات.

غادرت المستشفى، وقد تركت نفسها للبشر يركونها كيف شاؤوا، فأينما يلقوا بها فستنتظر الموت في مكانها حتى يأتيها، شحنوها في حافلة مع بشر لا تعرفهم، ولكنها أدركت أن أغلبهم عرب من أصواتهم في الحافلة، حتى أفرغت الحافلة شحنتها في أحد مخيمات اللاجئين.

كان كغيره من مخيمات مرت عليها يوماً، نفس المعاناة والضيق والإحساس المرعب بالضيق في عالم لا يتقبل كلمة لاجئ.

لم يكن يعينها أنه أفضل من غيره، ومجهز بغرف منفصلة وبه ساحة وجدران عالية وأسلاك شائكة وكابينة بوليس على الباب الخارجي، مما يوحي للنفس ببعض الأمان.

وكان أقصى ما يمكن أن يتم الشكوى منه في هذا المكان هو أن الحمامات مشتركة، ودورات المياه ليس لها أبواب، لكن اللاجئين تدبروا أمورهم ونظموا دخول الحمامات، واستخدموا البطاطين كساتر مكان الأبواب.

كان المهاجرون الأفارقة والمغاربة لهم مكان خاص بهم في المخيم منفصل بقضبان وأسلاك، لكنها لم تبال بكل هذا، لم تعد تفكر في شيء ولا تبتغي شيئاً من الحياة، وعندما ترى التسابق بين اللاجئين على من يوزعون الملابس والطعام حد الشجار والدفع بالأيدي والصراخ الغاضب، والمعارك على قطعة ملابس أو بعض الطعام،

تنتحي هي جانباً يقتلها الاشمئزاز ويخنقها الشعور بالمهانة.

هؤلاء البشر يريدون الحياة، أما هي فأمنيتها الوحيدة هي التخلص من حياة صارت أبشع من السجن.

لم تكن تهتم للمعاملة السيئة التي يعامل بها المهاجرون في المخيم، فما هي إلا محطة كسابقاتها تمر عليها في طريقها للموت.

فقدت مشاعرها وأحاسيسها، فقدت حتى تدفق ذكرياتها ووجوه أحببتها، وأصبح كل شيء في عقلها ملوناً بلون دخان الدمار الذي تحدته البراميل المتفجرة عندما تسقط على البيوت.

ولم تحاول أن تتجاوب مع الفتى الأسمر ذي الابتسامة العريضة والأسنان الناصعة، الذي يلوح لها من خلف القضبان في القسم الخاص بالأفارقة وكأنها يعرفها، كانت تنظر إليه بشرود ثم تدير وجهها بعيداً.

مرت أول ليلة لها في المخيم بهدوء، لكن المصيبة بدأت في اليوم التالي، فقد بدأت إجراءات أخذ البصمة على الإسكانر، لكن اللاجئين رفضوا واعتصموا داخل الغرف، فالكمل يعتبر إيطاليا محطة مرور للوصول إلى ألمانيا أو السويد أو بريطانيا، ولا يريد البقاء فيها.

أخذ البصمة في إيطاليا يعني أن أي دولة أخرى لن تقبلهم فيها كلاجئين، وستعيدهم إلى الدولة التي بصموا فيها.

أرسل المسؤولون عن المخيم مترجمين للتفاوض مع اللاجئين وتهديدهم إن لم ينصاعوا، ولكنهم رفضوا، وكانت لين بعيدة عن كل هذا، تشاهد من بعيد بصمت، وإن أتى عليها الدور فستقوم بالبصمة بهدوء، لكن تسارع الأحداث وتشابكها أخذها لطريق آخر.

بعد الساعة الثامنة ليلاً جاءت أعداد كبيرة من الشرطة الإيطالية وجمعوا اللاجئين في الساحة، ثم فصلوا الشباب في مكان، وبدأت عمليات الضرب والسحل، وكثير من الشباب أصيب بإصابات مختلفة، ثم ازداد الرعب مع إدخال الكلاب البوليسية الشرسة إلى القاعة الرئيسة لإخافة اللاجئين، وبالفعل انهارت معنوياتهم وأذعن الكثير منهم لأخذ البصمة.

بدؤوا يأخذون البصمات من الشباب واحداً تلو الآخر على الإسكانر قبل العائلات، وقد أخبرهم المترجم أن الأب فقط ييضم من كل عائلة، ثم أوقفوا العمل ليكملوا في الغد.

في اليوم التالي استيقظ الجميع مهمومين بأمر البصمة.

بعد الإفطار وبشكل مفاجئ تم فتح باب المخيم وبدؤوا يشيرون للاجئين بالخروج، فقد كان هناك عدد كبير من حافلات النقل أمام المخيم، ومعهم بعض المهريين الذين أخذوا يفاوضون اللاجئين على نقلهم من إيطاليا إلى بلد الوصول، فالمهرب قادر على أن يقل من يدفع إلى أي مكان بين إيطاليا و الدنمارك مقابل ٨٠٠ يورو على الشخص، سواء كان كبيراً أو صغيراً أو مولوداً جديداً.

وبالفعل، بدأ بنقل كثير مَن كانوا في المخيم في حافلات صغيرة إلى مدينة كاتانيا، وأفراد الشرطة ينظرون ويضحكون.

كان الأمر واضحاً لكل ذي عينين، فهي شبكة تهريب متكاملة بالتنسيق مع مافيا التهريب والمرتشين من الشرطة.

تراجعت لين إلى داخل المخيم، فحتى لو كانت تمتلك المبلغ، فلم يعد لديها أي مكان تذهب إليه ولا أي أمل لأي شيء.

انزوت في أحد أركان الساحة، لكنها سمعت صوتاً يهتف من مكان قريب بلغة عربية وبلهجة غربية: مرحباً، انظري هنا.

التفتت تجاه الصوت، كان هو الفتى الأسمر نفسه يلوح لها، فلم تعره اهتماماً.

لكن الفتى استغل الفوضى التي في المخيم، وعبر من القسم الخاص بالأفارقة، وجلس بجوارها.

وقال وعيناه تلمعان: لم تجلسين هنا؟ ألن تغادري المخيم؟

لم تتكلم، ورغم ذلك استمر الفتى بالحديث: إيطاليا ليست مقرّاً جيداً للاجئين، السويد هي الأفضل، أو ألمانيا.

لم تعد بها طاقة للكلام، فبقيت على صمتها، فقال الفتى: ليس لديك مال، أليس كذلك؟ أخذوا كل ما معك في الغابات.

انتبهت إليه وفي عقلها ألف سؤال، فأجاب دون أن تسأل: نعم، أعرفك، لقد كنت هناك ورأيت ما فعلوه بك.

تفحصت ملامح وجهها وفتشت في ذاكرتها عليها تتذكره، لكنها فشلت، فقال: كنت واحداً من التابعين للمهرب.

ظهر على وجهها علامات الغضب، فبادر قائلاً: كنت مضطراً، فعليّ تسديد ديوني.

في إريتريا - حيث موطني - نجازف بأي شيء وكل شيء من أجل الخروج في رحلة الهجرة.

نعبر الصحراء الكبرى لأيام في حاويات خانقة، ويموت منا الكثير ليصل من حالفه الحظ إلى شواطئ ليبيا، ثم نشحن في قوارب متهالكة، وقد نضيع في البحر لأيام، وقد يموت منا الكثير.

البعض منا ينجح، والكثير مثلي، تضيع أموالهم في الطريق ويضطرون لتسديد ديونهم للمهربين، فيعملون في أي شيء وكل شيء، وإن كانت أعمالاً غير مشروعة. والنساء..

صمت وقد طأطأ رأسه خجلاً، ولكنها كانت تدرك مقصده، فقد تعرضت لذلك بالفعل. لم تتوقع أنه ما زال لديها بقايا مشاعر، وموضع لألم جديد، فقد وجدت الدموع سيلاً لعينيها وملاّت مقلتيها تعاطفاً مع الفتى، وكل ما يمثله من ضحايا تجارة الرقيق الحديثة، ولكن الفتى عندما وجد ملامحها تلين، واستشعر منها التعاطف، قال: يمكنني أن أساعدك على مغادرة إيطاليا، سأحدث إلى المهرب ليقلك إلى المكان الذي ترغبينه.

كانت قد فقدت رغبتها بكل شيء، فلم تتحرك، ولم تتجاوب معه، فقال يستحثها: هيا، أنا سأصحبك.

لم تصدق نفسها وهي تركب معه الحافلة أنها من الممكن أن تعود لتمسك بالحياة مجدداً، شيء ما في أعماقها استيقظ في لحظة، وعادت لها الرغبة في خوض صراع جديد في الحياة، أم هو ذلك المخلوق الذي أرسله الله لها ليمنعها أملاً جديداً للحياة؟

وكان الطريق الطويل فرصة جيدة لها لمعاودة التفكير في وجهتها: السويد؟ ألمانيا؟ أم فرنسا؟ ما زال لديها أمل في الالتحاق بالجامعة في فرنسا، فعلى كل حال وضعها معنوياً كطالبة منحة أفضل لديها من كلمة لاجئة، ولم يكن حسم الأمر سهلاً في رحلتها إلى المجهول، وكان عليها التأكد من مصير الطلب الذي قدمه لها د. جورج في الجامعة، فدبر لها الفتى مآلاً لإجراء مكاملة هاتفية، وقامت بالفعل بالاتصال بالجامعة في فرنسا، لتفاجأ بأنهم قد قبلوا أوراقها، وينتظرون قدومها لإتمام الإجراءات.

صار السبيل إلى تحقيق حلمها كطبيبة مفتوحاً وميسراً، فاختارت عبور الحدود إلى فرنسا، وعند الشريط الحدودي نجح الفتى في إيصالها إلى نقطة قليلة الحراسة تستطيع اجتيازها بسهولة. وهناك ودعته بدموع الامتنان والافتقاد، وسلم هو عليها بحرارة: لا تقلقي من رد الدين، فسأقوم بالسداد للمهرب بكامل الرضا، فقط اذهبي وكوني طبيبة، ولا تنظري خلفك.

كانت الدموع تجري على خديها ومشاعرها متأججة، وهي تنظر إليه بدهشة ولا تجد ما تقوله، لكنه أخرج من جيبه مبلغاً من اليوروهات ودسه في يدها، وشد عليها وهو يبكي: ساحيني، سرقت هذا لأجلك، لتجدي سيارة أجرة، أو أي وسيلة مواصلات تقلك إلى الجامعة. ارتجف جسدها من الانفعال، وأخذت تنتحب بآلم، وهو يكمل: أثق بأنك ستساعدين الكثير من الناس عندما تصبحين طبيبة، فمن تؤثر حياة طفل لا تعرفه على حياتها، فإن بإمكانها أن تمنح الكثير للبشر المعذيين في أي مكان على هذه الأرض.

بإمكانك تسديد دينك بتقديم المساعدة لكل من يحتاجها، أعلم أننا لن نلتقي أبداً، لكنني لن أنساك.

كانت تقف في المخيم تنظر إليه، وقد توقف بها الزمن عند اللحظة التي عبرت فيها الحدود إلى فرنسا.

آرون..

لقد نسيت كل شيء عن تلك الأيام التي مرت بها، وكأنها أسقطتها من الذاكرة كي لا تقتلها آلامها، لكنها تذكرت كل شيء في ثوان عندما رأت آرون، ذلك الملاك الذي ظهر لها في أحلك أيام حياتها، ليمد لها طوق نجاة يجعلها تتمسك بالحياة من جديد.

اقتربت منه ووقفت أمامه تبكي، فابتسم لها وظهرت أسنانه الناصعة، ولم تشعر بنفسها إلا وهي تحتضنه وتنخرط في بكاء شديد متواصل.

لم يكن الأمر بحاجة لكثير من الكلام، فقد أدركت أن الله جمعها به حتى تستطيع أن تسدد دينها، فاصطحبته معها. وفي رحلة العودة من المخيم سمعت منه بقية حكايته، فقد اجتاز الحدود بعد أن أمسكت السلطات بالمهرب الذي كان يستعبده، وبقي لفترة في المخيم الفرنسي يبيع المخدرات لحساب بعض العصابات لأجل أن يجد ما يأكله، حتى التقى بها.

كانت لين سعيدة للغاية بأنها استطاعت إنقاذ الفتى آرون من ظلم وظلام الحياة، ووعدته بأنها ستولى مسؤوليته وستقوم على رعايته، وستحرص على التحاقه بالدراسة، وإن أراد العمل فسيعمل تحت إشرافها.

أخذته لين إلى المطعم، وأوصت الشاب محمد به ليلحقه بالعمل في المطعم، ويشرف على تعليمه اللغة بشكل جيد، استعدادًا ليلتحق بالمدرسة في العام القادم، ويتدبر له أمر الأوراق التي تتيح له الإقامة الدائمة في فرنسا، لكن الشاب محمد تغير لون وجهه وظهر التأثر في ملامحه، وترقرق الدمع في عينيه، وعندما سأله عما به، أجابها: تذكريني بـ (المعلم)، كم أنقذ نفوسًا من الضياع! وأنا واحد منهم!

حان وقت مغادرة أحمد للمستشفى، وكان عليها إيجاد مكان مؤقت له يكون فيه محاطًا ببعض الحماية حتى لا يتعرض له إياد وشبيحة النظام من جديد، فكرت في البيت الريفي، لكن أحمد مرتبط بالعاصمة بسبب الدراسة ونشاطه مع جمعيات مساعدة اللاجئين، فكان عليها أن تسأل سعد والعاملين في المطعم، وقد كان سعد لديه الحل كما أخبرها.. إنه بيت شانتال..

كانت تستمع له بدهشة كبيرة، وهو يشرح لها أن شانتال تبرعت ببيتها ليكون بيتًا لإيواء الشباب المهاجرين، وانتقلت إلى دار إيواء العجزة، فلم يعد لها حاجة به بعد أن صارت حياتها تعتمد بشكل أساسي على عناية الآخرين بها.

كانت لين تفكر فيما فعلته شانتال، وفي كلماتها: «هناك نوع من البشر إذا ما صادفناه تتغير حياتنا بعده للأبد».

لقد تأثرت شانتال بـ (المعلم) وناجي، وفعلت ذلك من دافع حبها لرجل وهب حياته للآخرين.

عادت صورة ناجي ترسم في مخيلتها، وللحظة ارتجف جسدها وهي تفكر: هل عليها أن تعترف لنفسها بأنها تشاق إليه؟ هل ما زال يشعر بالألم من جفائها له؟ هل سيعود يومًا ليجد أن شيئًا ما تغير؟

ما حدث مع أحمد تكرر مجددًا مع أحد الطلبة السوريين.

تعرض شبيحة النظام في المهجر بالضرب لطالب سوري بعد أن رفض التعاون معهم، ولم تكن تحتاج لجهد للتوصل إلى أن إياد خلف هذا الأمر، فأحمد يعرف ذلك جيدًا، فأخو إياد أحد

ضباط الأمن في جيش النظام، وبعد أن حصلت لين على تلك المعلومة كان من اليسير ربط كل الأحداث ببعضها، وفهم كل ما ارتكبه إياد في حقها وحق غيرها من السوريين في إطاره الصحيح.

إياد أيضًا ضابط في جيش النظام، ولكنه ضابط من نوع آخر وله مهمة أخرى.

كان لا بد من ردعه وكف أذاه عن الطلبة السوريين، ولأن الشرطة لا تصلح للقيام بتلك المهمة، ولا يجب أن تتدخل في عالم المهاجرين بكل ما فيه من تعقيدات، فلم يكن هناك بُدّ في اتخاذ سبيل (المعلم) لتأديب المعتدين.

وبعد أيام من مراقبة شقة إياد، عرفوا الوقت الذي يجتمع فيه بالشبيحة، انطلقت لين لشقة إياد ومعها سعد والشاب محمد وسائقها الخاص، وخلفهم شباب المطعم، وقام أحد شباب المطعم بتعطيل كاميرات المراقبة في البناية، وفتح لهم إياد الباب بعد أن خدعوه وادعى أحدهم أنه عامل توصيل من محل وجبات، فدخلوا الشقة وكان عددهم ضعف عدد الشبيحة، وأنشؤا المهمة في وقت قليل، وتركوهم مبعثرين في أرجاء الشقة محطمي العظام بكثير من الإصابات، وعندما دخلت لين الشقة بعد أن انتهت المعركة، نظرت إلى إياد الممدد أمامها على الأرض ينزف من جروحه ويتأوه من آلام عظامه، وفي أعماقها تشعر بنشوة الشفي.

رمقته بنظرة اشمئزاز، وقالت بصرامة: رأيت ما أستطيع أن أفعله بك، ومن الآن، لو نمتي إلى علمي أنك تعرضت لأحد من السوريين أو حتى غير السوريين بسوء، فإني أقسم إنك لن تنجو أبدًا.

غادرت المكان بخطوات مفعمة بالثقة، وهي محاطة برجال على استعداد للتضحية بحياتهم لحمايتها، وابتسمت برضا بعد أن كسرت شوكة إياد.

كان الاستعداد لافتتاح المطعم يجري على قدم وساق، وصار وقت لين للجامعة والمطعم، وصار زملاؤها ملازمين لها يعاونونها في المطعم ليكون حفل الافتتاح لاثقا، وفي اليوم السابق للافتتاح، قررت لين أن تخصص يوم الافتتاح بالكامل للوجبات المجانية طوال ساعات العمل، وحاز قرارها التأييد من الجميع، وخاصة سعد الذي ابتسم بحنين وقال: لو كان ناجي هنا لكان فخورًا بذلك القرار.

انتحت جانباً في أحد أركان المطعم وأمسكت بالفواتير والأوراق، وأخذت تتظاهر بالانشغال بمراجعتها، في حين أن عقلها كان في مكان آخر، يجوب حجرات الذاكرة ينقب خلف كل ذكرى وكل كلمة وكل موقف جمعها بناجي، لدرجة أنها لم تنتبه لأحمد الذي وقف إلى جوار الطاولة التي تجلس إليها وناداهَا عدة مرات، حتى انتهت أخيراً، وقد وجدت زملاءها قد تجمعوا حوله ليتولى أحمد دفة الحديث: أعلم أن الوقت غير مناسب، ولكن لولا أننا في مأزق حقيقي ما كنت تكلمت.

هزت رأسها مشجعة ليتحدث، فقال: إننا نعد قافلة مساعدات متجهة لإدلب، استغرق الأمر وقتاً طويلاً بسبب المعوقات التي واجهتنا من الحكومة ونقص الأموال، ومضايقات من عدة جهات، وتحرشات من المتعصبين والعنصريين الذين يتقصّدون المهاجرين، بخلاف الشبيحة والمنحكيكية الذين يكيدون لنا.

زفرت لين بضيق، فما كانت تعتقد أن أحمد سيعاود الحديث إليها في هذا الأمر بعد الذي حدث لها في المخيم، فهي لا تريد الاستغراق في ذلك العمل لما يتركه في نفسها من آلام غير محتملة، ويذكرها دائماً بما تحاول نسيانه، لم تدّر كيف تتخلص من الموقف وتتملص مما يطلبه منها أحمد والزملاء، لكنها قالت محاولة إنهاء الحديث: حسناً، سأتحديث إلى سعد وبيتر لنرى ما يمكننا عمله.

قال بإلحاح: لا أقصد المال، لكننا بحاجة لك، لن تتخيلي ما يمكنك تقديمه.

ما كان ينقصها سوي وجود جان، وها قد أتت.

توترت لين، فما كانت تريد أن يحدث بينها وبين جان جدال سخيف في المطعم كما حدث سابقاً، وخاصة أمام زملائها، فنهضت معتذرة منهم، ولكن أحمد سألها بإلحاح: ولكن، ماذا عن القافلة؟

هتفت بعجلة وهي تلهث بتوتر: سنتحدث فيما بعد يا ناجي، فلدي ضيوف.

كاد الأمر يمر مرور الكرام، خاصة أنها زلة لسان غير مقصودة، لكن شعورها بأنها صارت محط أنظار الجميع في المكان جعلها تلتفت خلفها لتجد أمينة ترفع حاجبها بمكر، وأحمد يتسّم: إن شاء الله سيرده الله إلينا سالمًا أختي.

عاد لعمله هو والملاء، واقتربت منها جان قائلة: أود التحدث إليك.

أسلوبها الهادئ في الحديث، وملاحظتها الخالية من التحفز جعلها ترحب بها، وتدعوها للجلوس في ركن بعيد عن سير العمل.

بدأت جان حديثها وهي تتأمل جدران المطعم وأركانه: تجديد المطعم وجعله على تلك الصورة نقطة تحسب لك.

قالت لين: ترى ما سر تلك الهدنة؟ هل قررت أخيراً أن تخبريني أين ناجي؟ زفرت قائلة: جئت للتحدث إليك في أمر آخر.

لم تستطع أن تكبت إحباطها وضيقها الشديد، فآخر لحظة كانت تتمسك بأمل أن تخبرها جان عن مكان ناجي، فقالت بلهجة خالية من التهذيب: حسناً، أرجو ألا تطيلي، فكما ترين، الافتتاح غداً والوقت ضيق.

- أتيت لأنبهك أن تتخذي أكبر قدر من الحرص والحذر.

نظرت لها بدهشة! هل أتت لتهددها؟

أكملت جان: ليس من السهل استعداد يوسف منير.

قالت متسائلة بقلّة فهم: يوسف منير؟!

- ما فعلته في شقة السوريين لن يمر مرور الكرام.

- وما علاقة يوسف منير بذلك.

- شبكة علاقاته متشابكة ومتفرعة، وهؤلاء يحسبون على معسكره.

هزت لين رأسها بفهم، لقد أتتها المعلومة التي كلفت بيتر بالبحث عنها دون مشقة، وها هي جان تؤكد لها ما استنتجته.

- في هذه البلدة من السهل أن يجد كل غريب معسكره الذي يلائمه وينضم له، فها هنا معسكر (المعلم) بكل ما يمثله، وهناك معسكر يوسف منير بكل تحالفاته القذرة وأعماله غير المشروعه، وكُلُّ له الحرية باختيار الجانب الذي يتخذه.

- إذن فله يد في حرق المطعم.

- بالتأكيد، فهو وكريستيان شركاء في كثير من الأعمال القذرة ضد المهاجرين.

لقد تتبعت نشاطات يوسف منير لمدة طويلة بغية نشر فضائحه، وكان تركيزي على صلته بعصابات الاتجار بالبشر، والدعارة غير القانونية، لكنني لم أستطع أن أثبت تورطه، رغم أن كل القرائن تشير إليه.

- هل سألت شانتال؟

- وما الذي يمكن أن أستفيده من عجوز مريضة تحيا في الماضي أكثر مما تحيا في الحاضر؟

- لقد تحدثت إليها لساعات طويلة، ولا تبدو لي كعجوز خرفة، بل هي تعقل الأمور بشكل كبير.

- حسنًا، سأتابع ذلك الخيط، ربما أصل إلى شيء.

- دعي لي الأمر، فقد أدركت المدخل الذي أُلجِه لأصل إلى ما في جعبتها من معلومات.

ابتسمت جان نصف ابتسامة، وقال متعجبة: صارت خطواتك واثقة وتعرف الطريق جيدًا.

لا تخشي شيئًا وأنت بين رجال (المعلم)، وسأبذل كل جهدي لكشف جرائم يوسف منير.

نهضت من مكانها تستعد للمغادرة، ومدت يدها لتصافحها، فصافحتها لين وشدت على يدها، وقالت جان: سأبقى على اتصال بك، ويسعدني أن أكون صديقة لك.

سألته لين بقلق: هل من الممكن أن يكون يوسف منير له علاقة باختفاء ناجي؟

قالت: لا أعتقد، فهو لا يجرؤ على فعل ذلك مع شخص له وزنه كناجي.

كدت أنسى، خذي هذا.

أخرجت من حقيبتها كتابا مغلفًا، وقالت: تلك هي النسخة الأولى التي تم طباعتها، إنها نسخة ناجي كما وعدته سابقًا.

نظرت إلى الكتاب بدهشة وتساؤل، فقالت جان: ذلك الكتاب فيه بعض شهادات وحكايات جمعتهما من فم أصحابها الحقيقيين، وإحدى القصص فيه أناني بها ناجي مكتوبة،

وطلب مني جمع تلك الحكايات وتضمينها في كتاب قبل الحفل، وكان متعجلاً لطباعته، أظنه كان ينوي أن يهديك نسخة، لكنه لم يخرج من المطبعة إلا بعد يومين من اختفائه.

تأملت لين الكتاب وتعجبت لاسمه: «ضحايا الصمت».

ثم سألتها بعتاب: ولم تأتني به إلا بعد كل هذه المدة؟!

لم تكن بحاجة لإجابة تعرفها جيداً، فعلاقتها بجان لم تكن جيدة أبداً.

هَمَّتْ جان بالرحيل فسألتها لين: ما الذي غير موقفك تجاهي؟

صمتت لحظات، ثم قالت: في المرة الأخيرة التي التقينا فيها، لم أرَ الزوجة التي تبحث عن زوجها لتؤدي واجبها تجاهه، بل رأيت امرأة تبحث عن حبيبها الذي فقدته.

(٢٥)

عادت إلى البيت مسرعة وقلبها يخفق بالاثارة، فعقلها ينبئها بأنها ستجد ضالتها في هذا الكتاب..

أخذت تنظر إليه بتردد..

إن لمعرفة الحقيقة رهبة تخيف أي إنسان..

أو ربما هي رهبة الاسم: «ضحايا الصمت»..

تشعر بأن ما ستلاقيه في الكتاب سيكون مؤلماً محزناً، وقلبها ما عاد يتحمل مزيداً من الأسى..

عليها أن تتحلّى بالشجاعة لتكتشف من هو ناجي ومن هو عمر الكيلاني.

تغلب الفضول بداخلها على الخوف، وأقدمت أخيراً على فض المغلف البلاستيكي الشفاف الذي يحيط بالكتاب.

الشغف والتعجل لمعرفة الحقيقة جعلها تتجاوز صفحات المقدمة والإهداء، وتدخل إلى صفحات البداية مباشرة. تبدأ الحكاية مع كاتبها الذي كان يحكي بصيغة المتكلم:

سأخبرني يا بني..

الآن فقط أستطيع أن أتكلم..

وأملّي أن تغفر لروح معذبة عاشت أسيرة الصمت في جسد يحمل اسماً لا يملكه، وروح هائمة لا يقر لها قرار، تحوم حول قبر مفتوح ينتظر صاحبه منذ ثلاثين عاماً وأكثر.

كان الصمت هو الملاذ الأخير لروحي المعذبة، ولكن الصمت له ثمن فادح، دفعته راضياً مستسلماً وأنا أخوض معركة الهزيمة كل يوم، أتجرع فيها مرارة الظلم والانكسار في صحوي ونومي..

لكن ما حطم روحي هو أنني لم أتحمل وحدي فداحة الثمن، بل سيتحمله أغلى إنسان على قلبي في هذا الكون..

ذلك الذي يود خوض بحور الألم ليصل إلى شاطئ الحقيقة ولو على أشلاء نفسه وروحه..
 ما كنت لأسمح له بمكابدة هذا العذاب، إذ يكفي جيل واحد فقط ليدفع الثمن الفادح..
 بني الحبيب..

أمنت بأن دوري في الحياة هو أن أجنبك الحزن والألم والخوض في معركة الماضي الخاسرة..
 كانت عيناها تجري فوق السطور، وأنفها تشتم رائحة مألوفة تفوح من كل حرف وكل
 كلمة، بثت القلق والريبة في نفسها، ورغم ذلك تابعت:

لم تكن روحي ترتحل إلى الماضي، بل هي لم تغادره قط لتعود إليه، ما زالت هناك تسرح بين
 الطرق والأزقة، بين السوق والحاضر، من البارودية للدباغة..

أغلقت الكتاب بعنف ولم تكمل، بل وابتعدت عنه كما لو كان عقرباً سيلدغها، وقلبها يخفق
 بعنف وجبينها ينضج بالعرق..

بدا كل شيء حولها مشوشاً..

كلما ظنت أنها ابتعدت عن الماضي تفاجأ بأنها محاصرة فيه..

هل كان ناجي حقاً طوق النجاة لها؟ أم قيداً في عنقها يشدها نحو الماضي دون أن تدري؟
 لم تنم في تلك الليلة، وبقي فكرها مشغولاً بما في الكتاب الذي تركته على مكتبها، وفي
 الصباح ذهبت إلى الجامعة وفكرها مشتت، ولم تستطع أن تتجاوب مع حماس أحمد ورغد
 وأمينه وهم يتفقون على الذهاب إلى مطعم الجامعة لإنهاء التجهيزات الأخيرة قبل الافتتاح
 ليلاً، بل تركتهم وأسرع إلى البيت ودخلت على الفور إلى غرفة الدراسة وأمسكت بالكتاب،
 وأخذت تفر في صفحاته بتوتر وتقلبه يميناً ويساراً حتى وجدت ما ظنت أنها تبحث عنه..

مصطفى..

بقيت دقائق تحرق في الاسم وقلبها يخفق وذكرياتها تتداعى وأفكارها تغلي في رأسها، ومع
 رنات هاتفها التي لا تنقطع من زملائها، لم تعد لديها القدرة على التحمل، فغادرت البيت
 وركبت سيارتها وأمرت السائق بالانطلاق. كانت السيارة تدور في الشوارع بلا هدف حسب
 أوامرها، وعقلها شارد في كل وادٍ، وعندما شعرت بالانزعاج من رنات هاتفها المحمول

المتتالية أغلقته تمامًا وألقت به في حقيبتها، وطلبت من السائق الاتجاه إلى الجسر الجديد.
على الجسر جلست على أحد المقاعد تراقب الشفق، وفي الخلفية صوت خشن يغني أغنية
بالفرنسية، عرفته دون أن تحاول الالتفات أو النظر إليه، فهو الشحاذ الذي غنى معه ناجي يومًا.
ناجي!

كيف لم يخبرها بكل ما يخفيه عنها؟!

من وقت لآخر تهرب دمعة من عينيها لتسيل دون أن تحاول أن توقفها، وصوت أمها يدوي
في أذنيها وهي تجري خلف خالد، الذي ارتدي زي الجيش الحر وأمسك بسلاحه وهم بالخروج
من البيت، وأمهم تستصرخه ألا يفعل: سيقتلونك أو يعذبونك في سجونهم.
قال بإصرار: علينا أن نوقفهم يا أمي، لن نستطيع أن نحيا في سلام إلا إذا أجبرناه على
الرحيل.

- لن يرحل، أنت تحلم بالمستحيل، حاول قبلك كثيرون وانتهوا إما بالموت أو بالسجن أو
بالنفي.

- ورغم ذلك علينا أن نحاول، ولن نتراجع حتى يرحل.

- مصطفى! مصطفى! مصطفى!

كانت تستصرخه بحسرة وهو يهرول خارج البيت مبتعدًا بسلاحه، حتى سقطت أرضًا وقد
هزمها مرضها وحسرتها.

أمها تنادي أخاها باسم ليس اسمه!

مسحت لين دموعها عندما اقترب السائق منها قائلاً: عفواً سيدي، صديقتك أمينة اتصلت
بي وتساءل لم هاتفك مغلق؟

بقيت صامته تنظر إليه بشرود، وعقلها في وادٍ آخر، لم تكن مستعدة في تلك اللحظة الأليمة
لمواجهة الناس أو الانخراط في أي مناسبة أو التحدث لأحد.

لذلك قررت أن تبقى وحيدة.

لم يعقه الظلام عن الوصول إلى المكان الذي فارقه فيه لآخر مرة، فقد حفظه عن ظهر قلب، رغم أنه لم يأت إليه سوى مرة واحدة في حياته، ولم يشعر بأي خوف والطائرات الروسية الزنانة تدور في السماء فوق رأسه.

جلس على الأرض، وأخذ يمسح بكفه على القبر، ويتحسسه بحنين، ثم رفع كفيه أمام وجهه وبدأ يقرأ الفاتحة، ولم يستطع أن يكبح جماح دموعه التي سالت فرقاً، وعندما انتهى مسح وجهه بكفيه، وقال بالأم وهو يتحسس القبر: هل اجتمع الجسد بالروح يا أبي؟ أم ما زلت تشعر بالغربة؟

كم تحملت الكثير من حماقتي! كل ما أرجوه أن يغفر لي الله ما سببته لك من ألم لسنوات، يا من عشت وحيداً مستوحشاً في الحياة لا تفكر أبداً بالزواج أو أن يكون لك ابن من دمك. أغمض عيني وامتألت ملامحه بالأم، وذكرياته مع أبيه تتداعى لرأسه.

صورته وهو مريض فقد أغلب وزنه وبرزت عظام وجهه من تحت جلده الذي ظهرت به التجاعيد، يجلس على الأريكة في غرفة المعيشة، وبجواره عامود معدني بعجلات معلق به محلول علاجي يسري في خرطوم رفيع، ليصب في إبرة مغروزة في وريد بارز في ظهر يده، ورغم هذا لم تبدل نظراته الحانية ولا حديثه الأبوي الدافئ، بل زاد تمسكه باللحظات الجميلة التي تجمعها معاً في آخر أيامه.

(لماذا رفضت أن تتزوج؟ (سأله ناجي بفضول

رد بتهكم: ممن أتزوج؟ لم ألتق من تستحق ذلك الشرف.

- سعاد مثلاً؟

صاح ضاحكاً: لا ينقصني إلا تلك المجنونة!

ضحك ناجي، ثم حاصره قائلًا: هيا، لن أتركك قبل أن تعترف بالسبب الذي منعك من الزواج، ولا تقل إنك رفضت الزواج لأجل تربية طفل.

صمت قليلاً وظهر في عينيه الألم، وحاول أن يواريه بابتسامة حزينة: السؤال لمن؟

عمر؟ أم مصطفى؟

أظلم وجه ناجي وماتت ابتسامته، وعمر يكمل: مصطفى ليس هنا ليتزوج.
وعمر؟!

اكتست لهجته بتهكم مؤلم: كيف يتزوج وهو حبر على ورق؟

انفض ناجي وانسحب غاضباً إلى الشرفة، فنهض عمر من مقعده بصعوبة، وسحب معه
عامود المحلول المشبوك في يده وتبعه يجر أقدامه إلى الشرفة، ووقف خلفه وقال بضيق: ألن
تكف عن حمقك؟ صرت تغضب من أتمه الأشياء، لم تعد بي عافية لأمنحك من وقت لآخر
صفعة ترد لك عقلك!

التفت إليه بعينين ملؤهما الدموع وصاح بصوت باكٍ: كيف لا أغضب وأنت تلغي وجودي
بكلمة؟ عمر حبر على ورق؟ إذن فناجي كذلك.

زفر بيأس: أيها الأبله! لا تفسر كل كلمة بعقلك الصغير.

- لم تقتنع يوماً بأنك صرت عمر الكيلاني بالفعل.

لم تصرّ على أن تذكرني دوماً بأني شريد لا أهل ولا وطن ولا حتى اسم؟
لست شريداً بل يتيماً، لك أهل، لكنهم قُتلوا جميعاً، لك وطن تنتمي إليه. قاطعه صارخاً:
أي وطن؟

وطن محتل أم وطن ألقى بنا إلى الهلاك؟ أم وطن لا يتقبل هويتنا ونعيش فيه بنصف روح؟
لا وطن لي سواك، أنا لا أنتمي لأي شيء سوى ذلك الرجل الذي يقف أمامي الآن أيّاً كان
اسمه، ذلك الذي يعني لي أكثر من أب.

مست الكلمات الصادقة مشاعره، وحركت قلبه، لكن جسده ترنح، وأصبح غير قاد على
الوقوف، فأقبل إليه ناجي وتلقفه بين ذراعيه، وحاول عمر أن يتماسك، وارتكز بضعفه على
جسد ناجي القوي، وهو يقول بصوت واهن ودموعه تسيل: يوماً ما ستدرك وحدك أن الوطن
ليس فقط ما نعيش فيه، بل ما نموت من أجله.

أعتقد ذلك حقاً؟!

استيقظ ناجي من ذكرياته على ذلك السؤال الذي أرقه، لا يدري هل يسأله لنفسه أم لعمر!
أم لمصطفى!
مصطفى..

ذلك الاسم الذي قرأه لأول مرة في الدفتر الأسود الذي تركه عمر الكيلاني في درج مكتبه،
وأوصاه عندما عاد له في المستشفى بأن يقرأه ليعرف الحقيقة التي طالبه لسنوات بالإفصاح
عنها.

لم يكن الصمت اختيارًا، بل سجنًا يسحق الروح.
كانت المرة الأولى التي شعرت فيها بأن القضبان من حولي تذوب، والقيد في لساني ينفك،
عندما رأيت ساحة العاصي تمتلئ بالبشر لأول مرة من ثلاثين عامًا.
كأن الحياة بعثت من جديد في النهر العريق، الذي عانى من جفاف الأعوام، فصار طوفانًا
من البشر يكتسح عشرات السنوات من الظلم ويمحو آثار الخوف.
امتلأت ساحة العاصي عن آخرها بأجيال وطأتها إرهاب ووحشية الدكتاتورية.
يحملون بأجسادهم العلم السوري، وهو يتحرك في الساحة الكبيرة، كما لو كان يسبح فوق
أمواج نهر.

على الجانب الآخر تشكل مجموعة كبيرة ألوان العلم بأجسادهم، وهم يغنون ويهتفون.
صوت إبراهيم القاشوش وهو يصدح وسط أنهار البشر (ارحل) أشعل روعي بالحنين،
وأطلق من عيني سيل الدمع المقهور منذ عشرات السنين، وكأنه صوت صديقي جمال قد
انبعث من الماضي ليوقظ روعي من سجن طويل، الآن فقط أستطيع أن أبوح.
فعندما شاهدت في التلفاز ذلك النهر البشري المتدفق في ساحة العاصي ارتجف قلبي بمشاعر
شتى، فتلك الساحة العظيمة شهدت من عمري الكثير، سنوات الفتوة والشباب وروح الحمية
والمقاومة، الصداقة والحب والمشاعر الجياشة.
ارتجف قلبي وهفت روعي توفًا لتطوف بالطرق والأسواق والأزقة والحارات، لتسمع
شدو النواير وتشم رائحة النهر.

احتفالات مهرجان الربيع، طاحونة الغزاة ومقهى المأمورية..

ميدان الساعة..

ولكن..

هل غادرت روحي حقاً لتعود إليها؟

هل غابت يوماً عن قلبي؟

إن روحي تسكن هناك، لم تغادر قط، تستطيع أن تصف كل ركن ودكان وبيت وحارة وزقاق.

ما زلت أنتشي بالأصوات المختلطة تتناغم في أذني، وأنا أقطع سوق الطويل متجهاً إلى دكان العطاراة الخاص بأبي، ضجيج الحياة وأصوات باعة الخضروات وهم يتغنون ببضاعتهم لجذب الزبائن يؤنس نفسي بالذكريات الجميلة..

زيتونية يا بامية..

حرير يا ملوخية..

أصابع البوبو يا خيار..

قرقعات الطاسات الصفر بيد السواس وهو ينادي: خمير يا سوس..

وبائع التمر هندي الذي كنت يوماً في صباي أعمل معه، أنادي في السوق: لله الأمر يا تمر..

وعلى يديه تعلمت تحضير التمر هندي ونكهته المميزة..

بائع اللبن البارد: عيران لبن بارد.. بارد..

المخطوط ورائحة السحلب التي يسيل لها لعابي..

حتى الموتى ينادى عليهم:

وين الي طحن ما عجن؟

وين الي زرع ما حصد؟

وين الي خبز ما أكل؟

وين اللي عمّر ما سكن؟

سوق الطويل لم يكن فقط أكبر أسواق البلدة وأشهرها..

بل هو مرتع طفولتي وسنوات صباي..

اعتاد أبي أن يجلس أمام دكانه على كرسي القش يتسامر مع الناس ويهدي إليهم حكمه وكلّماته الرزينة، وأنا أدور وألعب حوله تداعب أنفي رائحة الأركيلة مختلطة برائحة العطارة وخطات التوابل المميزة، التي يصنعها أبي بيديه لزبائن دكانه بالطلب.

كان أبي ناصرياً حتى النخاع، يحتفظ في درج دكانه بصور عبد الناصر، ويعيش على ذكريات الوحدة العربية، وقت أن كان علم سوريا بنجمتين فقط وتسمى الجمهورية العربية المتحدة، ومقر البرلمان ومجلس الوزراء داخل القاهرة..

وكان رحمه الله يؤمن دائماً بأن الانفصال عن مصر هو سبب كل المصائب التي حلت على البلد...

لم يكن وحده يعتقد ذلك، بل كثير من أبناء جيله ممن احتفلوا في ساحة العاصي وخرجوا زرافات إلى الشوارع يتغنون بالوحدة مع مصر..

ولم يكن باستطاعتي لا أنا ولا أي من جيلي بعد أن شبنا ووعينا تقلبات الحياة الإفصاح عن آرائنا في الوحدة أو تلك الفترة على عمومها احتراماً لكبرائنا، وما كان باستطاعتي التحدث عما يدور في عقلي إلا في الجلسات الخاصة مع رفاقي في الجامعة، وأستاذي حامد الكيلاني..

كنت طالباً في كلية التربية بجامعة حماة، وكان عامي الثالث مشحوناً ما بين دراسة وكد وعمل في مطبخ محل الحلويات الشهير سلورة القريب من ساحة العاصي.

لم يكن اتجاهاً للعمل في الأطعمة والحلويات مصادفة، بل بدأ الأمر من مرحلة مبكرة من عمري عندما صرت صبيّاً وعليّ الخروج إلى العمل كبقية أقراني، فكان أول عملي في بيع التمر هندي، ثم بدأت أتعلم الصنعة من معلمي، وصرت ماهراً فيها، ثم انتقلت إلى تعلم صناعة باقي المشروبات: البارد منها والساخن..

حتى جاءتني فرصة رائعة للعمل في محل سلورة للحلويات، تمسكت بها وأظهرت مهارة في تعلم صناعة الحلويات لفتت الانتباه إليّ وجعلتني أحظى باهتمام (لمعلمين) وصاحب المحل.

حتى جاءتني مفاجأة أدهشتني قبل التحاقني بعامي الجامعي الأول..
فقد رشحني أحد (المعلمين) في المحل للعمل في مطبخ أحد الفنادق الشهيرة بدمشق في فترة
العطلة الصيفية..

نجحت في إبهار جميع من في مطبخ المطعم بسرعة اكتسابي لمهارة الطبخ في زمن قياسي،
وساعدني أبي كثيراً بخلطات التوابل السحرية، فقد كان يصنعها خصيصاً لأجل عملي الجديد، مما
جعلهم يطلبونني بالاسم في العام التالي في العطلة الصيفية، حتى صرت طباًحاً متميزاً في المطعم..
كنت أسكن في حي البارودية في بيت واسع قديم في إحدى الحارات..

وعلى رأس الحارة بيت جمال جاري وصديق طفولتي ينتظرني كعادته اليومية ليطلب مني
طلبه الأزل..

سلم جمال علينا، ثم تركت أبي يسبقني إلى البيت وتخلفت عنه لأتحدث إلى جمال الذي أسرع
إليّ بلهفة: ها.. هل تحدثت إليها؟

شعرت بالحزن لأجله، فهو لم ييأس بعد من تكرار طلبه، قلت كذباً وأنا أنوي بذل محاولة
جديدة: ليس بعد..

قال معاتباً: تعلم أنني أنتظر موافقتها بفارغ الصبر..

وقفت والتفتُ له قائلاً: وماذا لو لم تقبل؟

قال بإصرار عجيب: ستقبل، لدي أمل كبير أن تقبل، لا شيء يدعوها للرفض.

أشفقت على حاله، ولم أشأ أن أصدمه وأخبره بأن زهرة رفضته مجدداً ولم تقبل بشفاعتي له.
قضيت مع جمال سنوات عمري في هذه الحارة، أعرفه جيداً وأعرف خلقه وعائلته، وفكرة
زواجه من زهرة هي فكرة مستساغة لي، لكن زهرة لها رأي آخر، فهي تود الزواج من شاب
جامعي مثلي، وجمال ترك المدرسة في مرحلة مبكرة، وعمل في مهنة والده في بيع الأقمشة.

تركته على وعد مني بأن أحاول إقناعها مجدداً، واتجهت إلى البيت، لكن استوقفني مشهد
تجمع كبير لصبية الحارة أمام بيتنا، وعندما اقتربت منهم وجدت أخي عادل يجلس فوق الكرة،
ورفقاؤه يلتفون حوله في دائرة يسترضونه ويتوسلون ليعاود اللعب معهم.

وما كنت بحاجة لذكاء لأفهم ما يحدث، فمنذ أن اشترى أبي الكرة لعادل، وذلك المشهد يتكرر بشكل يومي، فهو صاحب الكرة وعلى الجميع أن يطيعه.

يحضر عادل الكرة وينقسم الصبية إلى فريقين، ويلعبون مباراة حماسية، حتى يختلفوا على شيء تافه، فيأخذ عادل الكرة ويفض اللعبة، فيأتي الفريقان خلفه يسترضونه لمعاودة اللعب.

عندما رأي الصبية أقبلوا عليّ في صوت واحد يري جوني أن أتدخل لأقنع عادل باستكمال اللعب، فاقتربت من الشقي ذي السنوات العشر وهو جالس على الكرة، وسألته بخبث: كم النتيجة؟ أجاب بغیظ: خمسة لهم واثنان لفريقي الكسيح.

قلت أستفزه: إذن فعليك استئناف اللعب لتثار منهم.

هز رأسه بعناد: لن أعاود اللعب قبل احتساب (البنالتي).

غازني عناده، ففاجأته بتسديد ركلة قوية للكرة التي يجلس عليها، فتوسد الأرض بعد أن طارت الكرة من تحته، فانطلق نحوها الصبية وهم يصرخون فرحاً ويتلقفون الكرة ويمررونها فيما بينهم، وأنا أضحك من منظرهم.

لم يجد عادل بُدّاً من أن ينضم إليهم ويستأنف اللعب.

دخلت البيت وأنا أهتف بالسلام لأسمع أمي وجدتي وباقي الأسرة، ورائحة الباطرش تملأ ساحة البيت، وتهيج طيور معدتي التي أخذت تزرق للرائحة.

استقبلني أخي عمر ذو السنوات السبع بجيو به الممتلئة دائماً بكل ما يجده في طريقه من أشياء غريبة يتخذها كألعاب: أغطية زجاجات، رولمان بلي، قطع خشبية صغيرة، صخور بأشكال غريبة، وأحياناً يبادل رفاهه في الحارة بكنوزه الثمينة.

نظرت لجيبه المتنفخ وسألته: ماذا تحمل اليوم؟

اتسعت ابتسامته الجميلة التي أظهرت فراغ فمه مكان سنتيه الأماميتين والذي يستعد لاستقبال أسنانه الدائمة، ثم هز جيبه لأسمع صوت احتكاك الدواحل ببعضها، فقلت ضاحكاً: هل كسبت الكثير من الدحل من رفاقك؟

هز رأسه وقال بنظرة انتصار: وغداً سأبيعه لهم.

مسحت على رأسه وأنا أضحك، ثم تركته وذهبت إلى جدي وألقيت عليها التحية مقبلاً
يدها، لترد هي بالدعوات لي بالزوجة الصالحة والذرية الطيبة.

أعلم ما يدور بينها وبين أمي من خلف ظهري، فلا شاغل لهما يومياً إلا مسألة زواجي،
وكم من جلسات وأحاديث دارت من أمامي ومن خلف ظهري ومحاولات لا تنتهي لإقناعي
بالذهاب مع أمي لرؤية ابنة صديقة طفولتها التي تزوجت منذ سنوات طوال في حي الكيلانية،
فكل ما يشغل أمي هو أن تكون أم عروسي من معارفها المقربين، والتي تثق بتربيتهن لأولادهن.
لكنني أتجاهل كل هذا وأتهرب من الحديث في هذا الأمر، فبالنسبة لي لم يأن الأوان بعد، ولا
أريد لشيء أن يشغلني عن دراستي وعملي.

ربما أقنع نفسي بتلك الحجة الظاهرية، لكن الحقيقة هي أنني تأثرت بقصة جمال، خبر قلبه
الحب واكتوى فؤاده، وما زال لديه أمل بأن تقبل زهرة به، ربما كنت في نفسي أتوق لتذوق تلك
المشاعر.

تركت جدي واتجهت إلى الركن الذي تجلس فيه زهرة خلف ماكينة الخياطة تحيك ثوباً لها،
ثم انحنيت مقتربا منها، وأسندت مرفقي فوق الماكينة، وهمست لها وأنا أتأمل وجهها الصبوح
وضفيرتها البنية: ألا يلين رأسك اليابس هذا؟

أوقفت الماكينة وزفرت بضيق وردت بصوت خفيض: انس هذا الأمر، فلن أوافق أبداً.

ضقت بعنادها: جمال شاب طيب وعلى خلق، نعرفه ونعرف أهله.

قالت: لقد وصلت إلى المرحلة الثانوية، ولن أتزوج إلا من رجل متعلم، مهندس، محام،
مدرس، المهم أن يكون جامعياً.

قلت مغتاضاً: تمنيت لو أكسر رأسك الحجري هذا، الشاب يتمنى أن يشتري التراب الذي
تسيرين فوقه، لم كل هذا الدلال؟

وضعت يديها في خصرها: لأن أبي منحني مطلق الحرية لأقبل أو أرفض.

زفرت ضائقاً: لك الله يا جمال.

قالت: اهتم أنت بشؤونك، وتلقَّ وعدك من أمي، فهي تدبر الخطط واحدة تلو الأخرى
لترى يوم عرسك.

مصطفى..

التفتُ لأمي وهي قادمة من المطبخ تحمل صحن الباطرش وقلت مازحًا: «الباتنجان أبو
العيال كيف ما درتو بيندار».

سمعت صوت ضحكات أبي قادمًا من الداخل، ووكزتني أمي في كتفي وهي تقول بعتب:
اجلس يا مصطفى ولنا كلام كثير بعد الطعام.

نادت أمي على إخوتي والتفطنا جميعًا حول المائدة، ورأسي يخطط بوسيلة جديدة أهرب بها
من حصار أمي لي وإصرارها على إقناعي برؤية ابنة رفيقتها.

وبعد انتهاء العشاء لم أجد وسيلة سوى الهروب للنوم، وساعدني تعب اليوم الطويل على أن
يسقط رأسي بين يدي أمي وهي تسمي لتبدأ حديثها المكرر.

(٢٦)

بقيت لين على الجسر حتى الليل، فالألم لم يتركها لحظة، ولم تتوقف دموعها، ومع كل تلك المكالمات من زملائها، أدركت أنها مضطرة للعودة الآن والانضمام للحفل، فلا يمكنها تكرار ذلك الخطأ مجددًا، فما زالت تلقي على نفسها اللوم بسبب أنها لم تحضر حفل ناجي الأخير، وتعتقد أنه ربما تغير كل شيء لو كانت حضرت الحفل ولم يغلبها النوم في تلك الليلة.

عادت إلى السيارة التي انطلقت بسرعة إلى المطعم، وحاولت أن تمسح الدمع والعبوس عن وجهها، وترسم على ملامحها الثقة والاطمئنان المفتقد، عندما أقبلت عليها أمل الصغيرة تسابق الجميع فرحة بقدومها، واستقبلها كل من في الحفل بالترحيب وعبارات الاطمئنان والشكر لله أنها بخير، فنثرت ابتساماتها على الجميع وهي تشكرهم جميعًا.

وبمجرد أن التقت عيناها بعيني جان حتى شعرت بها تتفحصها بدقة، كما لو كانت تستشعر ما تعانيه وتفهمه، ولم تخيب ظنهما، فعندما أتيحت لها الفرصة ووجدت لين وحدها لبرهة اقتربت منها ووقفت بجوارها وهمست لها: ترى، هل ما وجدته في الكتاب مؤلم إلى درجة أن يجعلك تعانين كل تلك المعاناة؟

لم تجد كلمات مناسبة ترد بها، وحمدت الله أن تدخلت أمل في الوقت المناسب وأمسكت بيدها لتتقدم وتطفئ مع الجميع شموعات الكعكة الفاخرة، التي غرزت فيها بعدد أفرع مطعم الناجي على كل الأراضي الفرنسية.

كان الجميع فرحين بانتهاء تجديد المطعم في زمن قياسي، ولأول مرة تشعر لين بينهم بالألفة منذ أن وطأت قدمها تلك الأرض.

هل بدأت بالفعل تشعر بأن هذا مكانها؟

ربما يتوقف ذلك على ما ستقرؤه في الكتاب، عليها أن تقرأ مهما وجدت من مفاجآت، ومهما كان الأمر مؤلمًا لها.

انتهى الحفل والجميع سعداء ممتنون للين لذلك القرار الذي اتخذته وأعلنته أثناء الحفل، فقد أمرت بأن الوجبات المجانية المخصصة للمحتاجين ستقدم نهارًا وليلاً لكل من يطلبها في أثناء الأسبوع الأول بعد الافتتاح.

عادت إلى البيت مسرعة لتعرف بقية القصة، وهذه المرة تحلت بالشجاعة والصبر، لتبدأ قراءة ما كتبه عمر الكيلاني، أو مصطفى كما يطلق على نفسه في صفحات الكتاب.

دائمًا ما كنت أحب صحبة أستاذي حامد الكيلاني، وكانت أحاديثه تجد صدًى كبيرًا في عقلي، وجهه السمع وصوته الخفيض، ولسانه العذب الذي يعرف مكنى جمال اللغة العربية، فيظهرها ويبرزها بين كلماته وأحاديثه، ويزينها بالعبارات القرآنية والأحاديث ومواقف السيرة التي يسقطها على واقعنا، يمنح لشخصيته سحرًا يجذب الشباب ويجعلهم يلتفون حوله وينصتون إلى كلماته، وإطلاعه وثقافته الواسعة وسداد رأيه يجعله محل ثقتهم.

وفي الجلسات الخاصة التي تجمع بينه وبين نخبة ثقات من طلابه -وكنت واحدًا منهم- كان يعبر عن رأيه الذي لا يستطيع أن يبوح به خارج دائرة ثقاته.

فما بين الناصريين والبعثيين كان أستاذي يؤمن بأن حكومة ناظم القدسي هي ذلك الأمل الذي لم يكتمل، والطريق الذي كان علينا الخوض فيه، لكنه سد بما يسمى بثورة ٨ آذار.

كانت لين تقرأ وهي في قمة اندهاشها، وكأنها تقرأ عن سوريا أخرى غير التي ولدت وعاشت فيها عمرًا، فما من أحد قبل الثورة من الأجيال السابقة يستطيع أن يخوض أو يتحدث في ذلك الماضي، أو يصحح ما يتم تدريسه في مناهج التاريخ لأبنائهم عامًا بعد عام، على اعتبار أنه ثورة عظيمة شكلت ملامح سوريا الحديثة، ورسمت مستقبلها المجيد، فنشأت أجيال لا تعلم عن تاريخها الحقيقي شيئًا.

تركت لين الكتاب من يدها وأسندت ظهرها إلى الكرسي، وبقيت تحمق في الفراغ، وعقلها لا يقر له قرار.

صارت وجهًا لوجه أمام حقيقة مجردة صادمة خطت أمامها في أسطر تلخص عمق مأساتها الضاربة في الزمن لعشرات السنين.

تلك الحقيقة التي لم يكن يجروء الناس على الهمس بها، بعد أن تحولت سوريا إلى دولة مخبرانية أمنية تنكل بكل صوت يخرج ليقول الحقيقة.

نظر إلى الخيط الأبيض في السماء بعد أن سار طوال الليل وحيداً في الظلام.

عجب من تبدل مشاعره على هذا النحو، فقد صار الظلام صديقاً له، والسير وحيداً يريح نفسه، يعلم أن مروان قلق من اندفاعه وإصراره على السير وحده في أرض لا يعرفها، وفي ظل ظروف شديدة الصعوبة حيث القصف المتواصل على المباني، بعد أن أصر على الذهاب إلى المقبرة والعودة دون رفقة أحد أو حتى دليل يرشده، ولكنه كان عنيداً لا يبالي، وترك مروان ورحل بصمت دون أن يرد على كلماته المؤلمة وهو يلقيها على مسامعه بأكبر قدر من الغيظ: لقد ذلك (لعلم) حتى صرت عنيداً كحمار حرون.

يعلم جيداً أن مروان يتحدث بتلقائيته المعتادة، ولا يقصد أن تترك كلماته ذلك الأثر المؤلم في نفسه، بل هو الذي صار متحسناً للغاية من بعد موت (لعلم).

بدا له أحد السائرين قادماً نحوه في تلك الساعة المبكرة من الصباح، وعندما صار قريباً منه ألقى عليه التحية بصوت استشعر فيه ناجي الألفة والمودة، فرد التحية، وأكمل الرجل طريقه، لكن ناجي وقف قليلاً وأدار وجهه للنهر، وصدى كلمات عمر لا يبتعد عن أذنيه: إنها حماة، الناس تسلم عليك بالطريق وكأنهم يعرفونك منذ سنوات. تسللت إلى أنفه رائحة الحمص قادمة من مكان قريب.

أشتهي رائحة الخبز في الصباح الباكر وصحن حمص مع البصلات، أشتاق أن أغرق في مياه العاصي.

استغرق في تأمل صفحة النهر الهادئ، وغاص في ذكرياته مع عمر أثناء فترة مرضه، كان يدفع بكرسيه المتحرك على الطريق الممهّد خلف بيته في الريف الفرنسي، وعلى جانبيه تلونت الأرض باللون الأخضر الزاهي، وامتلأ الجو بعبير الندى الصباحي مختلطاً برائحة الزهور.

لم يستطع ناجي أن يكتّم دهشته من إصرار عمر على الانخراط في ذكريات الماضي البعيد التي صارت -من بعد قيام الثورة- جزءاً من حياته اليومية يهيج مواطن الشوق في نفسه، ويشعل الحنين الجارف لأيام وُلّت.

لكن شيئاً ما في نفس ناجي لم يكن راضياً عن ذلك، فاستغرق عمر في حنينه للذكريات الماضية يصنع حاجزاً غير مرئي بينهما لم يكن يستشعره قبلاً، فبالنسبة له عمر يتحدث عن طلاس أو حياة أسطورية لم يسمع أو يقرأ عنها أبداً.

لا يفتأ يحكي عن أزقة ملتوية وحارات قديمة أرضها صوانية، وجدران البيوت تتدلى منها نباتات الياسمين، والعراش التي تنشر رائحتها ترحب بجيرانها السائرين ما بين شمس حانية وظل وارف.

عن دفء الأهل والجيران والأبواب المفتحة في وجه السائلين والمارين.

عن حنان الأمهات والجندات وحكاياتهن.

عن صخب الصغار وهم يلعبون، ولمة الصبايا على صحن تبولة.

عن سيران يوم الجمعة وطلعة المشاوي.

عن رائحة القهوة وأنين النواير وصوت فيروز في الصباح مع إفطار من الخبز المقمر والشنكليشة والمكدوسة و(كاسة شاي).

ما كان باستطاعة ناجي استيعاب أو تذوق ما لم يره ولم يعيشه، وهذا الجالس أمامه يهيم في ملكوته الخاص، حتى استولت عليه مشاعر الغيرة والضيق، فصاح معترضاً: عجباً لأمرك! ما زلت تُبقي على ذكريات ولّت منذ أكثر من ثلاثين عاماً وتحتزنها في قلبك!

ألا تفسح بعضاً من وقتك لترى جمال الريف الفرنسي من حولك؟

رد بصوت يمتلئ بالعاطفة والحنين: أتعجب من روح تهيم عشقاً حول مراتع الصبا والشباب؟

رد ناجي ببعض الحدة: لا أفهم! كيف لإنسان أن يعشق أرضاً سلبته كل شيء وألقت به إلى غيابات عالم مجهول؟

كان من الأولى أن تحب البلدة التي احتضنتك وآوتك ولم تر فيها ظمأ!

- ربما..

السخرية المريرة التي تنضح من صوته أشعلت غضب ناجي، فقال بانفعال: لو كانت سوريا كفرنسا في الحرية والديمقراطية، لربما تفهمت ما تشعر به الآن.

- الوطن كالأم، مهما فعلت بنا لا نستطيع أن نكرها.

- كلام عاطفي، لا يقوله سوى العرب.

- جُبِلَ الإنسان على حب وطنه، وقد يقاتل أو يقتل في سبيل هذا الحب.
- بل الأولى في سبيل حريته وما يمنحه وطنه له من امتيازات لن يجدها في أي مكان آخر في العالم، أرأيت كل هؤلاء اللاجئين الذين يزحفون من كل البلاد العربية نحو أوروبا؟ استبدلوا أوطانهم بمكان يوفر لهم الحرية والكرامة والعيش الكريم.
- زفر عمر بضيق: لن تفهم أبداً ما أتحدث عنه.
- رد بصوت مغتاض وهو يبتعد عنه بخطوات ويوليه ظهره: بالطبع لن أفهم، فلم تكن لي أبداً أم.
- أدرك عمر أخيراً عمق ما يعانیه ناجي، فقد وجد نفسه فجأة مبعداً عن كل ما عاشه سوياً، ومضطراً للاستماع لذكريات ليس جزءاً منها ولا تمثل له شيئاً.
- قال عمر بصوت حزين: بل كانت لك أم، ولكنك لا تعرفها.
- شعر ناجي بالندم يستولي عليه، فقد استسلم لمشاعر الغضب والأنانية، ونسي أن تلك الذكريات عاشت عمراً حبيسة بين أضلعه، تنتظر وترقب بشوق لحظة حريتها.
- وأن تلك الحكايات القديمة هي ما تبقى سعيدياً في أيامه الأخيرة، وتعيّنه في صراعه مع المرض.
- أقبل ناجي عليه، وجلس على ركبتيه إلى جواره، واحتضن يده وقبلها بحب، وقال بندم: ساحني يا أبي، لا أدري كيف تفوهت بما قلته.
- ابتسم عمر: لم أربك على كتمان ما في قلبك من مشاعر، لقد عشت في بلد حر.
- وأنت عشت في بلد لا تستطيع أن تجهر فيه بما في قلبك.
- ولا هنا، ترى، هل كنت ستحيا بسلام نفسي إن فعلت كأبي مروان وجهرت في كل مناسبة بأن فرنسا ما هي إلا دولة استعمارية احتلت بلادنا وأفقرتها وعملت على تجريفها من كل مقومات الحرية؟
- ربما وقتها كنت سأستشعر حقاً بأن لي وطنًا في مكان ما من هذا العالم.
- حاولت قدر جهدي ألا أفعل كما يفعل بعض العرب ممن يزجون بأبنائهم في صراع مرير لا قبل لهم به، فيكرّهُونهم في البلد الذي تربوا وعاشوا فيه، ولا يعرفون لهم وطنًا سواه، فيحيون ممزقين لا تستقيم لهم حياة هنا، ولا هم بقادرين على العودة إلى هناك.

- ربما لو أن تلك البلاد هناك تحكم بالديمقراطية، لكان الأمر مختلف.

شرد عمر بعيداً، وعاد بذكرياته إلى أحقاب مضت: يوماً ما كادت بلادي بالفعل تنتقل إلى ديمقراطية حقيقية.

يوماً ما كان لدينا حكومة برلمانية منتخبة وأحزاب ورئيس تم اختياره بصندوق الانتخابات.

قال ناجي متشككاً: حقاً؟

استرد عمر ابتسامته التي تطوف بوجهه كلما تذكر الماضي: نعم، كان هذا بعد العام الذي ولدت أنا فيه بأربع سنوات.

في تلك السنوات كانت سوريا غارقة في حلم الوحدة العربية، وكان جمال عبد الناصر وقتها هو الزعيم الحلم لكل البلاد التي تسعى إلى الحرية، ذلك الذي هزم العدوان الثلاثي ورد ثلاثة جيوش كبرى عن مصر.

كانت تلك هي نظرة الشعوب العربية له آنذاك.

لكن الوحدة عندما قامت بالفعل، لم تكن على قدر عظمة حلم الشعب السوري، فقد حل عبد الناصر جميع الأحزاب، وتحولت سوريا إلى سياسة التبعية والحزب الواحد والتهميش.

لذلك كان الانفصال حتمياً.

وبعدها عاد العمل بالدستور بعد إجراء استفتاء شعبي عليه، وعادت الحياة النيابية والانتخابات الحرة، وتم انتخاب الرئيس ناظم القدسي وتشكيل حكومة مدنية أعادت الأحزاب والصحف والمجلات والحياة الديمقراطية.

أردف ساخراً: وقتها كنا تماماً كفرنسا.

قال ناجي بترقب: وبعد؟

أجابه عمر: كما قرأت في الدفتر الذي تركته لك في المكتب، وكعادة أغلب البلدان في مناطق كثيرة من العالم في ذلك الوقت.

قال باستنكار: انقلاب عسكري؟!!

تنهد عمر بأسى: لم تتم السنة، حتى قامت اللجنة العسكرية وحزب البعث بالانقلاب على الرئيس والحكومة المنتخبة في ٨ آذار، وقاموا باعتقالهم جميعاً ثم نفيعهم خارج البلاد، لتتحول سوريا إلى الحكم العسكري الجبري بين ليلة وضحاها.

- وماذا عن الناس؟ هل استسلموا لفكرة سلب حريتهم في اختيار من يحكمهم؟
- هع، أتى لأحد يعيش في سوريا أن يجهر بأنها لم تكن أبداً ثورة ولو بعد عشرات السنين! كان عليهم أن يقاتلوا لإيقاف تلك المهزلة. -
- ألدك دبابه؟ -

ماذا؟ -

- من معه الدبابه هو وحده من يحق له التحدث أو تقرير مصير الناس.

استهلت اللجنة العسكرية الحكم بقطع كل الألسنة وإرهاب الجميع، فأغلقوا كافة مكاتب الأحزاب، وفرضوا الأحكام العرفية، وأعلنوا حالة الطوارئ، وصادروا كافة الصحف والمجلات، والتي وقتها بلغت أكثر من ١٦ صحيفة ومجلة.

تحولت سوريا إلى دولة أمنية، وبقيت بلا دستور أو انتخابات لسنوات طويلة، تُحكّم بحزب واحد تحركه اللجنة العسكرية، ويتم من خلالها تعيين رئيس كواجهة يحكمون من خلاله بقبضة أمنية مرعبة.

أردف بسخرية مريرة: هلا حدثتني عن أساطير الحرية والديمقراطية في العالم المتقدم؟

زفر ضائقاً: وماذا عن الجيش؟ الجيش كان عليه أن ينحاز إلى الديمقراطية ويساند الناس.

قال هازئاً: في فرنسا نعم، لا في بلادي، فهناك تقوم الانقلابات العسكرية لخدمة المصالح الشخصية والاستيلاء على كرسي الحكم، وحتى لو افترضنا وجود عسكريين شرفاء، اللجنة العسكرية أخذت كل أصوات المعارضة في الجيش بالسجن والقمع والقتل، وانفردت بحكم سوريا، وأعادت تشكيل حزب البعث ممن يواليهم ليكون واجهة يحكمون من خلالها، حتى استتب لهم الحكم واعترف بهم العالم.

قال بأسى: إذا فالناس يستحقون ما جرى لهم، هل كان عليهم الانتظار خمسين عامًا ليثوروا على حكم عسكري مغتصب للسلطة؟

أجاب بهدوء: لو كان كلامك صحيحًا لما اتجه حزب البعث الحاكم إلى قمع المعارضة الشعبية بأقصى درجات العنف والدموية.

كان لحماة نصيب الأسد من الدماء، فحماة تربى أهلها على حب الدين والجهاد، وكانت شوكة قوية في وجه الاحتلال الفرنسي، ومن بعده أرسلت الكثير من شبابها للدفاع عن فلسطين، مما جعل حزب البعث يضعها على رأس أولوياته في سياسات القمع والتكيل بكل صوت معارض.

في تلك الآونة كنت ما أزال طفلًا، ثم صرت عامًا بعد عام أعني الأحداث جيدًا من حكايات أبي، ثم أستاذي حامد الكيلاني.

بدأ الأمر باستفزاز مشاعر المواطنين الدينية بشعارات الحزب العلمانية، ثم قاموا باضطهاد النقابات والمعلمين ونقل بعض المدرسين من أماكن عملهم، فما كان من رجال حماة إلا أن يثوروا لدينهم ولرفع الظلم عن أبنائهم، فقامت المظاهرات واعتصم الكثير من الشباب بجامعة السلطان حتى تنفيذ مطالبهم.

كان الرد شديد العنف من النظام، فحاصروا المسجد بقوات كبيرة، وأطلقوا رصاصاتهم على المعتصمين، وتم قصف المسجد بالمدفعية وسقطت مئذنته، وقُتِلَ أربعون شخصًا واعتُقلَ الباقون، وحكم على الكثير منهم بالإعدام.

عمت المظاهرات والإضرابات البلاد للمطالبة بإطلاق سراح المعتقلين وإيقاف الإعدامات، وإنهاء حالة الطوارئ، وبالفعل أوقفت السلطة تحت الضغط الشعبي حكم الإعدام، وأطلقت سراح المعتقلين.

قال ناجي: إذن فقد أدرك الناس أن لديهم أوراق ضغط كثيرة.

رد عمر: ليسوا وحدهم من أدرك ذلك، فبعد تلك الحادثة فهم حزب البعث ومن ورائهم اللجنة العسكرية أن الخطر الحقيقي على حكمهم ينبع من المعارضة الشعبية القوية في محافظات سوريا، وعلى رأسهن حماة.

لكن ما أجل المواجهة الحتمية بين النظام والشعب، هو هزيمة ٦٧ واحتلال الجولان. انشغل الشعب بتبعات الهزيمة واحتلال الأرض، وانشغل النظام بصراع داخلي على السلطة، فقد أدرك وزير الدفاع المهزوم أن رفاقه سيضحون به، فاستبقهم بانقلاب عسكري داخلي جديد وضع له مسمى براق: «الحركة التصحيحية»، ونجح بذلك الانقلاب في السيطرة على كل خيوط السلطة وكل مفاصل الدولة، وزج بشركائه في السجون وتخلص من كل معارضيه.

ذلك الذي كان شريكاً وسبباً في ضياع جزء من أرض سوريا ونكبة الهزيمة الموجهة على الشعب السوري، صار هو نفسه فيما بعد ولعشرات السنوات القاحلة القائد الملهم والزعيم الأوحـد.

«حافظ الأسد.. القائد للأبد».

(٢٧)

استمرت لين في قراءة الكتاب، صفحة تجرها لما بعدها حتى استغرقها تمامًا، ونسيت النوم والجوع والعطش.

كانت السطور والكلمات تسحبها إلى عالم آخر، عالم تألفه وتشعر به، لكنها لم تعشه ولم تدركه إلا في سنوات عمرها المتأخرة، وأدركت أنها وعمر الكيلاني يربط بينهما الكثير من الأشياء والذكريات، برغم أنها لم يلتقيا أبدًا في هذه الحياة.

كانت تقلب بين صفحات الكتاب تقرأ ما خطته يد عمر الكيلاني:

نشأت أنا وجمال في ظل دولة يحكمها قانون الطوارئ والمحاکمات العسكرية.

رئيسها لا هم له سوى تكوين جيوش من الأجهزة الأمنية القمعية التي تُبقي على حكم الفرعون.

الوحدات وسرايا الدفاع والكتائب العمالية والكتائب الطلابية وفتيان علي وفتيات علي وجمعية الإمام المرتضى والفرسان الحمر، وجيوش من المخابرات والمخبرين.

دستور يتيح للرئيس البقاء للأبد والسيطرة على كل مقدرات الدولة، وقمع أي صوت معارض بالمحاكمات العسكرية وقانون الطوارئ.

أما حماة الديار الجيش العربي السوري، فقد سيطر عليه الأسد وأعاد هيكلته وبناءه، وفق عقيدة عبادة القائد العظيم.

صارت السجون ومراكز الاستجواب والأمن السياسي والمخابرات العسكرية هي الجحيم ذاته للأبرياء والمدنيين.

لم يعد للشعب خيار سوى أن يموت بصمت في أقبية السجون، أو يقاوم بكل ما لديه من وسائل.

رفض جمال الصمت، وخاصة بعد أن مات أبوه تحت التعذيب في مراكز الاستجواب بلا تهمة ولا جريمة، ومن بعدها صار جمال إنسانًا آخر، اشتدت نغمته على حكم البعثيين وعلى

النظام الجائر، وصار يجهر بكلمات الانتقام بلا خوف، وكنت أنفهم نغمته وغضبه وأستمع إليه بصبر، حتى لا تخرج حمم كلماته لأحد غيري فتصل لأذان أحد المخبرين، وعندها ستكون العاقبة كارثية.

لم يكن جمال وحيداً في رغبته الانتقامية ونغمته على النظام، بل كان أغلب الشباب السوري كذلك، فخرج من بين تلك الثلة التي أحرقتها الظلم بعض من يمسك السلاح في وجه النظام، وسموا أنفسهم باسم الطليعة المقاتلة، وتركزت عملياتهم الانتقامية في اصطیاد رجال النظام والمخابرات، مَن عُرِفَ عنهم شدة البطش بالناس والفجر في التعذيب والقتل.

وبعد عملية مدرسة المدفعية التي قُتِلَ فيها حوالي ثلاثمائة عسكري وقام بها أفراد من الطليعة المقاتلة وعسكريين من جيش الأسد، توحش النظام على الشعب بأكمله، وانتقم من كل من طالته أذره الأخطبوطية، ووجه التهمة لجماعة الإخوان المسلمين التي كانت تعلن رفضها للعنف، وتقوم بتزعم الاحتجاجات السلمية والعمل المدني والخيري في المساجد والنقابات العلمية، وانتقم منهم، وقتل أكثر من سبعمائة من المعتقلين في المجزرة الشهيرة في سجن تدمر، والتي لا يُعرف حتى الآن عدد ضحاياها على وجه الدقة، فقد دخل جنود النظام على المعتقلين في الزنازين وقتلوهم بوحشية.

كان ذلك بعد محاولة فاشلة لاغتيال الأسد، أعلنت الطليعة المقاتلة مسؤوليتها عنها.

ثم بدأت بعدها حمامات الدم والمجازر المرعبة فعلياً، فلم ينتقم النظام فقط من جماعة الإخوان المسلمين، بل شمل الانتقام كل طوائف المعارضة على اختلافها، بل وامتد للتنكيل بالأبرياء من المواطنين الذين لا علاقة لهم بالسياسة ولا المعارضة.

كان جمال متحمساً للغاية لكل ما يفعله تنظيم الطليعة المقاتلة، ويرى أن وحشية النظام لا يردعها إلا السلاح.

كنت عكسه، أرى أن الاحتجاجات السلمية والإضرابات الشعبية تأثيرها أكبر، وأن حمل السلاح لن يجلب إلا مزيداً من الدم، ولن يردع النظام، بل سيزيد من وحشية انتقامه.

لذلك كنت أوافق أستاذي حامد الكيلاني في كل آرائه وأتبع خطاه في المعارضة السلمية، وتوعية الناس في الجامعة والمساجد.

كان عام ١٩٨٠ هو الأشد وطأة على الناس في طول البلاد وعرضها، فقد اشتدت وحشية النظام، وقام بالعديد من المجازر في محافظات سوريا المختلفة، ولم يستطع الشعب البقاء صامتاً أمام تلك الوحشية والتنكيل البشع، فقد كنا نجتمع في المساجد والنقابات المهنية نتناقش ونتدارس ما يمكن أن نفعله، واتفق الجميع على إعلان مطالبهم التي تلخص في رفع حالة الطوارئ، وإلغاء المحاكم الاستثنائية وتفعيل الإعلان العالمي لحقوق الإنسان واستقلال السلطة القضائية، وإجراء انتخابات نيابية حرة.

ثم اتفقوا على إعلان الإضراب العام في كل الأراضي السورية، فأضربت النقابات وأغلقت الأسواق وتوقفت الحركة في المدن والأرياف.

خرجت المظاهرات الحاشدة في طول البلاد وعرضها تعلن تضامنها مع المطالب التي طبعت وانتشرت في كل البلاد.

كان الرد من النظام بحل النقابات العلمية وفروعها ومؤتمراتها، واعتقال أعضائها، واعتقال عدد كبير من أساتذة الجامعات والمدرسين والمحامين والأطباء والصيادلة، وآلاف من طلبة الجامعات والمدارس الثانوية.

كنت واحداً من الذين ذاقوا البطش والاعتقال على يد النظام، وكان الرعب الذي سببته لكل العائلة وخاصة أُمِّي سبباً في تراجعني بعد خروجي من المعتقل عن الانخراط في الاحتجاجات، خاصة أن النظام قد قام بتمشيط الحي بأكمله بحثاً عني، وأخذوا والدي لبعض الوقت، وقامت عناصر النظام بسرقة كل مدخرات أُمِّي وذهبها.

أما أستاذي حامد الكيلاني فقد تم اعتقاله بالطبع.

ومن بعد ذلك اليوم أمرني أبي بترك كل ما له علاقة بالاحتجاجات وعدم الجهر برأيي في أي شيء، فأنا الكبير الذي سيعتمد عليه في مساعدة العائلة، وأبي في أوج الكهولة.

أطعته مستسلماً بعد أن خسرنا كل مدخراتنا.

لكن النظام لم يتوقف، بل استغرق في عمليات حصار وتمشيط المدن والتنكيل بأهلها مرات ومرات، فحماة وحدها تم تمشيطها تسع مرات، حتى اعتاد الأهالي حملات المداهمة وحصار الأحياء، فعلموا أولادهم التنبيه على بعضهم بإطلاق النداءات وقرع الأبواب قبل إحكام

تطويق الأحياء.

وكانت أخبار المجازر البشعة تصلنا من كل مكان على أرض سوريا.
فمن مجزرة جسر الشغور، إلى مجزرة قرية كنصفرة، ومجزرة سوق الأحد بحلب، ومجزرة
سرمدا، ومجزرة حي المشاركة، ومجزرة بستان القصر.

حتى النساء لم يرحمهن، ونكل بهن أشد التنكيل، فقد كان يعتقل النساء من أمهات وأخوات
الملاحقين، ويلقي بهن في سجن تدمر، ثم جمع الجنود مئة وعشرين امرأة من السجن، وحفروا
لهن أخدودًا في الصحراء وساقوهن إليه، ثم أطلقوا عليهن النار ليسقطن جميعًا فيه، وأهالوا
عليهن التراب، فمن لم تمت بالرصاص وُئِدَت تحت التراب.

أما في حماة فقد كان التنكيل شديدًا والبطش عنيفًا، ولم تنأ يوم دون دماء، فقد تم حصارها
وقطع الكهرباء والماء عنها، وتم تمشيطها وتفتيشها بيتًا بيتًا، بحجة البحث عن الملاحقين، لكن
في الحقيقة، إنها كانت عمليات انتقامية من النظام، وفي كل مرة يقومون بقتل عدد كبير من
أعيان وأهالي المدينة، ويعتقلون المئات.

وفي إحدى المرات قاموا بمجزرة بشعة، وقتلوا ثلاثمائة وخمسة وثلاثين من أهلنا، وألقوا
بجثثهم في الشوارع، ولم يسمحوا بدفنهم إلا بعد عدة أيام.

كان منهم أستاذي حامد الكيلاني، الذي للممت جثمانه بعد أن مثلوا به، وشاركت بدفنه.
عجزت لين عن تحمل المزيد، فأغلقت الكتاب وانسكبت دموعها مدرارًا، فكل ما يحكي
عنه عمر الكيلاني تصدقه بكل كيائها، رغم أنها لم تره رأي العين.

بل رأته بالفعل!

فهو لا يختلف كثيرًا عن السنوات الأولى للثورة، والتي كابدت أحزانها ورأت فيها وحشية
النظام وإجرامه.

فالابن ثمرة الزقوم لأبيه، شيطانان من قعر الجحيم.

انخرطت في البكاء والنحيب بعد أن حاصرتها الذكريات، ذكريات رأتها وذكريات يحكيها
عمر الكيلاني.

لكن عقلها أراد أن يتخفف من وطأة كل تلك الآلام، فاستدعى تلك الصورة التي تهرب إليها كلما حاصرتها الوحدة واستبد بها الألم..

ناجي..

كم تحتاج إليه! كم تتمنى سماع صوته ليؤنسها ويخفف عنها وحدتها!
فتحت (الكمبيوتر) المحمول واستعرضت الفيديوهات التي أعطاها إياها سعد، واختارت منها الحفل الذي قدمه ناجي في غزة، واسترخت في مقعدها تنصت لصوته العذب الذي غاب عنها طويلاً، وفي عقلها برز سؤال:

ترى كيف كان يشعر وهو يقرأ مذكرات أبيه ويتعرف على قصته المؤلمة؟

لم تمر عليه أوقات كان فيها أشد وحدة منه الآن.
حتى وقت انفصاله عن أبيه لم يكن وحيداً، كان يشعر به في كل مكان حوله، كان يعلم يقيناً أنه إذا ما احتاجه فسيجده على الفور، وإذا ما ذهب إليه فسيسامحه دون عتاب، وسيجد متسعاً في قلبه الكبير ورصيماً من المحبة لن يحظى به مع أي أحد.
لكنه الآن صار وحيداً، لن يستطيع أن يناديه، ولا أن يراه أو حتى يسمع صوته.
لم يتبق منه سوى ذكريات، يجاهد كي يحتفظ بها في قلبه، ويستدعيها كلما حاصرته الوحدة بقسوتها.

لقد قرأ مذكراته سطرًا سطرًا، وعلم قصته الحقيقية.

كم تألم في حياته الطويلة! كم عانى من الظلم واكتوى بنيرانه!
لم يستطع عمر الكيلاني أن يتكلم ويحكي إلا بعد أن رأى بذور الحرية تغرس في الأراضي السورية، لطالما بقي قلبه أسيراً مكبلاً كمملاً لعشرات السنين.
لكن الثورة أحيت أملاً مات في قلبه يوم أن اجتثت من أرضه.

أخذت الذكريات تتداعى لرأسه ويتذكر ما كتبه عمر الكيلاني في مذكراته:

أستطيع أن أتخيل الآن مشاعر جمال عندما استلم جثة والده، وعليها آثار التعذيب الوحشي، بعد أن رأيت جثمان أستاذي حامد الكيلاني بعد أن مثلوا به.

أستطيع أن أتمثل مشاعر الرغبة في الانتقام التي تأكل كبده، وتبقية دائماً نكدًا مهمومًا، تفور غضبته وتثور ثورته في كل حين، ويجهر بكلمات الحقد على النظام، ولا يخاف من أن يسمعه أحد. أما أنا فقد كنت أخاف!

لم يكن جمال مكبلًا مثلي بوعد لأبي أن أتولى مكانه وأحمل مسؤولياته إن حدث له مكروه، فجبال ليس الابن الأكبر مثلي، له إخوة أكبر منه يحملون ذلك الهم، لذلك فلم يكن يبالي بالجهر بالعداوة للنظام.

أما أنا فلساني مكبل، وروحي سجين، فأبي لن يتحمل أن أصبح ملاحقًا أو معتقلًا أو قتيلاً ممزق الأشلاء على الطريق، إذا ما أخرج بعض من الغضب الذي يحرق صدري كلمات تعادي ذلك الحكم الجائر.

وفهمت أمني ما بي، فأدركت بفطنتها أن نجاتي تكمن في شغل عقلي وإلهاء قلبي عما حدث ويحدث، وإبعادني عن تلك الأفكار السوداء التي ستجلب لبيتنا المصائب على حد قولها.

كنت أحب شجاعة جمال وأعجب بإقدامه، وأتمنى أن أكون مثله، والأكثر من هذا، كنت أرى فيه فارسًا جرح قلبه العشق، فبرغم أنه لم يقدم على التحدث إلى زهرة أبدًا، أو إطالة النظر إليها، فقد كان يرعى حقوق الجار ويستحي من الله، لكن قلبه كان معلقًا بها منذ أن كانت طفلة، كما صارحني بذلك مرات عدة.

كم تمنيته زوجًا لزهرة، فمن سواه سيكرمها ويحملها في قلبه؟

لكن الصبية الجميلة المدللة لها رأس يابس كالحجر، لم تفلح محاولاتي ولا محاولات أبي وأمي في إقناعها بقبول جمال.

كان عليّ أن أفعل ما بوسعي لأواسيه وأخفف عنه الصدمة، بعد أن أبلغته برفضها القاطع. في يوم العطلة ذهبت العائلة للنزهة إلى حديقة أم الحسن، كما نفعل دائماً في أيام العطلات، وبذلت جهداً مضنياً لأقنع جمال أن يأتي معي كما اعتدنا منذ الصغر، لنقوم (بالنكسات) في منطقة باب النهر.

لا متعة في الحياة تضاهي متعة القفز من جوار الناعورة والغوص في العاصي، ثم التعلق بالدولاب الكبير وهو يدور ويرفع الماء من أسفل لأعلى لأرتفع معه إلى السماء، حتى أصبح في أعلى دولاب الناعورة، فأقفز من فوقه محلّقاً في السماء لثوانٍ قبل أن أغوص مجدداً في العاصي.

كل ذرة في أجسادنا شربت من مياه العاصي حتى ارتوت، كانت تلك النكسات تشفي صدورنا وتزيل همومنا وتمسح عنا أحزاننا، إلا هذه المرة.

لم يستطع جمال أن يضحك أو حتى يبتسم، وكأنها تأمرت عليه الأحزان وسقته من شراها المرير.

حاولت أن أواسيه، فلم أستطع، فقد كان حزيناً صموتاً، يرد باقتضاب إن ألححت عليه في الكلام، ولم أجد بُدّاً من دفعه من فوق السور ليسقط في المياه بعد أن كان رافضاً في البداية أن يقرب الماء أو أن يشاركني ما اعتدنا عليه، لكنني أجبرته بتلك الدفعة على الخروج قليلاً من همومه، ثم قفزت خلفه، وغسلت مياه العاصي بعضاً من أحزانه، وأخذنا نستمتع معاً بالنكسات من فوق دولاب الناعورة، حتى قال لي أخيراً: مصطفى، أنت أفضل صديق لي في هذا العالم.

انشرح صدري لكلمته، واطمأن قلبي أن ما فعلته زهرة لن يؤثر على صداقتنا.

سمعت صوت عادل يناديني قادماً من جهة الحديقة، فأسرعت إليه، فقال: أمني تريدك أن تلحق بها عند جسر الشيخ.

قلت وقد ساورني بعض القلق، وقد كنا نعاني مدامات جنود النظام المتكررة: أحدث شيء؟ هل الجميع بخير؟

جميعنا بخير، ولكنها أخبرتني أن أناديك لتلحق بها عند جسر الشيخ.

لم أستطع سوى أن أطيع، وأنا أكثر من يعلم كيف تكون أمني عندما تغضب إذا لم أفعل ما قالت، فأسرعت مع عادل إلى جسر الشيخ، بملابسي التي تقطر ماءً، وخصلات شعري الملتصقة ببعضها على جبیني، ودون حتى أن أنتعل حذائي.

وصلت إلى الجسر بخطوات سريعة، ومن الجهة المقابلة على الجسر رأيت أمني قادمة تتهاذى وهي تضحك والبشر يكسو وجهها، لكنها لم تنظر حتى نحوي.

كانت تضحك لفتاة في عمر زهرة أختي تقريباً، تعلقت بذراعها وهما يتبادلان الحديث الضاحك الودود، وثالثتهما امرأة من عمر أُمِّي.

وقفت في مكاني عاجزاً عن الحركة، لا أستطيع التقدم ولا أستطيع الهروب، فلقد أدركت على الفور المؤامرة التي تحيكها أُمِّي، فالمرأة التي تسير معها بالتأكد هي صديقة طفولتها التي تقطن في حي الكيلانية، والفتاة التي تتوسطهما هي ابنتها التي لطالما حدثني أُمِّي عنها، وطلبت مني مراراً أن أذهب معها لرؤيتها.

كان عقلي يحثني على الهرب في تلك اللحظة، لكنني لم أستطع، فقد تسمرت أقدامي في الأرض، وأصابني جسدي رعشة غريبة عندما رأيت وجهها المستدير كالبدن، وابتسامتها الحية.

يتقدم الثلاثة باتجاهي، وهيئة الفتاة تزداد وضوحاً في عيني، وينكشف لي شيء من روحها وأخلاقها، فهي تغطي شعرها وترتدي ملابس محتشمة، وأدركت أن أُمِّي تفهمني وتعرف ما أبتغيه أكثر من نفسي.

وندمت أنني لم أقبل على الفور بتلك التي اختارتها لي أُمِّي من قبل أن أراها، وصددت عنها صدوداً، وتهربت من لقاءها بكل الطرق، حتى أوقعني أُمِّي اليوم، وساقني دون أن أدري إلى قدرتي بمؤامرة لطيفة، وتواطؤ ماكر مع صديقة طفولتها.

كنت أتأملها مسحوراً وقد ذهلت عن العالم، حتى تسلل جمالها الهادئ إلى قلبي، واحتلت روحها اللطيفة وجداني، ولم أستفق من تلك الحالة التي تملكني إلا على أُمِّي وهي تناديني بصوت فشلت في صبغه بصبغة جادة، ولم تنطل عليّ محاولاتها لتخفي ضحكاتها الماكرة وسعادتها الغامرة بنجاح خطتها.

فقد أدركت من اللحظة الأولى التي رأت فيها عيني معلقتين بالفتاة أنها نالت إعجابي، وحظيت بمكانة في قلبي.

لكنني أشفقت على الفتاة عندما أدركت أنها انتبهت أخيراً لأنها وقعت ضحية المؤامرة مثلي، ولكن بعد أن صرنا متقابلين وجهاً لوجه، وفوجئت بي أمامها أنظر إليها طويلاً، فصمتت تماماً واختفت ضحكاتها وحل محلها الارتباك والتوتر، واحمر وجهها بشدة حينما هتفت أُمِّي بصوت تظاهرت فيه بالمفاجأة: مصطفى! لقد انتهيت مبكراً من نكساتك!

انتبهت أخيراً إلى مظهري الذي لا يسر، فأول مرة تراني فتاة أنوي خطبتها، تراني وأنا مبلى من أصابع أقدامي حتى شعر رأسي، وبقميصي الداخلي وحافي القدمين.

لا أدري من كان فينا الأكثر خجلاً من الآخر، فالفتاة كانت تتلملم لا تدري أين تهرب بوجهها، وقد أغرقها الخجل، وقد أطبقت أُمي على يدها كي لا تهرب، ولكنها سحبت يدها أخيراً من يد أُمي، والتفت مهرولة دون أن تنطق باتجاه الكيلانية، وأمها تناديه وهي تلحق بها وهي تضحك.

حميدة..

كان اسمها ين في أذني يعيد من جديد صورة وجهها المشرق وابتسامتها الحية في عقلي مرات ومرات، وأُمي تضحك وتحادثني بكلمات لم أع منها حرفاً، فقد كنت متسماً في مكاني أنظر إلى الطريق الذي رحلت منه، وقد هرول قلبي خلفها.

لم أرد عليها سوي بكلمة واحدة أطلقت ضحكات السعادة من صدر أُمي..

متى ستنتم الخطبة؟

أدركت بعدها كل ما كان يعترني جمال من مشاعر القلق واللهفة والانتظار والخوف، عندما كان يتقلب على جمر النار منتظراً رد زهرة على طلبه.

فلأول مرة تتفجر في قلبي مشاعر الرغبة واللهفة والشغف نحو فتاة.

دعوت الله ألا أكابد ذلك الألم الذي يعانيه، وتلك الخيبة التي يعجز عن التخلص منها حتى الآن، إذا ما رفضت حميدة القبول بي.

ما عرفته من أُمي أن حميدة أيضاً كانت ترفض لقاء أي خاطب يتقدم إليها، فما كان من أمها وأُمي إلا تدبير تلك الخطة ليرى كل منا الآخر.

لم أصدق نفسي عندما أبلغتني أُمي بموافقة حميدة على الخطبة، ونجحت أُمي بالفعل في توجيه عقلي إلى منطقة أخرى بعيداً عما يحدث في البلدة في تلك الآونة، فصار قلبي معلقاً بها، ينتظر بشوق اليوم الذي سيجمعني بها بيت واحد.

وأرادت أمي أن تحدد موعدًا للزيارة لروية الفتاة التي صرْتُ أعتبرها خطيبتني في بيتها، لكنني اعترضت، وطلبت منها أن تنتقل مباشرة إلى خطوة (فصل نقد) العروس، ونحدد في نفس الجلسة موعد كتب الكتاب.

لم تتخيل أمي أن ابنها الأكبر الذي كان عصيًا على الزواج سيتحول كل هذا التحول ويصبح متعجلًا ليوم كتب الكتاب.

رأيت أنه لا داعي للتأخير، فأبي منذ فترة وهو يجهز لي غرفة في البيت لتصبح سكنًا لي مع عروسي، لكنني لم أكن مهتمًا بكل هذا من قبل أن ألتقي حميدة. تحققت سعادتي الغامرة بأن صارت حميدة عروسة لي.

الآن فقط بعد كتب الكتاب أستطيع أن أنعم بصحبته، أن أتحديث إليها، أن أستمع إلى صوتها العذب.

اصطحبتها في نزهة في حديقة أم الحسن، لكن ما كدر عليَّ أوقاتي هو أننا لم نكن وحدنا، فالتقاليد تفرض علينا اصطحاب أحد معنا، ولم أجد سوى زهرة المشاكسة، الآن أنا بحاجة إليها، فلا أستطيع الخروج مع عروسي بدونها، وهي تجيد ابتزازي، وتنتهز الفرص للانتفاع من حاجتي إليها.

آخ يا جمال، لو أن تلك المشاكسة قبلت بخطبته لما ركبت فوق رأسي.

لكن سعادتي الغامرة بحميدة لم تستطع إفسادها تلك المشاكسة النكدة، التي تتدخل بسماجة في كل حديث بيننا.

وأخيرًا تحدثت حميدة عن نفسها، وحياتها يذوب قطرة قطرة ليتقارب قلبانا، وأدركت أنها تحب الكثير من الأشياء التي أحبها، وتحب قراءة الشعر وتحفظ الكثير من الأشعار، ولم أتركها ترحل إلا عندما أَلقت عليَّ بعض أبيات الشعر، وأعدتها إلى البيت وتركت قلبي هناك، وعدت إلى بيتي أصطلي بنار الشوق واللهفة للقائنا القادم.

لم يخفَ حالي عن عيني أمي، بل سعدت أيما سعادة واستبشرت بزواجي، وقرت عينها، فابنها البكري سيستقر ويبتعد عن المشاكل.

ليت الأمر سار على هواها، لكن الأمور ساءت بسرعة عجيبة، وتردت الأوضاع بشكل لم يتوقعه أحد، وذلك بعد أن تم تعيين رفعت الأسد شقيق الرئيس آمراً عريضاً لمنطقة دمشق وحلب وحماة.

عندها فقط أدرك أهالي حماة أن الجحيم على وشك الاندلاع.

كان رفعت الأسد يتمتع بوحشية وسادية لا تقل عن وحشية هتلر وستالين، بل إنه كان يتخذ من ستالين مثلاً أعلى، وهو يستشهد به في خطابه عام ٧٩ في مؤتمر حزب البعث أن ستالين قضى على عشرة ملايين إنسان في سبيل الثورة الشيوعية.

وكذلك أعلن رفعت الأسد في غير ذات مرة بأنه سيبيد أهل حماة، بل سيجعل المؤرخين يكتبون أنه كان في سوريا مدينة اسمها حماة.

أتى باثني عشر ألفاً من جنود سرايا الدفاع، واستولوا على عشرين موقعاً في السوق وعشرة في الحاضر، وأقاموا أمامها الحواجز الثابتة.

انتشرت الدوريات المكثفة في كل مكان، حتى صارت البلدة أشبه بثكنة عسكرية، تعيش في رعب وتبيت على حظر التجوال.

اعتادت القوات استهداف وتطويق المساجد يوم الجمعة واعتقال العشرات منها، فتخرج النساء من بيوتهن بعد الصلاة إلى المساجد لتفقد رجالهن والاطمئنان عليهم، إذا ما تأخروا في العودة.

ولقد فعلتها حميدة مرة بعد أن أخبرتها أمي أنني اعتُقلت من قبل، فانطلقت إلى الجامع ووقفت تنتظرن دامعة العينين مرتجفة القلب.

لكنها لم تكرر هذا ثانية عندما استشعرت غضبي وضيقني من خروجها وحدها لتبحث عني، فما كنت لأتحمل أن تتعرض لأي مضايقات من عناصر الشرطة أو القوات.

وكذلك لم تسلم الكنائس ولا المسيحيون من الإيذاء، فقد ضربت القوات صليب كنيسة العذراء بالسلاح فانكسر، ونهبت الكنائس، وأهانوا مطران حماة حتى اضطره للهجرة إلى أمريكا.

لم يكونوا يفرقون عند مدهامة البيوت بين بيت مسيحي وبيت مسلم، ولا تسلم بناتهن من التعرض للتحرش من قبل القوات.

صار التنكيل بالمواطنين وإذلالهم في الشوارع والطرق بحجة تبديل البطاقات الشخصية، فيوقفون المواطنين على الحواجز الثابتة والطيارة ويعملون على إهانتهم وإذلالهم، وخاصة المسنين والنساء، ولقد تعرض أبي يومًا للإهانة على أحد الحواجز، وكدت أشتبك معهم، لكنه توسل إليّ ألا أفعل، وصمْتُ إكرامًا لخاطره ولكي لا يتعادوا في إهانتته وإيذائه، ويومها عدنا إلى البيت سالمين بمعجزة.

بل وصل الأمر إلى تطويق حي بأسره وإخراج أهله من بيوتهم ونهبها وسرقة ما فيها، والتحرش بالنساء أمام رجالهن وأولادهن، والتفنن في إذلال الرجال أمام نسائهم، بل وإجبارهم على الركوع لصورة حافظ الأسد والهتاف له تحت تهديد السلاح، وكرروا الأمر في كل حي يدخلونه، حتى ثار الأهالي عليهم في بعض المناطق وتصدوا لعدوانهم، وقتلوا بعضًا منهم انتقامًا لما لحقهم من أذى وإذلال.

لجأ النظام لوسيلة قدرة لتأديب الأهالي وجعلهم عبرة لغيرهم، فكانوا يفجرون البيوت بالديناميت بقذارة فجعة وخصومة فاجرة، ويدّعون أن أهل البيت لهم صلة بالإخوان، أو أن لديهم تقارير من عملاء تفيد بأن أحد المعارضين يتردد على البيت.

كانوا يقومون بالتفجير دون أن يحذروا السكان المجاورين أو يتركوا لهم الوقت الكافي لإخلاء بيوتهم، التي قد تتضرر أو تنهار من أثر التفجير.

بل قد يطلقون عليهم النار لأنهم لم يشوا بجيرانهم ويبلغوا عنهم.

وقر في روعنا كشباب أن هناك أمرًا يُدبّر لحماة، وأن تجمع تلك الحشود الرهيبة من عناصر الجيش التي جمعوها فيها، ما هو إلا تمهيد لعمل إجرامي سيقوم به نظام الأسد ضد أهالي المدينة.

فقد حاصرت المدينة حشود ضخمة من قوات سرايا الدفاع، واتخذت لها العديد من المراكز في الملعب البلدي ونقابة المعلمين ومعهد الثقافة الشعبية وغيرها، والمخابرات العسكرية، والمخابرات العامة والوحدات الخاصة، والشعبة السياسية والكتائب الحزبية المسلحة واللواء ٤٧ المدرع.

كان الأمر يشي بحرب حقيقية يستعد لها نظام الأسد، بعد أن قطع كل الطرق التي تصل حماة بما حولها بتمركز قواته فيها.

أدركنا أن هدفه هو قطع صوتنا عن العالم، أو قطع العالم عنا وحصار حماة بأكملها. لم يعد بإمكاننا الوقوف مكتوفي الأيدي ضد كل ما يحدث لمدينتنا وأهلنا.

التقيت بجمال، واتفقنا على أن ننضم لأفراد المجاهدين الملاحقين والمختبئين، فتواصل مع صديق له، ووجدنا الكثير من شباب حماة مثلنا يبادرون بحمل السلاح والانضمام للمجاهدين للدفاع عن المدينة.

لم نكن بحاجة للتدريب، فقد كان سهلاً علينا استخدام السلاح، فقد تمرنا على استخدامه في العسكرية.

انتشر الخبر بين أهالي حماة، ودعت المساجد الشباب للدفاع عن البلدة، وتجمع الكثير من الشباب في المسجد، وحملوا السلاح وانتظموا في لجان ليدافعوا عن أحياء المدينة.

رابطت أنا وجمال في حي البارودية دفاعاً عن بيوتنا وأهلينا، ووقف أخي عادل يمارس عمله مع رفاقه ممن هم في مثل عمره بالوقوف فوق أسطح المنازل ومراقبة الطرقات والأزقة واكتشاف أي هجوم مباغت، ليرسلوا لنا إشارات التنبيه لنستعد للهجوم.

كانت الليلة طويلة ومرعبة، لكن صورة حميدة كانت تلح على عقلي وتغزو قلبي، وداهمني الخوف ألا أراها مجدداً، فاشتعلت نفسي إصراراً أن أراها الآن، وحاول جمال أن يثنيني عن ذلك، فكيف لي أن أترك موقعي، واحتمال أن يدهموا البلدة يتزايد باطراد مع دخول الليل، ثم كيف سأجتاز كل هذا الطريق لأصل إلى حي الكيلانية؟

لكنه استسلم أخيراً لإصراري، فمن مثله اكتوى بنيران الحب ليتفهم ما أشعر به؟ وانطلقتُ مستتراً بالليل محتمياً بالأزقة والبيوت القديمة بعيداً عن أماكن تركز القوات، حتى وصلت إلى بيتها.

وقفت أمام البيت لا أدري ماذا أفعل، هل أطرق الباب؟ هل أنادي؟ كان المكان غارقاً في الهدوء بعد أن أوى الجميع لبيوتهم، وجمعت النساء أولادهن كي لا يصيبهم مكروه في تلك الليلة المرعبة، وغادر الشباب للاستعداد والمراقبة.

لكن باب البيت فتح ببطء، وأطلت هي من فرجته، فتقدمت منها تسبقني لهفتي إليها، ودخلت فسحة البيت وأغلقت الباب، ووقفت تتطلع إليّ بصمت، وعلى ضوء خافت قادم

من نافذة البيت رأيت عينيها الدامعتين، وأدركت أنها كانت تبكي من صوت أنفاسها المختلطة بالنشيج، كانت حميدة تنتظرنني خلف النافذة الخشبية، وقلبها ينبئها بأنني سأتي محملاً علي أجنحة شوقي إليها، منقاداً للوعة قلبي، وعندما رأته هرولت لتفتح لي.

كلانا يدرك أن هناك أمراً جليلاً سيحدث تلك الليلة، كلانا يستشعر الخوف في قلب رقيقه. وقفت أمامها صامتاً أملاً عيني من جماها وأشبع قلبي من طلتها، أستمع لصوت نشيجها وأعد قطرات الدمع التي تتواتر على خديها، أضع على قلبي حجراً وأكبل مشاعري بسلاسل من حديد كي لا أضمرها لصدري.

رؤيتها لم تزدني إلا شوقاً، ولم ترو قلبي بل زادت حريقاً، فرؤيتها حزينه تبكي زادتني ألماً فوق ألم وهماً فوق هم.

حاولت أن أقول كلمة، لكن أني لكلمات الأرض كلها أن تعبر عما أشعر به الآن!

كيف لذلك الحب أن يرتوي بالكلمات؟

هل أقول لها إنني أتيت لأودعها؟

هل أقول لها إنها قد لا تراني مجدداً؟

إنني لو متُ شهيداً فسأفتقدوها، ولن أرتضي لها بديلاً ولو كانت من الحور العين.

لو اعتُقلتُ فسيكون غياب وجهها عني أفسى عليّ من سياط التعذيب.

هل أقول لها إنني ما أمسكت السلاح إلا لأحميها؟ لأشعرها بالأمان؟ لأجعلها تسير في الطرقات مرفوعة الرأس لا تمتد إليها يد نجسة؟ لا يتحرش بها كلب من كلاب النظام أو يداهم بيته خسيس؟

أومات برأسها وهي تكفكف دموعها، وكأنها تسمع ما يقوله قلبي ولا ينطق به لساني.

تفهمني وتشعر بلوعتي وحيي، تدرك قلقي وخوفي لأجلها.

أردت أن أودعها فلم يطاوعني لساني، وأدركت أن الوقت يهرب من بين أيدينا، وأنني مضطر للعودة إلى مكاني.

كانت روحي تنسحب من جسدي كلما فكرت بأنني سأفارقها، لكنني استجمعت شجاعتي
وأمسكت عن ذرف دموعي التي كادت تفضحني، والتفتُ لأفتح الباب وأغادر، لكن همسة
منها جمدتني في مكاني.
مصطفى..

عندما سمعت اسمي من بين شفتيها، انهارت مقاومتي، واندفعت إليها عاجزاً عن ردع
نفسي بعد أن أمسكت طويلاً عن أن أضمرها بين ذراعيّ.
تمنيت لو أخفيها بين أضلعي، فلا يراها أحد وإن حطموا عظامي.
تمنيت لو أسكبها في قلبي، فلا يصلون إليها ولو اعتصروا عروقي وصفوا دمائي.
كانت تلك هي الضمة الأولى والأخيرة التي عشت على ذكرها ما تبقى لي من عمر، كان
أطول عليّ وأقسى من عمر سجين بالمؤبد في زنزانة انفرادية.

(٢٨)

كانت ليلة الثلاثاء الثاني من شباط للعام اثني عشر وثمانين ليلة غائمة ممطرة، عجز فيها كل أهالي حماة عن النوم، وانتشر الشباب في الأحياء فوق الأسطح وبين الأزقة يحملون أي شيء تطاله أيديهم ويصلح للدفاع عن أنفسهم وأعراضهم، وكان الكثير منهم يحملون بنادق قديمة ومسدسات يمتلكونها أهلهم.

زاغت منهم الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، كل منهم في حيه، يقف حارساً مترقباً خائفاً من غدر النظام وجنده، فما فعلوه في عام ٨٠ و ٨١ عندما اقتحموا حماة لا يغيب عن بال، ولا يخفى عن صغير ولا كبير.

وكذلك ما يبيتونه لحماة، فهذه المرة ليست ككل مرة، فحقد رفعت الأسد على حماة لا يخفى على أحد، وهو لا يحاول مداراته أو إخفاءه.

بل حقد حزب البعث، فهم لا يمكنهم نسيان أن حماة وقفت بوجههم عام ٦٤ ورفضت ظلمهم وانتهاكاتهم بحق الناس، وثار ضد شعاراتهم المنافية للدين، والمستفزة لمشاعر أي مسلم.

ولهذا وفر في يقين الجميع أنهم إذا دخلوها هذه المرة فلن يبقوا ولن يذروا، ولن يرقبوا في أهلها إلا ولا ذمة.

في الساعة الواحدة وعشرين دقيقة كنت أنا وجمال في مخبئنا ينظر كل منا للآخر بوجل، نتجنب الحديث حتى لا يعرج بنا إلى ما نخافه، حتى وصلتنا الإشارة بأن قوات سرايا الدفاع قد وصلت وبدأت تطوق الحي.

كان هناك عشرون سيارة اقتحام مصفحة، لغمت بعض البيوت التي كانوا يعتقدون أن الشباب المقاوم يختبئون بها بالعبوات الناسفة، وفجروها.

كانت البداية عنيفة للغاية، فتوقعنا أن القادم أسوأ، فتعاهدنا أنا وجمال على الشهادة، وانطلقنا مع شباب الحي نصعد الهجوم ونحاول فك الحصار، وكان الاشتباك عنيفاً، لكننا رددناهم عن الحي، وتم فك الحصار.

كانت دفعة معنوية كبيرة لنا أن نراهم يهربون، وفي نفس الوقت جاءتنا الأخبار بأن الشباب في حي الشريعة ضربوا مركزاً لسرايا الدفاع في نقابة المعلمين كان يرسل نجدة وتعزيزاً للقوات التي حاصرتنا في البارودية

وعندما علمنا بأن السلطة تقوم بإنزال آلاف العناصر حول المدينة وتجمعوا في الملعب البلدي، أدركنا أنهم يبيتون الشر لغزو حماة.

وأدرك الأهالي الخطر عندما علموا بأن الدبابات الثقيلة على وشك الوصول، فحدثت اشتباكات في حي البياض واقتحم الأهالي مستودع السلاح وغنموا منه الكثير، فعلمت بقية الأحياء، فانطلق الأهالي لبعض مستودعات السلاح ومخافر الشرطة يبتغون ما يدافعون به عن أنفسهم ضد وحشية النظام، الذي فوجئ بأن هناك من الأهالي من يرفض الذل والاستسلام ويتحداهم بالمقاومة، فزجوا بالمزيد من القوات وبأعداد كبيرة ومنها الوحدات الخاصة، وكذلك وصلت طائرات نقل عسكرية ضخمة إلى مطار حماة، وإنزال جوي للجنود في الحميدية.

وصلت الدبابات إلى الجسر الجديد ومعها قوات كثيفة من الوحدات الخاصة، وأخذت المدفعية تضرب بعنف، فاستشهد الكثير من الناس.

من اليوم الأول استهدفت المدافع وقذائف الدبابات مآذن المساجد، فتلک المآذن هي التي كانت تنادي في الناس بالمقاومة والدفاع عن البيوت والأعراض وتحذر الناس. قُصِفَ مآذن أكثر من ثلاثين مسجداً في جميع الأحياء، وتضررت مبانيهم.

كانت خطة الأسد تقضي بحصار المدينة من محاورها الأربعة، وقطع كل صلاتها بالعالم الخارجي، فلا يدخل ولا يخرج منها أحد، لكي لا يعلم العالم بما يجري فيها، مع قصفها بالمدفعية ونشر الدبابات في المناطق الرئيسة والمراكز الحساسة فيها، لبيدوا بالسيطرة على قلب المدينة، من بداية شارع العلمين إلى نهاية شارع الشهيد سعيد العاصي، وهو الشريان الحيوي لقلب المدينة.

ثم تقسيم المدينة وعزل الأحياء عن بعضها البعض.

تقدمت ثلاثون دبابة في شارع العلمين، فتصدى لهم الشباب المقاوم، فدمروا بضع دبابات ببعض قذائف الآر بي جي، لكن قلة القذائف والذخيرة أجبرتهم على الانسحاب، واحتلت الدبابات وسط المدينة، وفي حي البارودية وجدنا قوة من سرايا الدفاع تتمركز فوق مبنى، وكان

يبدو أنها في انتظار الدبابات القادمة من شارع العلمين، فاشتبكنا معهم لساعتين وانتصرنا عليهم. في نفس الوقت كانت الدبابات في شارع سعيد العاصي تحاول فصل حي البارودية في الشرق عن الأحياء الغربية، وهي تقصف كل مبنى تمر به، لكنها فشلت أمام إصرار وعزيمة شباب الحي، وزاد من ثباتنا أن وصلتنا أخبار أن الشباب تصدوا للدبابات على طريق حلب، واستشهد منهم الكثير بعد أن أعطبوا ثنائي دبابات.

كان اليوم الأول ذاخراً بالأحداث والانتصارات على قوة غاشمة تتصدى بالدبابات والطائرات والقوات الخاصة، لشعب أعزل لا يملك سوى الدفاع عن نفسه بما يفتقنه من المعارك، أو بما يتحصل عليه من مستودعات السلاح والذخيرة في البلدة.

هاجم الشباب مستودع الجيش الشعبي قرب البئر الارتوازي، فأمدهم بالبنادق الروسية والذخيرة، لكن ذلك لم يكن كافياً أبداً للتصدي للآلة العسكرية الضخمة المتوحشة، التي تضرب في خاصرة البلدة القديمة بجميع أحيائها بقذائف الدبابات، يدعمها الطيران المروحي برشاشاته، وراجمات الصواريخ التي وضعوها فوق المباني الرئيسة وفي الأماكن الحساسة.

كنا نحاول بأسلحتنا البسيطة صد ذلك الغزو الإجرامي التتري، فنكمن للدبابات ونحاول إعطابها بقنابل المولوتوف، فيكون الرد قصف المباني والمنشآت بالمدافع وقذائف الدبابات، فتهدمت الكثير من المباني.

كنا نفعل ما بوسعنا، ونحصن الحي ونغلق مداخله بحطام الدبابات والأحجار الكبيرة، وخاصة من ناحية شارع سعيد العاصي، وانتشر شباب الأحياء المجاورة عبر الأزقة والمداخل المطلة على الشارع كي لا تقتحم قوات النظام الحي، فيقومون بإعطاب الدبابات التي تحاول اقتحام الشوارع التي بين الأحياء.

ولم تستطع الدبابات أن تدخل شارع سعيد العاصي إلا بعد اليوم الثالث، وهي تصب نيرانها وقذائفها على المباني والمنشآت، فاشتعلت النار في بعض المباني، وهدم جامع الأربعين، ثم تجمعت الدبابات عند جسر العيسى.

تبع الدبابات قوات المشاة، فتصدى لهم الشباب وردوهم، لكنهم لم يستطيعوا التصدي للدبابات التي تدعمها المروحيات في سوق الشجرة، فسقط منهم الكثير من القتلى والجرحى، وكذلك في حي الدباغة، بعد أن نفذت منهم الذخائر القليلة التي يحملونها.

وفي حي البارودية كنا نتصدى لتسلل عناصر سرايا الدفاع، فنقتل بعضهم فيترجع الباقون. وكانت الثكنة في حي الشرفه المطل على المدينة فيها مدفعية ثقيلة وراجمات صواريخ تُصلي الأحياء القديمة بنيران القصف العشوائي الذي يصيب المباني والأهالي، ورأينا بأعيننا ما كان يحكيه آباؤنا وأجدادنا لنا عن دور الثكنة في قصف المدينة في ثورتَي ١٩٢٥ و ١٩٤٥ أيام الاستعمار الفرنسي.

كانت مقاومة شباب أحياء حماة القديمة بأسلة، وكان صمودهم أسطوريًا في وجه آلة عسكرية شديدة التسليح، فانتقمت السلطة من صمودهم بأحقر وأخس طريقة، لأنهم منعوهم من التقدم في شارع سعيد العاصي، وفشلوا لليوم الثالث من السيطرة على وسط المدينة، إذ يبدو أنهم كانوا بحاجة لأي انتصار ولو كان زائفاً.

اتجهت عناصر السلطة لحي جنوبي الملعب في حماة الجديدة، واقتحمته بأعداد كبيرة، ولم يقابلوا بأية مقاومة، وقد كان الحي هادئًا للغاية.

منذ البداية لم يشترك ذلك الحي الجديد في المقاومة، فقد صممه السلطة بتخطيط حديث يسهل احتلاله واكتشاف أي حركة فيه، لذلك لم يقترب منه شباب المقاومة، وبقي بعيدًا عن الأحداث التي اجتاحت المدينة.

دخلت عناصر سرايا الدفاع إلى الحي بأعداد كبيرة، وأخذوا ينادون على الناس بمكبرات الصوت ليتجمعوا في ساحة الحي، وحذروهم من الاشتراك في المقاومة، وأقنعوا الناس بأنهم لا يريدون بهم شرًا، ثم صرفوهم، وبعده فترة جمعوهم ثانية في الساحة، ووجهوا إليهم التحذيرات الشديدة من الاشتراك في المقاومة، ثم صرفوهم، فاطمئن الناس، ومن كان محتبئًا عاد لبيته.

ثم جمعوهم في الثالثة بأعداد كبيرة، ومن بينهم الكثير من النساء والأطفال والشيخوخ، ولكن هذه المرة لم تكن للتحذير، بل كانت حفلة إهانات وتعذيب، وأعقبها قتل كل الحاضرين في الساحة رشًا دون تفرقة بين امرأة ورجل وطفل.

ثم اتجهت عناصر السلطة إلى البيوت، وبدأت عمليات السلب والنهب وقتل كل من تطاله أيديهم ممن لم يحضر إلى الساحة، فيخرجون الأسر والعائلات كلها من البيت ويقتلونهم فردًا فردًا بالرشاش، الأب أمام أبيه والابن أمام أمه، ويسرقون كل ما في البيت من مال وذخاير

وأشياء ثمينة، بل إنهم قطعوا أيدي النساء وأصابعهن لانتزاع الحلي الذهبية منهن!

من كان يجدونه حياً بعد كل هذا القتل يشحن في شاحنات إلى مقبرة سريجين، ويقتل أمام خندق حفروه ليدفنوا فيه أهالي حماة جماعات، فيرشونه أمام الخندق ليسقط فيه فوق جثث من سبقوه بالشهادة.

ولم ينبُج حتى العاملون بحزب السلطة من أهالي حماة، فقتلوهم مع من قتلوا، بل طاردوا حتى الجرحى إلى المستشفى الوطني وقتلوا بعضهم.

وقام أحد الضباط الحمويين بتهديد والد واحد من القتلى وإجباره على الإعلان أن من قتله هم الشباب المجاهد، وأرسلوا له برقية تعزية رسمية!

كانت مجزرة مروعة زلزلت أركان البلدة، وجعلت كل الأهالي يوقنون بغدر النظام، ونيته المبيتة لتدمير البلدة وسحق أهلها، سواء كانت هناك مقاومة أم لا.

منذ تلك اللحظة تعاهدنا جميعاً كشباب مقاوم على الموت دون أهالينا وبيوتنا وأعراضنا.

لن نسمح بدخول أي عنصر من عناصر السلطة لأي شارع أو زقاق إلا على أشلاء جثثنا أجمعين.

(٢٩)

وصلنا إلى اليوم الخامس وما زلنا أحياء، وعلامة الحياة فينا هي صمودنا حتى الآن وتشبثنا بالدفاع عن الأحياء التي هي لنا وطن.

اشتد ضغط السلطة على أحياء العصيدة والزنبقي بالدبابات وراجمات الصواريخ والقصف المدفعي، وهدموا كثيرًا من البيوت، ثم هاجموا الحي هناك، لكن الشباب تصدوا لهم ومنعواهم. لم تتقدم قوات النظام شبرًا في حي الدباغة إلا على جثث وأشلأ شباب الحي، واستطاع الشباب هناك إعطاب ثلاث دبابات في طريق حلب، لكن القصف العنيف أدى إلى تهدم جامع الهدى على ثلاثين جريحًا كانوا يعالجون فيه.

وفي السخانة، استخدمت عناصر النظام تلغيم البيوت وتفجيرها بيتًا تلو بيت، لتوفر للدبابات الفرصة للاقتحام وتمنع الشباب المقاوم من الاختباء.

بدأت الذخائر تنفذ منا في البارودية، فابتكر بعض الشباب عبوات من الألغام توضع في طريق الدبابات وتموه، وعند عودة الدبابات صباحًا تنفجر العبوات تحتها فتعطبها، مما وفر لنا طريقة جديدة للمقاومة.

تلك المقاومة الباسلة جُنَّ لها جنون السلطة، حتى صارت السيطرة على شارع سعيد العاصي هو هدفها، ورمز انتصارها وطريقها للسيطرة على قلب المدينة، فأحكمت الحصار على المناطق المحيطة بشارع سعيد العاصي لمشاغلة الأحياء المدافعة عنه من خلفها.

قامت بإنزال جوي للوحدات الخاصة، والالتفاف بالدبابات حول المدينة من خلف الأحياء، وتقدمت دبابات أخرى عبر جسر العيسى وخلفهم المشاة يحتلون المنشآت، مع قصف مركز للدبابات وراجمات الصواريخ من منطقة حوش الشريعة ونادي الطليعة.

وفي نفس الوقت سيطرت السلطة على الجهة الشرقية لحي الحميدية بإنزال قوات قرب غابة الثورة والتمركز فيها، واشتد الضغط من شارع السجن حتى الجامع الشرقي القريب منا، حتى سقط شارع سعيد العاصي، وصرنا محاصرين في البارودية من الجهتين، وصار الدفاع يدور من بيت لبيت داخل الأحياء.

كانت البارودية هي أهم دفاعات الشباب، فركزت السلطة علينا المهجوم، وعند مدخل الحي الرئيس دمرت بناءً بسكانه، واحتلت عدة بيوت في البارودية التحتانية، وأخرجت منهم الرجال وأطلقت عليهم النار رُشًا.

كنت أنا وجمال وبعض شباب الحي نتصدى لهم في حارة الجورة، وبعد معركة عنيفة قتلنا بعض عناصر السلطة، وفر الباقون، وبعد أن انتهينا منهم وجدت عمر قادمًا يجري، وعرفت أن وراءه خبراً، فقد كان هو أحد جنود الاتصالات بيننا وبين المواقع الأخرى، أخبرني أن هناك دبابة عند صيدلية خطاب ترمي بقذائفها على البيوت، فاتجهت أنا وجمال بسرعة إلى هناك لندعم الشباب الذين في الموقع، فوجدنا أحدهم قد تسلل إلى الدبابة وأعطبها.

عندما علمنا أن السلطة قد حشدت جنودها في حديقة أم الحسن، وتستعد لشن الهجوم على الزبقي، انطلقنا لمساعدة الشباب الذين يقاومون هناك في مدرسة العفاف العالية المشرفة على الحديقة.

كنا ندافع عن الأحياء وقد تقطعت بنا السبل، وصارت أرواحنا رخيصة بالنظر لما سنخسره إذا ما نجح النظام الباغي في اقتحام أحيائنا.

كانت الأخبار تأتينا من كل حي سقط تنفث فينا روح المقاومة وعدم الاستسلام. تعمدت قوات النظام عند ارتكاب المذابح أن تُبقي على حياة البعض، لينطلقوا إلى بقية الأحياء ويحكموا عن الفظائع التي يرتكبها النظام، لبث الرعب في قلوب الأهالي.

في حي البياض جمعت السلطة مجموعة كبيرة من الأهالي، وحشرتهم في الشاحنات حتى امتلأت عن آخرها، ثم قاموا بقتل أكثر من خمسين معتقلاً لم يجدوا لهم مكاناً في الشاحنات، وألقوا بجثثهم في حوض كبير تتجمع فيه مخلفات جلي البلاط بجوار مصنع البلاط، ولم تظهر جثثهم إلا بعد عشرة أيام.

لم ينجحوا في اقتحام حي سوق الشجرة إلا تحت القصف العنيف، وهدموا خمسين بيتاً وقتلوا أعداداً كبيرة من الأهالي، بعد أن قسموا الحي إلى محورين: شارع سوق الشجرة ونزلة حي الشيخ عنبر.

وفي شارع سوق الشجرة قتلوا الرجال على الصفيين، وجمعوا عددًا كبيرًا ممن تبقى حيًا وحشروهم في أحد الدكاكين، وأطلقوا عليهم النار رشًا، ثم أحرقوا الدكان حتى تحول إلى رماد.

وعند مسجد سوق الشجرة قتلوا على جداره خمسة وسبعين مواطنًا.

وفي طاحونة سوق الشجرة قتلوا عددًا كبيرًا من الأهالي، ولم يسمحوا بدفن جثثهم إلا بعد أربعة عشر يومًا.

ثم اتجهوا إلى الأزقة الضيقة يقتلون العائلات في بيوتهم بالسكاكين.

وفي حي الحميدية حاولت السلطة اقتحامه عدة مرات بعد قصف عنيف أدى إلى تهدم كل الأبنية المواجهة لغابة الثورة، وكلما تقدمت القوات لاقتحامه نهَّبُ أنا ومجموعة من شباب الحي من البارودية لمساعدتهم في صد الهجوم.

استشهد كثير من الشباب ونحن ندافع عن الحي من بيت لبيت، وفي الليل كنا نتسلل ونسرق سلاحًا وذخيرة من غابة الثورة.

تلك المقاومة الباسلة أجبرت السلطة على الكف عن مهاجمة تلك المنطقة لعدة أيام.

وفي حي الدباغة استشهد الكثير من الشباب المدافعين عن الحي، بعد أن دفعت السلطة بأعداد كبيرة من القوات لاقتحام الحي، وتقدمت الدبابات عبر شارع الدباغة تقصف المحلات التجارية على الجانبين.

وقتل جنود السلطة ثلاثين شابًا على سطح سوق الطويل، وكثيرًا من الأهالي في الأزقة، ونهبوا الدكاكين وأحرقوها.

وفي دكان للأدوات المنزلية حشروا أكثر من خمسة وثلاثين مواطنًا وأطلقوا عليهم النار، وسرقوا ما معهم من أموال وساعات، والضابط المسؤول يأمر بصنع الشاي بالأدوات التي في الدكان، ثم أخذ يشرب الشاي وهو يأمر جنوده بالقتل والحرق، ولكن اثنين من الشباب استطاعا الهرب من سقيفة الدكان ليخبروا بقية المناطق عما يحدث في الدباغة.

كانوا يجمعون الناس ويحشرونهم في الدكاكين بعد سرقتها ونهب ما فيها من أموال، ثم يقتلونهم ويحرقون الدكان بالقتلى والجرحى.

حتى عملاء السلطة الذين كانوا يرشدونهم إلى بيوت المعارضة قتلوهم أيضًا.

مائتان من الدكاكين مُهِبَت أموالها ومحتوياتها وأُحْرِقَت.

وفي سوق الطويل بلغت الدكاكين التي مُهِبَت وأُحْرِقَت وهدمت ثلاثمائة وثمانين دكانًا.

أما في حي الباشورة فقد أطلقت القوات النار على الأهالي في بيوتهم، وقتلت أيضًا المختبئين في القباء، مما ألقى الرعب في قلوب الباقين عندما جمعتهم القوات من بيوتهم، وأجبروهم على الهتاف للأسد، فهتفوا مرغمين خوفًا من القتل، ثم سيقوا للاعتقال.

سقطت منطقة السوق وانتهت المقاومة فيها تمامًا بدخول قوات السلطة حي الدباغة، وتلاقت مع قواتها القادمة من محور المدينة الجنوبي، ثم اتجهت القوات لإسقاط القلعة.

في اليوم الثامن تسربت أخبار ما يحدث في حماة إلى خارجها، فثارت المدن الأخرى، وبدأ الغليان في جميع محافظات سوريا، ولكنه جاء متأخرًا جدًا عن مواكبة ما يحدث في حماة.

وفي هذا اليوم قامت السلطة بقصف المدينة من الصباح حتى المساء بشكل متناوب، ساعتان قصف وساعتان هجوم من القوات، وفي هذا اليوم كان القتال عنيفًا للغاية، وشهد قتلى من الجانبين.

بل أيضًا قتلى بين عناصر السلطة وبعضهم ضد بعض، فقد حدث اشتباك عندما رمى بعض عناصر السلطة قنابل يدوية على قبو يحتمي فيه الأطفال والنساء، وعندما اعترض البعض الآخر اشتبكوا معهم بالسلاح وقتلوا منهم عددًا.

توالى سقوط الأحياء وانتهاء المقاومة فيها، فسقطت الأميرية والمناخ، وسقط حي طريق حلب وأحرق

وفي حي السخانة كانت السلطة تنهي القتال في الأزقة بتفجير البيوت بيتًا بيتًا، وتستخدم سياسة الأرض المحروقة.

انخلع قلبي من الخوف عندما علمت بأنهم قصفوا جسر الشيخ عبد القادر الكيلاني.

قصفوا قصور حي الكيلانية الأثرية وأحرقوها بقذائف المدافع والقنابل الحارقة، وظلت النار مشتعلة فيها طوال أربعة أيام ولم يتمكنوا من إخمادها.

كنت قلقاً على حميدة أفكر فيها باستمرار، ولكن لم يكن بإمكانني ترك موقعي في حي البارودية، فراجحات الصواريخ قد نصبت في الصالة الرياضية على كورنيش العاصي تقصف الشرقية بكثافة، والدبابات في طلعة الشريعة تصب حممها على البارودية والشرقية ومعها مدافع الهاون، واستطاع أحد الشباب النيل من راجمة الصواريخ بقذيفة آر بي جي، وعجزت عناصر السلطة عن نصب غيرها وشباب القناصة لها بالمرصاد.

كانت البارودية عصية عليهم، فشددوا عليها القصف، وتوالت عليها هجمات المشاة، لكننا كنا لهم بالمرصاد، وقد استمر الهجوم علينا يومياً من الصباح حتى الظهر، وأحياناً حتى العصر، ومقاومتنا لهم مستمرة.

كنا قد اتخذنا تكتيكاً ناجحاً في صد هجوم القوات، فقد توزع الشباب المقاوم على كل الجهات.

قمنا بتكوين مجموعتين فدائيتين للتدخل السريع لتعويض نقص الأسلحة، بجلبها من مواقع عناصر السلطة.

كنت أنا وجمال في إحدى المجموعتين، وتسللنا ليلاً على أحد المواقع، وعندما شعر بنا عناصر السلطة أخذوا يطلقون القنابل المضيفة ليلاً لمدة نصف ساعة، فكمننا منبطحين أرضاً لفترة طويلة حتى مرت، ثم هاجمناهم بغتة واشتبكنا معهم في الظلام، وحصلنا على بعض الأسلحة والذخائر.

أحياناً كنا نكمن في الأماكن الخطرة، ونوقف تسلل عناصر السلطة، حتى لا تباغتنا بهجوم مفاجئ بعد أن اشتد الحصار والضغط على البارودية.

وفي اليوم الثاني عشر سقط حي الشمالية، وارتكبوا فيه المذابح.

ثم قاموا بالهجوم على حي الحميدية والشرقية بثمانين دبابة وألفي جندي، ولم يتبق من المقاومين هناك سوى بضعة شباب مسلحين ببنادق خفيفة أو شكت ذخيرتها أن تنفذ.

كان السقوط حتمياً، وبمجرد أن دخلتها عناصر السلطة، أخرجت الرجال من البيوت وأطلقت عليهم النار من رشاش متوسط فوق دبابة، لتلقي الرعب في قلوب من بقيت في نفسه رغبة في المقاومة.

ولغرض آخر أيضاً، لإرهاب من يتعاطف مع الأهالي من عناصر السلطة، ولقد عرفنا بأن هناك أصوات إطلاق نار تصدر كل ليلة في مقر اللواء سبعة وأربعين في جبل معرين، مما جعلنا نستنتج أن السلطة تنكل بكل من يظهر تعاطفاً مع الضحايا.

خرج من حي الحميدية أربعة آلاف من الأهالي مشردين، بعد أن انتشرت الإعدامات بشكل مكثف في الأحياء التي سيطرت عليها السلطة، وفي الطريق تم اعتقال الرجال جميعاً.

وصلت السلطة إلى مسجد الشيخ إبراهيم والقبو الذي يقع بين حي الكيلانية وحي بين الحيرين، واتسع تفجير الأماكن والأبنية.

في ذلك الوقت كنا منشغلين بمعركة ساحة القصابة، بعد أن اقتحمتها اثنتا عشرة ناقلة، ومئات من عناصر السلطة على جانبي الطريق يحيطون بالناقلات، فكمننا لهم بالتنسيق مع من بقي من شباب حي الشرقية، وامتنعنا عن ضربهم حتى توغلوا في التقدم، وعندما توقفوا، وعندما نزل أحد الضباط ليقوم بتوزيع الجنود، صدرت إشارة الهجوم، وتعال صيحات «الله أكبر» مع طلقات الرصاص، وتحطمت الناقلات وعلت سحب الدخان الأسود، وقُتِلَ من عناصر السلطة من قُتِلَ، وفرّ الباقيون، وغنمنا منهم أسلحة وذخيرة.

وفي الصباح الباكر من اليوم التالي شنت السلطة هجوماً عنيفاً على حارة الجورة بالقذائف والقنابل، ودكوا الكثير من المنازل، ثم أوقفوا القصف لتتقدم عناصر السلطة، لكننا اشتبكنا معهم حتى أوقعنا منهم قتلى وجرحى.

في ذلك الوقت انقطع الاتصال بيننا وبين شباب حي الكيلانية المقاوم، ولم نعد نسمع أخباراً من هناك.

لم نعد نسمع سوى صوت تفجير البيوت.

أردت التوجه إلى الكيلانية، أردت أن أطمئن على حميدة، لكنني لم أستطع، لقد منعني الجميع، فما كان بإمكان أي منا مغادرة موقعه، كما أن الشباب الذين ذهبوا لتحسس الطريق إلى الكيلانية أدركوا أنه قد أغلق تماماً، وما من سبيل للتسلل إلى هناك.

انشغلت بصد هجوم ليلي على المنطقة التي نتحصن بها، واشتبكتنا مع عناصر السلطة في معركة عنيفة، حتى انسحبوا هارين.

وفي الصباح التالي سقط حي الشرقية، واقتحمت السلطة البيوت بيتًا بيتًا وأخرجت منها الرجال، وأجبروهم على ترديد هتافات التأييد لحافظ الأسد.

ثم أجبروهم على التجرد من ثيابهم، وحشروهم في مسجد الشرقية وفجروه بهم. كانت مجزرة مروعة أشعلت النيران في صدورنا، وأدركنا المصير الذي ينتظرنا إن تركنا موقعنا.

في نفس اليوم علمنا بخبر التفجير الذي حدث في وزارة الإعلام بدمشق، فقد أعلنت السلطة أن سيارة مشحونة بعبوة ناسفة دخلت إلى مستودع مبنى الوزارة وانفجرت، محدثة خسائر كبيرة ودويًا هائلًا، سمعه مايكل فرينشمان محرر صحيفة التايمز اللندنية، كان في الوزارة وقتها يقوم بلقاء صحفي في الوزارة، فنقل الخبر إلى وسائل الإعلام.

في الأيام التالية كانت السلطة تضرب وتهدم بعنف لتقضي على كل سبل المقاومة، ليستتب لها الأمر، وكنا نقاتل بما تبقى لدينا وبما استطعنا الحصول عليه من غنيمة، وما أقل هذه الغنائم. نقاتل وما نعلم ما فعل أهلنا من خلفنا، نقاتل لأنه لا خيار أمامنا إلا أن نقاتل حتى النهاية. نقاتل حتى لا يبقى أي مما نمسكه بأيدينا.

نقاتل حتى الرmq الأخير.

نقاتل معذرة إلى ربنا أننا لم نترك أوطاننا وأهلنا فريسة للطغاة.

عشرون يومًا ومقاومتنا مستمرة.

كانت عناصر السلطة تتقدم وتضيق علينا الخناق، وتحاصرنا في المناطق التي نتحصن فيها، لكننا كنا نقاتلهم من بيت لبيت.

كنا نخفي ونكمن لهم، ثم نفاجئهم من كل مكان، فلا يعرفون من أين تأتي النار، فنقتل ونصيب منهم، ويفر الباقون مخلفين أسلحتهم غنيمة لنا.

كانت السلطة تحتل البيوت بعد القصف بقذائف الآر بي جي، والدبابات، وعندما يتوقف القصف كنا ندخل معهم في معارك حامية لساعات، بعد أن نفاجئهم بالهجوم بالقنابل اليدوية والملتوتوف.

وكانت المعارك تشتد في حارة الجورة، ولم تستطع السلطة اقتحامها إلا بعد تفجير عدة منازل، ودارت فيها معركة لعدة ساعات على جهتين نلنا منهم الكثير، كنت أنا وجمال ومجموعة من الشباب نقاتل في جهة، ومجموعة تقاتل في الجهة الأخرى من الحارة، ولكننا اضطررنا للانسحاب لقلة الذخيرة وعدم توافر أسلحة سوى البنادق، وما إن غادرنا المكان حتى اقتحمته السلطة ولغمت البيوت وفجرتها.

وانقطع الاتصال بين مجموعتنا والمجموعة الأخرى، فلم نعد نعلم عنهم شيئاً.
في صباح اليوم التالي..

اشتدت عمليات التفجير في الأبنية، حتى ظننا أن السلطة ستدك الحي ولن تترك فيه حجراً فوق حجر، وباتت المنطقة التي ندافع عنها لا تتعدى عشرين بيتاً، وحاصرتها الدبابات من كل جانب ولم تتوقف عن القصف، وأخذت السلطة تزعج بمئات من العناصر وعشرات الآليات، وتستخدم القنابل الحارقة والغازية وكافة أنواع الأسلحة.

وتساقط الكثير منا شهداء ونحن نقاومهم بالبنادق، ونستخدم معهم أسلوب القنص.
أخذت تضيق المنطقة التي ندافع عنها، وكلما اقتحمت السلطة بيتاً فجرتة، حاولت عناصر السلطة اقتحام المكان قبيل الفجر، وهم يطلقون القنابل المضيفة لكشف الأماكن التي نخبئ فيها، فتتوارى حتى تنطفئ ثم نهجمهم حتى كبّدناهم خسائر فادحة.
لكن جمال أصيب إصابة بالغة في ساقه، ولم يستطع الوقوف على قدميه، فحملته على كتفي وعدنا إلى مكمننا مستترين بالظلام.

انسحب جنود السلطة ليلاً، وفي الصباح هاجمونا من كل الجهات، وهم يقصفون المنزل الذي نخبئ به، فتهدم بالكامل إلا القبو الذي صار ملاذاً لنا، فكنا نناور ونخرج لهم فنقتل منهم ويقتلون منا لا نبالي بنيرانهم.

كنا نعلم أنها معركتنا الأخيرة، وأقسمنا أن نموت بشرف وسلاحنا في أيدينا، ولو كان فارغاً من الذخيرة.

وليشهد الله وملائكته في السماء أننا بذلنا ما في وسعنا لنحمي أرضنا وأهلنا.

وعند العصر قررنا مغادرة القبو لنستشهد في ساحة المعركة، ونحن نواجههم وجهاً لوجه، فانقسمنا إلى مجموعتين، خرجت المجموعة الأولى من القبو، وبقيت مع جمال بسبب إصابته، وبعدها سمعنا أصواتاً لمعركة عنيفة تدور بالخارج، ولم نستطع الخروج.

وكلما تقدمت عناصر السلطة من القبو أطلقنا عليهم ما تبقى لنا من ذخيرة، فتراجعون، فلم يجرؤوا على اقتحام القبو.

جاؤوا بـ (بلدوزر) وأخذوا ييلون التراب على القبو حتى ردموه بالكامل، وأدركنا أن تلك الساعة هي آخر ساعة لنا في الحياة، فودعنا بعضنا بعضاً آمليين أن نلقى الله شهداء، وقد تيقنا أنهم سيفجرون القبو بعد أن ردموه علينا.

بقينا على تلك الحال حتى الساعة الثامنة مساءً، دون أن يحدث شيء، ففتحنَا ثغرة في القبو، وذهبت لاستطلاع المكان بالخارج فلم أجد أحداً، فعدت إلى جمال.

حاول أن يقنعني بالرحيل لكنني أبيت أن أتركه وأغادر، وعند منتصف الليل أدرك جمال أنني لن أغادر بدونه، فتحامل على ساقه السليمة واستند إلى كتفي، وقد عزمنا على الخروج معاً والموت فوق الأرض برصاص السلطة، بدلاً من انتظار الموت في تلك المقبرة.

نجحنا في الانتقال من مكان إلى مكان والتواري بين أنقاض البيوت حتى تمر الدوريات، وهالنا حجم التدمير الذي طال البيوت والمساجد.

استغرقتنا مدة طويلة للغاية حتى اقتربنا من حارتنا التي كانت نصف بيوتها مهدامة من الأمام، ودخلناها بقلب وجل نتوجس خيفة مما حدث لأهلنا وبيوتنا.

كان الخراب يعيش في كل مكان، والصمت يظلل الحي بغيمة سوداء، ونحن نتقدم ببطء صوب بيت أبي.

دخلت من الباب المفتوح بخطوات وجلة تتحسس البيت الغارق في الصمت، لا يسمع فيه إلا صرير الباب العتيق.

وقفت متجمداً في مكاني تدور عينا في محجريها عاجزاً عن التصديق!

كل ما كنت أشعر به وقتها هو الإنكار وعدم التصديق!

فهذا الغارق في دمائه ليس أبي، ليس هو أبداً!

ذلك الذي كان صوته الجهوري (يلعلع) من أول الحارة يحمل معه المحبة والمهابة لكل أهلها، لا يمكن أن يكون جثة هامدة لا حياة فيها!

تلك المرأة التي ترقد على وجهها وظهرها تبدو منه طلقات الرصاص من بين الدماء، لا يمكن أن تكون هي أمي التي كانت تحنو على الجميع وتملأ البيت بالبهجة!

وعادل! العفريت عاشق الكرة قائد فريق الكاسح، هل يشبه ذلك الصغير المذبوح بجوار أمه؟!

وعمر الصغير ذو الابتسامة الساحرة، أهو حقاً ذلك الطفل الذي أغرقت الدماء جسده وماتت الابتسامة على وجهه وهو يرقد في أحضان جدتي العجوز التي لن أراها مجدداً ولن أنعم بدعواتها الطيبة لي؟!

لا أكاد أصدق أن هؤلاء هم من قضيت الأيام والأسابيع أقاتل دفاعاً عنهم حتى لا أراهم في ذلك المشهد الرهيب!

هم الآن صرعى متناثرون في أرجاء بيتنا الذي كان منذ ثلاثة أسابيع فقط يضح بالحياة! أيقظتني صرخة جمال الملتاعة من سباتي، وأخرجتني من الوهم الذي صنعه عقلي كي يحميني من الجنون، في أشد لحظات عمري مأساة.

وبدأت أدرك حجم الفاجعة، وأنا أرى جمال يزحف على الأرض بجسده وساقه السليمة، ويتحسس أجساد أبيه وأمه وإخوته.

لقد جمعت السلطة الأهالي الذين بقوا في بيوتهم في الحارة، وحشروهم في ساحة بيتنا، وقضوا عليهم رشا.

لم يفرقوا بين رجل وامرأة وطفل.

ألقيت بنفسي على جثث أحبتي أحتضنهم وأشمهم وأقبلهم وأتحسسهم.

أصرخ عليهم فلا يجيبون، أبكي فلا يسمعون.

من عدة ساعات فقط كنت متيقناً من موتي أنا وجمال، وكنا نودع بعضنا البعض لنستقبل الموت بترحاب.

الآن أتمنى لو أنني متُّ قبل هذا وكنت نسيّاً منسياً.

صار الموت الآن عزيزاً غالياً بعد أن وضعت الحرب أوزارها وانتهت المقاومة، ومن يقع في أيديهم فلن يقتلوه، بل سيتم ترحيله إلى المعتقلات ليزوق عذاباً فوق عذاب، وينكلوا به أشد التنكيل.

دفناً أهلنا وأحبائنا، ودفناً معهم قلوبنا وأرواحنا، وصرنا أحد الشهود على اجتياح تثار العصر مدينتنا واستباحتها وتدميرها وذبح أهلها.
نجونا..

ولكن.. بلا أرواح.. ولا قلوب.. ولا ألسنة..

فما حدث للمدينة العريقة أبشع من أن نستطيع أن نجتره ونحكيه، وصر الصدر سجنًا لحكايا لا تجد سبيلاً للوصول إلى آذان الناس.

هربنا من الاعتقال لنسجن أنفسنا بين جدران الصمت، لم تعد للكلمات قيمة بعد أن صارت أوطاننا محرمة علينا

بل لم تعد للحياة ذاتها قيمة بعد أن عجزنا عن ترطيب شفاهنا بذكر اسم الوطن.
الوطن..

لم تعد لتلك الكلمة معنى سوى الألم.

لم يعد لها مرادف في اللغة سوى القهر، بعد أن دفنّا فيه أعلى ما نملك.

وتمر السنوات ويبقى الألم في القلب، ويعجز اللسان عن البوح، لكن في لحظة ما أدركت أن عليّ واجباً أن أحكي لمن لم يسمع ولم يرَ قصة مدينة عصرها أيادي الظلم في غفلة من العالم. أحكي لأبناء تلك الثورة المباركة ما لم يسمعه ولم يعايشوه من تاريخ وطنهم.

فهل سيعيد التاريخ نفسه؟

أم أن شيئاً ما تغير؟

أغلقت لين آخر صفحة من الكتاب ودموعها تهطل على صفحاته، وقد عجزت عن السيطرة على شهقاتها وأنيبها.

كانت ترى مأساتها في كل صفحة من صفحاته، وفهمت أخيراً أن ما يربطها بعمر الكيلاني أقوى بكثير من القرابة والدم.

إنه المصير..

ناجي..

طرق الاسم عقلها كجرس إنذار، واستفاقت على حقيقة نسيتها عندما غرق عقلها بين سطور الكتاب.

لم يذكر عمر الكيلاني أي شيء عن ناجي في الكتاب.

عادت تفتح الكتاب وتقلب فيه بسرعة وتعيد قراءة المقدمة والخلفية.

لم يذكر عمر أو مصطفى شيئاً عن ناجي.

أسقط في يدها ونسيت الحزن والبكاء، وحل محلها الدهول والدهشة.

وعادت إلى الدائرة المغلقة التي تدور فيها بلا فائدة.

من ذلك الرجل الذي تزوجته؟!

(٣٠)

ما من سبيل لإغلاق بابها عليها والانخراط في بكاء لا جدوى منه، بعد أن قضت الليل
تعايش قصة عمر الكيلاني، وتتجرع الألم مع كل سطر فيها.
فقد أتها مكاملة صباحية قلبت كيائها.

وصلت إلى مكتب التحقيقات، وهناك كان بيتر بانتظارها وملاحمه مفعمة بالقلق.

التقت الشرطي والشرطية اللذين يباشران قضية اختفاء ناجي، وأخذت تستمع ببالغ الصبر
لذلك الهراء الذي تقوله، وتكبت غضبها العارم بداخلها، وفي رأسها تتكون فكرة واضحة عمّا
تريد أن تصل الشرطية إليه باتهاماتها المبطنة لناجي.

أنهت الشرطية شرح الأمر للين، وسادت لحظة صمت تبادل الجميع فيها نظرات الترقب،
لين وبيتر والشرطي والشرطية.

تنحنحت لين لتتقي حنجرتها التي تحشرجت من الغصة التي تسدها، وحاولت السيطرة
قدر استطاعتها على مخارج كلماتها حتى تحتفظ بأدنى قدر من التهذيب، ثم قالت بترقب: هل
أعتبر هذا اتهامًا رسميًا؟

قالت الشرطية بلهجة تشوبها السخرية: حتى الآن لا شيء رسمي، ولكن قد نضطر إلى...
قاطعها لين صارخة في وجهها بغضب: إلى ماذا؟ هل ستلصقين بزوجي تهمة ليست لها
أدلة؟

تدخل الشرطي محاولاً التهذؤة: سيدتي، لا أحد يحاول إلصاق أية تهمة، نحن نبحت فقط
عن الحقيقة.

هتفت: أية حقيقة؟ كل ما قالته زميلتك محض هراء، تحاول أن تتهم ناجي ولا تملك سوى
شكوك ووساوس.

قالت الشرطية ببرود: الأمر ليس فقط وساوس، ألم يسبق له أن زار غزة؟

هتفت: وما الجريمة في ذلك؟ لقد أدى حفلًا غنائيًا هناك، ثم عاد إلى بلاده كأبي مواطن صالح.

قالت الشرطة بخشونة: سيدي، هل تعلمين كم عدد الذين خرجوا من فرنسا ليتطوعوا في الجماعات الإرهابية في الشرق الأوسط؟ زوجك ليس استثناءً.

سألتهما بتهكم: إذن فأنت متأكدة أن ناجي خرج من فرنسا؟ حسناً، أريد دليلاً واحداً على ذلك.

تراجعت الشرطة في مقعدها، وتبادلت النظرات المترقبة مع زميلها الشرطي بصمت. أراد بيتر تهدئة الموقف، فمال عليها قائلاً بالعربية: ليس في صالحنا الانفعال الآن، فلنستمع لما عندها، و...

نهرته زاجرة بالعربية: اخرس أنت!

ارتد إلى الخلف من المفاجأة، وابتلع ما كان يهم بقوله، بعد أن أدرك أن لين قد استنفرت كل قوى الغضب بداخلها.

التفتت إليها لين، وقالت بوجه متجهم: لم لا تصرحين بها علانية ودون مواربة، هل تدعين أنه انضم لداعش؟

قالت الشرطة ببرود: لا تبرير مقنع لسبب اختفائه سوى ذلك.

قالت: سألتك إن كان لديك دليل فلم تحييي.

قالت الشرطة: لدي ما يكفي من القرائن، فلا سبب يدعو نجمًا شهيرًا للاختفاء إلا إن كان قد غادر البلاد بطريقة غير شرعية.

قالت بحدة: وهل هذا سبب كافٍ لاتهامه؟

أم أن هناك أسباباً أخرى كزواجه من امرأة سورية مثلاً؟

هزت الشرطة كتفيها وهي تلوح بكفيها، كمن يتفق مع تلك الرؤية.

فهتفت لين وقد بلغ غضبها مبلغه: ترى هل أعتبر هذا تحيزاً وكرهية ضد المهاجرين العرب؟ أم أترك العنان لعقلي لتخيل أن هناك عنصراً خارجياً تدخل لتوجيه سير القضية؟

لم يجرؤ بيتر على فتح فمه ولا التدخل بعد أن نهرته لين بعنف أمامهما، لكن الشرطي تدخل وقال: عفواً سيدي، كلماتك بها اتهام صريح للشرطة.

قالت بتهكم: لقد اتبعت كل السبل القانونية للبحث عن زوجي، ولجأت إلى شرطة، ولم تتخذوا أية خطوات جدية للبحث عنه، وبدلاً من أن تقوموا بواجبكم في إزالة الغموض عن اختفاء مواطن فرنسي، توجهون له تهمة بلا دليل، ولا أساس لها من الصحة.

قال: سيدتي، لقد بذلنا ما في وسعنا لـ...

قاطعته متهكمة: ما رأيكما إذن أن أوجه الدعوة للصحافة لتساعدني في البحث عن زوجي؟ هتفت الشرطة: هل تهدينا بالصحافة؟

قالت بتهكم: ألسنا في بلد ديمقراطي حر يحترم القانون؟ لا تقولي إن الشرطة تخشى أن تعلم الصحافة أنهم فشلوا في معرفة سبب اختفاء مواطن فرنسي صالح ونجم محبوب.

قالت الشرطة بتحدٍ: افعلي ما يحلو لك، فنحن لا نخشى شيئاً.

قالت: ربما يتوصلون لما لم تستطع الشرطة التوصل إليه، ويكتشفون أن ناجي تعرض للاختطاف مثلما حدث معي.

تساءل الشرطي بدهشة: وهل تعرضت لمحاولة اختطاف؟

ولم لم تتقدمي بشكوى؟

قالت متهكمة: ها أنا ذا أتقدم بالشكوى، فهل ستسجلان ما أقول؟ أم أذهب مباشرة إلى الصحافة؟ فلعلّي أجد هناك الاهتمام الذي أفقده هنا.

قال الشرطي: ولماذا لم تتقدمي بالشكوى بعد الحادث مباشرة؟

أجابت مباشرة: لأنني كنت مهددة، ولأنهم أحرقوا المطعم أيضاً.

كما أنني كنت أخشى ألا تصدقني الشرطة لأنني عربية، فما أسمعته عن تلك الممارسات العنصرية ضد المهاجرين العرب أصابني بالخوف.

صمت الشرطيان تماماً وتبادلا النظرات المترقبة، وكأنهما كلمتا لين قلبت لهما ما كانا يدبرانه، وأسقط في يد بيتر وظهر على وجهه القلق.

وبقيت لين تنظر إليهما منتظرة ما سيقولان، وعندما عيل صبرها قالت بنفاد صبر: ألن تسجلا شكواي؟

قال: ضد من؟

قالت مباشرة: السيد كريستيان، ويوسف منير، ومراد كساب.

هتفت الشرطة باعتراض: أتهمين السيد كريستيان؟

تفحصتها لين وقد اشتمت أنفها رائحة قذرة في الأمر، وقالت بتهكم: إن لم يكن لديك مانع.

قال الشرطي: ألدك دليل أو شهود؟

قالت: السيد بيتر، وبعض العاملين في المطعم، وسائقي الشخصي، وحرس البناية التي بها مكتب زوجة مراد كساب.

كان بيتر قد وصل إلى آخر درجات القلق، وتعرق جسده وهو ينتظر الوبال الوخيم الذي ستسقطه على رأسه تلك المتهورة بأفعالها الطائشة.

همس لها بالعربية وهو يطحن أسنانه: ستفتحين أبواب جهنم فوق رؤوسنا.

ردت بصوت خفيض: لن أسمح لهم بتلفيق تهمة كاذبة لناجي أبداً، وإن اقتضى الأمر فسأهدم المعبد فوق رؤوس الجميع.

كانت تسرع الخطأ لتلحق جان في المطعم، وبيتر يتبعها قائلاً: ستفسدين كل شيء بتهورك.

هتفت امرأة: اتصل بسعد وأخبره أن يعد حملة دعاية كبيرة لحفل ناجي القادم.

هتف: أي حفل؟

قالت: الحفل الذي سيقدمه ناجي بعد عودته، أخبره بأن تكون الدعاية ضخمة، أكبر حملة دعاية قام بها في حياته.

قال بحيرة: ولكن أريد أن أفهم، كيف سيحيي ناجي حفلاً وهو مختفٍ؟

صمتت لحظة، ثم أجابت بثقة لا تشوبها شائبة: سيعود، سيعود قريباً جداً، وستسمع فرنسا كلها صوته.

اجتمعت مع جان حول طاولة من طاولات المطعم في ركن بعيد عن الحركة والضجيج، وقصت عليها حديثها مع الشرطي والشرطية.

استغرقت جان في التفكير..

سألته لين: هل تعتقدين حقاً أن ناجي ذهب إلى هناك؟

هزت جان رأسها: ربما، بنسبة كبيرة نعم.

- كان عليه على الأقل أن يخبرك.

- إن كان ناجي سيخبر شخصاً بالمكان الذي سيذهب إليه، فلن يكون هذا الشخص أحداً سواك.

نظرت إليها لين وارتسمت على وجهها الدهشة، فقالت جان مؤكدة: أعرف ناجي جيداً، رجل يتحمل مسؤولياته، وما كان له أن يترك زوجته حائرة لا تعلم مكانه.

تنهدت لين وقالت بحيرة: ولماذا يذهب إلى سوريا؟ ما الذي يريده من بلدة أنهكتها الحرب؟
- ربما اشتاق لعمر الكيلاني.

- إنه مجنون، الكل يتربص به هنا، لو طالته أيديهم فسينكلون به.

- ليس هو المجنون، لقد انتشر الجنون في كل مكان في فرنسا، أحياناً أنظر حولي فلا أعرف البلدة التي ولدت وعشت فيها عمري، العنصرية والكراهية صارت كموج عالٍ يضرب الشواطئ الآمنة.

أكثر من ثلاثين عامًا قضاها ناجي في فرنسا، كان فيها فرنسياً أكثر من الفرنسيين أنفسهم، والآن يريدون إلصاق تهمة الإرهاب به!

- من الذي أحرق المطعم؟

- يوسف منير.

- وماذا عن كريستيان؟

- بالتأكيد يعلم، لكنه لا يستطيع أن يورط نفسه في جريمة مباشرة وهو مرشح للانتخابات البرلمانية.

- إذن فيوسف منير هو اليد التي تقوم بكل الأعمال القذرة، ولكن لم؟ بعد موت عمر الكيلاني واختفاء ناجي، لم يعد المطعم يمثل أي خطر عليهم.

- لقد رأى الخطر القادم متمثلاً فيك.

نظرت لها بدهشة، ولم تفهم ما ترمي إليه، فأكملت جان موضحة: لم أر أحداً أشبه بعمر الكيلاني منك.

عقدت حاجبيها بحيرة، فقالت جان: بالطبع لا أعني الشكل، بل الروح.

شردت لين وعادت بعقلها إلى الكتاب الذي تركته بالبيت، وأخذت تفكر في الشبه الذي تعنيه جان في حديثها بينها وبين عمر الكيلاني.

هل هي وحدة الأصل والتربية؟ أم تشابه الظروف التي مر كلاهما بها؟ أم هو تشابه القربى؟ «حتى ناجي لم يكن يشبهه بهذا القدر»..

أدركت أن السؤال المتعجب لم يكن من داخل عقلها عندما انتبهت لجان وهي تكمل: بل لم يكن يشبهه أبداً، فبعكس عمر، كان ناجي مؤمناً بأن فرنسا هي موطنه، وعليه أن يتصرف كمواطن فرنسي له كل الحقوق.

أتذكر عندما اجتمع عمر الكيلاني مع رجاله المقربين، وقد فاجأهم ناجي بأحد اقتراحاته الأشد جنوناً: لماذا لا نشارك بالتصويت في انتخابات الرئاسة بكل طاقتنا؟

كان الجميع ينظر إليه كمجنون فرّ من مستشفى الأمراض العقلية.

لكنه كان مؤمناً بفكرته لأبعد مدى.

لم يكن عمر الكيلاني ورجاله يهتمون قبلاً بالانتخابات، ولا بأي حزب يتولى زمام الأمور، ولا بمن فاز ولا من خسر، بعكس يوسف منير، الذي لم يكن فقط يهتم أو يكتفي بالتصويت لمن يراه يحقق مصالحه، بل كان يتداخل مع الأحزاب، ويساعد في الحشد لمن يمنحه المصلحة الأفضل، ومن يستطيع أن يحمي ويحمي أنشطته القذرة.

ظهور يوسف منير في محيط ناجي جعله يفكر كيف يستغل الأمر ويمارس حقوقه كأبي مواطن فرنسي، ويستفيد من الانتخابات.

استطاع ناجي أن يغير الكثير من آراء وأفكار عمر الكيلاني، الذي وافق أخيرًا على المشاركة في الحشد للحزب الذي يعتقدون أنه أقل عنصرية تجاه العرب المهاجرين.

قالت لين: أتذكر جيدًا أن الصحافة في المنطقة العربية تداولت وقت الانتخابات الفرنسية موقف المسلمين الفرنسيين من الحزب الحاكم، والرئيس الذي أصدر قوانين ضد مصالحهم هناك.

ابتسمت جان: لأول مرة يجيد اللوبي المسلم استخدام قوته التصويتية بشكل منظم، وكانت تلك هي المرة الأولى التي يكتشفون فيها كيف يمكن أن يؤثروا بشكل فعال في المجتمع، إذا ما اتحدت أصواتهم ضد أصوات الأحزاب العنصرية البغيضة.

لقد كان حلم ناجي عن بلدة يمكن التعايش فيها بعدالة.

كان مؤمنًا بمبادئ الثورة الفرنسية، لهذا لم أندesh كثيرًا عندما عرفت الحقيقة بعد اندلاع الثورة السورية.

أفصحت لين عن السؤال الذي يؤرقها: ولكن، من هو؟ وما علاقته بعمر الكيلاني؟

- وما الفارق إن كان ابن عمر الكيلاني أم لا؟

الأمر يخصهما وحدهما، ومهما كانت حقيقة أبيه وأمه، سيظل في عيني ناجي الذي أحبه.

تغير وجه لين، وبدت عليها أمارات الصدمة، فقالت جان بصدق: لا تتعجبي، فقلما امرأة -صغيرة كانت أو كبيرة- تقترب من ناجي ولا تتعلق به.

عليّ أن أعترف بذلك رغم ما أراه في عينيك من الغيرة الشديدة، وعلى الرغم من أنني لن أجني شيئًا من هذا الحب، فقد كان ناجي صريحًا وواضحًا منذ البداية، عندما صارحني بأنه يعتز بي كصديقة، ولا أمل لأكثر من هذا.

تجاوزت الأمر رغم ألمي الكبير.

إن وجودي بالقرب من ناجي هو أكثر فائدة لي من ابتعادي عنه، وفي كل الأحوال إن لم أكسبه حبيبًا، فلن أخسره صديقًا.

حانت لحظة الوداع، ورافقتها لين إلى باب المطعم، وصافحتها جان بود وهي تقول باسمته: سأظل دائمًا صديقة وفيه له ولك، ولا سبيل للخلاص مني.

تبسمت لين ضاحكة، وشدت على يدها بمحبة، وجان تقول: ربما نجلس معاً يوماً ما
لتحكي لي كل ما حدث لك، وأدونه في كتاب آخر يحكي عن شعب قام بثورة عظيمة من أجل
الحرية..

وانتصر..

ارتج قلبها بين جنباتها من صدق الكلمة التي مست روحها، فعانقتها بود وسكنت دموع
الأم، وربت على كتفها، وقد استشعرت تعاطفها الصادق مع قضيتها.
فقد كانت جان تؤمن بصدق بمبادئ الثورة الفرنسية، وتعرف للحرية قدرها.

كل يوم جديد يمر عليها لا تستطيع أن تترك الكتاب من يدها، وتعيد قراءته مرات، وكأنها
لم يعد لها سلوى سوى أن تغرق نفسها في الذكريات التي تثيرها المشاهد والأحداث التي
يحكيها عمر الكيلاني.

كان الأمر أشبه بالانتحار في هاوية الماضي، تعيش بذكرياتها المؤلمة وذكريات عمر الكيلاني
أو مصطفى، لا تدري أيهما أكثر ألماً!

ترفض بإصرار دعوات زملائها للمشاركة في القافلة المتجهة لإدلب، فهي غير قادرة على
مواجهة الماضي وجهاً لوجه، عاجزة عن رؤية نفسها مجدداً داخل المخيمات، ومعيشة ذلك الألم
المهلك وأيام العذاب المهين.

جرفت الذكريات لأيام المخيم الأليمة.

وقت أن كادت تطير فرحاً بعودة يزن من الخليج، لبحث عنها وعمّن تبقى من أهله، لقد
عاد يزن ليتشلها وأمها من الحياة القاسية في المخيم، تعلم أنها بسفرها مع يزن إلى الخليج لن
تحقق حلمها بأن تكون طيبة، لكن هذا لم يكن يحزنها، فما أكثر الأحلام التي تركتها خلفها تحت
أنقاض بيتها المهدم! ويكفيها حلم واحد تحيا لأجله، أن تكون زوجة ليزن.

كان يجهز الأوراق ويعد العدة ليحمل زوجته وأمه وأخته التي صارت أرملة، ويأخذهم
للحياة معه في الخليج حيث مقر عمله.

ثم توقف كل شيء..

فقد جاءهم خبر بأن يحيى أخاه تم اختطافه من عناصر السلطة على أحد الحواجز على الحدود، وهو يحاول العبور قادمًا إليهم.

وبعدها دار يزن في دائرة مؤلمة خطيرة يبحث عن أخيه، وتعرض للموت عدة مرات، حتى وصل لبعض الشبيحة، الذين استطاعوا بطرقهم الخاصة وبمبلغ كبير من المال أن يتوصلوا إلى أنه تم ترحيله لأحد سجون النظام، وطالبوه بهال كثير ليتوسطوا لإخراج يحيى من هناك، بعد أن علموا أن يزن يعمل في الخليج.

ولم يدخر يزن جهدًا ولا مالًا لإنقاذ أخيه، وجمع أغلب مدخراته من سنوات الغربة.

أعطاهم يزن المال، لكنهم سلموه جثة يحيى مشوهة من التعذيب.

كانت مأساة عظيمة زادت العائلة المنكوبة همًّا فوق هم، وألمًا فوق ألم.

مات يحيى من الضرب والتعذيب، وتعرض يزن للخداع والسرقة، وضاع المال، وحزنت أم لين واشتد عليها المرض، وانهارت أم يزن وكادت تموت قهرًا وألمًا.

لم ترَ في حياتها يزن منكسرًا وحزينًا كما رآته يومها وهو جالس بجوار جثة أخيه، صارت الحياة في عينيه أضيّق من ثقب الإبرة، وتوقف الزمن به عند تلك اللحظة، وانهارت حياته، وتحطمت أحلامه.

خرج من حياتها للأبد، وترك لها ورقة طلاقها.

صار عقلها مشوشًا، وشُلَّ تفكيرها أمام ما مر بها من أهوال، تجسدت كلها في لحظة واحدة بحضور الماضي أمام عينيها.

«يلعن روحك يا ناجي»..

صرخت بها بين جدران غرفتها، ودموعها تغرق خديها.

من بعد أن تركها يزن، صارت تخشى الحب والزواج، حتى لا تواجه الألم ثانية، تركها أول رجل تحبه في حياتها، وها هو الثاني يتركها.

اتجهت إلى غرفة المعيشة، ووقفت لحظات أمام صورة ناجي المظلمة، ثم أضاءتها فأنارت الغرفة، وأظهرت ملامح وجهه المحببة.

نظرته الحاملة التي تمتلئ بالسكينة والسلام، لكن أعصابها اشتعلت فجأة وشب الغضب في روحها، وبدأت تتحدث إلى الصورة، وكأن من فيها يقف أمامها يستمع إليها: أين أنت؟ لم تركتني؟ هل كرهتني؟

أتعاقبني بالفراق لأنني لم أستطع أن أمنحك الحب الذي تستحقه؟

سالت دموعها وانتحبت بألم: لم تصرخ في وجهي؟ لم تخبرني كم أنا حمقاء غبية؟

لم تمنحني الحق لأعرف مكانك؟ لم أسمع صوتك في الهاتف! لم تترك لي حتى رسالة! إن كنت قد كرهتني، فليس من حقل أن تعلقني هكذا بين السماء والأرض بلا خبر أو كلمة!

صرخت بعنف، وقد بلغ انفعالها مبلغه: أين أنت؟ أخبرني! تحدث إلي!

لم يجبها سوى الصمت، ولم تسمع حيرتها سوى الجدران، حتى باتت تشعر بأنها على وشك الجنون، فصرخت تفرغ ذلك الغضب الهائل الذي يحرق كل خلية في جسدها: أنا أكرهك! أكرهك!

انهار جسدها ولم تعد قدماها تحملانها، فسقطت على ركبتيها تنتحب وهي تصرخ باسمه، وكأنها تناديه ليعود.

حتى انتهت فجأة على شبح يقف بباب الغرفة، والظلام خارجها يخفي ملامحه!

توقفت عن البكاء، ونهضت مستندة على كفيها، ومسحت دموعها وهي تتساءل غير مصدقة: ناجي؟! أهو أنت؟!

تتمنى أن تصدق أنه هو، لكن شيئاً ما يمنعها، ربما تخشى الخذلان، أو تخشى مواجهته.

كانت تقترب من باب الغرفة ببطء وهي ترتجف بخوف، لم تكن تتخيل أن عودته ستكون أصعب عليها من اختفائه، وشيئاً فشيئاً كانت هيئته تتضح، وهي تقترب منه رويداً رويداً، كان جسده يركز على عكازين، وقد فقد إحدى ساقيه.

صدمتها المفاجأة بشدة، فتجمدت مكانها تنتحب، وهي تهمس باسمه غير مصدقة: ناجي!!
كان عليها أن تتحلى بالكثير من الشجاعة لتعاود التقدم منه، وأخيرًا اتضحت ملامحه،
وتبينت هويته، وأصابها الدهول، واختلطت مشاعرها، فلم تدري هل تفرح بعودة خالد؟ أم
تبتئس لأنه ليس ناجي؟

ما كانت تتخيل أنها يمكن أن تقف متجمدة خائفة مترددة أمام أخيها، الذي فقدت يومًا
الأمل في رؤيته حيًّا من جديد.

كان عليها أن تتحرك عندما همس باسمها بصوت مرتعش ليوقطها من صدمتها: لين.. إنه
أنا.. خالد..

كان عليها أن تحتضنه برفق، وتمسح على وجهه وكتفه بروية، حتى لا تؤلم جسده المشوه
بالكدمات والجروح، وأدركت من الندبات البشعة في وجهه أنه نال قسطًا من التعذيب لا
يتحمله بشر.

ساعدته على الانتقال إلى غرفة الاستقبال، وصوت عكازيه يتردد في المكان مع كل خطوة
يخطوها ببطء، وعقلها شارد فيما آل إليه حالهما، فما كانت تتخيل يومًا أن يصبح الصمت حاجزًا
بينها وبين خالد، فلم يعد به طاقة للكلام، وهي صار عقلها منشغلًا بالكثير من الأشياء، أولها
زوجها الغائب.

أدهشها أنه هو أيضًا كان صموتًا، وكأنها لا يجد ما يقول، فقد وجهه بشاشته بعد أن ملأته
الندوب، ينظر لعينيها المتلهفتين من حين لآخر، ثم يشيح بوجهه بعيدًا، وكأنها يخشى أن تسأله.
وهي ما كانت لتجرؤ على أن تسأله عما حدث له، فمظهره يحكي دون كلمات، وندوبه تصرخ
بما عاناه دون صوت.

كانت تحاول جاهدة أن تخرج صوتها من حلقها، وترددت عدة مرات حتى استطاعت
أخيرًا أن تقول: لعلك جائع، سنتناول عشاءنا سوياً...

قاطعها بصوت غريب متحرج، لا يمت لصوت أخيها الذي تعرفه بصلة: لا، لقد أكلت
في الطريق.

افتقدت بشدة مشاعرها القديمة تجاه أخيها، وكرهت تلك الغربة الخائقة التي فرضت وجودها على لقائهما بعد كل ذلك الغياب.

كان اللقاء مؤلماً، انتزعت منه الفرحه، وافتقدت فيه التلقائية وروح المرح والمحبة الخالصة التي كانت دوماً تجمعها بأخيها.

انسكبت دموعها وهي تقول بألم: افتقدتك كثيراً يا أخي.

لم يستطع أن يجيبها، وكأنها صار الكلام ثقيلاً على لسانه مؤلماً لروحه، ولكنها أدركت أنه هو أيضاً يفتقدها بشدة، عندما هز رأسه وترقرقت الدموع في عينيه.

سألته: كيف وصلت إلى هنا؟

أجابها بصوته المتحشرج بما كانت تتوقعه وتنتظر سماعه: زوجك أحضرني إلى هنا.

لم تفاجأ ولم تتعجب، فلم يعد للمفاجأة معنى بعد كل ما مرت به..

لكنه أكد لها ما كانت تظنه، لقد هجرها ناجي ولم يعد يحبها..

ساد الصمت بينهما لدقائق، وكأنها انتهى كل ما يمكن أن يتحدثا فيه.

عندما أدركت أنها قد يقضيان الليل على تلك الحال دون أن يتبادلا أية أحاديث، قامت من مقعدها وهي تقول: سأعد لك غرفتك، لا شك أنك متعب وتحتاج إلى الراحة.

نظر إليها بوجه جامد، وسألها مباشرة: ما الذي بينك وبين زوجك؟

رمته بنظرات متسائلة، وانتظرت أن يشرح لها، لكنه عاد لصمته مترقباً ردّها على كلماته، فابتلعت ريقها بتوتر، وسألته بقلق: هل قال لك شيئاً؟

أجاب ببطء: نعم، حملني مسؤولية سؤالك عن قرارك النهائي: أتريد البقاء معه أم الانفصال عنه؟

اشتعلت روحها بالغضب، وثار الدماء في عروقها، وهي تهتف بغیظ: ولماذا لم يعد إلى هنا ليسألني بنفسه؟

فكر قليلاً، ثم قال بحيرة: لا أدري!

كل ما قاله لي هو أنه ينتظر قرارك، وإذا ما قررت الانفصال، فسيتم إجراءات الطلاق وينفذ كل رغباتك.

صدمتها المفاجأة، وألقتها في لجة من الحيرة، هل ظهر ناجي بعد غياب ليخبرها بين البقاء معه أو الانفصال؟

شعرت بمرارة الإهانة في حلقها، فسالت دموع القهر من عينيها: ليس هكذا تدار الأمور، عليه أن يعود ليواجهني، ويسمع قرارني بأذنيه.

- وإن كان قرارك هو الانفصال، فلماذا يعود وقد فقد كل ما يربطه بهذا المكان؟

- يعود ليحمي كل ما بناه عمر الكيلاني.. لمطاعمه.. لأملأكه..

- لقد ردها إليك.

قالت باستنكار، وكأنها لا تريد أن تصدق الفكرة التي وصلتها من كلام أخيها: رد ماذا؟!

قال: رد كل ممتلكات عمر الكيلاني لوريثته الشرعية.

كانت كلماته تقرر واقعاً علمته من قبل أن يقوله، ولكنها ترفض تصديقه: تعلمين جيداً أنك ابنة أخت مصطفى الوحيدة، التي أفلتت من الموت بأعجوبة في مجزرة حماة عام ٨٢.

برغم أنها استتجت كل ما قاله أخوها عندما قرأت الكتاب، لكن مواجهة الأمر بالنسبة لها كانت مخيفة وقاسية.

آلمها أن تعرف أن أمها تعرضت لكل هذا العذاب الذي مر به عمر الكيلاني (أو مصطفى)، آلمها أن تعرف أن لها خالاً على قيد الحياة كل تلك السنوات ولا تعلم عنه شيئاً، آلمها أن تعيش مأساة الظلم والقهر مرتين: مرة في ثورة عاشتها، ومرة في جريمة صارت تاريخاً يروى.

لكن الأشد قسوة على نفسها، وما أحرق فؤادها بحق، هو أنها شعرت في تلك اللحظة أن ناجي لم يحبها يوماً، بل تزوجها فقط وفاءً للرجل الذي أنقذ حياته وكفله كابن له، ولينقل لها إرثها الشرعي من خالها بطريقة تحفظ ماء وجهها، ولا تفضح سرّه وسرّ عمر الكيلاني، الذي حافظا عليه بحياتيهما.

قالت بحسرة: إذن فقد انتهت مهمته أخيراً، وانزاح العبء عن كاهله، وسيتحرر أخيراً من جميل عمر الكيلاني، بعد أن سدد دينه إلى وريثته.

بدا وجوده أمامها فرصة كي تثور لأجله وتفرغ غضبها العارم فيه: وماذا عنك؟ لماذا لم ينقل الثروة باسمك أنت؟

لم يكن ما يقوله جديداً، لكن رأسها الذي يفور بمشاعر شتى تناساه: لم أكن موجوداً في عالمكم هذا، ولم يكن أحد يعلم أنني حي..
لقد أخرجني زوجك من الجحيم..

قالت بوجل: الجحيم؟! خالد.. ما الذي حدث هناك؟

- لقد كنت ممن يدافعون عن مقام سيدي خالد والمسجد العتيق، حتى قامت قوات النظام بأسري أنا واثنين من الشباب، ثم نهبوا محتويات المسجد ودمروا أجزاء منه، ونبشوا قبر سيدي خالد.

ثم أخذونا إلى سجن تدمر، وهناك قضيت في أحد أقبية التعذيب مدة لا أستطيع عدها، لا أنا بحي ولا أنا بميت.

ثم تم الهجوم على السجن وإخراج السجناء منه، ثم وقعت في أسر داعش، فنكلوا بي بعد أن عرفوا أنني كنت في الجيش الحر.

بقيت تحت أسرهم، حتى حدثت بينهم وبين إحدى كتائب الجيش الحر صفقة لتبادل الأسرى، وبمجرد أن حدث التبادل، وعندما وجدوا حالتي الصحية سيئة وقد أوشكت على الموت وأصيبت جراح ساقي بالغرغرينا، أرسلوني إلى إحدى مستشفيات الإغاثة بتركيا، والتقيت هناك زوجك، وقبل يومين من مغادرتي تركيا حكى لي كل شيء.

تمت بأسي: ناجي..!

أوماً برأسه وأكمل: لقد بحث عني شهوراً طويلة، وترك خبراً لجمعيات الإغاثة التركية والدفاع المدني للمناطق السورية المحررة.

تساءلت بدهشة: وكيف حصل على معلومات عنك؟

قال: من سجلاتي في الجامعة، تدرين كيف نُحُلُّ كل الأمور بالمال.

لقد حصل على المعلومات اللازمة عني وعلى صورتي الشخصية، ونجحت إحدى جمعيات الإغاثة في معرفة مكاني، فاتصلوا بمروان، واتصل هو بناجي ليأتي مسرعاً إليّ.

سالت دموعها غزيرة: ولم ألمّ يخبرني؟

قال: لقد أراد أن يجنبك خيبة الأمل وعذاب الانتظار، فلم يكن يدري على أي حال سيجدني..

لقد كنت ميتاً بالفعل..

تذكرت ما حدث ليزن ويحيى، فانتحبت وهي تسمعه يقول: لو كان وجدني ميتاً، كان سيخفي عنك الأمر حتى لا تتألمي، فما فائدة أن تكتشفي إن كنت ميتاً الآن أو قبل سنوات سوى فتح الجروح وتجديد الأحزان؟

- ألم يخبرك شيئاً آخر؟ عن أمي أو...

قاطعها بصوت متألم، وقد امتلأت عيناه بالدموع: أخبرني أنها ماتت في المخيم، ماتت وتركتك وحيدة في الحياة.

انسكبت دموعها وانتحبت بشدة، وهو يكمل وقد سالت الدموع على وجنتيه: حتى مهمة إخباري بموت أمي، جنبك ذلك الحمل وقام به عنك.

لا تدري هل تضحك أم تبكي أم تصرخ أم تجن!

أراد ناجي أن يحميها من الحزن لموت أخيها، لكنه تركها تواجه جثة مشوهة تظنها هو!

قالت بغيط: أظن أن إعادتك لي ستغفر له اختفائه من حياتي فجأة دون أن يترك لي أي خبر؟

هل يمكن أن أسامحه على الأيام التي قضيتها أبحث عنه في كل مكان وأنا معتقدة أنه قُتل أو اختُطف؟

قال متسائلاً: ولم تبحثين عنه وقد ترك لك رسالة؟

كسا الغضب ملامحها، وقالت بصوت باكٍ: ناجي لم يترك لي شيئاً يدلني على مكانه، لم يهاتفني حتى أو يرسل لي رسالة.

قال مؤكداً: لقد أخبرني بأنه ترك لك رسالة يخبرك فيها بين البقاء معه أو الانفصال، فلا تركيه ينتظر طويلاً، فقد عانى بما يكفي.

هتفت بغضب: قلت لك لم يترك لي أية رسالة، بل لم يخبرني أبداً أنه سيرحل إلى أي مكان.

عندما رأت الحيرة وعدم التصديق في عينيه قالت بانفعال: أخبرني إذن، أين تركها؟

قال: أخبرني أنه تركها في غرفتك.

قالت بانفعال: لقد فتشت الغرفة مرات ومرات، وقلبتها رأساً على عقب، بل فتشت البيت بأكمله.

قال بحيرة: ربما ضاعت أو أخذها أحدهم.

هتفت: من يجرؤ على أن يمد يده لشيء يخص صاحب البيت؟ رأيت بنفسك البيت، الحرس والخدم...

صمتت لحظة، وتغير وجهها عندما تدفقت في عقلها فكرة أشعلت النار في عروقها، لم تكن تود أن تظلم أحداً بشيء غير مؤكد، لكن عقلها رسم صورة لشخص بات من الضروري أن تلتقيه الآن.

نهضت من مجلسها، وقالت بصوت متقطع، وهي تلهث من الانفعال: يجب أن أرحل الآن إلى البيت الريفي.



(٣١)

عجز خالد عن إثنائها عن قرارها واستسلم لرأسها اليابس، وانطلق السائق بالسيارة وهي تجلس في مقعدها الخلفي، تجتر ذكرياتها وتربط المواقف ببعضها البعض، حتى ما عاد عندها ذرة شك واحدة فيمن كان سبباً في معاناتها المؤلمة لشهور طويلة.

وصلت البيت الريفي عند الفجر، واتجهت مباشرة خلف البيت، إلى الغرفة الخارجية الملحقة به، واقتحمته وأضاءت المصباح، ووقفت تتطلع بغل إلى سعاد التي فرعت من نومها، وهبت من فراشها تتطلع إلى لين بمزيج من الدهشة والكراهية.

وجهت لين سؤالها إليها بلهجة قاسية: أين ما تركه ناجي لي؟

قالت بغل: هل انتبهت الآن فقط أن لك زوجاً ترك لك كل شيء؟

لم تكن على استعداد لتحمل أية كلمة، فصرخت في وجهها: أين ما تركه ناجي لي؟

تأملتها بمقت، ثم نهضت من سريرها واتجهت إلى خزانة ملابسها، وأخرجت منها حقيبة هدايا أنيقة مدتها إليها، فأخذتها لين ونظرت بداخلها لتجد علبة مغلقة كهدية، وعليها بطاقة أنيقة كتب عليها بحروف عربية واضحة: إلى من ستظل إلى الأبد حبيبتي.

داهمتها صدمة كبيرة، فحتى آخر لحظة لا تكاد تصدق أن امرأة كسعاد ألفت بها في جحيم الحيرة، وأغرقتها في تلك الدوامة التي لا تعرف لها قراراً.

صرخت في وجهها والشرر يتطاير من عينيها: لماذا؟

قالت بحروف تقطر كراهية: لأنك لا تستحقينه..

لا تستحقين ذلك الحب الذي أغدقه عليك قلبه الذي حطمته..

ابن عمر الكيلاني لا يستحق أن يقف ساعات بباب امرأة تحتقره، يطرق فلا تفتح، يستعطفها فلا تلين، ييثها حبه وقلبها كالخجر الصوان..

ناجي لا يتذلل لامرأة باردة قاسية تدير له ظهرها، مهما كان قلبه غارقاً في عشقها.

عادت الذكريات بلين إلى اليوم الذي قضته مع ناجي في البيت الريفي بحضور سعاد، وكانت نهايته شجاراً قاسياً مؤلماً حبست نفسها بعده في غرفتها، ورفضت أن تفتح له أو تجيب طرقاته وتوسلاته.

سمعت صوت سعاد يمتلئ حقداً وغلاً: ذلك اليوم، كرهتك كما لم أكره إنساناً من قبل. ولكن، عندما اتصل بي وطلب مني أن أذهب إلى باريس لأكون رفيقة لك حتى لا شعري بالوحدة، لم أستطع أن أرفض طلبه، وفي قرارة نفسي، تمنيت أن أعذبك كما عذبت.. وأؤدبك لتعرفي قدر الرجل الذي أحبك حتى انفطر قلبه..

انكسر بداخلها شيء كبير، وداهمها شعور مؤلم بالذنب، وحاولت أن تتماسك لتواجهها بقدر العذاب والحيرة التي ألقته بها، لكن صوتها خرج ضعيفاً مهزوزاً: وما شأنك أنت؟ لم تحشرين أنفك بين رجل وامرأة؟

صرخت في وجهها: لأنه ابني!

جابهت لين غضبها بغضب أكبر: هل جُننت؟ ناجي ليس ابناً لك، لست أمه لتفرضي على حياته وصايتك.

هتفت بعنف والدموع تتفجر من مقلتيها: بل أنا أمه رغمًا عن أنفك وأنف عمر الكيلاني.

وحتى لو حرمني أن أشاركه حياته، لقد تربي ناجي في حجري.

حملته طفلاً ولاعبته صبيّاً، واهتممت به في فتوته، وراقبته وهو ينضج أمام عيني يوماً بيوم، ويستوي كشاب مفعم بالرجولة.

ناجي ما كان يستحق امرأة أنانية مثلك.

أدركت لين أن أي كلام لن يجدي مع امرأة كسعاد جُنَّت بحب ناجي، ومن قبله عشق عمر الكيلاني.

تركتها وغادرت الغرفة بصمت، واتجهت مسرعة إلى البوابة الخارجية، لكنها تجمدت عندما فوجئت أمامها بحارس البيت الأعرج، يتطلع إليها بنظراته الغريبة من عينه الواحدة، وعلى وجهه ذي الندبات تشكلت ملامح حزن دفين.

تركها الحارس والتف متجهاً نحو البوابة، لكن فكرة عجيبة سيطرت على رأسها، وجعلتها تهتف بصوت عالٍ: جمال..

توقف في مكانه، والتفت إليها، وعلى وجهه أمارات الدهول، لا تكاد تصدق أن الفكرة العجيبة التي قامرت بإخراجها من عقلها للعلن قد صارت حقيقة بالفعل.

لا تعلم أي شيطان ألقى في عقلها فكرة أن جمال ما زال حيًا، ربما عودة أخيها من أقبية التعذيب جعلتها تربط بين الندبات التي على وجهه وجسده، وتشوه جسد الحارس الأعرج.

أو ربما هي القصة التي حكاها عمر الكيلاني في الكتاب عن إصابة جمال البالغة في ساقه، وقد تكون تلك الطريقة الغريبة التي ينظر بها إليها كلما وقعت عيناها عليه.

ترى، هل تشبه أمها إلى هذه الدرجة؟

هل يرى صورة زهرة فيها؟

أدركت أن لديها فرصة نادرة لإكمال القصة، ومعرفة كيف خرج عمر من سوريا، اقتربت من جمال، وقالت آمرة: أريد أن أحدث إليك في أمر هام.

أوماً برأسه، ثم تبعها إلى الشرفة المطلّة على حديقة البيت، ودعته للجلوس على المقعد المقابل لها، وسألته باهتمام ولهفة: ماذا فعل مصطفى بعد أن دفن عائلته؟

تقوس فمه وارتسم الأسى على ملامحه، فقالت بلهجة اعتذار: أعلم أن العودة لتلك الذكرى أمر مؤلم للغاية، ولكن ساحمني، فعلياً أن أعرف الحقيقة.

أغلق عينه بقوة محاولاً التغلب على الألم، ثم قال بصوت حزين: لقد انهار، فقد قدرته على السيطرة على نفسه، وسقط في دوامة مريرة من الصراخ والبكاء، أعقبها ذهول تام عن كل ما حوله، حتى إنني اضطررت لضربه مرتين على وجهه حتى يستفيق وينظر إليّ.

لقد حفر له قبراً بجوار عائلته، وقرر انتظار الموت فيه.

لكنني توصلت إليه أن يستفيق، ويساعدني في البحث عن زهرة، فلقد أدركنا أنها نجت بصورة ما من تلك المجزرة البشعة، فلم نعثر على جثتها.

كان مصطفى يائساً تمام اليأس من أن يجدها، فبالنسبة له أن يكون مصيرها الموت أفضل ألف مرة من أن يأخذها جنود النظام، حتى أقنعتة أنها ربما تكون قد هربت وذهبت إلى حميدة. اسم حميدة أيقظ في قلبه الأمل، وجعله ينهض معي للذهاب إلى الكيلانية، استندت إلى كتفه، وسرنا في الطرقات نتواري بالجدران المتبقية، ونختبئ بين الأنقاض والمباني المهدامة كلما سمعنا صوتاً أو لمحنا دورية من بعيد.

وفي الطريق سألني كيف سنهرب من البلدة المدمرة إن وجدناهما، فاسمنا على قائمة المطلوبين للنظام.

أخبرته باسم وعنوان شاب فلسطيني في المخيم أعرفه من سنوات، يجيد تزوير جوازات السفر للفلسطينيين الراغبين في الهجرة، أعلم جيداً أنه سيساعدنا، وسيخفيانا عن أعين النظام. أكملنا سيرنا باتجاه الكيلانية، لكن كم الدمار الذي رأيناه كان يسحق الأمل، حتى صار كل منا متأكداً أننا لن نرى الفتاتين ثانية أبداً.

وصلنا بصعوبة إلى الكيلانية، وكما توقعنا، وجدنا بيت حميدة أنقاضاً، ولم يكن فقط بيت حميدة، بل كان الحي كله ركاماً، تهدمت القصور والبيوت الأثرية ومرابط الخيل. ذكرياتنا وماضينا وكل شيء جميل في بلدتنا انسحق تحت أقدام تثار العصر.

وانهار مصطفى من جديد يبكي أطلال حبيبته، وبقيت أفكر كيف يمكن أن نجد زهرة، فما زال الأمل بقلبي أنها لم تمت.

استحلفته بالله أن يساعدني، فأنا بدونه عاجز حتى عن السير، وسألته عن أقرباء أو معارف لوالده يمكن لزهرة أن تلجأ إليهم، وأخبرني عن صديق لوالده تاجر في حمص، كان يورد له العطارة اللازمة لداكانه.

بدأ لي ذلك أملاً كبيراً في نجاة زهرة، لكنه بالنسبة لمصطفى كان أملاً ضعيفاً للغاية، فكيف لفتاة في عمرها وجمالها أن تستطيع الهروب من جنود النظام؟ كيف تخرج من تحت أعينهم من البلدة المدمرة التي صار كل شيء يتحرك فيها هدفاً للمدافع وزخات الرصاص؟ ثم تسير على قدميها عشرات الكيلومترات حتى تصل إلى حمص!!

قام مصطفى وسار معي فقط بعد أن هددته أنني سأكمل الطريق وحيداً، حتى لو فقدت ساقِي وسُدَّتْ في وجهي كل السبل، وسحقني جنود النظام.

ولكن، قبل أن نغادر الحي الذي صار ركاماً واختفت منه معالم الحياة، سمعنا صوت رضيع يبكي، واتجه مصطفى إلى ركام البيت الذي يصدر منه صوت بكاء الرضيع، وبدأ في إزالة الركام بحذر، عله يصل إليه، وساعدته، حتى وجدنا سجادة صلاة صغيرة خضراء، ومعها وشاح امرأة مدفون تحت الأنقاض، فأخذنا نزيل من حولها الأحجار والتراب بحرص، وصوت الصغير يعلو، كانت المرأة تتخذ وضعية السجود فوق سجادة الصلاة، ورضيعها أسفلها، نجا من الموت بعد أن انهدم البيت فوق رأس أمه.

كان ذلك الرضيع هو الناجي الوحيد من الحي بأكمله، وعندما حمله مصطفى بين يديه، تدفقت في قلبه دماء الحياة، ورُدَّتْ إليه روحه، كان ينظر إليه كأب يتلقى بين يديه وليده الأول، وبكى كثيراً وهو يهتف عدة مرات: يا الله!

ورفض أن يتركه بعد أن نجاه الله على يديه، وأدركنا أننا هالكون مع صوت دوريات النظام تسرح في الحي، وشعرنا باقتراب إحدى الدوريات، فاخترنا في بيت مهديم لم يتبق فيه سوي جدارين قائمين، وتسترنا خلف جدار منهما، لكن الدوريات ترجلت وأخذت تمشط المنطقة، وأخذت أبادل مصطفى نظرات مرتعبة، ونحن نكتم أنفاسنا خشية افتضاح مكاننا، وصار الصغير بالنسبة لنا كارثة، فلو بكى فمن يستطيع إسكاته؟

كان مصطفى يهزه بلا صوت، ثم وضع بنان خنصره في فم الصغير الذي تلهي بمصه، كما لو كان قد استبدله بثدي أمه، وتساقطت دموع مصطفى بصمت، وهو يتأمل الصغير بنظرات حانية، وصرت أتساءل في خضم تلك الأحداث الجسيمة والخطر الداهم الذي نمر به عن سر تعلق مصطفى بذلك الرضيع، هل يذكره بطفولة أخيه الأصغر عمر؟

بات جنود النظام على بعد شبر واحد من الجدار الذي نختبي خلفه، وصار انكشاف أمرنا حتمياً، وبحسبة بسيطة أدركت أن موت واحد هو أقل الخسائر بالمقارنة بموت ثلاثة، فجنود النظام لن تأخذهم شفقة ولا رحمة برضيع، بعد أن قتلوا أغلب أطفال المدينة.

اندفعت زاحفاً من خلف الجدار مبتعداً، وكأنني أفر من الجنود الثلاثة الذين اتجهوا إليّ وحاصروني، وأوسعوني ضرباً، ثم سحبوني إلى سيارة كبيرة القوني فيها مع مجموعة من

المعتقلين، وأدركت أن خطتي نجحت عندما اكتفى الجنود بأسري، واتجهوا إلى منطقة أخرى.

وانتهى بي المطاف إلى قضاء ثلاثين عامًا في المعتقل.

لم أخرج إلا بعد أن بدأت الثورة واقتحم الثوار السجن.

قالت متسائلة: وذهب مصطفى إلى صديقك الفلسطيني ليخرجه من سوريا؟

قال مؤيداً: نعم، لقد ذهبت إلي صديقي الفلسطيني لأسأله عن آخر من تبقى لي في هذه الحياة، وبالفعل أخبرني عما فعله مع مصطفى.

في البداية نصحه أن يترك الصغير في ملجأ آمن ليستطيع أن يعيش ويجد من يطعمه، وكذلك حتى يستطيع مصطفى أن يسافر إلى دولة أوروبية ويجد عملاً بسهولة، فما من أحد سيقبل بعامل يسطحب معه رضيعاً.

في البداية رضخ مصطفى من أجل الحفاظ على حياة الصغير، وأودعه في ملجأ للأيتام تابع لكنيسة، ولكنه بدل رأيه بسرعة، وعاد مهرولاً ليسترد الصغير، وعندما سأله صديقي عن سبب تغيير رأيه، أجابه متعللاً بأن أمه كانت امرأة مسلمة تصلي وتعرف ربها، وما كانت لتقبل بأن يكبر ابنها ويعتق ديناً آخر.

وقرر مصطفى المجازفة بكل شيء واصطحب ذلك الصغير معه وتولي مسؤوليته، وتخلّى عن اسمه الحقيقي ولقب عائلته، ومنح الصغير لقب عائلة تبقى له دوماً ذكرى من الحي الذي ولد فيه، والرابط الوحيد بينه وبين أسرته التي لا نعلم عنها شيئاً سوى أنهم من أهل هذا الحي.. الكيلانية..

عم الصمت المكان، وبقيت لدقائق تكفكف دموعها بعد أن استمعت إلى آخر فصول القصة الحزينة، وعرفت إجابات الأسئلة التي حيرتها لشهور.

قصة رجل عوضه حب ذلك الرضيع عن كل ما فقدته، فمنحه كل حياته.

تنهد جمال بأسى: استطاع صديقي الفلسطيني بعد بحث قصير أن يعرف مكان التاجر صديق والد مصطفى، والذي يسكن حمص، وتأكدت أنني كنت محقاً عندما أخبرني إلى من زوج التاجر ابنه.

قالت مؤكدة على كلماته: إلى زهرة..

أوماً برأسه وقال: كان صديقي الفلسطيني هو أداة الوصل التي من خلالها عرف ناجي طريقي، وأتى إليّ خصباً ليصطحبني إلى فرنسا لألتقي بصديق عمري، الذي كان بدوره يبحث عني بعد قيام الثورة.

والتقينا أخيراً بعد فراق دام أكثر من ثلاثين عاماً.

لكن الألوان كان قد فات، فمصطفى كان يحتضر في الرعاية الفائقة، ولم أحظ سوى ببضع دقائق قضيتها بصحبته، وعرف مني أن زهرة ما زالت على قيد الحياة.

مما جعله يوصي ناجي بأن يبحث عنها ويحضرها إلى فرنسا معها كانت الظروف.

أدركت لين أن ناجي بدأ رحلته بالبحث عن أمها، لكن وقتها كانتا قد غادرتا حمص إلى المخيم، ووصل متأخراً، بعدما ماتت أمها، وغادرت هي المخيم متجهة نحو أوروبا.

لم تكف طوال طريق العودة عن البكاء، ولم تحف دموعها لحظة، منذ أن فتحت الرسالة وأخذت تقرأها عشرات المرات في ضوء النهار الوليد، وهي تتذكر كلمات شانتال: «هناك نوع من البشر إذا ما صادفناه يوماً تتغير حياتنا بعده للأبد»..

أمسكت بالعلبة المغلفة بغلاف أنيق على هيئة هدية، وفضت الغلاف لتجد بداخله كتاباً أسود قديماً، امتلأت سطور صفحاته كلها بالجمل والكلمات بخط أسود أنيق، وعندما عادت إلى أول صفحة وجدت كلمات قد حُطَّت بخط مغاير باللون الأزرق، استنجت على الفور أنه خط ناجي.

«تمنيت أن تكون أول نسخة تطبع من هذا الكتاب بين يديك، فأنت أحق الناس بها، لكن الوقت داهمني، ولم أستطع الانتظار، لكن ما يعزيني هو أنك ستعرفين الحقيقة من خط صاحبها الحقيقي، ذلك الرجل الذي عاش جل عمره ضحية للصمت».

لم تكن بحاجة لمعرفة ما في الكتاب بعد أن قرأته من نسخة الكتاب التي أعطتها إياها جان، فأعادته إلى الحقيقة، وأمسكت بالرسالة لتطالع كلماتها من جديد، وتذرف دموعها وتنتحب من جديد:

كنت أخطط لأصارك بالحقيقة بعد الحفل..

لكنني عندما عدت إلى البيت وجدتك غارقة في الكوابيس المؤلمة، تبكين حتى داخل أحلامك، وعجزت عن إيقاظك، أو إخراجك من دوامة أحزانك..

تذكرت ليلة الحفل، وأدركت أنها لم تكن تحلم عندما استيقظت ليلاً تصرخ، وأنه كان بالفعل معها، يحتضنها ويربت على ظهرها ويهدئ من روعها، لكنها لم تكن وقتها واعية أنه موجود.. كان دائماً موجوداً، ولم تع ذلك إلا بعد أن رحل..

عادت تستكمل قراءة الرسالة:

فقط لو كان عمر الكيلاني حياً، لكنت وجدت من تثقين به وتصديقينه..

سأترك عمر الكيلاني يشرح لك بنفسه ما عجزت عن إخبارك به، ستجدين القصة كلها في الكتاب الذي وضعته مع الرسالة..

أدعو الله ألا تكرهيني أو تحتقريني بعد أن تعرفي الحقيقة، وحتى إن فعلت فلن أستطيع أن ألومك، لأنك كرهت الإنسان الذي احتل مكانك في حياة أقرب الناس إليك، واستولى على مكانتك في قلبه..

الآن أنا مضطر للسفر في أمر هام لا يحتمل التأجيل، ودون حتى أن أستطيع توديعك.. إنها فرصة لتفكري جيداً وتختاري بكامل إرادتك الحرة، ودون ضغوط أو خوف من المستقبل، أن تكلمي حياتك معي أو بدوني..

أنت سيدة قراراتك، ومهما كان اختيارك فلن تتبدل مكانتك في قلبي..

ستكونين دائماً المرأة الوحيدة التي أحببتها وسأظل أحبها للأبد..

لن أتخلي عنك أبداً، وإن احتجت إليّ، فاطلبي من صديقي سعد أن يتصل بمرؤان ليبلغني، وسأتي إليك من فوري..

سعد لا يعلم، ولا أحد يعلم أنني غادرت فرنسا سواك، فلا تخبري أي إنسان عن مكاني، وإن سألك أحد، فقولي لهم إنني أنعم بفترة استجمام في البيت الريفي، بعد عناء المجهود الذي قمت به في الحفل.

بعض الناس لو وصلهم خبر رحيلي قد يثيرون المشكلات..
لا تقلقي لو تأخرت وتابعي دراستك، وعندما أعود فسننهي كل الأمور المتعلقة بيننا على
النحو الذي يرضيك..

فقط أرجو أن تهتمي بأمل، فأنا أترك لك عبء إخبارها بأنني سأغيب عنها لفترة، فهي
تحبك وتثق بك وتستمع لكلامك، فاعتذري منها بالنيابة عني..
أثق بأنك ستنجحين هذا العام وتكملين طريقك وتصبحين طبيبة، فأنت قوية، فابقي دائماً
كذلك..

أستودعك الله..

عادت إلى البيت تجر أقدامها جرّاً، وخالد ينتظرها على نفس الأريكة لساعات، فهو يدرك
أنها ستكون بحاجة ماسة للحديث إليه بعد أن تصلها الحقيقة كاملة، وينقشع الضباب عن
عينها.

انتحبت: لا أدري هل أصب نقمتي عليه لأنه لم يشرح لي أي شيء قبل رحيله؟ أم على نفسي
لأنني لم أستمع إليه ولم أمنحه الفرصة لذلك؟

قال مواسياً: كانت روحك أسيرة لسنوات العذاب والمعاناة التي احترقت بها، ولم يستطع
مواجهتك بالحقيقة، حتى تحصيلي على وقت كافٍ لتطيب جراحك، هكذا أخبرني.

- هل كان يحاول حمايتي من الألم؟ ليته كان هنا وأنا أستقبل الصدمات والآلام واحدة تلو
الأخرى.

استغرقت بعض الوقت حتى استطاعت أن تجمع شتات أفكارها، وتكفكف دمعها،
وتتمالك نفسها.

أدركت أخيراً أن عليها أن تخوض الرحلة التي كانت تخشاها، وترفض حتى التفكير في
طريقها الذي يمكن أن تسير فيه.

كان ناجي هو آخر إنسان يمكن أن تفكر يوماً أنه من سيعيدها لبيداتها.

لأجله ستستدعي كل ما تملكه من شجاعة لتواجهه أشد ما تخافه.

أمسكت بجوالها، واتصلت برقم أحمد، وعندما أتاها صوته مجيباً قالت جملة واحدة: سأرافقكم في الرحلة إلى سوريا.

كان الشيء الوحيد الذي استطاعت تنفيذه من رسالة ناجي هو أن تهتم بأمل، فدعتها لنزهة إلى الحديقة التي أمام المسرح، وتناولت معها الثلجات كما كان ناجي يفعل، وجلست معها على المقعد المقابل للمسرح.

كانت أمل سعيدة بصحبته، تحكي لها عن يومها كيف يسير في المدرسة، وعن أصدقائها. شردت لين للحظات وهي تتأمل مبنى المسرح، وعادت لها ذكرياتها مع ناجي وكم انتظرها هناك، وهي تعتمد التأخر عليه، كم تفتقد تلك المرات التي شاركته فيها سيارته، واستمعت لدندناته، كان دائماً ينزعج عندما يتحدث إليها وهي لا تسمع.

انتبهت على صوت أمل تناديه، وأدركت أنها استغرقت في ذكرياتها أكثر من اللازم، شعور الطفلة بالضيق انتقل إليها، فها هي تعاود الاستغراق بعيداً عن محدثها ولا تستمع إليه.

اعتذرت منها بأنها ليست على ما يرام اليوم، فقبلت منها الطفلة ببساطة، وقالت: لا بأس، أعلم أنك تفكرين في ناجي.

ناجي..

كان دائماً ما يلتمس لها العذر لابتعادها عنه، ويسامحها سريعاً دون حتى أن تقدم له مبررات، كم يشبه قلبه قلب أمل!

سألته لين: أمل، هل تذكرين أباك؟

قالت ببساطة: ليس كثيراً، أُمي كانت دائماً تحكي لي أنه ذهب إلى بلاده، ولم يعد أبداً.

مات هناك، مات في الثورة.

كان يريد لي أن أعود وأكبر هناك في وطنه.

أدركت لين الآن لم تولى عمر الكيلاني أمر أمل بعد مقتل والدها، الذي كان يتمنى لابنته أن تعيش في وطن حر، فعمر الكيلاني كان يرى حلمه ومأساته في كل إنسان يبحث عن الحرية.

قَتَلَ أبو أمل في وطنه، وترك من خلفه طفلة تنتظر وطنًا بلا أمل.

هتفت أمل بضيق: متى سيعود ناجي؟ لقد اشتقت إليه كثيرًا.

لم تعد لين متأكدة من الإجابة، ولم تشأ أن تكذب على الطفلة أو تعلقها بشيء غير مؤكد.

ازدردت لعابها وقالت بعد تفكير: أتعلمين؟ في رحلة حياتنا، أحيانًا قد نفقد أعلى ما لدينا،

ويعوضنا الله بمن يمسك بيدنا عند كل جسر نعبه لنكمل الطريق، وعندما نصل إلى وجهتنا

ندرك أن الله قد سخر لنا الكثير من البشر، فلا تدعي ما فقدته ينسبك ما وهبك الله إياه.

كوني قوية لتنجحي في الوصول إلى هدفك في الحياة.

في تلك اللحظة لم تكن تدري هل تتحدث إلى أمل أم إلى نفسها.

لكن أمل نظرت إليها ومنحتها ابتسامة عذبة.

عادت بها لين إلى المطعم لتطمئن على سير العمل، وهناك عرفت أنها إلى أخيها خالد الذي رفض بإصرار البقاء في البيت للاستشفاء، فقد كان خالد قويًا بما يكفي للتغلب على ما أصابه.

أخذت تراقبه وهو يتحدث بهدوء إلى أمل، ويسألها عن دراستها وألعابها وأغنياتها وهي تجيبه بود.

وشردت لين وأخذت تفكر في جراح أخيها وإصابته الظاهرة وتشوه وجهه، وأدركت أن روحها أشد تشوهًا من جسم أخيها، لقد نجا خالد من تشوه الروح وعاد قويًا برغم جراحه وآلامه، وبرغم اختفاء ابتسامته الباشة التي تفتقدها، لكن قلبه نجا.

أما هي فلم تنج.

لقد تبدلت لكائن آخر، كائن منزوع المشاعر، غير قادر على الشعور بالحب أو مبادلتة حتى مع قلب كقلب ناجي.

هل لو نزعوا عنها الجلد فستجد لحمًا ودمًا؟ أم ستجد دمية آلية منزوعة الحياة؟

انتبهت من أفكارها عندما أتاها الشاب محمد: سيدتي، السيد كريستيان.

نهضت من فورها وتبعته نحو باب المطعم، لتجد كريستيان واقفاً هناك وعلى وجهه ارتسمت شياطين الغضب، وثلاثة من العاملين بالمطعم يقفون حوله بتحفظ.

الآن فقط فهمت ما الذي فتح عليها جبهة الحرب، تلك التي ما كانت تعلم بوجودها، ومن الذي أخبر كريستيان من البداية باختفاء ناجي ليأتي إليها ويساومها على بيع المطعم..

إنه نفس الشخص الذي قدمت إليه الشكوى ضد كريستيان ويوسف منير ومراد..

عقدت ذراعيها أمام صدرها، وقالت بوجه متجهم: ماذا تريد؟

قال بصوت صارم: لتحدث أولاً لتعرفي ماذا أريد.

أشارت للعمال بالانصراف، وتوجهت إلى أقرب طاولة من الباب وجلست، فجلس في الكرسي المقابل لها، وقال مباشرة: لدي عرض لا يُرفض، ما رأيك أن أزيد السعر إلى الضعف؟

سألته مباشرة: ما الذي تريده من صالة للطعام لا يرتادها سوى العرب؟

- ربما لهذا السبب.

- وما الخطر من بضعة شباب جامعيين وفقراء يرتادون مطعمًا صاحبه رجل عربي؟

- تعلمين أنه ليس كأبي رجل، ولا هذا المكان كأبي مطعم، لقد كان خطأً زوجك أن زج بنفسه وبالمكان في السياسة.

- أليس مواطنًا فرنسيًا له الحق في الدعوى لانتخاب من يراه الأفضل؟ أليست هذه حقوقه القانونية؟

- لا تلعب بكلمات أكبر منك، فأمثالك قادمون من بلاد لا تعلم أن في الكون شيئًا يسمى الديمقراطية.

- وهل تعلم أنت؟

- لا تبدئي باستفزازي، فالعاقبة ستكون وخيمة.

- عرضك مرفوض، فهذا المكان سيظل ملكًا لعائلة عمر الكيلاني للأبد، ولن تستطيع أنت ولا أحد سواك انتزاعه منا.

- احترسي، فمن أحرق المطعم سابقاً قادر على إحراقه مرة ثانية وثالثة ورابعة، وقد تكونين بالمصادفة بداخله.

- أتهددني بالقتل؟

- لا يا صغيرتي، أنا فقط أنصحك بالابتعاد عن الخطر.

- إذن فأنت من أحرق المطعم!

- قد أقوم بأسوأ من ذلك إذا لم تتعدي عن طريقي.

نهض من مكانه وقال بلهجة تمتلئ بالوعيد: إذا أردت أن تعيشي بأمان أنت وزوجك، فعليكم التنازل عن هذا المكان وترك البلدة..

عودا من حيث أتيتما، ففرنسا ليست مرتعاً لأمثالكما..

غادر المكان، وبقيت هي جالسة في مقعدها، حتى اقترب منها الشاب محمد، وتجمع حولها بعض العمال، فسألته: هل تم كل شيء كما ينبغي؟

رفع إبهامه علامة الانتصار وابتسم، ثم نظر إلى كاميرا مخبأة بمهارة فوق رأسها، وقال مازحاً: السيد كريستيان نجم سينمائي بالفطرة.

فقالت ضاحكة: سنسدي له صنيغاً ونحوه إلى نجم اليوتيوب الأول في فرنسا، ربما يكتشف مواهبه أحد السينمائيين الكبار.

قال بجدية: ولكن، ما يحيرني أن ذلك لن يكون دليلاً كافياً لإدانته أمام القانون.

قالت: ونحن لن نلجأ إلى القانون، فلنراقب فقط ما سيفعله ذلك الفيديو بمستقبله السياسي في الانتخابات البرلمانية القادمة.

هز الشاب محمد رأسه وهو يبتسم بإعجاب لذكائها.

نهضت من مقعدها واتجهت إلى آخر المطعم لتنضم إلى خالد وأمل، وهي تمنى نفسها بأن خالدًا سيقبل بإدارة المطعم، ويستوعب سريعاً طريقة العمل، قبل أن تنضم للقافلة المتجهة لسوريا.

في اليوم التالي وصلت إلى الجامعة، واتجهت مباشرة إلى المكان الذي اعتاد أن يجلس فيه أحمد مع بقية الأصدقاء، ووقفت تطالعهم من بعيد وهي تسترجع تفاصيل تلك المكالمات التي وصلتها من أمينة قبيل الفجر، لقد أخبرتها أن أحمد فقد أخاه المعتقل منذ فترة طويلة في سجون الأسد، وصلته رسالة ليلة أمس من والده بسوريا يخبره أن أخاه استشهد من التعذيب.

أخذت تنظر من بعيد لأحمد وهو جالس بينهم، ذاهلاً لا يرد على من حوله، وفي عينيه نظرة حزينة ثابتة لا تتبدل، ودمعة معلقة في عينيه لا تنهمر.

تذكرت كلماته التي قالها لها بعد أن عرف بشأن الفيديو الذي صور له إياد، كان يتحدث عن أخيه وأنه أُجبر على تصوير فيديو مشابه.

أحزنها كثيراً ما آل إليه حال أحمد، تستطيع أن تستشعر ذلك الحزن الذي ملأ قلبه، فكم تشابه قصتها وقصته! قبل أيام فقط لم يكن لديها أمل أن ترى خالداً مجدداً.

بل هي قصة كل سوري.

في الإحصائيات الأخيرة للمرصد السوري لحقوق الإنسان، مقتل أكثر من نصف مليون إنسان، منهم عشرات الآلاف في أقبية التعذيب في سجون النظام، وإصابة مليونين آخرين بإصابات تسبب إعاقات مختلفة، وتهجير أكثر من ثلاثة عشر مليوناً، وتدمير أحياء كاملة في أغلب المحافظات بالقصف المتواصل بالطائرات.

أدركت أنه انتبه إليها عندما صوب نظره نحوها، ثم قام من بين أصدقائه وسار متجهاً نحوها، ثم تجاوزها مكماً طريقه، فسارت إلى جواره وقالت بأسى: تمنيت لو أننا ولدنا في زمان غير هذا، ربما استطعنا أن نحيا دون كل هذا الألم.

قال بصوت يقطر ألماً: كان سيأتي من بعدنا ليغرقوا في بحور الدم.

إذا لم تمتد يد لتوقف كرة النار، فسيظل كل جيل يقذفها لمن بعده أملاً في النجاة بنفسه.

- هل كان علينا أن نمسك السلاح؟

- وهل كان علينا أن نساق للذبح دون ضجيج؟

هل يلام من يشعل النار ليجد طريقه وسط الظلام الدامس؟ ألا لعنة الله على من محا النور من بلادنا.

تنهدت بآلم، وأمسكت عن البكاء، وقالت بثبات: حزنْتُ للغاية لأجل أخيك، تقبله الله مع الصديقين والشهداء.

قال بشروء وهو يسير في طريقه وكأنها لم يسمعها: قال لي أخي يومًا: «ربما لا نستطيع أن نحيا في أوطاننا بكرامة، لكننا نستطيع أن نختر أن نموت لأجلها بكرامة».

- لقد ضحينا بكل غالٍ، فما قيمة ما فعلناه؟ وما الذي كسبناه؟

- بدأنا ولا أمل لنا في أية نهاية.

من قبل لم يكن لدينا أمل في أية بداية، ولكننا بدأنا.

قد نرى النهاية أو لا نراها، لكن علينا أن نكمل الطريق، حتى لو لم يكن لدينا أمل في النصر.

قالت مبدلة الحديث المؤلم: متى ستنطلق القافلة؟

قال: بمجرد أن ينتهي العام الدراسي مباشرة.

أخيرًا وصلت إلى إدلب، حيث الأراضي السورية لا تخضع لسيطرة النظام، وكان هناك في استقبالها مروان، بعد أن اتفق مع سعد بحديث مبطن بينهما وكلام مشفر يفهمانه جيدًا لا يقع ناجي تحت طائلة القانون، إذا ما كان هناك من يتجسس على هاتف سعد.

وكانت المفاجأة كبيرة عندما علمت أن مروان قد انضم للجيش الحر، وصار ممن يدافعون عن المناطق الحرة في سوريا.

الأمر بالنسبة له قضية عقيدة في المقام الأول، فهو يفهم المعركة على أنها هجمة عالمية لتفتيت الأمة العربية، وتقسيم ما هو مقسم بالفعل.

ما زال نزيف جرحه في بلده العراق لا ينقطع، ومعركته في سوريا ما هي إلا جزء من معركته الكبرى لتحرير الأوطان.

ثم أخذ يحكي لها عن اللحظات الأخيرة في حياة (المعلم):

لقد غامر ناجي بكل شيء لكي يأتي بـ (المعلم) إلى هنا، فهرب به من المستشفى، وغادر فرنسا عبر الحدود، ثم إلى طائرة خاصة بجوازات سفر مزورة، ثم التقيتهم في تركيا، وعبرنا الحدود ودخلنا إلى المناطق المحررة في سوريا معًا بمساعدة الجيش الحر، ثم كان علينا أن نستقل سيارة ونقطع مسافة طويلة لنصل إلى حماة ومعنا جوازات أجنبية، وكان لدينا عدة مشكلات كادت تقعدنا عن الذهاب، لولا أن وجدنا لها الحل.

أولاً: إن حماة تحت سيطرة النظام، وكنا بحاجة إلى دليل يسير معنا عبر الطرق، ويكون عارفاً بها، وخبيراً في الطرق البديلة إذا ما صادفنا مشكلات، وتطوع أحد شباب الكتائب لاصطحابنا.

ثانياً: كان علينا أن نتصرف إذا ما مررنا على حواجز النظام، أو قطع علينا الطريق الشيعة، وحُلَّت تلك المشكلة بالمال، فدخلنا حماة بعد أن فتحت أموالنا وجوازاتنا الأجنبية الحواجز، وذهلت العقبات.

ثالثاً: الحالة الصحية الخطرة التي وصل إليها (المعلم).

كنا نعلم أنه يحتضر، وكان ناجي يسابق الزمن كي يحقق آخر أمنية له، ويرى (المعلم) موطنه قبل موته، وكانت تلك هي المرة الأولى التي أعرف فيها أن (المعلم) سوري وليس فلسطينياً. استطعنا الحصول على سيارة إسعاف بالمال، وكنت أجلس بجوار السائق، وناجي يجلس بجوار (المعلم) الممدد على المحفة الطبية، وناجي يلهيه بالحديث كي يتأكد أنه ما يزال حياً، كان (المعلم) يتحدث عن آخر أمنية له في الحياة.

قال (المعلم) بصوت متعب يمتلئ بالشجن: أتمنى أن أسمع للمرة الأخيرة ذلك اللحن الخالد الممتد على مدار التاريخ، عندما تشدو الناعورة بصوتها الحزين على ألحان العاصي..

في جنة الأرض..

حماة..

اشتاق الجسد البالي لترايك..

أما آن للغريب أن يعود ليحظى بضممة من الحبيبة؟

اعتدلت في مقعدي بعد أن عجزت عن إمساك دموعي التي انسكبت مدرارًا، وجسدي يرتج من نحبي الذي كتمته بصعوبة، وشردت في مدينتي التي تركتها خلفي، ولعنت ألف مرة مَنْ شَرَدنا من ديارنا وجعلنا غرباء تبتلعنا أمواج الحياة، لا نكاد نجد شاطئًا يمنحنا الأمان. استفتت من شرودي على صوت ناجي وهو ينتحب بشدة ويناديني: مروان، أوقف السيارة، لقد مات (المعلم).

انفضت من المفاجأة، وأوقفت السيارة، والخيط الأبيض من الفجر يتبدَّى في الأفق. غادرت مقعدي، ثم فتحت الباب الخلفي بسرعة وتفحصت جسد (المعلم)، لأجد علامات الحياة قد فارقت، فشاركت ناجي البكاء والنحيب، وأجمل ذكريات العمر مع (المعلم) وناجي تتداعى إلى رأسي، تأتيني صورته وهو في طور الشباب، ثم الكهولة، ثم سنوات المرض، فينفطر قلبي حسرة على فقد الدعم والسند والقوة المعنوية، التي كانت تنبع من قلبه.

حمل ناجي الجسد الذي تضاعف كثيرًا بسبب المرض بين ذراعيه، وغادر السيارة وقد أشرق نور الصباح، وبدا صوت العصافير من أعشاشها، فهتف به ناجي وهو يبكي: أبي.. أبي.. هل تسمع؟ إنه العاصي، تمهل قليلاً، فقد أوشكنا على بلوغ حماة.

أدركت أننا دخلنا حماة بالفعل، وأن (المعلم) مات على عتباتها، وقد تحققت أمنيته الأخيرة. انهار ناجي، وأخذ يهتف بـ (المعلم) ويبكي: أبي.. استيقظ.. ستسمع صوت النواير وهي تغني على ألحان العاصي..

أبي.. لا تمت الآن.. ألا تشم رائحة الياسمين؟

لم أبك يوماً في حياتي قدر بكائي ذلك اليوم، ليس فقط لافتقادي (المعلم)، بل من أجل ناجي، فأنا أكثر من يعرف أن (المعلم) لم يكن له فقط أباً، بل كان بالنسبة له الحياة ذاتها.

مات (المعلم)، ودفنه ناجي في تراب حماة كما أوصى من قبل.

صار ناجي آخر.. بلا روح.. بلا أمل..

كان الشيء الوحيد الذي أخرجه من حالته تلك هو أنني أوصيته أن يبحث عن أقارب لـ (المعلم)، فلربما أوصى لهم بميراث أو يود أن يصل ابنه رحمه.

ساورني الشكوك في أنه نجح بالفعل في العثور على بعضهم عندما علمت أنه تزوج، وعندما رأيته صار الشك يقيناً.

تعجبت من كلماته، فكم من أحد قبله أخبرها أنها تشبه (المعلم).

تمنت لو كانت رآته وتحدثت إليه، لتعرف إن كانت حقاً تشبهه.

قال مروان بأسى: عندما كنا نسعى خلف خالد، كان الاتفاق أن ناجي عندما يجده يعود به إلى فرنسا.

كان يسألني كل يوم: هل اتصل سعد؟ وعندما أجيبه بالنفي، كان جزء من الأمل في عينيه يذوي، وعندما وجدنا خالدًا أصبح يكرر سؤاله لي عدة مرات في اليوم، ثم فوجئت بأنه غير الترتيبات التي اتفقنا عليها، وأرسل خالدًا إلى فرنسا وحده ليستقبله رجالنا هناك، وعندها فقط كف تمامًا عن السؤال.

كان الحزن يأكل قلبها بعد أن عرفت كم المعاناة التي مر بها ناجي، لقد كان ينتظرها.

لقد كان ينتظر أن تطلب من سعد أن يتصل بمروان كما أخبرها في الرسالة.

قالت بصوت حزين: أين هو الآن؟

أجابها: سأخذك إليه.

(٣٢)

كانت السيارة تمر عبر القرى والبلدان التي فقد النظام سيطرته عليها، لكنه وضع بصمته
السوداء بوضوح فوق كل شبر فيها.

براميل متفجرة وقنابل عنقودية، وكل أنواع الأسلحة المدمرة.

ركام البيوت، وأنقاض المباني، بقايا الوطن.

تتمزق روحها إلى أشلاء مع كل كيلومتر تقطعه السيارة وتتوغل فيه بين هذا الخراب، الذي
كان يوماً مدناً وقرى تمتلئ بالحياة والبشر.

بقي الدمار شاهداً إلى أين يمكن أن يصل حكم ديكتاتور.

يذكرها حطام البلدة بجسد أخيها، والذي لم يتركوه إلا بعد أن شوهوه بالقهر والظلم.

ترى، هل كانت حماة ٨٢ مثل ذلك الذي تراه الآن؟

تذكر أنها عندما زارت حماة أثناء الثورة، كانت تضج بالحياة.

تسرب من قلبها الأمل، وصارت روحها تعتصر مع كل مشهيد يمر عليها من نافذة السيارة.

بشر يسيرون بين الخرائب والدمار، أطفال يلعبون على أراجيح صدئة مهترئة، بائعون
يفرشون بسطاتهم فوق الركام:

«الشعب السوري ما بينذل»..

ما زالت أذناها تصران على التمسك بهدير عاصمة الثورة، ونهر البشر الذي كان يملأ ميدان
الساعة، وصوت هتاف عبد الباسط الساروت، وأغاني وصفني المعصراني.

صورة تتصارع بداخلها مع ما تراه الآن.

روحها تئن وقلبها ينتحب مخلفاً رجفة مستمرة في جسدها، لازمتها طوال الطريق الطويل.

توقفت السيارة وترجلت منها ومعها مروان، في إحدى البلدات التي غادرها النظام ولم
يعد له سيطرة عليها.

هنا يتحرك الناس بحرية أكبر، ورغم الدمار الذي طال أغلب المباني، لكن الحياة ما زالت هناك، ما زال البشر يصنعون من ركام الموت حياة.

أطفال يلعبون، وبشر يتجولون ويمارسون كافة أشكال الحياة.

لم تشعر بغربة، واللهجة السورية تصب في أذنيها من كل اتجاه، فقد عاشت أكثر من عشرين عامًا لا تسمع سواها.

غمرتها مشاعر الألفة والاطمئنان بين تلك الوجوه التي تألفها، وبرغم أن طائرات الأسد والطيران الروسي قتلوا الكثير من أشكال الحياة، لكن، ما زالت هناك بعض حياة في هؤلاء البشر.

أخذها مروان إلى مبنى به الكثير من الأطفال، كان ملجأً لإيواء اليتامى ومن فقدوا كل أفراد عائلاتهم.

كان المبنى الذي طاله بعض الدمار في أحد جوانبه، يضم مسكنًا للأطفال، ملحق به روضة وساحة للألعاب، وفي المبنى أيضًا بعض الغرف التي تأسست بأثاث بسيط للغاية، لتكون فصولًا مُعدّة لتعليم الأطفال.

كان المكان يفتقر إلى الكثير من الإعدادات والأثاث الضروري، ولكنه يقدم بعض الخدمات لهؤلاء الأطفال الذين فقدوا أهاليهم، وأيضًا لأهالي المنطقة.

كان مروان يقوم بدور المرشد لها، وهو يشرح بدقة ما يقدمه ذلك المركز للأيتام ولأطفال المنطقة، وهي تستمع لكلماته بنصف عقل، فقد كان عقلها يتساءل: أين يمكن أن يكون ناجي الآن؟ وماذا يفعل؟

عندما دخلت إلى ذلك المبنى ظنت أنها ستجده هنا، تخيلته للحظة يجلس وحوله الأطفال يغني لهم فيشاركونه الغناء، ويصفقون على إيقاع صوته الشجي، فناجي لديه قدرة غير محدودة على أن يرسم البسمة على تلك الوجوه الصغيرة.

دخلت أحد الفصول فوجدت فتاة لا يتجاوز عمرها الثانية عشرة، تجمع حولها مجموعة من الأطفال الأصغر سنًا، تردد على مسامعهم السور القصيرة من القرآن، وهم يرددون خلفها.

وقفت لين تستمع إليهم لدقيقة، حتى قررت أنه حان الوقت لتسأل مروان: أين ناجي؟
أجابها بأسماً: سندهب إليه، أردت فقط أن تشاهدي هذا المكان أولاً، وتعرفي إلى رزان.
أكملت رزان تلاوتها وختمت السورة، ثم قامت لتنضم إليهما، فاستقبلها مروان بابتسامة
كبيرة وهو يقول لها: مرحباً رزان، كنت تسألين دوماً عن زوجة ناجي.
أومأت الفتاة برأسها بابتسامة يشوبها بعض الحياء، فأكمل وهو يشير إلى لين: ها هي أمامك.
التفتت رزان إليها واتسعت ابتسامتها، وقالت بود وهي تمد يدها لتسلم عليها: تميت كثيراً
أن أراك بعدما حكى لي ناجي عنك.
سلمت عليها لين بحرارة، وبادلتها الابتسامة الودود: ناجي أينما حل يكسب الكثير من
الأصدقاء، فالجميع يحب صوته.
قالت: لا أحد هنا لا يعرف صاحب الخوذة البيضاء كقلبه.
غربت الابتسامة عن وجه لين، وساورها قلق عميق، لكن الفتاة أكملت ببساطة: صوته هو
ما جعلني أتمسك بالحياة في أحلك الأوقات التي مرت عليّ.
ساعدني كي أتغلب على ألمي وأتجاوز خوفي وهو يمسك بيدي.
ختمت الفتاة حديثها مع لين بقولها: ليس من السهل قضاء يوم بليلة في الظلام تحت
الأنقاض.
رحلت لين، وكلمات الفتاة تدوي في أذنيها، وعندما غادرت المبنى شاردة، لم تفهم معنى
الجملة التي قالها مروان إلا بعدما التفتت خلفها تنظر إلى واجهة المبنى، التي لم تنتبه لها عند
دخولها:
«كان يرسم اسمك على كل شيء يمثل له معنى الحياة».
تجمدت في مكانها، وانهمرت دموعها غزيرة عندما وجدت واجهة المبنى تحمل لافتة عليها
اسمها هي.

انقبض قلبها بشدة، وهي تسمع أصوات انفجارات قادمة من الاتجاه الذي تسير نحوه السيارة.

وما زاد من قلقها هو صوت مروان وهو يكبر ويحوقل مع صوت كل قذيفة يسمعها.

ثم قال كلمة أَلقت الرعب في قلبها:

«أتمنى أن نجده هناك عندما نصل».

استغرقت السيارة وقتًا حتى وصلت إلى مبنى من طابق واحد، وقفز مروان من السيارة وخلفه لين تهرول، واتجهوا مسرعين إلى المبنى الذي حاولت لين أن تتبين ماهيته من واجهته، لكنها لم تفلح.

أخذ مروان ينادي ناجي وهو يبحث عنه في كل أركان المكان، لكن المكان كان خاليًا من أي إنسان.

ولين تدور بعينها في كل شبر فيه، وبدأت تفهم طبيعة المكان، وتأكدت عندما رأت بعض الشارات على الجدران، وبعضها متناثرة فوق المكتب الوحيد الموجود في المكان.

هتف مروان بغیظ: تأخرنا، لقد ذهب.

لم تسأله لين إلى أين ذهب، فقد بات الآن تدرك ذلك أكثر من أي وقت مضى.

وسكن قلبها الهلع والذعر، لأول مرة تخاف على ناجي إلى هذه الدرجة، وخاصة مع تجدد أصوات القصف، وبات الصوت أقرب بكثير.

وقفت تنظر حولها بحيرة، لا تدري كيف تتصرف الآن! وكيف تصل إلى ناجي!

أخيرًا، ظهر أحد الأشخاص يرتدي الرداء البني الفاتح المطعم بالأزرق، والمميز كزيّ للدفاع المدني للمناطق السورية المحررة، يحمل شارته المميزة مطبوعة على ظهر سترته.

هتف به مروان: عبد الله، هل ذهب ناجي؟

أجاب: نعم، خرج بالسيارة منذ قليل، ومعه الشباب.

ضرب مروان قبضته اليمنى في راحته اليسرى بغیظ، ووجهه يعلوه الإحباط.

لم تحاول لين أن تسأله متى سيعود، فصوت القصف المستمر ينبئها بأنه سيستغرق وقتاً طويلاً قبل أن تستطيع أن تراه، أو ربما لا تستطيع أبداً.

مجرد مرور ذلك الخاطر السوداوي على عقلها أصابها بالوهن، ولم تعد قدماها قادرتين على حملها، بعد أن باتت أعصابها على حافة الاشتعال، فارتمت على مقعد خشبي قديم يشبه مقاعد الدراسة، وتسارعت أنفاسها.

اقترب منها مروان، وقال مطمئناً: سيكون بخير إن شاء الله.

عندما هز عبد الله رأسه لمروان وهو ينظر إليه مستفهماً، تمتم مروان له: زوجة ناجي.

قضت لين قرابة الساعة تدور في المكان بقلق بالغ، تستمع إلى حكايات عبد الله مدير ذلك المبنى الفقير، الذي يتخذونه مركزاً للدفاع المدني في تلك المنطقة.

كان يحكي لها عن ناجي الذي انضم للمركز منذ أشهر قليلة، وصار عضواً فيه:

كان القصف شديداً على أحد الأحياء، ورجالنا قلة يحاولون ما استطاعوا إخراج الناس من تحت الأنقاض، وفوجئنا بشاب يرتدي سترة جلدية سوداء أنيقة يجري بيننا، يحمل معنا الأطفال ويساعد الرجال والنساء، ويخلي المكان من الجرحى.

كان مظهره مميزاً في ذلك المكان بملابسه الأنيقة الغالية، والتي تحمل علامة أحدث الماركات العالمية.

سرعان ما خلع عنه سترته، واندفع معنا يزيل بيديه الأحجار والركام والتراب، ليخرج من دفنوا تحت ركام منازلهم.

عمل معنا بصمت ودأب كبير للساعات التالية.

امتد العمل لأيام تالية، وهو لا ينال سوى القليل من فترات الراحة، وعندما سأله عنم يكون، عرف لنا نفسه بأنه ناجي..

فقط ناجي..

شاب سوري لا نعلم من يكون ولا من أين أتى، ومنذ ذلك اليوم وهو يعمل معنا بكل دأب وإخلاص، كلما علم بوقوع قصف يتوجه مع الشباب إلى مكان القصف، ولم يتأخر يوماً عن تقديم ما يستطيع من مساعدة، مهما كان حجم الخطر المحيط بنا.

قطع عبد الله حديثه، ورد على اتصال اللا سلكي، ثم غادر المبنى ليجهز العدد والأدوات التي طلبها زملاؤه، ويستعد لاستقبال السيارة القادمة من مكان القصف.

التفتت لين لمروان متسائلة: لماذا يخفي ناجي هويته؟

أجاب بحيرة: لا أدري، لكنه أوصاني بشدة ألا أخبر أحداً بأية معلومات عنه.

شردت لين في أفكارها عن ناجي، وهي تحاول استنتاج السبب في أنه تعمد عدم ذكر حقيقته لأي أحد في هذه البلاد.

وصلت السيارة، وبدأ عبد الله ينقل فيها العدد والأدوات المطلوبة، ومروان يساعده.

وقفت لين تنظر إلى السيارة الكبيرة التي تستعد للانطلاق، وفجأة اندفعت لتركب في المقعد المجاور للسائق، فهتف بها مروان: انتظري، المكان هناك خطر ولا يمكنك الذهاب.

قالت بحزم: طالما ناجي هناك فسأذهب إليه.

هتف مروان: ناجي سيغضب إن علم أنني تركتك تذهبين إلى مواقع الخطر، القصف لم ينته بعد، بالأمس تعدت الغارات الخمس والعشرين، واليوم لا نعلم إلى أي مدى قد يصل إجرام الأسد وحلفائه الروس.

قالت: سأذهب إليه مهما حدث، لا تقلق، في وقت ما كنت معتادة على ذلك.

نظر إليها بدهشة، فأكملت: لقد كنت هنا من قبل.

لم يستطع مروان ولا عبد الله ولا حتى سائق السيارة الوقوف أمام عنادها، وانطلقت بها السيارة إلى موقع القصف.

كلما اقتربت السيارة علت أصوات المهرج والصراخ، وترى الجميع يهرولون باتجاه المباني التي تهدمت لتوها، لم ينته القصف، والناس يسارعون للنجدة في أي مكان وتحت أسوأ الظروف.

لم يعد أحد يختبئ في بيته، فالبيوت صارت قابلة للتحويل إلى قبور في لحظة.

هنا..

مات الخوف..

صار الموت رفيقاً مألوفاً، فهو كظل يتبع الجميع أينما ذهبوا.

وقفت السيارة على ركام عدة بيوت متجاورة، وانطلق السائق بفرغ حولتها بمساعدة بعض من في المكان، وترجلت لين، وأخذت تبحث في المكان وبين الوجوه.

الجميع في حالة استنفار، والهرج شديد، يشكلون تجمعات حول كل بيت تهدم، وأصحاب الخوذات البيضاء بأعدادهم القليلة يتوزعون في المكان، يفسح لهم الجميع ليتقدموا ويندسوا بين الركام وتحت الأسقف المهدمة، يزيلون التراب، يحملون الأحجار الثقيلة، يكسرون قطع الخرسانة بالماحول، يصنعون من أكتافهم جسوراً يعبر عليها العائدون إلى الحياة.

أين تستطيع أن تجد ناجي؟ وكيف تعثر عليه وقد ذاب بين هؤلاء البشر؟

استغرق البحث منها أكثر من ساعة ونصف.

ولم يدها عليه إلا صوته، ميزته من بين أصوات المئات الذين يهتفون ويصرخون ويتحدثون في وقت واحد، لكن أذنهما لم تخطئه.

وعندما اقتربت لمحته في قلب دائرة كبيرة من الناس الذين تجمعوا حول ركام مبنى، ويعمل ذوو الخوذات البيضاء على انتشال البشر من تحته.

اتخذت لها مكاناً عالياً فوق الركام لتستطيع أن تراه بوضوح وهو يعمل، كان يعتمر الخوذة وهو داخل في حفرة مع مجموعة من الرجال يعملون على تقطيع قطع الخرسانة القاسية، ثم أمسك بمشار تقطيع الحديد الكهربائي ليقطع الكتل الحديدية التي اعترضت طريقهم، وهم يحاولون توسيع تلك الحفرة، وبالنظر المدقق أدركت أن داخل الحفرة بشرياً يحاولون إخراجه دون أن يؤذوا جسده، لم تتبين إن كان حياً أو ميتاً، لكن بعض الرجال من حولها يحاولون تهدئة الناس ليتبينوا ما يصدر من الحفرة من أصوات.

هناك أحياء!!

هكذا هتف أحد أصحاب الخوذات البيضاء، ليهتف الجميع بالتكبير، كان قلبها يرتجف وأنفاسها تتسارع من هول الموقف، مشاعر مختلطة ما بين قلق وخوف ودهشة ولهفة وألم، كل ذرة فيها تنتفض، وعينها لا تفارق ذلك الوجه المألوف المحبب لها، والتراب يغطي كل ذرة فيه.

نجح ناجي ومن معه في تكسير الخرسانة وتقطيع الحديد، ووسعوا الحفرة وأزالوا الأحجار الكبيرة، ثم أخرجوا بصعوبة جثة رجل تلقاها منهم الرجال المتجمعون ليلفوه في بطانية ويأخذوه بعيداً.

خفت هرج الأصوات احتراماً للموت المحلق فوق الرؤوس، وعلا الألم وجوه رجال الإنقاذ عندما أخرجوا بعده جثة طفل تقريباً في العاشرة، ورغم ذلك استمروا يعملون بدأب عظيم، وبلا لحظة راحة، وصوت الانفجارات يبلغ مسامع الجميع، فالطائرات ما زالت تقصف عن قرب، وربما تعاود قصف تلك المنطقة مجدداً، لكن الشعور بالخطر واقتراب قذائف الموت لم يُثْنِهم، ولم يوقف عملهم، ولم يغادر أي منهم موقعه، بل باتوا أكثر إصراراً على زرع الحياة تحت ركام الموت، وإن بذلوا في سبيل ذلك الأرواح والدماء.

لم تمض دقائق حتى سمعت ناجي يصرخ: يا الله!

ثم انتفض جسده، وأخذ يعمل بكلهمة ليزيل الركام من الحفرة، حتى ظهر له جسد رضيع مغطى بالتراب، فانهمك هو ومن معه في تخليص جسده الصغير من أنقاض الهدم بحرص كبير، واستغرق الأمر أكثر من نصف ساعة، حتى نجح في إخراجه، وعندما صرخ الصغير باكية كبر ناجي بصوت يختلط بالنحيب، وكبر كل من في المكان، في مشهد يهز القلوب، احتضن ناجي الصغير وأبى أن يعطيه لأحد من الأيادي الكثيرة التي امتدت له تطالب أن تأخذ الصغير.

خرج من الحفرة وهو يكبر ويحوّل محتضناً الصغير، ودموعه تسيل من عينيه، وتشق طبقات التراب التي استقرت فوق وجهه.

شاركته لين البكاء وإن لم يرها، لكن روحها التقت بروحه لتشعر بكل ما يشعر به، ما كانت أقرب إليه منها اليوم، وهو يحفر بمتنهى الحماس، وكأنها يبحث عن ذاته بين الركام، وعندما استطاع إخراج الصغير كان كمن يسترد روحه الضائعة.

تأملته وهو يسير بين الناس يبكي محتضناً الصغير، وكل ذرة من ذرات جسده مغطاة بالتراب.

يحمل ناجي بين جنباته روحاً ممزقة، وعليه أن يجمعها جزءاً جزءاً من تحت الركام، كي تكتمل صورته عن نفسه.

في عينيها لم يكن أشبه بشاب سوري أكثر منه الآن.
حان الوقت أخيراً لتلقيه، فغادرت مكانها فوق الأنقاض وأسرعت إليه، وهو يسير نحو
سيارة الإسعاف، وعندما وصل فوجئ بها تنتظره أمام السيارة.

وقع المفاجأة ظهر جلياً على وجهه، مزيج من الدهشة والذهول والغضب والخوف.
لم يكن هذا هو اللقاء الذي تنتظره بعد غياب، لم ترَ في عينيه الفرحه التي كانت تنتظرها،
حتى بات قلبها يتساءل بوجل: هل ما زال قلبه يحمل لها حباً؟

نظرة الغضب التي سكنت عينيه أفلقتها بشدة، فناجي يحمل وجهاً شفافاً يفضح ما في قلبه.
مدت يدها وتلقت منه الصغير الباكي فتركه لها يسر، وهو ما زال تحت تأثير المفاجأة،
فأخذت تمسح عن وجهه وجسده التراب، وطلبت المساعدة من المسعف، فأعطاهما ما تحتاجه
من مطهرات وضادات، وانشغلت بتنظيف وجه الصغير وجراحه، وناجي يراقبها عن قرب
حتى انتهت.

التفتت إليه عندما هتف بصوت غاضب: لمَ تصرين على التصرف وحدك دون الاستماع
لأي إنسان؟

نظرت إلى وجهه الذي خلا من ملامح الحنان والرفق التي اعتادتها منه، وتأمّلت الأخاديد
التي كونتها أنهار الدمع في التراب الذي غطى وجنتيه، لم يكن هذا الذي أمامها هو ناجي الذي
تعرفه سابقاً، الشاب الفرنسي المدلل المندفع حد التهور، بل كان شخصاً آخر، ربما تألفه، لكنها
تشعر كما لو كانت تراه لأول مرة.

قالت بصوت مهتز: كان على أن ألتقيك بأي ثمن.

قال وغضبه يتصاعد: أخبرتك في الرسالة بالطريقة التي تتصلين بها بي.

جف حلقها تماماً، وبات قلبها كورقة بالية، ولأول مرة تشعر أمامه بالتردد، وبأنها عاجزة
عن قول شيء.

كيف يمكنها أن تخبره بأنها لم تقرأ الرسالة؟

كيف تخبره بأنها لم ترها من الأساس؟

كيف يمكنها أن تخبره بأنها لم تعرف قصة عمر الكيلاني إلا من وقت قريب للغاية؟
 وهل سيصدقها؟ هل تخبره بما فعلته سعاد بها؟ أم تعتبر ما حدث عقاباً ريانياً ورسالة تنبيهها
 بحجم ما اقترفته في حق زوجها؟
 فاجأها بسؤاله: أين مروان؟
 أجابت بصوت مرتبك: في المركز.
 فقال آمراً: ستعودين الآن إلى المركز.
 هتفت: سأبقى معك.
 صرخ في وجهها صرخة فتت شجاعته وأسالت مدامعها: ستعودين الآن وبلا أي
 اعتراض.
 قالت بصوت مشمت وهي تبحث عن سبب لتبقى: ولكن.. الناس بحاجة لمساعدة، ولن...
 قاطعها بلهجة صارمة وهو يمسك بكتفيها: لين، أسمعيني؟
 صمتت لحظة وهي تنظر إليه برجاء، ثم قالت بضعف: نعم.
 قال وقد انخفضت حدة غضبه: أتريني؟
 انتبهت أخيراً لذلك الشرخ العميق الذي يملأ نفسه، فهي لم تحاول أن تسمعه يوماً، بل لم
 تكن تراه، لم تشعر بمشاعره ولم تنظر يوماً داخل قلبه.
 لكن اليوم صار كل شيء مختلفاً، الآن هي تراه وتستمتع إليه جيداً، وتشعر بما يشعر به،
 فأجابت بصدق ودموعها تسيل: نعم.
 هدأ صوته وقال ببطء: جيد، والآن ستعودين إلى المركز.
 انتحبت وهي تحاول الاعتراض: ولكن...
 قاطعها مرة أخرى بصرامة: أنا هنا، أفهمين؟
 أنا.. هنا..

أومأت برأسها بطاعة، فسحبها من كفها وأركبها في السيارة التي أتت بها، وأمر السائق أن يعيدها إلى المركز، فنادته برجاء قبل أن تنطلق السيارة: ناجي، أحتاج أن أتحدث إليك.
قال دون أن ينظر لها: عندما أعود ربما نجد بعض الوقت لننتحدث.

كانت تجلس في المركز تتمزق خوفاً وقلقاً، شعور ظنت يوماً أنها قد تركته خلفها بلا رجعة، لكن ها هي تكابده كأشد ما يكون، وما زالت تتساءل: أين ذهب كل الأحلام والتوقعات التي ظلت لفترة طويلة ترسمها في عقلها عن لقاءها بناجي؟

كانت تظن أنها ستفاجئه، لكن المفاجأة كانت من نصيبها هي، بل انقلبت إلى شعور قاسٍ بالرعب والخطر الداهم، بعد أن وصلهم في المركز خبر عبر اللا سلكي بان الطائرات عادت تقصف الموقع الذي هم فيه، وهناك إصابات بين رجال الدفاع المدني.

همّت أن تهرول ثانية إلى الموقع، لكن عبد الله ومروان منعاهما، وتراجعت عن فكرتها عندما تذكرت غضبة ناجي.

استطاع عبد الله أن يطمئنها على ناجي عندما تأكد عن طريق سؤاله لرجاله باللا سلكي، وعلم أن ناجي لم يصبه مكروه، فهدأت لين قليلاً.

وقضت الوقت في التعرف على الدور الذي يقوم به المركز، وأعمال فرقة الإنقاذ التي انضم إليها ناجي، أخذت تتأمل شعار الدفاع المدني، وصور عمليات الإنقاذ، وأخذت تقرأ قصاصات الصحف المعلقة على الجدران.

خبر عن منظمة (رايت ليفيلهوود) السويدية تمنح جائزة نوبل البديلة لأصحاب الخوذات البيضاء.

وخبر آخر عن دعم الناس لها للترشح لنيل جائزة نوبل.

وخبر عن فوز فيلم صُور عن المنظمة بجائزة الأوسكار.

ثم أخبار عن أرقام وإحصائيات عديدة لم تكمل لين متابعتها، والتفتت إلى عبد الله الجالس خلف المكتب، وسألته: هل حقاً فاز فيلم وثائقي عن المنظمة بالأوسكار؟

أجاب بسخرية مريرة: نعم، ولم يستطع أحد من المنظمة استلام الجائزة، فقد كنا تحت القصف، ولا يمكن لأحدنا مغادرة سوريا بعد أن أوقفت حكومة الأسد جوازات سفر كل من يعمل بالمنظمة.

وتنهد قائلاً: في كل الأحوال، لا يعني هؤلاء الذين يهتمون بالشاشات أكثر من حياة البشر.

إن ما نحتاجه حقاً هو جائزة لإيقاف القصف، أو لمنع الموت.

رغب الكثيرون في ترشيحنا لنيل جائزة نوبل، أما أنا فقد بُتُّ أساءل: ما حاجتنا لنيل جائزة هي في أصلها عبارة عن غسيل أموال لرجل اخترع أكثر الأسلحة قتلاً على وجه الأرض؟ صمت لحظات، ثم قال: سامر كان سعيداً للغاية بخبر الأوسكار، كان يهتف ضاحكاً كالأطفال:

«أخذنا الأوسكار يا أبو وليد».

يعشق الصحافة برغم أنه كان يعمل بناءً قبل الحرب، ويجاهر بأنه كان يتمنى أن يكون صحفياً.

جلست لين في المقعد المقابل للمكتب، وسألته: هو من جمع كل تلك الأخبار عن المنظمة؟ كان الرجل الأربعيني الذي نبتت الشعيرات البيضاء بين شعره الأسود يتحدث بهدوء يكتنفه الحزن، وكأنها يحمل أطناناً من الهموم فوق كتفيه: نعم، كان يجيد اجتذابنا بالحديث وقت الراحة، ويرتب لنا الأخبار كأفضل معد لنشرة الأخبار، ثم يلقيها علينا وهو يقلد أحد المذيعين في القنوات الإخبارية.

كان يحلم بتكوين جهاز إعلامي للمنظمة يعمل على أعلى مستوى، كان يمارس عمله في الإنفاذ، ثم يقوم بجمع الفيديوهات التي صورها الناس أثناء عمليات الإنفاذ ليصنع أرشيفاً وثائقياً للمنظمة.

ترقرقت عيناه بالدموع، وانكسر صوته: عليه رحمة الله.

صدمتها الكلمة رغباً عنها: استشهد؟

أكمل بصوت يملؤه الحزن: وترك من خلفه طفلة.. ورضيعاً..
 نهض من مكتبه مقاوماً انهيار دموعه، ثم أشار إلى القصاصات على الجدار: ١٥٨ لقوا
 حتفهم تحت القصف، وهم يسابقون الموت لإنقاذ الأرواح من تحت الركام.
 القصف لا يمتنع حتى عن سيارات الإسعاف، ولا عن فرق الإنقاذ.
 محمد.. ترك عزاء أخيه وأسرع ليبحث عن أحياء تحت الأنقاض.
 أيمن.. دفن زوجته وفي اليوم الثاني أنقذ شاباً من تحت الركام.
 حتى الحزن، لم يعد له وقت هنا، وطالما اشتد القصف فسندفن جثث أحببتنا ونحن نخرج
 الأحياء من تحت التراب.
 انتفضت فزعة على أصوات الانفجارات التي صارت أقرب، وبدأت تتمم بكل دعاء
 تذكره أن يحفظه الله ويرده إليها سالمًا.
 قال عبد الله: كلما بدأت غارة أنساءل متى تتوقف.
 متى يتوقف كل هذا؟!

لم تكن تتوقع أن يواصل الليل بالنهار ويبقى في موقع القصف حتى اليوم التالي، ولكن عبد
 الله بدا معتاداً على ذلك، وقد كان يطمئنهما بما يستطيع من كلمات.
 وعندما جَنَّ الليل، أوصلها إلى بيت قريب من المركز، وأخبرها أنه سيرسل ناجي إليها
 بمجرد أن يعود من مهمته، وأوصى بها الجارة التي تسكن فوقها، ولقد رحبت بها بحفاوة،
 وأهدتها صينية عليها ما قسمه الله لها من طعام استطاعت الوصول إليه تحت ظروف الحصار
 القاسية، وشكرتها لين من قلبها، وقد عرفت منها بأن هذا البيت لأحد شباب الدفاع المدني،
 وطمأنتها السيدة ألا تقلق من قطع الكهرباء ليلاً، فهم معتادون على ذلك، حتى تظل البيوت
 مظلمة فتضلل الطائرات، وزودتها ببعض الشموع والكبريت.
 لم تمس لين صينية الطعام، بل أشعلت الشموع، وبقيت تدور في البيت قلقاً، والخوف
 يأكل قلبها، وهي ما بين صلاة وابتهاال أن يرده الله سالمًا، حتى مطلع الفجر، وبمجرد أن أدَّت
 الفريضة سمعت طرقاً على الباب، ففتحت بسرعة لتجده أمامها..

وكان روحها كانت هائمة ورُدَّت إليها..

وعلى ضوء الشموع، هالها ما تراه في عينيه من نصب وتعب وحزن وألم، أرادت بشدة أن تضمه في صدرها، لكنه تركها ودخل البيت يجر أقدامه، وجسده يترنح من الإرهاق، حتى ارتقى على أقرب مقعد إليه، وخلع خوذته فتساقطت ذرات التراب من رأسه على كتفيه.

لا قيمة للكلمات وهو على حالته تلك، فأسرعت إلى المطبخ تسخن الماء وتعد الحمام، ثم سحبته من يده بصمت ليتلقى حمامًا دافئًا يزيل عن جسده التراب والقاذورات والتعب والإرهاق، وبعدها جلس على الأريكة، فقربت إليه الطعام، وقالت: يجب أن تأكل.

نظر إليها متسائلًا، فأخبرته أن جارتها هي من أحضرت صينية الطعام.

قال بصوت متعب: لماذا أتيت إلى هنا؟

- لأراك.

- كان لديك الوقت الكافي للاتصال، وقد أخبرتك أنني سأعود إذا ما احتجت إليّ.

- ما كسرت له لا يمكن إصلاحه بمكالمة هاتف.

- لماذا تتعمدين دائمًا تجاهل ما أقول؟

حاولت أن تقول شيئًا، لكنها أخفقت في اختيار أي كلمة مناسبة.

سألها السؤال الذي كانت تحشاه: ماذا فعلت في الجامعة؟

ارتجف جسدها وتوترت بشدة، كيف لها أن تخبره بأنها أخفقت في اجتياز المستوى؟

لكنه فهم ذلك من صمتها وتعبيرات وجهها.

أطرق برأسه أسفًا، فلم تستطع أن تمنع دموعها..

لقد خذلته..

قال بيأس: يبدو أن الفشل في كل شيء يخصك سيظل ملازمًا لي.

لقد فشلت في اكتساب ثقتك، وفشلت في الفوز بمحبتك، وفشلت في إخبارك بالحقيقة..

وها أنا ذا أفشل في تحقيق حلمك..

داهمها الألم، ولم تستطع أن تقول شيئاً، لكنه قال: لا أدري ما الشيء الصحيح الذي يمكن أن أفعله لجلب لك بعض السعادة..

تأملت ملامح وجهه، وحارت كيف ترد على كلماته..

كيف يمكنها أن تقنعه بأن مجرد جلوسه أمامها الآن سائماً معافي هو أكثر ما يجلب لها السعادة في هذه الحياة؟

مسحت دموعها، وهمست بصوت باكٍ: غَنّ..

ظن أنه لم يسمعها جيداً، فتساءل: ماذا؟!

كررت برجاء: غَنّ، لا شيء يبدد وحدتي، ويطمئنني، ويدفع روحي، سوى دندناتك..

قال بصوت يائس: كيف أغني؟

الأطفال لا يتسمون.. لا يكون.. ما حدث اليوم يحدث كل يوم..

نحيا في عالم بشع، يجعل الطفل يشيخ قبل أن يولد..

زميلي الذي أصيب اليوم، له طفلة تنتظره، أي شيء في العالم قد يعوضها عن فقد أبيها؟

صاحب هذا البيت الذي استضافنا فيه، فقد زوجته من أيام، وأرسل طفليته عند أم زوجته، وصار المركز هو ملاذه..

أتدري ما الأبشع من الموت؟ أن تُخرج من تحت الركاب طفلاً فقد جزءاً من جسده..

هل يمكنك تخيل أن طفلاً يكمل حياته بلا ساقين؟ أو بلا عينيْن؟ أو طفلاً فقد كل عائلته وصار يتيمًا بلا دعم أو حماية؟

قالت بيقين: سيقبض الله له من يحميه، كما سخر له من ينقذه.

نظر إليها بأسى، فأكملت مؤكدة: أنت أكثر من يدرك هذا.

تجاهل مقصدها، وقال مبدلاً الحديث: غداً ستسافرين إلى تركيا، ثم تعودين إلى باريس.

هزت رأسها نفياً، وقالت باعتراض: سأبقى معك.

استغفزه اعتراضها، فقست لهجته: ستفعلين ما أقول بلا اعتراض، لا مكان لك هنا.

قالت بإصرار: بل لي مكان، أستطيع تقديم الكثير من المساعدة، لقد عملت في الإسعاف من قبل.

سألها بقسوة: هل أنت طبيبة؟

تلجلجت: لا، ولكن...

- نحتاج إلى أطباء، كان من الممكن أن تقدمي المساعدة لو أنك أصبحت طبيبة، والآن لديك عمل في فرنسا لا بد أن تتميه، ولن تعودني إلى هنا قبل أن تصبحي طبيبة.
بكت بشدة وانتحبت: لا، لن أرحل.

سحبها من يدها وأمسك بوشاحها الملقى على الأريكة، وألقاه إليها وهو يقول بحزم:
ارتدي وشاحك، سترحلين الآن مع مروان قبل بدء الغارات مجددًا، أفهمين؟
صرخت في وجهه وهي تبكي: لن أذهب، لن أبعد عنك.

أسقط في يده، وعجز عن الاستمرار في إيلاها: لن أستطيع أن أتقبل فكرة وجودك وسط
الخطر، لن أتحمّل أبدًا خسارة فقدك.

لم تهدأ روحها إلا عندما ضمها لصدره، عندها فقط اطمأنت أن قلبه صار ملاذها الوحيد،
فهمست في أذنه: لن أستطيع الابتعاد عنك.

في هذا اليوم هدأ القصف، ونام ناجي لساعات طويلة، يعوض بها الإرهاق الشديد الذي
نال منه في اليومين الماضيين، وبقيت لين إلى جواره تراقب ذلك الذي يخاف عليها أكثر من
روحه، تتأمل الكدمات والجروح والخدوش التي ملأت كتفيه وصدره، مسحت بأصابعها
كفيه اللذين فقدوا نعومتها السابقة، وصارا خشنتين تمتلآن بالندوب والجروح، فانسابت
دموعها بصمت حتى لا توقظه من نومه، وهي تقبل كفيه وأصابعه بحب، وعندما صافحت
عينها وجهه، وجدت عينيه تتطلعان إليها بحب، ثم ضمها إليه بشوق، وأخذ يمسح دموعها.
تسلل الفرح إلى قلبيهما، وقد التقى كل منهما برفيق روحه.

أشرق وجهه أخيراً بابتسامته المميزة، فامتلاً قلبها بالسعادة، وهي تقول مازحة: هل عليّ أن أقول لك كم أحبك؟ أم أنك ستعي ذلك وحدك؟

- أتبخلين بها عليّ؟

- ليت لدي جمال صوتك فأغنيها لك.

أدرك أنها تلاعبه، وتحاول جاهده دفعه للغناء مجدداً، لكنه قال: هذا لن يغنيني عن سماعها من بين شفقتيك.

فشلت خطتها، لكنها حاولت من جديد، فقالت: ما أوسع الغابة وسع الغابة قلبي..

لم تنجح في دفعه للغناء، لكنها نجحت في رسم ضحكة كبيرة على محياه، وسعادة أكبر في قلبه.

في اليوم التالي كان عليه التوجه إلى المستشفى لزيارة ذلك الرضيع الذي أخرجه من تحت الأنقاض، وسعد بتحسن حالته، وبنجاته من الموت، وحمله بين ذراعيه وأخذ يلاعبه، ولين تتأمله بحب كبير، وأدركت أن محاولاته الدائمة في البحث المستميت عن رابط يربطه بالرجل الذي أحبه أكثر من أبيه، قد أفلحت أخيراً.

اتجه ناجي بعد ذلك إلى دار الإيواء التي سماها باسم لين، وبمجرد أن رآه الأطفال أقبلوا جميعاً إليه، والتفوا حوله يرحبون به بحب، وهو يداعبهم ويمزح معهم، كانت لين تراقب حركاته وأفعاله بدقة، وهي تبحث عن سر تلك الجاذبية المفرطة التي يتمتع بها ناجي عند الأطفال، وأدركت أنها ليست وسامته ولا صوته..

بل هو قلبه..

يستطيع الأطفال بسهولة التفرقة بين المحبة الحقيقية والزائفة..

رحبت بهما رزان، فقال لها بود: أود أن أعرفك إلى لين.

قالت لين: تعارفنا من قبل وصرنا صديقتين.

قال ضاحكاً: أتيت متأخراً كالعادة.

سألته رزان باسمه: أخبرني، كم رزان أنقذتها من تحت الركاب بالأمس؟

فرد بصوت يغمره الحنان: أخبريني أنت، كم طفلاً حفظ سورة جديدة اليوم؟
كانت لين تراقب حديثهما الودود، والدمع يتجمع في عينيها، يستعد في أية لحظة للهطول،
لكنها تماسكت حتى عادا إلى البيت، وعجزت عن كتمان الدمع الحبيس في عينيها عندما فاجأها
ناجي بقوله: ما رأيك أن تزوري حمص؟

قالت وصوتها مختنق بالدموع: هل ستغضب إن أخبرتك أنك مجنون؟
قال باسمًا: أظن أنني اعتدت ذلك.

قالت بجدية: لا يمكنني تحمل مجازفة أن أكون سببًا في فقدك أو اعتقالك، التنقل في أراضٍ
يسيطر عليها النظام به مخاطرة كبيرة.

قال: اطمئني، سأحسب حساب كل شيء، وسأدبر أمر الرحلة جيدًا.
قالت بحب: ناجي، لست مدينًا لي بشيء.

قال مؤكّدًا: إنها محاولة أخيرة، ربما نجحت في أن أفعل شيئًا يدخل إلى قلبك السعادة.
احتضنها بشوق، وطال صمتها ليدعَا فرصة لحديث القلوب.

حتى هزم فضولها صمتها، فسألته: أخبرني، هل أنا حقًا أشبه عمر الكيلاني؟
ضحك: انظري في المرأة وستدركين ذلك بسهولة.

شاركته الضحك: ألهذا أحببتني؟

- إن أمك أشبه بأخيها منك.

لم تعد ذكرى أمها تمثل لها ذلك الألم القاتل كالسابق، بل صارت وهي بصحبة ناجي ذكرى
عزيزة تستعيد بها بحنين.

قال لها: كان عمر الكيلاني لا يؤمن بالزواج إلا من سورية.

هزت رأسها بفهم: فكل سورية بالنسبة له قديسة.

إذن، ربما لأنه أورثك حب السوريات.

- بل لأنني عشقت عينيك.

- هل كنت تبحث فيهما عن أمك التي لم ترها أبداً؟
- لن أستطيع مجاراتك، فأنت أشد من التقيتها عناداً، ولكن أخبريني، لم أتيت خلفي؟
- لأنك صرت لي وطناً
- مست الكلمة روحه، وفجرت في قلبه ينايع الحنان، فاحتضنها بشغف، وكأنها يريد أن تختلط بأضلعه.
- سألته: لم تعد إلى فرنسا مع خالد؟
- تنهد بعمق وأجاب: لقد عشت ثلاثين عاماً من عمري معتقداً أنني فلسطيني مطرود من أرضه، وبعد أن عرفت أنني سوري، ليس عليّ أن أحيا ثلاثين عاماً أخرى لأدرك أن هذا الوضع لا يجب أن يكون.
- انسكبت دموعها، فمسح على ظهرها مواسياً، فسألته: أتؤمن حقاً بأننا يمكن أن نعيش يوماً ها هنا بسلام؟
- قال باسمًا: أسألي جان، فهي تعتبر عمر الكيلاني بطلاً، لأنه انتصر عليهم في النهاية، وعاد إلى بلاده التي طُرد منها.
- قالت بآلم: عاد جثة ليدفن فيها.
- قال: لم يكن يستطيع أن يحلم بأن يمس تراب الوطن، لكنه عاد رغم كل شيء، وصار له قبر فيه.
- لم تعد ذكرى جان تحك قلبها بالغيرة كالسابق، وهو يكمل: دائماً ما تقول لي جان بيقين: ما تراه الآن سيتغير، لا شيء سيبقى على حاله..
- سينتهي الديكتاتور بأي طريقة كانت..
- لم يخلد ديكتاتور أبداً في التاريخ..
- لا في فرنسا، ولا في روسيا، ولا في أمريكا الجنوبية..
- وكذلك لن يبقى في سوريا..

- ولكن.. بعد كم من الضحايا، وبكم من الألم..

- الألم قدر على كل من يتغني الحرية..

كل ما نستطيع الآن بعد أن سُدَّتْ أمامنا كل السبل، هو أن نحافظ على حياة الجيل الذي يلينا، حتى إذا ما تحررت بلادنا يومًا، يكون لهم وطن، ويبقى للوطن من يبنيه من جديد.

بعد أيام قليلة..

انطلقت بنا السيارة نحو حمص، بعد أن أصر ناجي على أن أراها مهما كانت الظروف.
استجاب ناجي أخيرًا وبعد إلحاح شديد لرجائي بأن يغني لي الأغنية التي أبكت عمر
الكيلاني يومًا.

عاد صوته الشجي في السيارة يملأ أذني وقلبي، وسالت دموعي وجَدًّا، والكلمات تمس
قلبي:

إن طال بعدي عنك يا بلادي والنوى..

وحرمت شم الورد والياسمين والهوا..

فسيبقى ذكرك عاليًا طول المدى..

شلت يميني إن نسيتك يا بلادي..

باتت السيارة على أعتاب حمص..

سأرى أخيرًا موطني..

عاصمة الثورة..

ربما أبقى.. ربما أرحل..

ربما أعود ثانية.. أو لا أعود أبدًا..

لكن الحقيقة الوحيدة التي بُتُّ أؤمن بها..

أنه سيبقى لنا هنا وطن، وإن لم تعانق أعيننا سماءه، وإن لم تحتضن أنوفنا رائحة ترابه..

سيبقى لنا هنا وطن، وإن غُصِبنا على ألا نعود إليه..
 سيبقى لنا هنا وطن يعود إليه أبناؤنا ولو بعد عشرات السنين.. وإن مِتْنَا ويُلِي منا الجسد،
 فسيحمل دائماً رفاتنا رائحة تلك الأرض..
 وهنا..

ستبقى الثورة..
 وإن دفنت تحت الركام..
 ستبقى شرارتها حارّة مشتعلة..
 تنتظر من ينفخ فيها روح الحرية، لتندلع جحيمًا يحرق الطغاة..
 أينما يكن هناك طغاة..
 فستبقى دائماً هناك ثورة..
 وسيبقى دوماً من يثور..

(تمت بحمد الله وفضله)

الخميس ١٢ أكتوبر ٢٠١٧

٢٢ من المحرم ١٤٣٩ هـ

الساعة ٥.١٠ مساءً